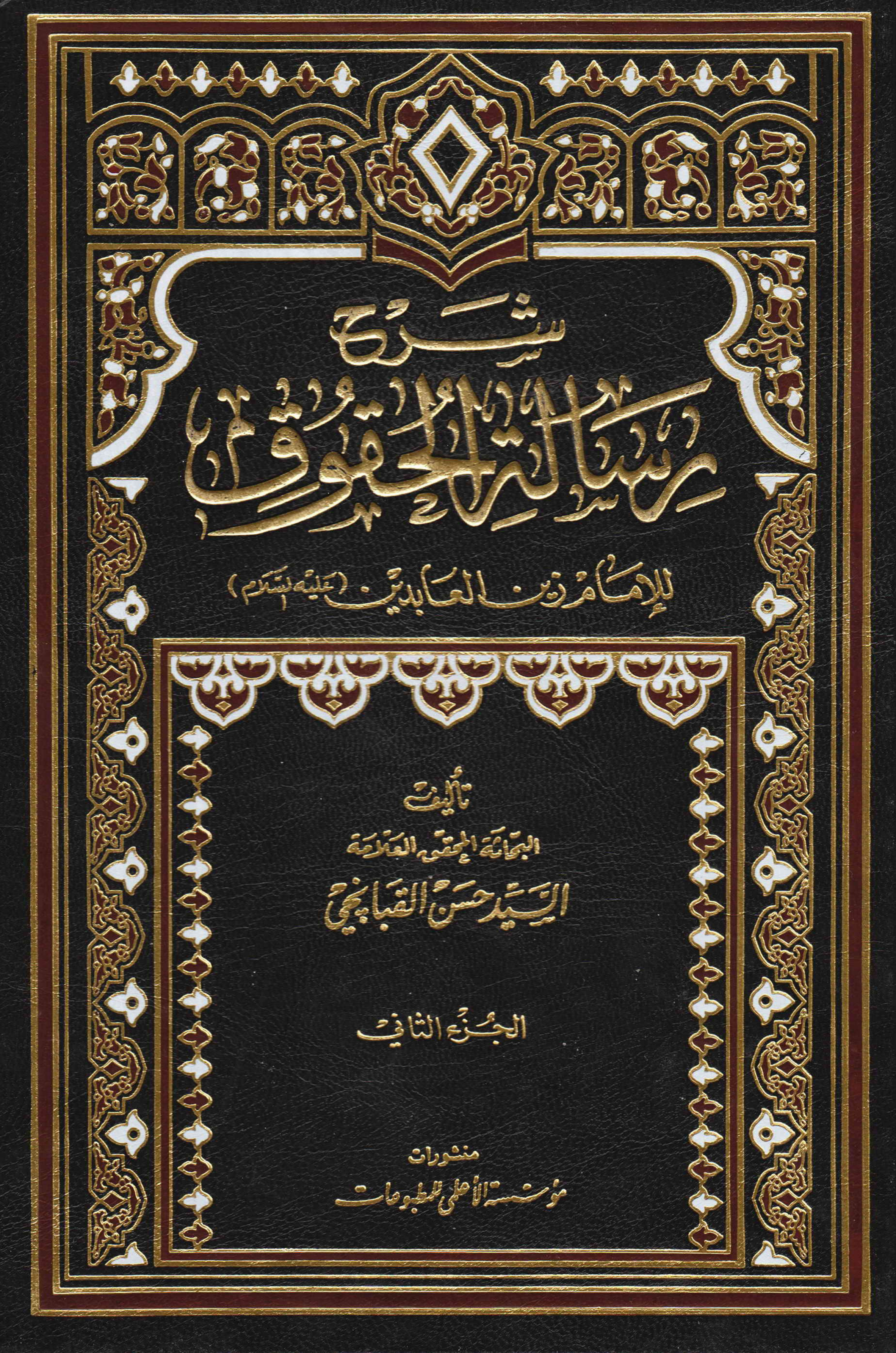

شرح
رسالة الحقوق
للإمام زين العابدين (عليه السلام)
تأليف
البحاثة المحقق العلامة
السيد حسن القبانچي
الجزء الثاني
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

شرح
رسالة الحقوق

للإمام زين العابدين (عليه السلام)

تأليف

البحاثة المحقق العلامة

السيد حسن القبانچي

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
ملك الأعلمي - ص.ب ٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس: ٤٥٠٤٢٧ / ٠١

Published by Alaalami Library
Beirut Lebanon P.O Box 7120
Tel - Fax : 450427
E-mail:alaalami@yahoo.com.



بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهُمَّ إنّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوْابِ بِمَنِّكَ حَمداً لَكَ يٰا رَبِّ عَلىٰ ما مَنَحْتَ مِنَ التّوْفِيقِ لِخِدْمَةِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ مُحَمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمَيامِينِ الْبَرَرَةِ الَّذِينَ أَذْهَبْتَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرْتَهُمْ تَطْهِيراً.





بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ تفضل به آية الله العظمى

السيد محمد الجواد الطباطبائي التبريزي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله الأئمة المعصومين.

وبعد، لا يخفى أن سعادة الإنسان وحياته المادية والروحية وقيمته في سوق الاعتبار، إنما نيطت بأصول ودعائم ومعارف ومعالم متخذة من الكتاب والسنة والدعوة النبوية والشرعة المحمدية، وبيان أوصيائه المعصومين المشار إليهم في قوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». هي التي تتكفل بتلكم الغايات، وتوجه البشر إلى الحياة السعيدة والإنسانية السامية، وتحدو إلى سبل السلام ومهيع السعد الخالد، ولا يتأتى شيء من ذلك بالمزاعم، ولا يتطرق إليه بالوهم والخيال، ومرجع ذلك كله إلى مراعاة أمور أربعة التي جعلها الله سبحانه وتعالى، سبب فلاح الإنسان وخروجه من الخسران الملتصق بذاته إلى الربح الخالد، وقد أشار إليها في سورة العصر بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وأهم هذه الأمور بعد الإيمان بالله، رعاية الحقوق والمحافظة عليها. ولذا لم يرض سبحانه وتعالى برعايتها في حال الحياة فقط، بل ندب إلى المحافظة عليها حتى عند الممات، بالوصية للأهل وغيرهم حيث قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي بالصبر عليه، ومن هنا لا تجد شراً يقع، أو فساداً ينتشر، أو تفسخاً في الأخلاق يوجد، أو حروباً طاحنة تحدث بين الحكومات، أو قنابل ذرية تصنع، إلا من أجل تعدّي الحدود والخروج عن المحافظة على رعاية الحقوق، فلو روعيت الحقوق لما ملئت السجون بالمجرمين، ولا قطعت يد السارق ولا جلد الزاني ولا قتل القاتل. فجميع هذه المفاسد وليدة إضاعة الحقوق والإهمال فيها، وغير خافٍ أن الحكمة البالغة والموعظة الحسنة والعلم النافع والعرفان التام والخلق الأسجح والمعالم والمعارف والظرائف

والطرائف والغرر والدرر والأنوار والأزهار والعدل والصدق والورع والتقى والحق والحقيقة والأصول والفروع المتبعة والحكم والآثار والكلم الطيب والقول البليغ والمنطق السليم والصوب المستقيم والرأي الصائب والفكرة الناضجة كلها في مقال إنسان أو تأليف مؤلف يغترف من بحار علوم آل الله ويقتبس من تلكم الأنوار ويتخذ من معادنها، ويقتفي آثار أولئك الأئمة، ويرى السعادة والفوز والفلج في الاقتداء بهم والاستنارة برشدهم والمضي وراء ضوئهم، فالمتكلم بغير هداهم أخبط من حاطب ليل يخبط خبط عشواء، ويخلط الحابل بالنابل. والمصلح بغير هديهم متطلب في الماء جذوة نار، والعارف الناسك بغير مناسكهم يتيه في وادي السدر، والسائر إلى الله بغير سيرتهم، يضل عن رشده ويقوده الهوى السائد ويستحوذ عليه الشيطان، ويجر عليه الويلات ويدخله إلى حضيض التعاسة ومأزق الشقاء ويسفه إلى العار والشنار.

ثم إن معرفة هذه الحقوق واكتناهها، والإحاطة بها جمعاء خارجة عن وسع البشر ودائرة إمكانه، فلا بد أن يتلقى ذلك من مصدر النبوة أو ممن هو داخل في هالتها، وهذه الحقوق وإن كان بعضها مذكوراً في القرآن الكريم وفي ضمن الآثار النبوية إلا أنها لم تكن كلها بل بعضها أو جلها.

نعم، بيَّنها بقضها وقضيضها وليد النبوة الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه وعلى آبائه آلاف التحية والثناء في رسالة الحقوق المروية في كتبنا المعتبرة، ولما لم تكن هذه الحقائق الناصعة والجواهر الثمينة في مستوى أفهام العامة وسواد الناس، وكانت تحتاج إلى شرح وإيضاح ليكون للعامة منها حظ ونصيب، فقام بذلك ولدنا العزيز قرة عيني سيادة العلامة الفذ العالم الفاضل الخطيب الشهير المصلح السيد حسن القبانچي، أدام الله تعالى تأييده، ولقد شمر عن ساعد الجد والإجتهاد وسهر الليالي، وواصل نهاره بليله وأتعب نفسه في شرح هذه الرسالة بألفاظ موجزة، وعبائر سهلة، حتى أخرجه إلى إخوانه من رواد الحقيقة، وطلاب الفضيلة، بهذا الثوب القشيب، فجزاه الله تعالى أحسن ما يجزي مؤلفاً عن مؤلفه، وسدد خطاه في خدمة العلم والفضيلة ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان.

محمد الجواد الطباطبائي التبريزي

كلمة المؤلف

كان إقبال القراء الذي صادفه الجزء الأول من شرح هذه ـ الرسالة ـ، المتفجرة من بحر علم الإمام الزاخر، مشجعاً لي على تأليف (الجزء الثاني).

وكان اغتباطي بالصدى الذي عاد إلي من إخواني الأفاضل، الذين تفضلوا بتقريظ ذاك، ومن القراء الذين شرفوني برسائل الثناء، مخففاً عني كل عناء، في تأليف هذا، فشكراً لهم جميعاً.

وقد علم القرّاء أن موضوع الكتاب الأول، شرح وتحليل لهذه الرسالة النيّرة من الوجهتين المادية والعقلية، لكي تنجلي كما هي وكما نراها.

وهذا الجزء مكمل للجزء الأول، وكلاهما متلازمان تلازم الروح والجسد.

وهنا أعيد ما ذكرته في مقدمة الجزء الأول، من أن هذا المؤلف في جزأيه ليس إلا شق طريق للبحث في موضوع هذه الرسالة الوعر، الذي لم يتصد له كاتب عربي وغير عربي فيما أحسب، عسى أن يتحمس من هو أغزر علماً، أو أقدر للبحث فيه، في أسلوب أعلى، ويغوص في أعماق حقائقه أكثر.

وكذلك أنوّه إلى ما نوهت به في مقدمة الكتاب الأول، من أني بذلت الجهد في أن أجعله بسيط العبارة، سهل المأخذ، منطقي التبويب والتفصيل.

هذا منتهى ما جادت به دراستي ومطالعاتي، توخيت به خدمة هذه الرسالة القيمة الخالدة، فإن لقيت هذه الخدمة قبولاً وكانت ذات نفع، كان قبولها وتأثيرها خير جزاء لمعاناتي، وإلا فأسأل الله أن يلهم من هو أكثر أهلية لهذا العمل ليقوم بهذه الخدمة العلمية.

حسن السيد علي القبانچي النجفي
النجفي النجف الأشرف
١٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٦ هجـ




حَقُّ المُنْعِمَ بِالولاءِ

قوله عليه السلام :

«وَأَمّا حَقُّ المُنْعِمِ عَلَيْكَ بِالوَلاْءِ، فَأَنْ تَعْلَمَ أَنّهُ أَنْفقَ فِيكَ مَالَهُ، وأَخْرَجَكَ مِنْ ذُلِّ الرِّقِ وَوَحْشَتَهُ إِلىٰ عِزِّ الحُريّةِ وَأُنْسِها، فَأَطْلقَكَ مِنْ أَسْرِ المُلْكَةِ، وَفَكَّ عَنْكَ حَلقَ العُبُودِيّةِ، وَأَوجدَكَ رَائِحَةَ العِزِّ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ سِجْنِ الْقَهْرِ، وَدَفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ، وَبَسَطَ لَكَ لِسَانَ الإِنْصَافِ، وَأَباحَكَ الدُّنْيا كُلَّها، فَملّكَكَ نَفْسَكَ، وَحَلَّ أَسْرَكَ، وَفرغَكَ لِعبادَةِ رَبِّكَ، وَاحتَمَلَ بِذٰلِكَ التّقْصِيرَ فِي مالِهِ. فَتعْلَمَ أَنّهُ أَوْلَى الْخَلْق بِكَ بَعْدَ أُولي رَحِمكَ فِي حَياتِكَ وَمَوْتِكَ، وَأَحقُّ الْخَلْق بِنَصْرِكَ وَمَعُونَتِكَ، وَمُكاتَفَتِكَ فِي ذَاتِ اللهِ، فَلا تُؤْثِرْ عَلَيْهِ نَفْسَكَ ما احْتاجَ إِلَيْكَ» .






المدخل

في هذا المجال حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير. حملة هادئة الإيقاع، ولكنها متعددة الأوتار، ليست في جلجلة الأنغام والرعد، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس.

إنها تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر، والعقل ليتدبر.

أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب، مختلفة الايقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق، والقلب الميت، والحس المطموس.

«هذا هو الإمام السجاد في دروسه الرائعة، في مناهجه القويمة التي تصلح البشر في سره وعلانيته، وفي سكونه وحركته.

في أبطن البواطن من ميوله وعواطفه وخلجاته وانفعالاته، وفي أظهر الظواهر من أخلاقه ومظاهره وأعماله وأقواله.

في ركائز تربيته ومناهج تثقيفه وطرائف تعليمه.

في وشائجه المختلفة، ووظائفه المتنوعة.

في عبادته لله حين يعبد، وفي سعيه في الحياة حين يسعى، وفي صلته مع الناس إذ يتصل، وعزلته عنهم إذ يعتزل.

في حبه وكراهيته، ورضاه وغضبه، وعداوته وصداقته.

في خصومته حين يخاصم، وسلمه حين يسالم، وفي مناهج حكمه وموازين حربه وسلمه.

في مزرعته وهو يزرع، أو في مصنعه وهو يصنع، أو في متجره وهو يتجر، أو في حرفته وهو يحترف، ثم في جهده وهو يجهد، وفي راحته وهو يستجمّ.

في صلته بالمالك إذا كان عاملاً، ورابطته بالعامل إذا كان مالكاً، وبالعملاء إذا كان ممتهناً.

في أواصره مع أرحامه الأدنين ومع أصدقائه الأقربين ومع شركائه في الأسرة وزملائه في العمل، ثم مع إخوانه في الدين، وأكفائه في البشرية.

وفي الحقوق التي تجب عليه لأي واحد من أولئك كلهم والواجبات التي تثبت له عليهم، والضمانات التي تصان بها الحقوق والواجبات.

هذا هو الإمام (زين العابدين) في مناهجه القويمة، التي تصلح البشر في كل أنحائه، وتصف له العلاج الواقي من كل أدوائه، وتسدّ كل ضرورة له في الحياة، وتجيب كل تطلع في الفطرة وتروي كل غلة.

هذا هو الإمام (زين العابدين) في مراميه البعيدة من وراء تلك العقائد ومن وراء تلك المناهج، مراميه العالية التي تمكن لغايته الكبرى.

في إعلاء هذه الحياة، وتطور شؤونها وترقية فنونها وإصلاح حركاتها وفتح مقفلاتها.

وإن إسعاد البشر والارتفاع بمكانته، والتحليق بفرده ومجتمعه إلى المنزلة السامية الكريمة، التي أُهل لها لما استخلف في هذه الأرض واستعمر فيها.

لما جعل السيد المطاع، والرئيس المرموق على ظهر هذا الكوكب. لما أودعت فيه هذه النفخة من روح الله، وهذه القبسة من نوره. لما كرمه الله وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

إن إسعاد البشر والارتفاع به إلى المنزلة الخطيرة، يفتقر إلى تفقيهه أسرار هذه الرسالة وتبصيره مدارج الرقي فيها، ووضع يده على مفاتيح كنوزها ومقاليد رموزها، وهذا ما دأب فيه (الإمام عليه السلام) وبذل له أقصى جهده، وأناط به وفرة كبيرة من تعاليمه.

هذا هو (الإمام زين العابدين) في رسالته القويمة الجليلة، التي تجري مع الفطرة في بساطتها ومع البرهان في قوته، ومع حقائق الكون في ثباتها واضطرادها، فلا تعتاص على الذهن البدوي البسيط، ولا تضوى في الفكر الفلسفي العميق، ولا تلتات

على أي باحث مهما كان وعيه ومهما كانت طريقته، مهما كان وعيه في الإدراك ومهما كانت طريقته في الاستنتاج، وشريطة أن لا يحمل فكره على نتيجة مقتسرة، أو يلجئه إلى غاية مبتسرة، وشريطة أن يؤثر الحق في بحثه، وأن ينصف العقل في اقتناعه.

هذا هو الإمام (زين العابدين) في رسالته التي تمتد آثارها إلى كل وصية من وصايا الدين، وتنفذ أضواؤها إلى كل خليقة من خلائق المسلم، والتي تصوغ المؤمن حق الإيمان مخلوقاً جديداً، لا يعرف الكسل ولا الفشل ولا التردد ولا الالتواء، بل كلها للجديد وكلها للحزم وكلها للاستقامة وللفضائل البناءة وللسعي المبارك المثمر»[١].

هذا هو الإمام علي زين العابدين عليه السلام يتكلم ويرشد إلى سوي الصراط في شتى مجالات الحياة.

فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا الإمام المخلص. ما أحوجنا إليه في هذا اليوم الذي بلغت فيه القلوب الحناجر، وبلغ السيل الزبى، وطغى الجرح بصديده فتعفنت كل أجهزة الجسم وتسممت مشاعره.

ارتسمت على العيون غشاوة، وعلى الأفئدة بلادة، وعلى العقول سنة، وعلى العواطف تصلب، وعلى الهواجس مسكنة.

ذهب مكظومنا بنار وجده، ومدركنا بلهب معرفته، وعالمنا بشواظ علمه، وجاهلنا بدياجير ظلمته، وظالمنا بزهوه وكبريائه وتهتكه.

أصبحنا كغارق تتلقفه الأمواج العالية، تثيرها زوابع عاتية، فإذا ما رفعته موجة فابتدره الأمل ساخت به إلى قاع البحر موجة أُخرى.

من لنا بتعاليم كتعاليمه وحكم كحكمه، وتجرد كتجرده، وعدل كعدله، نرشف منه معين الحرية، ونستنشق منه عبير المساواة بحق تقرير المصير على صعيد التحرر غير المجزوء المائل بالعدل والحق.

* * *

ترجع أهم حقوق الإنسان العامة إلى حقين رئيسين: المساواة والحرية. وقد ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة، أن العالم الإنساني مدين لها بتقرير هذين الحقين.

---

(١) محمد أمين زين الدين.

فذهب الإنكليز إلى أنهم أعرق شعوب العالم في هذا المضمار!!.

وزعم الفرنسيون أن هذه الاتجاهات جميعاً كانت وليدة ثورتهم. وأنكرت أُمم أُخرى على الإنكليز والفرنسيين هذا الفضل وادعته لنفسها.

والحق، أن الاسلام هو أول من قرر المبادىء الخاصة بحقوق الإنسان في أكمل صورة وأوسع نطاق، وأن الأمم الإسلامية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده كانت أسبق الأمم في السير عليها.

وهذا الإمام (زين العابدين عليه السلام) حكيم يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه، ويضرب على الوتر الحساس في قلبه، ويخاطبه بقدر، يخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه.

حكيم يربي وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم، ويقرر للحياة نظاماً، كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم.

وهذه رسالته ـ رسالة الحقوق ـ القانون الخالد ـ تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية. حقائق تفتح للعقل والقلب آفاقاً عالية وآماداً بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب، ومبادىء التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها مئات المرات.

وسوف يرى القارىء في ـ هذا الكتاب ـ بالنصوص الحاسمة أن آخر ما أملت فيه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري، كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الإنسان الكبير والرسول الخاتم ـ محمد بن عبد الله ﷺ ـ ولو أن أحد علمائنا الأقدمين تناول هذا الموضوع ـ بما أنسناه من نفاذ بصر وسناء روح ـ لكان لتأليفه شأن آخر...

***

في الشريعة الإسلامية طريق واسع إلى العتق، قصد التخفيف للكثرة الهائلة من الرقيق، الذين قد يكون وجودهم على تلك الصورة من العبودية وصمة في جبين الإنسانية.

وعده أول واجب إنساني بهم، والرحمة والحنو عليهم، والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم، ودفع ما ينزل بهم من ضرر وجور، ومحاولة الترفيه عنهم بكل وسيلة.

هذا ما فرضه الإسلام وجعله سبيلاً إلى رضوان الله ومحبته. فالله يرحم من عباده الرحماء. فإذا تحجرت القلوب، وغلظت الأكباد، وتنكرت للقيام بهذا الواجب الإنساني، كان ذلك إيذاناً بأن هؤلاء القساة ليسوا أهلاً لأن ينتظموا في سلك السعداء. يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» ويقول: «ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم».

فالإسلام كثيراً ما ندب إلى العتق وفك رقبة العبد من الرقّ، حيث يعرف مدى لذة الحرية في كل نفس، ويعرف أن الحرية لدى الإنسان (كل إنسان) هي الشيء الوحيد الذي لا يعدله شيء.

فهي أعز شيء على الإنسان، وإذا كان هذا الشيء بهذه المنزلة، فماذا يجب أن يكون من الحق لمن سبب هذه الحرية، وكان طريقاً إليها. فحقه إذن عظيم أيسره الشكر والإخلاص والولاء له وعدم التنكر، ومكاتفته في الله، ومؤاخاته ومناصرته عند الشدائد والملمات.

والإمام عليه السلام هنا يلفت أنظارنا إلى قيمة الحرية، وأنها هي الدنيا كلها، في قوله: «وأباحك الدنيا كلها فملكك نفسك» ويتضح من هذا القبس المنير أن من لا يملك نفسه ليس يملك من الدنيا شيئاً. وما الدنيا تجاه ملك النفس وحريتها إلا شيء ضئيل.

الحرية

ونعني بها كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصه، وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد.

وعلى أساس هذه الحرية يملك كل إنسان أن يقيم حيث يشاء، وأن يسافر متى شاء، وأن يجتمع بمن يريد الاجتماع بهم، وأن يحوز من المال ما يكسب، وأن يحترف من المهن ما يهوى، وأن يباشر العقود التي يرى إبرامها ويفسخ التي يريد فسخها من بيع وشراء، وشركة ووكالة، وكفالة وإيجار. وذلك كله بداهة وفق قانون يمنع الضرر والعدوان، حتى لا يشتط أحد في استخدام حريته فيؤذي الآخرين، وينال من حرياتهم هم...

وهذه الحرية تبدأ من غريزة الشعور الايجابي بالذات ـ كما يعبر علماء النفس ـ ولذلك فهي أساس لضروب شتى من الحريات.

بل إن المفهوم السائد للحرية بين الجماهير يكاد لا يعدوها.

وضدها العبودية أو الاسترقاق الذي يفقد الإنسان فيه أهليته، ولا يملك زمام نفسه.

والله عز وجل خلق الإنسان كامل المسؤولية، وشرع له التكاليف الدينية، ورتب عليها المثوبة والعقوبة، على أساس إرادته الحرة وامتلاكه المطلق للاتجاه ذات اليمين أو ذات الشمال.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[(١)]

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[(٢)].

وخطاب الله للمكلفين ما يصح أن يتوجه إليهم لولا هذه الحرية المقررة للإنسان، والتي هي نواة شخصيته المعنوية.

ثم إن الأصل في الأشياء الإباحة، ودائرة الحلال التي يمرح فيها الإنسان رحبة الأكناف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

وعندما تنظر إلى المحرمات التي حذر الشارع من مواقعتها، تجد طائفة محصورة من الأعمال الرديئة هي في حقيقتها ليست قيداً على الحرية قدر ما هي سياج لحريات الآخرين، أو إرشاد للإنسان حتى لا يستعمل حريته في إيذاء نفسه فموقف الشارع من الناس أنه:

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[(٤)]

هل لأحد بعد ذلك أن يقيد حرية الآخرين أو يسلبهم إرادتهم؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٢) سورة النجم، الآيات ٣٩ ـ ٤١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

لا. إلا أن يكون ظالماً يستمرىء العدوان، ويتطاول فوق أخيه الإنسان دون سبب ما.

ومن كشف عن حقيقة الحرية ستار الإجمال أشرف على أربع خصال مندمجة في ضمنها:

إحداها: معرفة الإنسان بما له وما عليه، فإن الشخص الذي يجهل حقوق الهيئة الاجتماعية ونواميسها لا يبرح في مضيق الجحر، مقيد السواعد عن التصرف حسب إرادته واختياره حتى يستضيء بها خبرة ويقتلها علماً، إذ لا يأمن أن تطيش أفعاله عن رسوم الحكمة والسداد، فيقع في خطيئة تحدث في نظام تلك الهيئة علة وفساداً، ولا يخالط الضمائر.

من هذا إن الحرية مقصورة على علماء الأمة العارفين بواجباتها، إذ للأميين منها مخلص فسيح، وهو باب الاستفتاء والاسترشاد.

قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

ثانيها: شرف نفس يزكي طويتها ويطهر نواياها من قصد الاعتداء على ما ليس يحق لها، فلا ترمي مهمتها إلا في موضع تشير إليه العفة ببنانها.

ثالثها: إذعان يدخل به تحت نظر القوانين المقامة على قواعد الانصاف، ويستنزله ريثما تحرر ذمته من المطالب التي توجه إليها باستحقاق.

رابعها: عزة جانب، وشهامة خاطر، يشق بها عصا الطاعة للباطل، ويدفع بها في قوة من يسوم عنقه بسوء الضيم والاضطهاد.

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

نستنتج من هذا البيان: أن الأساس الذي ترفع عليه الحرية قواعدها ليس سوى التربية والتعليم، فيتأكد على الحكومة التي تنظر إلى فضيلة الحرية بعين الاحترام أن تسعى جهدها في تهذيب أخلاق الأمة وتنوير عقولهم بالتعليمات الصحيحة.

فإذا أضاءت على الأمة شموس الحرية، وضربت بأشعتها في كل واد، اتسعت آمالهم وكبرت هممهم، وتربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة. ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم، فتتفتق القرائح فهماً وترتوي العقول علماً، وتأخذ

(١) سورة النحل، الآية ٤٣.

الأنظار فسحة ترمي فيها إلى غايات بعيدة، فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون مصالحها الحقيقية، ولا ينحرفون عن طرق سياستها العادلة.

فالحرية - القائمة على التربية الصحيحة - تؤسس في النفوس مبادىء العزة والشهامة، فإذا نظمت الحكومة منهم جيشاً، استماتوا تحت رايتها مدافعة، ولا يرون القتل سبة إذا ما رآه الناكسو رؤوسهم تحت راية الاستبداد.

ثم إن الحرية تعلم اللسان بياناً، وتمد اليراعة بالبراعة، فتزدحم الناس على طريق الأدب الرفيع، وتتنور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة، هذا خطيب يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. وذلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية في نصرة الحقيقة، ويحرك العواطف، ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة. وآخر كاتب، وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة.

أقسام الحرية

وقد قسم الفلاسفة الحرية إلى خمسة أقسام:

أولاً: الحرية الطبيعية المحصلة من طبيعة البشر، وهي حقوق الإنسان أن يستعمل مواهبه وقواه الطبيعية والأدبية، مما يرى فيه خيراً له كي يتمم ما خلق لأجله.

ثانياً: الحرية الجسدية وهي: القدرة على أن يعمل مطلقاً بلا عائق ولا حاجز، ويعاكس هذه الحرية الأمراض والعاهات والعبودية، وعدم المقدرة، والتحكم والشرائع والسجن.

ثالثاً: الحرية المدنية وهي: المعطاة لكل إنسان كي يستعمل حقوق الإنسان الطبيعية، موافقاً شرائع وعادات وطنه وهي تنحصر:

(١) في الحقوق الجسدية.

(٢) حقوق التملك الناتج عن حرية العمل.

(٣) حقوق النكاح والتربية والوصايا.

(٤) حرية الضمير، مثل حرية اختيار العمل المراد، التعليم، التملك، البيع، المبادلة، الهبة، الوصية... أي كل من يملك حقوقه الشخصية يقدر أن يعمل هذه الأعمال تبعاً لشرائع وطنه وعاداته.

والعبودية والرق ضد الحرية المدنية، حيث العبد، والرقيق مسيّر لا مخير أي

كمتاع لا كإنسان.

رابعاً: الحرية السياسية، وهي: حقوق التدخل في مهام الحكومة وقد انحصرت في حقوق الانتخاب ـ أي يمكن أن يَنتَخِب ويُنتَخَب، وفي حرية الطباعة، وفي حقوق الاجتماع، وفي حقوق الضرائب والشكاوى. فالمجرم بكل معانيه الاصطلاحية محروم هذه الحرية.

خامساً: الحرية النفسانية أو الأدبية: وهي استطاعة التصميم على أي عمل بعد فحص أسبابه ـ أي على اختيار واحد من المتضادين أو المتناقضين، وهذه هي موضوعنا.

كل عمل حر هو إرادي ولا يعكس ـ أي نريد أشياء كثيرة فلا نقدر على عملها غير أن كل عمل نأتيه بحرية هو إرادي. مثال ذلك الاحترام والسعادة.

الحرية الحقيقية «النفسانية»: هي اتباع العقل وطاعة الله والشرائع، والمحافظة على النظام واختيار أحسن الخيور ـ أي بمقدار ما يكون الإنسان تقياً وعاقلاً يكون حراً، إذ من صنع نقيصة فهو عبد لها. والعبد نقيض الحر.

ليس حراً من يرمي بدراهمه في البحر بل مجنون... وليس حراً من يخطىء ويعصي ويجرم بل هو عبد، وكل عاقل لبيب يفهم هذا لأنه واضح جلي.

الإنسان صاحب نياته، وضامن ما صمم عليه أي حر، التجارب أوضحت أن الإنسان المدرك العاقل هو صاحب نياته، وضامن ما صمم عليه، ولنا لتحقيق هذا شهادة الضمير وسلوك البشر، ونتائج نفي الحرية.

شهادة الضمير:

الضمير يخبرنا دائماً أننا أحرار، ويحقق قوله: إننا قبل العمل نفحص الأسباب والنتائج ونتشاور ونزن قبائح وملائح ذلك العمل بميزان العقل. وحين العمل نشعر دائماً أننا قادرون على إتمامه أو على الانقطاع عنه. وبعد العمل نشعر براحة أو بوخز الضمير: كل هذه الحركات توجب وجود الحرية، لأن الإنسان إذا رجع لحاله وفحص ضميره وجد نفسه حراً كما يرى نفسه عاقلاً.

شهادة سلوك البشر:

سلوك البشر في كل القرون يشهد ويحقق ويؤيد وجود الحرية النفسانية؛ إذ في

كل الأجيال كان لكل الأمم شرائع ومحاكم وجزاء وعقاب، وهذا كله يؤكد وجود الحرية، لأن الإنسان إذا كان مكرهاً على عمله لا يكون ضامناً له، وإن كان الإنسان ليس بضامن أعماله، فما وجود الشرائع والمحاكم والجزاء والعقاب؟؟؟.

أنكر بعض الفلاسفة وجود الحرية فكرياً، أما عملياً فكلهم يعترفون بوجودها، ويؤيدون ذلك بأعمالهم. وتاريخ حياتهم شاهد عدل.

شهادة نتائج نكران الحرية:

لو لم يكن الإنسان حراً، وكان ملزماً لعمله، لزوم النار الإحراق، لوجب حذف كلمتي الخير والشر، وكان وجود الجزاء والعقاب والحالة هذه هجنة، لأن من يأتي عملاً ما، وهو مكره لا يستأهل قيمته ولا يكون ضامنه أو كافله، لأنه لا يقدر أن لا يفعله ما دام الزجر خلفه والعمل أمامه. ونكران الحرية النفسانية يولد مساواة الفضيلة بالرذيلة، والعدل بالظلم، ويبطل الواجب ويكذب يوم الحساب وخير الحياة الخالدة - وهل بعد ذلك كله ضمير - ؟ فخراب الحياة الاجتماعية. إذن فالضمير وسلوك البشر ونتائج نكران الحرية المستهجنة، توضح لنا أن الإنسان صاحب نياته وما صمم عليه - أي إنه حر.

ناكرو الحرية النفسانية:

ناكرو الحرية قسمان كبيران: المعتقدون بالمقدر والمسيرون:

فالمعتقدون بالمقدر يقولون مثلاً: إن الله كتب لزيد أن يموت مسمماً فلو رمى بنفسه على جبل إلى قعر الوادي أو طرح بالنار أو الماء، أو عرض صدره لرصاص البندقيات وقنابل المدافع، فقطعت أحشاءه لا يموت، لأنه قدر عليه أن يموت مسمماً. وهذ المذهب ضد الضمير والعقل والرأي العام.

والمسيرون يعتقدون أن أعمالنا الإرادية مسيرة بشرائع الطبيعة البشرية وبسابق علم الله وبحكمه. لذا يقسم اعتقاد المسيرين لثلاثة: أولاً المسيرون الفزيولوجيون. ثانياً المسيرون البسيكولوجيون. وثالثاً المسيرون الثيولوجيون أو الروحيون.

أولاً: المسيرون الفزيولوجيون أو الماديون: يعتقدون أن الطبيعة البشرية، كالتربية والمزاج والعمر والبيئة والحرفة وحالة الدماغ والوراثة والصحة والمرض هي

السبب المسير للإرادة، لتختار ما تختار.

في الرد على هؤلاء نقول: نعم إن الطبيعة البشرية تعمل في الحرية الأدبية، غير أن الإنسان يقدر ـ بعد التجارب العديدة ـ أن يغير قسماً كبيراً من طبيعته البشرية بفضل الإرادة الفولاذية. مثلاً يقدر أن يضعف جسمه ويمرن مزاجه ويبتعد عما يرى فيه خلاف ما يراد، ويحترف ما يريد، ويتصور ما يحب... وهذا كله دليل بيّن على أن الإنسان حر.

ثانياً: المسيرون البسيكولوجيون: يزعمون أن الآراء لا تفضل شيئاً على شيء إلا بواسطة صفاته. فإن كانت هذه الصفات غير متساوية اختارت الإرادة القسم الأحسن، وإن كانت متساوية فتبقى مترددة حيرى لا تفضل قسماً على آخر، كحمار بوديدن الذي جعل أمامه باقتي عشب أخضر متشابهتين، فوقف بينهما ببعد متساو لم يفضل إحداهما على الأخرى حتى نهكه الجوع. (هذا برهان خرافي ضد الواقع).

نرد على هؤلاء أن صفات الشيء التي تجعلنا نختاره على غيره لا تجبرنا أن نريده، لأننا بنفس الوقت نقدر أن نختار الأقل صفات والأحقر قيمة، إذن الإنسان حر وصفات الأشياء لا تؤثر بحريته.

ثالثاً: المسيرون الثيولوجيون، أو الروحيون. يقولون:

(أ) إن الله يعلم ما سيحدث، وما يعلمه الله يجب حدوثه ضرورياً، إذن ليس الإنسان بحرّ.

الرد على هؤلاء هو: الله عالم البداية والنهاية ـ أي لا حاضر عنده ولا ماضي ولا مستقبل، إذ هو عالم مطلقاً ومشاهد ما نعمله. لكن مشاهدته إيانا لا تؤثر على أعمالنا، كما أن مشاهدتنا غيرنا لا تؤثر على أعمالهم: مثلاً لو شاهدنا اثنين يتضاربان فما تأثير رؤيتنا لهما؟؟ وإنه تعالى خلق الإنسان ووهبه وسائط لازمة لحياته وحريته وإرادته، فيقدر أن يأتي ما يريد، ويختار ما يشاء بحرية. إذن الإنسان حر.

(ب) ويدعي المسيرون أيضاً: أن الله يعين الإنسان بكل أعماله لبلوغه غايته المحبوبة، كل عمل بذاته، وكيانه صالح. مثلاً فعل الزواج بذاته وكيانه صالح ـ أي إذا كان شرعياً ـ فالزنى زواج غير شرعي ـ : أي غايته معاكسة للزواج الشرعي، وهذا شيء معلوم، والله يعين الإنسان بكل أعماله المنزهة عن الغايات، لأن الإنسان لا يقدر أن يستغني عن خالقه لأسباب يعرفها كل فطن، فالإنسان يقدر أن يجعل غاية عمله خيراً أو

شراً، إذن هو حر والله شريكه بأعماله كلها المجردة عن الغايات.

الحرية الأدبية لا تفارق الإرادة أبداً، وهي تبقى دائماً في الإنسان: أي لا قوة في الكون تسلب الإنسان حريته الأدبية الموصلة إلى أسمى الغايات، لأن الإكراه يكون للجسد فقط. فلا يجعل الإنسان يريد ما لا يريد رغماً عنه[١].

قال فريد وجدي: «عاش الإنسان دهراً طويلاً خاضعاً بحكم الضرورة لرؤساء يقيمهم قادة، ويضع حياته بين أيديهم، ويهبهم من التعظيم والإجلال ما لا يسمح بمثله إلا للآلهة. وقد عد كثير من الأمم ملوكهم آلهة: كقدماء المصريين واليابانيين وغيرهم. ولم يزل من المتوحشين من هم على هذه الخصلة إلى الآن، ولكن كلما ازداد رقي النوع الإنساني في مدارج العرفان، زاد معرفة بنفسه، وأنفة من أن ينقاد في أيدي طائفة من بني نوعه كما تنقاد الأغنام، وفزع إلى تحديد سلطة المسيطرين عليه. وفي تاريخ اليونانيين والرومانيين أمثلة من ذلك. ودامت هذه المنازعة بين الحاكمين والمحكومين قروناً عديدة، كان المستبدون يتلونون فيها للأمم بألوان شتى تارة باسم الحكومة، وطوراً باسم الدين. وكان ذلك كله وبالاً على الإنسان وقتلاً لأشرف خصائصه. وظل هذا التدافع بين الطرفين على أقصى حالاته، حتى جاءت الديانة الإسلامية فأنزلت الأعلين إلى مستوى العامة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣]. وبقوله (عليه الصلاة والسلام): «ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»».

وكان رسول الله ﷺ ذاته الأسوة الحسنة في ذلك، فكان يشاور أصحابه في الأمر ويعمل بإشارتهم ولا يقطع دونهم حكماً إلا وحياً[٤] فتربوا على ذلك... ثم بعده حصلت فتن قلبت الأمر ملكاً على النحو الشائع في العالم، إذ ذاك بالوراثة والتغلب، فعمل الملوك على قتل عواطف الأمة بالرشوة بالمال وبالجور والإخافة، بكل وسيلة، فسار العالم كله على هذه السيرة المظلمة، حتى هبت بعض أمم أوروبا لتحديد سلطة

---

(١) العاشر من مجلة العرفان.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٤) فرسول الله ﷺ أجل وأرفع شأناً من أن يعمل بإشارتهم، فكان هو وحده صاحب الرأي المصيب، فهو دائماً وأبداً في كل أحواله وأعماله يعمل برأيه، وما هو إلا أنه كان يتألفهم ويجمعهم ويعلمهم بذلك. =

ملوكها، منهم إنكلترا أولاً، ولم تزل مع ملوكها في نزاع من لدن القرن الخامس عشر حتى أيّد (كرومويل) قائد الحرية حق الأمة في القرن السابع عشر بثورته المشهورة. ثم قامت فرنسا سنة (١٧٨٩) م بثورتها الهائلة، فقضت على الاستبداد القضاء الأخير. وقلدتها أمم أوروبا واحدة بعد أُخرى. . . »[١].

جاء في (النظام السياسي في الإسلام) تأليف العلامة (الشيخ باقر القرشي) ما نصه: «الحرية في الإسلام تطلق تارة ويراد بها الخلوص من العبودية، فيقال: حر ـ أي غير مملوك ـ وأُخرى يراد بها الرضا والاختيار، فيقال: فلان حر في تصرفاته ـ أي غير مكره فيها ـ كما أنها تطلق ويراد منها تخليص النفس من الأوهام والخرافات كما يقال: فلان متحرر من الأوهام.

وقد بذل الإسلام جميع طاقاته على تحقيق ذلك، وعلى تنوير العقول بقوة الإيمان بالله، فإن المجتمع الجاهلي كان قبل بزوغ نور الإسلام أسيراً للعادات الخرافية والأمور الوهمية، فجاء الإسلام فحطم تلك القيود والأغلال، ودعا المجتمع إلى التحرر والانطلاق وإلى إيقاظ عقولهم وتحرير أفكارهم، وقد نعى على الذين يتبعون آباءهم ويقلدونهم في عاداتهم الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٢].

إن الحرية التي منحها الإسلام للإنسان ذات محتويات أربعة، ويتفرع على كل واحد منها أنواع مختلفة وهي كما يلي:

١ ـ حرية العقيدة:

إن الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها قد تبناها الإسلام ودعا إليها، وخطة الرسول الكريم ﷺ كانت هي إبلاغ مبادئه إلى المجتمع، فإن شاؤوا آمنوا بها وإن شاؤوا تركوها، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٣]. إن خطة الرسول ﷺ هي الأداء والتبليغ يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٤]. ويقول تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٠.
(٣) سورة الكهف، الآية ٢٩.
(٤) سورة الغاشية، الآية ٢١ و٢٢.

﴿بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(١)].

وليس على الإسلام من ضرر وبأس، إن أصر المنتسبون إلى المسيحية وغيرها على بقاء عقيدتهم، يقول تعالى مخاطباً لنبيه الكريم: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

إن الإسلام قد تبنى سياسة التسامح الديني مع كل الشعوب التي امتد إليها الفتح الإسلامي. يقول (جولد تسيهر): «سار الإسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بادعة، ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً، فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية كان في وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدول الإسلامية، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم، إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية، بل لقد ذهب الإسلام في هذه السياسة إلى حدود بعيدة، ففي الهند مثلاً كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل والمعابد في ظل الحكم الإسلامي».

ويذكر (دوزي) عن أهمية هذا التسامح في حديثه عن فتح الأندلس، فيقول: «ولم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل، أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحكمون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين... ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل، بل حمدوا للعرب تسامحهم وعدلهم، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج»[(٣)].

إن الإسلام ألزم المسلمين باحترام حق الغير في عقيدته، فليس لأحد أن يكره غيره على اعتناق عقيدة خاصة، وإذا أراد أن يعارضه في عقيدته فعليه أن يقنعه بالتي هي أحسن بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبين له الوجه في خطأ عقيدته عن اقتناع، فإن ثاب إلى الحق فذاك، وإلا فليس عليه الضغط ولا مجال لأحد حق استعمال القوة في هذا السبيل.

ومن مظاهر هذه الحرية التامة في المجال العقائدي التي أعلنها الإسلام، أنه لا يلزم غير المسلمين بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على واقع حياتهم، لا سيما في

---

(١) سورة ق، الآية ٤٥.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

(٣) مواقف حاسمة.

الأحوال الشخصية فإنهم يرجعون إلى أحكام دينهم في هذا الموضوع، ومهما يكن من أمر، فإن التاريخ لم ينقل أن الرسول ﷺ قتل كتابياً لأنه لم يسلم، أو عذبه أو سجنه أو منعه من التعبد على طريقته، نعم فرض عليهم الجزية وبعض الأمور الأُخرى التي ذكرتها كتب الفقه الإسلامي بالتفصيل. ويتفرع على حرية العقيدة ما يلي:

(أ) حرية الفكر:

وصف (ملتون) الشاعر الإنكليزي الشهير، الحرية الفكرية بقوله: «هي حرية اكتساب المعرفة، وحرية النطق بها وإعلانها ومناقشتها، حسب ما يمليه عليه الضمير، وهي فوق كل الحريات».

إن الإسلام بكل اعتزار وفخر فتح آفاق الكون أمام العقل ليتدبر ما فيه ويفكر في شؤونه، ودعاه إلى الانطلاق وإلى بث نشاطه وفعالياته، ونعى عليه الخمول والجمود، وقد استطاع رجال الفكر الإسلامي في هذا الجو العلمي ـ الذي فتحه الجو الإسلامي ـ الانطلاق في جميع ميادين العلوم، فكانت بغداد والكوفة ويثرب منطلقاً إلى البحوث الإسلامية وإلى المجادلة في علوم العقائد وغيرها حتى ازدهرت الحياة العلمية، وبلغ المسلمون الذروة في علومهم ومعارفهم.

إن الحرية الفكرية قد رفع شعارها الإسلام، لأنها المصدر الوحيد للتطور الفكري الذي هو أحد النواميس الأصيلة في هذا الوجود.

(ب) حرية التعبير عن الرأي:

إن حرية التعبير عن الرأي نطقاً أو كتابة متممة لحرية الفكر، ولكنها مشروطة بأن لا تكون منطلقاً إلى بث المبادىء الهدامة والأفكار المجافية لوحدة الأمة وتراصها، أو فيها إثارة للفتن أو القذف والتحقير لأي شخص أو جماعة. أو تكون منافية للأخلاق والآداب العامة فإن ذلك لا يسمح به الإسلام بأي وجه من الوجوه لأنه يؤدي إلى المفاسد والمشاكل بين صفوف المجتمع. إن الإسلام أباح حرية إبداء الرأي، وجعله حقاً طبيعياً لكل إنسان، فله حرية التكلم بما شاء، وحرية المحاجة، وحرية النقد للحكم القائم إذا شذ عن طريق الحق، ولكنه لم يسمح بأن تستعمل هذه الحرية في العدوان على الغير، يقول عبد القادر عودة:

«وحرية القول في الحدود التي وضعتها الشريعة تعود دون شك على الأفراد بالنفع والتقدم، وتؤدي إلى نمو الإخاء والحب والاحترام بين الأفراد والهيئات، وتجمع كلمة الأمة على الحق دون غيره، وتجعلهم في حالة تعاون دائم، وتقضي على النعرات الشخصية الطائفية».

إن الإسلام أكمل الحرية، وأضفى عليها أروع المعاني، حينما قيدها بعدم الإساءة إلى الآخرين، فقد حفظ بذلك توازن المجتمع ووحدة صفوفه، وقضى على جميع ألوان الشغب وضروبه.

٢ ـ الحرية السياسية:

إن الحرية السياسية جزء أساسي من الحرية الإنسانية، وقد عرفها (جون برجس) بقوله:

«الحرية السياسية أن يكون المرء عضواً فعالاً في الهيئة ذات السيادة، وفي الهيئة الداخلية بحيث تكون الفرصة متاحة له لأن تكون إرادته مسموعة، وأن يكون له أثر على سن القوانين ورسم سياسة للحكومة، وذلك باستعمال حقوقه في حرية الكلام وحرية اقتراح القوانين».

إن الإسلام منح الحرية السياسية للفرد، وألزم الدولة بتهيئة جميع وسائلها للمواطنين، ولكن الحرية في سن القوانين، ورسم سياسة الدولة ـ كما يراها (جون برجس) ـ لا توجد في ظل الحكومة الإسلامية الملزمة بأن تسير على ضوء الشريعة الإسلامية. وليس لأحد حق التدخل في سن القوانين وتشريعها، فإن الإسلام قد وضع جميع المناهج الحية للدولة، وأغناها عن سن القوانين واستيرادها. وعلى أي حال فإن الحرية السياسية يتفرع عليها ما يلي:

(أ) حرية الاجتماع:

جاء في إعلان حقوق الإنسان الدولي عن حرية الاجتماع ما نصه:

الفقرة (١) من المادة الحادية والعشرين: «إن لكل إنسان الحق في حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات السليمة».

إن حرية الاجتماع أمر سائغ في الشريعة الإسلامية، فقد ندبت إلى الاجتماع

وحثت عليه وأمرت به في جميع المجالات، ولكن يشترط فيه أن لا يكون مخلا بالآداب الإسلامية ولا منافياً للمصالح العامة أو يكون منطلقاً إلى الشهوات، فإن الإسلام لا يسمح بذلك ولا يسيغه، وذلك لما فيه من الأضرار البالغة على المجتمع.

(ب) تأليف الجمعيات:

لا مانع في الإسلام من عقد الجمعيات وتأسيسها، فيما إذا كانت جمعيات تعاونية أو خيرية، أو تطالب بالمصلحة العامة للبلاد، فإن ذلك من أهم الأهداف الأصيلة التي ينشدها الإسلام، أما إذا كانت تلك المؤسسات تتنافى مقرراتها ومبادئها مع الشريعة الإسلامية: كالمؤسسات الشيوعية التي تبث الأفكار الإلحادية بين صفوف المجتمع، فإن الإسلام لا يسيغها ويهيب بالمسلمين إلى الإجهاز عليها وإزالة آثارها من البلاد.

٣ ـ الحرية المدنية:

إن الحرية المدنية هي إعطاء الفرد الحرية التامة في مجال العمل والسكنى التي تتفق مع ميوله ورغباته، ونشير إلى ما يتفرع عليها وهي:

(أ) الحرية الشخصية:

ونعني بها حرية الفرد في اختيار العمل الذي يريده لكسب معيشته، فله أن يمارس الزراعة والتجارة وسائر الحرف والمهن، ما لم يكن ذلك العمل محرماً في الإسلام، كصنع آلات اللهو والدخول في معامل الخمر وغير ذلك من المحرمات فقد نهى عن مزاولتها.

كما أن له الحرية في اختيار من يشاء من النساء لتكون زوجة له على أن لا تكون من المحرمات، كالأخت والأم والبنت وما ماثل ذلك من المحرمات المنصوص عليها.

كما أن له الحرية التامة في اختيار العلم الذي يريد التخصص به، ولا يحق لأحد التدخل في أموره وقسره على شيء من هذه الأشياء.

(ب) حرية المسكن:

إن الإنسان حر في اختيار البلد الذي يقيم فيه، والمسكن الذي يريد أن يسكن فيه ما لم يكن ذلك البيت مغصوباً فإنه يمنع من سكناه.

إن له الحرية في سكنى وطنه والنزوح عنه إلى جهة أُخرى، وليس لأحد أن يرغمه على الإقامة في بلد خاص.

٤ ـ الحرية الاقتصادية:

إن الحرية الاقتصادية: هي إباحة تصرف الفرد في ملكه حيثما شاء، فله أن يمارس أي لون من ألوان التجارة والصناعة التي تزيد في اتساع ثروته، وعلى الدولة أن تقوم بحمايتها لتزدهر البلاد وتتقدم صناعتها وتجارتها، وقد حدد الإسلام الحرية الاقتصادية، وفرض عليها بعض القيود لأجل المصلحة العامة، وذلك كمنعه من الربا والاحتكار والاستغلال والغش وغير ذلك من الأمور التي توجب الضرر العام على المواطنين. ويتفرع على هذه الحرية:

(أ) الملكية الفردية:

ونعني بها حرية الشخص في استغلال ملكه والتصرف فيه حيث ما شاء، وقد حدد الإسلام حرية التملك، كما ذكرناه.

هذه بعض ألوان الحرية التي منحها الإسلام للإنسان، وقد سبق أوروبا في تأسيسها وإعلانها.

يقول الأستاذ (عبد القادر عودة): «لقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقرير نظرية الحرية بأحد عشر قرناً، لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فلم تكن هذه القوانين تعترف بالحرية بل كانت أقسى العقوبات تخصص للمفكرين ودعاة الإصلاح، ولمن يعتقد عقيدة تخالف العقيدة التي يعتنقها أولو الأمر.

هذا هو الواقع وهذه حقائق التاريخ، فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الأكذوبة الكبرى التي تقول: إن الأوروبيين هم أول من دعا للحرية، فليعلم أنها نشأت

من الجهل بالشريعة الإسلامية. وقد يعذر الأوروبيون عن هذا الجهل، أما نحن فلن نجد لأنفسنا عذراً[١].

(وغفر الله للشيخ الآصفي) حيث فاته الصواب وخانته ذاكرته، في كتابه (حقيقة الحرية) ذهب إلى أن (روسو الفرنسي) هو الذي غرس بذرتها وأثبت جذرها، ومن كشف الحقيقة علم أن الحرية هي أول ركيزة للإسلام، وأن محمداً ﷺ أول من أيقظ الناس على مفاهيمها الصحيحة، وبوحيها فصل وأجمل وأمر ونهى، وسالم وحارب، وعزل وأثبت، وبها خالط الناس وعاملهم. فما ذكره (الشيخ الآصفي) بعيد عن الواقع، ولعله كتب ما سنح له الخاطر قبل الرجوع إلى بعض النصوص.

(١) النظام السياسي في الإسلام.




حَقُّ المَولَى الجَارِيَةَ عَلَيْهِ نِعْمَتُكَ

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

«وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الجَارِيَةِ عَلَيْهِ نِعْمَتُكَ، فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ جَعَلكَ حَامِيةً عَلَيْهِ وَوَاقِيةً وَنَاصِراً وَمَعْقِلاً، وَجَعَلَهُ لَكَ وسِيلةً وسَبَباً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَحْجُبَكَ عَنِ النَارِ فَيكُون فِي ذَلِكَ ثَوابٌ مِنْهُ فِي الآجِلِ، ويَحْكُمَ لَكَ بميراثِهِ فِي العَاجِلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحِمٌ، مُكَافَأَةً لِمَا أَنْفَقْتَهُ مِنْ مَالِكَ عَليْهِ وقُمْتَ بِهِ مِنْ حَقِهِ بَعدَ إِنْفَاقِ مَالِكَ، فَإِنْ لَمْ تَخَفْهُ خِيفَ عَليْكَ أَنْ لاَ يَطيبَ لَكَ مِيرَاثُهُ. وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ».




التمس الإمام عليه السلام في فصوله هذه الحكميات، التماس الحكيم العارف، والنطاسي البارع، المشخص للداء، والعارف للدواء. لم تتصف حكمياته بالصفة المثالية المجردة، أو بالتجرد الصوفي البعيد عن واقع الحياة، بل جسد المعرفة لخير الإنسان في دنياه قبل آخرته، وفي مجال واقعه قبل مجال مثله، وجعل الإنسان محمولا على خيره وشره. والناس سواسية ـ وبذلك يرتضون حياتهم لأنهم سيحملون نفس الشعور بأفراحهم وأحزانهم، بآلامهم وراحتهم ـ ولكل قلب حرى ـ ومن يريد الحسنى من غيره فعليه أن يعامل بها.

وحسب علمنا، أنه لا يوجد ميزان واقعي يثبت على مدى وجود الإنسان في معاييره الخلقية والاجتماعية كميزان النفس، وهذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي عليه السلام ابنه الحسن: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين الناس فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضى لهم من نفسك».

أي منزع ينزع بنا، وأي محمل يحملنا العالم عليه إذا فرطنا بهذه المعالم الإنسانية الخالدة، وبهذه الحكمة البالغة وبهذا السمو الروحي الرفيع.

أي باحث اجتماعي نحا نحوه فأدرك سيره؟ وأي مصلح قد أدرك علمه وبلغ شأوه؟ وأي حكيم إنساني وصل إنسانيته وعطفه؟

❊ ❊ ❊

إن مثل الخدم والقوام من الإنسان مثل الجوارح من الجسد. وكما أن قوماً قالوا: حاجب الرجل وجهه، وكاتبه قلمه، ورسوله لسانه، كذلك نقول: إن خادم المرء يده

وساعده، لأن من كفاك التعاطي بيدك فقد قام عندك مقامها، ومن كفاك السعي بقدمك فقد ناب عنك منابها، ومن حفظ لك ما تحفظه عينك فقد كفاك كفايتها، فغناء الخدم للإنسان كثير، ونفع القوام إياه جزيل، ولولاهم لأُرتج دون الناس باب من الراحة كبير، ولانسد عنهم طريق من النعمة فسيح، ولاضطروا إلى مواصلة القيام والقعود وإلى مواترة للإقبال والإدبار، وفي ذلك إتعاب الجسد وهو يعد من أمارات الخفة ودلائل النزق وسبل المهانة والضعة، وفيه سقوط الهيبة وذهاب الرزانة، وطرح السمت والوقار.

فالجدير بالمرء أن يحمد الله عزَّ وجلّ على ما سخر له منهم وما كفاه، وأن يحوطهم ويتفقدهم ولا يهملهم ويرفق بهم، فإنهم بشر يمسهم من الكلال واللغوب ومن السآمة والفتور ما يمس البشر، وتدعوهم دواعي حاجاتهم وإرادات أجسامهم إلى ما في طباع البشر إرادته والحاجة إليه.

وكما جعل الله السيد قيماً على مولاه يقوم على تدبير أموره وشؤونه، ويشرف على تصريفها، وجعله حامياً وواقياً وناصراً ودافعاً عنه، كذلك جعل المولى وسيلة وسبباً بين السيد وربه، لأن السيد حين يعتق مولاه ينال بذلك رضا الله. فبالحري أن يكون هذا المولى سبباً لخلاص السيد من النار وفكاك رقبته منها، ويمكنه أن يحكم للسيد بميراثه إن لم يجد من يرثه بعد مماته كل ذلك مكافأة لما لاقاه من بذل ونصح وقيام بالحق.

فيجب على السيد أن يقوم بما للمولى من حق، وأن يخاف أن لا يطيب للسيد ميراث مولاه فتحل عليه النقمة.

هذا ما توصل إليه الذهن من كشف فقرات الإمام النيرة.

وطريق اتخاذ الخدم، ألا يتخذ الإنسان خادماً إلا بعد المعرفة والاختيار له، فإن لم يستطع ذلك فينبغي أن يعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم، وأن ينظر لأي أمر يصلح الخادم الذي يتخذه وأي صناعة ينتحل، وما الذي يظهر رجحانه من الأعمال فليسنده إليه وليستكفه إياه، ولا ينقله من عمل إلى عمل، فإن لكل إنسان باباً من المعارف وفناً من الصناعات، قد سمح له به طبعه وأفادته إياه غريزته، فصار لديه كالسجية التي لا حيلة في تركها والضريبة التي لا سبيل إلى مفارقتها، فمتى نقل المرء الخادم مما قد أحسنه وأتقنه إلى ما يختاره له برأيه وينتخبه له بإرادته، مما ينافي طبعه ويضادّ جوهره، فسد عليه نظام خدمته وأضله عن طريق مهنته، فعاد كالمبتدىء، ثم لا

يفيده ما نقله إليه إلا بنسيان أبواب ما نقله عنه، ومتى رجع به إلى الأمر الأول وجده فيه أسوأ حالاً ممّا نقله إليه.

ولا ينبغي أن يكون نكير الإنسان على الخادم، إذا أراد الإنكار عليه صرفه عنه، فإن ذلك من دلائل ضيق الصدر وقلة الصبر، لأنه إذا صرفه احتاج إلى غيره بدلاً منه وخلفاً عنه، وغيره مثله أو قريب منه. وإذا استمرت به هذه العادة أوشك أن يبقى بلا خادم، بل ينبغي له أن يقرر في قلوب خدمه أن أحداً منهم لا يجد إلى مفارقة منزله والخروج عن داره وكنفه سبيلاً، فإن ذلك أتم للمروءة وأدل على الوقار والكرم.

ثم إن الخادم لا يناصح ولا يشفق ولا يحامي ما لم يتحقق عنده، ويصح لديه أنه شريك صاحبه في نعمته، حتى يأمن العزل ولا يحذر الصرف، ومتى ظن أن أساس حرمته غير واطدة ووشائج ذمامه غير راسخة عند الذنب، كان مقامه على صاحبه كعابر سبيل، فلا يعنى بما عناه، ولا يهتم بما عراه، ولم يكن همه إلا ذخيرة يعدها ليوم جفوة صاحبه، ومتاعاً يرجع إليه عند نبوته وازورار جانبه.

وليكن عند المخدوم لخدمه دون صرفهم وإخراجهم منازل من الاستصلاح والتقويم، فمن استقام له بالتأديب عوجه واعتدل أوده فليشدّ عليه يداً، ويوسعه عند الزلة عفواً، ومن راجع الذنب بعد التوبة ونقض العهد بعد الإنابة فليذقه طرفاً من العقوبة، وليمسه بعض السطوة، ولا ييأس من رشده ما لم تنحل عقدة حياته، ومن عصاه معصية صلعاء أو جنى جناية شنعاء لا بقيا معها ولا في شرط السياسة اغتفارها، فالرأي للمخدوم البدار إلى الخلاص، وإلا أفسد عليه سائر الخدم.

وصفوة القول: إن الخدم هم المساعدون على الأعمال والمذللون طرقها والمعاونون على إنجازها. والوسيلة إلى إخلاصهم في الخدمة وتأديتها على أكمل وجه، معاملة مخدومهم إياهم بما يكفل لهم الخير، وهذه المعاملة تتلخص فيما يأتي:

(١) تعيين لعمل المكلفين بالخدمة القيام به بشرط أن يكون في طاقتهم.

(٢) إرشادهم إلى طريقة العمل المرضية ومراقبتهم حتى التنفيذ.

(٣) شكرهم عند الإحسان وتعنيفهم عند التقصير.

(٤) معاملتهم بالرفق واللين والعدل والإحسان.

(٥) نقدهم الأجر كاملاً في زمنه المحدود، وإعطاؤهم من حين إلى آخر ما تيسر زائداً على راتبهم، تشجيعاً لهم على الإخلاص في العمل.

(٦) مواساتهم في الشدة وعيادتهم عند المرض، ودعاء الطبيب لهم إذا ساءت حالتهم.

(٧) أن يكون المخدوم خير مثال يحتذيه الخادم في القول والعمل.

(٨) عدم إطلاعهم على الأسرار.

(٩) المحافظة على جعل الأموال والجواهر في حرز حريز ومكان مكين حتى لا يسهل عليهم اختلاسها.

(١٠) أن يرشدهم لمواقع الصواب وأصول واجباته وما ينبغي أن يتصف به، وأن يربيهم باللطف والحزم ولا يهينهم ببذيء الكلام وجافي اللفظ مما يجرح قلبهم ويذل نفوسهم، إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعاً ولا عرفاً.

(١١) أن يسمح للخادم بساعة في النهار يتروح فيها ويتمتع بشؤونه، وأن يجري عليه مرتباً يكفه عن التشوف لما قد يسرقه ويختلسه، فإن ما ينقصه السيد من مرتبه ربما اختلس من ماله، وأن يزيد في راتبه كلما رآه يزيد في صدق الخدمة وحسن المعاملة.

وقد كان آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال في شأن الخدم:

«اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم: أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله، فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم». وقال ﷺ: للمملوك طعامه وشرابه وكسوته بالمعروف، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق». وقال: «لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيىء الملكة».

وجاء إليه رجل فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت عنه ﷺ ثم قال: «اعف عنه كل يوم سبعين مرة».

ورأى أبو هريرة رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه، فقال له: يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو أخوك، روحه مثل روحك، فحمله، ثم قال: «لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى غلامه خلفه».

وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة، فلما أحضرهما أعطاه أرقاهما نسيجاً وأغلاهما قيمة، وحفظ لنفسه الآخر، وقال له: «أنت أحق مني بأجودهما، لأنك شاب تميل نفسك للتجمل، أما أنا فيكفيني هذا».

ودخل رجل على سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) فوجده يعجن، فقال له: «يا أبا عبد الله ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين».

ودعا الإمام زين العابدين عليه السلام مملوكاً له مرتين فلم يجبه وأجابه في الثالثة، فقال له: يا بني، أما سمعت صوتي؟ قال: بلى. قال: فما بالك لم تجبني؟ قال: أمنتك. قال: الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني. وكسرت جارية له قصعة فيها طعام فاصفر وجهها، فقال لها: اذهبي فأنت حرة لوجه الله.

وكان عليه السلام عنده ضيوف، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور، فأقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس بني كان لعلي بن الحسين عليه السلام تحت الدرجة فأصاب رأسه فقتله، فقال للغلام وقد تحير واضطرب: أنت حر فإنك لم تتعمده. وأخذ في جهاز ابنه ودفنه.

وجعلت جارية له تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها عليه فشجه. فرفع رأسه إليها فقالت له: **﴿والكاظمين الغيظ﴾**. قال: قد كظمت غيظي. قالت: **﴿والعافين عن الناس﴾**. قال لها: عفا الله عنك، قالت: **﴿والله يحب المحسنين﴾**. قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل.

وكان عليه السلام إذا دخل عليه شهر رمضان لا يضرب عبداً له ولا أمة إذا صدر منهم ما ينافي الحقوق الواجبة عليهم. ويكتب ذلك في طومار، وفي آخر يوم من شهر رمضان، يجمعهم ويقف في وسطهم ويقرأ عليهم ما حوته الصحيفة من إساءتهم، ويقول لكل واحد منهم: يا فلان إنك فعلت كذا في يوم كذا، حتى يأتي على آخرهم، فيعترفون به، ثم يقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا يا علي بن الحسين إن ربك سبحانه قد أحصى عليك كل ما عملت كما أحصيت علينا كل ما عملنا، ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وتجد كل ما عملت لديه حاضراً كما وجدنا كل ما عملنا لديك حاضراً، فاعف واصفح كما ترجو العفو والصفح من المليك. فيقول لهم: اذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي.

وما استخدم عليه السلام خادماً فوق الحول، فإذا ملك العبد أول السنة أو في أثنائها أعتقه في آخر ليلة من شهر رمضان.

جاء عن المعرور بن سويد قال: «رأيت أبا ذر الغفاري (رضوان الله عليه) وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فشكاني إلى

النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ثم قال: إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم».

إن أبا ذر (رضوان الله عليه) وقع بينه وبين شخص سباب ومشاتمة، وإنه عايره بأمه وعابه بها وقال له: يا بن الأعجمية أو يا بن السوداء، أو ما شاكل ذلك من الكلمات، فشكاه إلى النبي ﷺ فقال له الرسول: أعيرته بأمه؟ منكراً عليه ذلك، إذ الأم لا دخل لها في الخصام، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] وقال له إنك امرؤ فيك جاهلية ـ أي خصلة من خصالها التي قضى عليها الإسلام أن تعتدي في الخصام، ثم أوصاه هذه الوصية القيمة التي رفعت من شأن الخدم إلى درجة المخدومين والسادة.

فبين الرسول ﷺ أن الخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الإنسانية.

كان الظاهر أن يقول: خولكم إخوانكم، ولكن قدم ما أصله التأخير اهتماماً بالأخوة، وأنه لا ينبغي أن تنسيها الخدمة، وهل الخدمة إلا إعانة، فكيف تجعلها سبب تحقير وإهانة، إن الأخوة وحدها داعية التبجيل والإكرام، فكيف إذا انضمت إليها الخدمة والمعونة والمساعدة؟ كنت تحسب أنك تطعم الخادم وتسقيه وتكسوه وتؤويه أو تنقده أجراً على خدمته. فلا تنس أنه يقوم لك بأمور أنت مضطر إليها في حياتك، وكثيراً ما تعجز عن معالجتها، والقيام بها، فهو يكمل نقصك ويوفر عليك وقتك، ويحقق غرضك، وتصور الوقت الذي تفقد فيه الخادم كيف تعتل أمورك، ويقف دولابك، ويختل النظام وتتعسر الحاجات.

فالذي يكفيك شؤونك ويحقق مصالحك جدير بمعونتك، خليق برعايتك فهؤلاء الخدم الإخوان جعلهم الله تحت يدك، ومكنك منهم بالملك أو الأجر، وصاروا مسخرين لك طواعية واختياراً، فالواجب عليك العناية بهم والإحسان إليهم، ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2]، فتطعمهم من جنس ما تطعم، فلا تعد لهم طعاماً دون طعامك ولا عيشاً دون عيشك، وكيف تستمرىء طعاماً يطهوه الخادم ويعده وعينه إليه ناظرة ويده فيه

(١) الأنعام الآية، ١٦٤، الإسراء ١٥، فاطر ١٨، الزمر٧.
(٢) سورة النساء، الآية ٣٦.

عاملة، فتأكله كله ولا تبقي له بعضه، أما تخشى سم عينيه؟ فإن كان طبخك لحماً وأرزاً وخضاراً وحلوى فأبق له من كلّ ولا تحرمه من بعض، وخل عنك الكبر والتعاظم، فلولا هذا ما طعمت الشهي ولا شربت الهني، وكذلك تلبسهم مما تلبس، وإن لم يكن مثله من كل الوجوه فإن المدار على المواساة. وفي الحديث «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي علاجه».

وبالتالي أن تكون نفوسهم قانعة وبحالهم راضية. وقد نهانا الرسول ﷺ أن نكلفهم من الأعمال ما يشق عليهم، ويهد من قوتهم أو يستفرغ جهدهم، بل التكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم، فإن كلفناهم بالشاق وجب علينا أن نعينهم بنفوسنا أو بخدم إلى خدمنا. والحديث نصر للعمال وأخذ بيد الخدم والغلمان، ورفع لمستواهم وتنبيه لهم إلى حقوقهم قبل ساداتهم، وإرشاد لأرباب البيوت أن يقفوا منهم موقف العدالة، ولا يتناسوا رابطة الأخوة ولا تبادل المنافع. وفيه النهي عن السباب للخدم وعدم التعرض لآبائهم وأمهاتهم بما يسوءهم أو يحط من قدرهم.

* * *

«إذا كفى الخادم أحدكم طعامه فليجلسه ليأكل معه».

من هذا الذي يقتدي بمحمد في آدابه من أمة محمد؟؟ من هو هذا الذي يسمع قول محمد فيستجيب له؟؟ إن أحدنا وهو العارف بمحمد والقاصر في طعامه وشرابه على طعام وشراب الطبقة الوسطى أو دونها.

أقول: إن أحدنا كهذا، ولعله يصدق على مثلي أنا هذا المتبجح المدعي، بأنه من حملة رسالة محمد والداعين إلى سبيل محمد، أنا هذا المالىء شدقيه بالتنطع والتفيهق حاملاً على كتفيه وناشراً بين عينيه دعوة محمد إلى رب محمد، هل أمتثل لقول محمد، فأُجلس معي خادمي إلى جنبي حين أجلس إلى مائدتي ليأكل معي، وهو الذي عرق جبينه في إعداد طعامي؟؟؟

قد أغتنم فرصة خلو المنزل من أهلي، ويحين وقت الطعام فأجلس ومعي خادمي إلى المائدة نأكل معاً ونتندر ونتساير، ولكني أقطع الوقت عيناً إلى المائدة وأُخرى إلى الباب، خوفاً من مفاجأة أهلي وأنا على تلك الحالة، فلقد منيت بأهل لم يخلق الله مثلهم جبابرة في معاملة الخدم، إنهم يعتقدون أن الخادم لا يستقيم على عمله إلا

والصفعة في قفاه، وأنا أعتقد على النقيض منهم، إني أعتقد أن الحيوان فضلاً عن الإنسان، لا يخضع قلبه إلا إلى الإحسان، ولطالما أكبرت قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

قلت لمن يجادلني في هذا: لقد رأيت بعيني أهل بيت نبيل في شمال أميركا وأنا على مائدته، رأيت بعيني عبدة سوداء تأكل معنا وهي على قسط وافر من الحشمة وأناقة البزة، وعرفت أنها الطاهية، فقال هذا المجادل: رغم أني أحترم الحديث الشريف، لا أرى نفسي مرتاحة إلى مؤاكلة الخادم سيداً كان أو امرأة، كيف أُطيق أن أرى خادمي القذر الجاهل إلى جانبي وبين أهلي يؤاكلنا على مثل تلك الحال؟؟ وقلت: إذا كان الخادم قذراً كان المطبخ قذراً، وإذا كان المطبخ كذلك فأنت أقذر منهما، وكيف تأكل طعاماً يطبخه لك قذر أو قذرة؟؟

إن المطبخ عنوان صحة الأسرة في المنزل، والطباخ هو عنوان هذا العنوان.

نقلت لي من هي أخص الناس بي، وتكاد تكون من الطراز الأول في الجبروت على الخدم، نقلت لي: أنها كانت ترى في بيت جارنا خادمة تبلغ السبعين وهي دائبة العمل ليل نهار، والبؤس يكاد يغمر نواحيها جميعاً، رأيتها ليلة ما، تصيح وتستغيث تحت ضرب العصا المفجع من سيدها، حتى كادت هذه التي نقلت لي، أن تسقط على الأرض من هول ما ترى، قالت: فما لبثت أن قمت وصليت لله ثم دعوت على هذا الرجل فلقي أجله بعد أيام، فقلت لها: إن ذلك غير بعيد على الله، ورسوله يقول: «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب» وفي الأخبار الصحيحة أن الظلم ينقص من العمر.

ولقد رأيت في بيت صديق لي أحد أبنائه يمسك خادماً في مطلع شبابه على غاية من التهذيب والنصح لسيده، وكنت أغبط صديقي عليه، وكان هو نفسه يطريه أمامي، ورأيت ولده الكبير يمسك بتلابيب هذا الخادم وينهال صفعاً على رأسه بالحذاء، والخادم ينظر إلي بطرف منكسر، ويكاد الدمع يطفر من عين ابنتي التي كانت إلى جانبي ترى ما أرى وتألم كما آلم، وقد نقلنا ذلك لوالده فلم يأبه لما نأبه له، وإنما لحظنا أنه لا ينكر شيئاً من أعمال ولده، ولعله ينشطه على ذلك.

ونقلت لنا صديقة زوجة صديق طبيب يدعى محمد حياتي، وكنا في زيارته، نقلت لنا أن في جوارهم رجلاً مصرياً يدعي النبل قد استخدم فتاة واستدرجها للصبر

على أجرها سنة حتى أصبحت تدينه بعشرين جنيهاً، فتمسك إذ ذاك بسد أذنيه عن طلبها بغية بقائها مكرهة عنده، فاضطرت حينذاك إلى تركه وترك أجرها.

وهكذا ينقل أن أكثر هذه الطبقة التي يطلقون عليها لقب النبلاء، والطبقة التي تليها ألعن منها، يعاملون الخدم معاملة الكلاب، حتى أن النبيل يوسف كمال كان يقيم المأدبة لمائة أو أكثر من أمثاله ثم يؤتى بعدهم بالكلاب لتأكل، ثم يأمر الخدم أن يكفئوا بقية الطعام على عروق الشجر ويبقى الخدم بدون أكل، قال لي أحد ضيوفه من الشام: لقد قلت للرجل ما لهؤلاء الخدم لا يأكلون من طعامنا؟؟ فأجابني منكراً عليَّ ذلك وهو يقول: لا لا إن طعام هؤلاء الفول فقط، فإذا اعتادوا على أطايب الطعام تنكروا لنا. فليسمع من كانت له أذنان.

الحق أن كثيراً من الخدم يأنف سيدهم من الأكل معهم، ولكن الأنفة هذه ليست ناشئة عن قذارة الخادم أو شراهته أو شذوذه، وإنما هي ناشئة عن سوء تصرفنا في تربية الخدم وعدم تنشئتهم على النظافة والأناقة، واستخدام الأواني وآلات الأطعمة استخداماً مدنياً، ثم إجادة المؤاكلة لنا، وكل ذلك ناشيء عن احتقارنا للخدم واعتبارنا إياهم من رذال الخلق وسفلة الناس حتى شعروا بأنهم كذلك فأساؤوا تصرفهم معنا، وامتهنوا الخيانة في خدمتنا، فأصبحت السرقة ديدنهم وأصبح كثير من الجرائم يحدث في البيوت العريقة بين الخدم والسادة وأصبحت الصحف مجالاً واسعاً لعرض تلك الجرائم.

لم لا يكون الخادم واحداً من أهل البيت إذا طالت أيامه فيهم واستمر نصحه لهم؟؟ إن ابن مسعود وهو خادم الرسول ﷺ كان معنياً بالرسول، وكان الرسول معنياً به حتى عده خلصاؤه من جملة أصحابه الآخذين عنه والقائلين بلسانه، ولقد كان رفيقه وصديقه أكثر من أن يكون خادماً له، وكان ابن مسعود هذا يقول: والله ما سألني لماذا فعلت وهلا تركت كذا وكذا؟؟؟ وكان (صلوات الله عليه) يشاطر خادمه الركوب إذا سافر معه، وهكذا ورث أصحابه الأبرار عنه تلك الصفات الشريفة. أما الآن، ويا لله من الآن وبعد الآن ماذا جرى ويجري من السادة على العبيد، وما يجري من الأغنياء مع الفقراء. ثم ماذا يجري وسيجري من الأقوياء على الضعفاء؟؟؟

إن أهل بيت الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم في كتابه المنير، والذين جعلهم قريناً للقرآن في هداية البشر حيث قال الرسول: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» هؤلاء العترة الذين لا يزال ذكرهم

حتى الآن مقروناً بذكر الرسول وذكر الرسول مقروناً بذكر الله، وهذا الذكر من مقومات الصلاة التي هي الدعامة الأولى في تقويم الدين إذ جاء في الشهادتين قول المصلي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صلِّ على محمد وآل محمد. . . .» فالصلاة لا تستقيم إلا بذكر أهل البيت المعبر عنهم بالعترة حيناً وبآل الرسول وأهل البيت حيناً آخر.

أقول: إن هؤلاء العترة الذين هم أهل البيت، جعل الرسول منهم سلمان الفارسي إذ قال: «سلمان منا أهل البيت». وسلمان لو جردناه عن الإسلام لما زاد عن كونه رجلاً مهاجراً فقيراً متشرداً منبوذاً، فهل يكون من هذا شأنه أكرم على الرسول من خادمه؟؟ إنه لكذلك، ومع هذا عندما صح إسلامه وعندما فقه ذلك الإسلام فقهاً صحيحاً، لم يأنف الرسول ﷺ من وراء عروبته التي شمخت بغيره عن كل أعجمي، ومن وراء رسالته العظمى التي أناف بها على كل مسلم إنسان، ولم يأنف أن يجعل سلمان واحداً من نفرهم أكرم الخلق على الله وأكرم الناس على الناس.

«سلمان منا أهل البيت»، قالها الرسول صفعاً للعصبية الجاهلية، لم يأنف ﷺ أن يجعل من الأعجمي المشرد الفقير المغمور المجهول، واحداً يتصل بأهله الأدنين ويدخل في عداد عترته التي هي ثقل الله في الأرض، وصفوته من خلقه، فهل فعل هذا محمد تعزيزاً لسلمان وتنويهاً به؟؟ وهل كان سلمان أكرم على محمد من أبي ذر وعمار؟؟ كلا. . . إنهم جميعاً كانوا درعه ومغفره، كانوا حتى بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1) يرون أنهم من جوهر، وأصحاب محمد هؤلاء من حصباء.

بدأ الأمويون بعد الخلفاء الراشدين، يغذون تلك العصبية في النفوس المريضة، ونفوس العرب كانت حافلة بأمراض العنعنات والجبروت، لم يغذوا هذه النعرة حباً بالعروبة، ولكن كرهاً بمحمد وتحدياً لدينه الذي سوى بين الناس وجعل كرامتهم على الله التقوى، فعمدوا إذ ذاك إلى تشويه الرسالة العليا التي نزلت على محمد لتساوي بين خلقه وتجعل المثل الأعلى في الحياة رفق القوي بالضعيف والعالم بالجاهل والغني بالفقير، فنبذوا كل ذلك وجعلوا عنوان رسالتهم العروبة قبل كل شيء، وحصروا الخلافة في أعقابهم وجعلوها ملكاً عضوضاً، ثم عملوا على استعباد الشعوب

---

(1) سورة الحجرات، الآية ١٣.

الضعيفة حتى خلفهم العباسيون ثم الأتراك ثم الغربيون حتى يومنا هذا، فخلقوا بذلك الشيوعية التي ستقضي على العالم.

وهكذا نجد حتى يومنا هذا، وهو اليوم المشرق بالعلوم والفنون، وحتى في أميركا وهي أرقى أمم الأرض.

أقول: نجد حتى يومنا هذا في أميركا يستعبد الأبيض الأسود، ويسترق الغني الفقير، ويتعالى القوي على الضعيف، مهما سمت بالأسود إنسانيته على الأبيض، ومهما تعالت بالفقير أخلاقه على الغني، ومهما نبل الضعيف بأصالته على القوي.

أقول: هكذا نرى فعل الأمويين بعد الخلفاء الراشدين الذين ساووا بين الناس خلال بضعة عشر عاماً، والرسول بينهم يقول: «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

هذا الدستور العظيم الذي سنّه محمد ﷺ بوحي من ربه، لا يفرق بين أحد من خلقه، هو الذي ينطق محمد باسمه في قوله: «إذا كفى الخادم أحدكم طعامه فليجلسه ليأكل معه» جاء من بعده الأمويون يميزون الكافر على المؤمن والمشرك على الموحد باسم العنصرية والأنانية والجبروت»[1].

---

(١) دين وتمدين.




حَقُّ ذِي المَعْرُوفِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَأَمَّا حَقُّ ذِي المَعْرُوف عَلَيْكَ، فَأَنْ تَشْكُرَهُ وَتَذْكُرَ مَعرُوفَهُ وَتَنْشُرَ لَهُ المَقَالَةَ الحَسَنَةَ، وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيما بَيْنَكَ وَبينَ اللهِ سُبحَانَهُ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وَعَلانِيَةً. ثُمَّ إِنْ أَمْكَنَ مُكَافَأْتَهُ يوماً كَافَأْتَهُ، وَإِلاَّ كُنْتَ مُرْصِداً لَهُ مُوَطِّناً نَفْسَكَ عَلَيْهَا».

* * *




ينسب كثير من المؤرخين أن الفلسفة في الإسلام وليدة الترجمة في عصور لاحقة لمستهل الثورة الإسلامية، وذلك مما أُثر عن الإغريق والرومان، وما نقل عن الهند وفارس. وكأن التأمل والإدراك، والنظر والاستنباط بمعزل عن الرسالة المحمدية العلوية وعن العرب والإسلام.

وكأن الحكمة أن تركن إلى دير منعزل، أو تقبع في صومعة بعيدة تستطلع الغيب وتستوحي القدر، ثم تحبك النظريات الفلسفية بما يوحيه الخاطر بعيداً عن واقع الحياة، كما هي نظرية المثل عند أفلاطون أو إقرار سقراط بالظلم عملياً ودفعه نظرياً، عندما تقبل الحكم عليه بالموت ونفذه بنفسه، وكان له طريق للفرار وله أن يكافح في سبيل مثله الإنسانية في أي مكان يرتئيه وفي أي مجتمع يتقبله.

أفاض الفلاسفة فيما أفاء الله من الحكمة وسداد الرأي إلى تنظيم المجتمعات والأخذ بها إلى حيث الحق والخير بحكم صالحة تتمثل فيها العدالة الاجتماعية والرعاية المتبادلة. ومن أبرز من أعاروا المجتمع نظرتهم، الفلاسفة من الإسلام الذين تمخض عنهم عصر ما بعد الفتوح، وإن أول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي وتبعه الفارابي، وكانا من رواد الأفلاطونية الحديثة، ثم جاء إخوان الصفا وكانوا يعملون على تخليص الشريعة مما دنسها من جهالات وبدع. وأضراب هؤلاء كثير.

وقد اختار الفارابي في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) الملكية الدينية المنبثقة من أقوال الشيعة، وجمع بينهما وبين آراء أفلاطون في الجمهورية.

وكل ما أُثر عن سقراط عن طريق تلميذيه(زينوف في ذكرى سقراط) و (أفلاطون في المحاورات) وغيرهما من النظم الاجتماعية، ليقصر عما أُثر عن الإمام السجاد عليه السلام في رسالته هذه الذهبية وفي صحيفته المنعوتة (بزبور آل محمد)، بل لا مجال للمقارنة.

استطاع عليه السلام بذكائه الخارق، وببصيرته الفذة، وبمقدرته الفائقة على الإدراك

واستنباط الأسس، أن يجتهد في وضع مناهج صالحة لكل ظرف وزمان، تتمشى مع الشريعة بدون انفصال.

ولو أردنا استقراء ما وضعه في الاجتماع والأخلاق والتربية، لرأيناه يتمشى وأحدث الدساتير العالمية، إذا لم يبز الكثير منها نصاً وروحاً، لما يمتاز به من بعد في النظر وصدق في العدل.

كان يجسم ذلك ككيان مجتمع الأطراف، معقود الحواشي، حيث الإنسان الصالح للتطبيق الصالح، وحيث الفرد الصالح في المجتمع الصالح.

وكل جانب من رسالته الخالدة تستوحى منه الحياة بأجمل صورها، وها نحن نمر على لمحة وصورة من ذلك.

قوله عليه السلام: «وأما حق ذي المعروف عليك، فأن تشكره وتذكر معروفه وتنشر له المقالة الحسنة...».

المعروف اسم جامع لكل فعل يعرف حسنه بالعقل والشرع.

المعروف اسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه والإحسان إلى الناس في الواجب والمندوب.

المعروف ضد المنكر في معناه ومصداقه. والتباين بين المنكر والمعروف بنحو السلب الكلي من الطرفين، فلا شيء من المنكر بمعروف، ولا شيء من المعروف بمنكر.

المعروف صفة شريفة معروفة، والمنكر صفة رديئة منكرة.

يختص المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلاً، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلاً في فعل المعروف، لأنه خلو من الرجحان، وما لا رجحان فيه لا خير فيه، والمعروف كله خير، ويختص المنكر بالمحرمات شرعاً وعقلاً، فكل ما منع الشرع والعقل من فعله ففعله منكر.

وأما ما منع عنه الشرع والعقل على نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع وهو المكروه، فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف، وهو أشد خروجاً من المباح، والمباح لا يدخل في المنكر. وأما المكروه، فربما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرر فعله، وتفصيل ذلك في المباحث الفقهية.

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم، ولهم مكانة معروفة، وفي الحديث الشريف:

«من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه» وفيه: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف بالآخرة». ـ يعني كما أنهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة، يهبون حسناتهم لمن شاؤوا، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «يقال لهم في الآخرة: إن ذنوبكم قد غفرت لكم، فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة».

وفي حديث ابن عباس قال: «يأتي أهل المعروف يوم القيامة فيغفر لهم لمعروفهم وتبقى حسناتهم تامة فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له، فيدخلون الجنة، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة».

وفي الحديث: «ليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه». وفيه «ليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا اجتمعت الرغبة والقدرة والإذن تمت السعادة للطالب والمطلوب إليه».

وفي الحديث دلالة على أن الأعمال الخيرية تحتاج إلى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد على الحوض». وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة في سنام الجزور أو من السيل إلى منتهاه».

وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إلى الله لمن حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله». وقوله: «إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، إن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف» وقوله مخاطباً لزرارة: «ثلاثة إن تعلمهن المؤمن كانت زيادة في عمره، وبقاء لنعمته عليه.

فقلت: وما هن؟ فقال: تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته، واصطناعه المعروف إلى أهله». وقوله: «صنائع المعروف تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان».

وهذا يدل على أن فعل الإحسان إلى الناس والرفق بهم، سبب للوقاية من موارد الذل والهوان.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا

رسول الله فداك آباؤنا وأمهاتنا إن أصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم فبم يعرفون في الآخرة؟ فقال ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة أمر ريحاً عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمر أحد منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجدوا ريحه فقالوا هذا من أهل المعروف».

لذلك نرى الإمام (زين العابدين عليه السلام) أفرد لأهل المعروف عنواناً خاصاً، وجعل لهم حقاً وكرامة، فقال: «وأما حق ذي المعروف...» فحقه هو الشكر والاعتراف بالجميل، فالإنسان الصحيح كما يقولون ـ ينسى عيوب الناس ويذكر عيوب نفسه، وينسى إحسانه إلى الناس ويذكر إحسان الناس إليه، ليكون دائماً شاكراً معترفاً بالمعروف، ذاكراً إياه ذكراً طيباً أمام الناس ومن المعروف الدعاء له وهو من باب الشكر. وليس من المستحسن أن تذكر له ذلك، وإنما الخير أن تدعو له فيما بينك وبين ربك. وأن تعينه على بعض أمره إذا اضطر إلى معين، وأن تشد يدك إلى يده إذا كان بحاجة إلى ذلك، وإن أمكنتك المكافأة كافأته، والمكافأة تكون من طرق شتى فإحدى هذه الطرق طريق العقل ـ أي يمكنك أن تكافئه بأن تبذل له النصح، أو أن تعلمه شيئاً يستفيد منه، وغير ذلك.

وذو المعروف الذي يشير إليه الإمام هو كل من يسدي خيراً ومعروفاً إلى أحد، ومن أجلّ أفراده الله سبحانه، فهو أول المحسنين، وهو أول ذوي الخير فيجب شكره عن طريق العبادة والإخلاص له، وعن طريق ترك ما سواه والتوجه التام إليه، فإذا كان ذلك، فقد حصل الشكر، وإلا فالمعروف الذي ليس يقابل بشكر يخاف عليه الزوال، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (إذا رأيتم أوائل النعم، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر). فقلة الشكر تبعد النعم، وإن الشكر عليها مجلبة لها ومدعاة.

حقيقة المعروف:

«المستفيض بين الناس أن كل واحد منهم لا يعتبر نفسه مديناً لك بالشكر إلا بمقدار ما أسديته إليه: فمنهم من يقدره بمقدار الخطر الذي أنقذته منه، ومنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال: فلو أعطيته مائة درهم كان شكرانه لك على قدرها، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد وهلم جرّاً».

لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن قصدك إلى هذا الحين. كأن تقول له: إنني لا أغفر لك ترددك عن طلب حاجتك، كما أنني أشكرك على أن خصصتني بها من دون أصحابك لحسن ظنك بي، وثقتك بي بحسن مودتي، واعلم أنني منذ اليوم رهين أمرك فيما تكلفني إياه من خدمة، ولقد سامحتك في استتارك مني بستار الخجل والحياء عند الطلب في هذه المرة. إنك إن فعلت ذلك زدت في مقدار الصنيعة، وأسست في قلب صاحبك ركناً من الشكر والحمد لا يهدمه النسيان، ولا يودي به مرور الزمان.

أهل المعروف:

أهل المعروف حقاً، من يفعل الخير لمجرد حب الخير، ولا تثنيهم كثرة أهل الكفران عن معاودة إسداء المعروف، فالكريم لا يبالي: كفر الناس نعمته أم شكروها. ويكفيه أن يستمرىء حلاوة الصنيعة حين إسدائها. وهي اللذة التي يطرفه بها الإسداء. وقد قال الشاعر في ممدوحه:

لو كفر العالمون نعمته ... لما عدت نفسه سجاياها

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنه ليس في العالم قلب شكور، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض عن إسداء الإحسان والامتناع عن فعل الخير.

وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج، وما له إلا باب واحد، وهو باب الخروج والإنفاق، فإن دخل فيه شيء من الشكران كان ذلك ربحاً، وإن لم يدخل فيه منه شيء فلا خسارة فيه، فلا يجوز إذن لمحسن أن يقول يوما خسرت الجميل، وقد استمرأ لذته عند الإسداء.

ومن خلال أهل المعروف أنهم يسدلون دونه ستراً من النسيان يبقى المعروف وراءه مستوراً حتى تنكشف عنه يد الشكر من المسدى إليه، لأنهم يعلمون أن المعروف رأس مال طرحه في يد الكنود خير من حبسه في يد المحسن، لجواز أن يربو بالشكر في نفس الكنود يوماً من الأيام على مرور الزمن، ولا يبعد عليه أن يتعلم منه حسن المثال في إسداء الصنيعة. ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال، بل يتناول المال والجاه والسلطان والنصح والإرشاد وحسن المعاملة.

وليس الإنسان وحده هو الذي يدرك معنى حسن المعاملة، بل الحيوان الكاسر والأسد الضاري إذا عودته الحسنى، انتهى به الأمر إلى الاستئناس والخضوع، ولا شيء

أقتل للكفران في النفوس من المواظبة على دوام الإحسان، فمن أسدى معروفاً ولم يشكر عليه في المرة الأولى، فلا يبعد أن يشكر عليه في المرة الثانية، فإذا قاوم الكفران الإحسان مرتين فعليك أن تعززهما بثالثة تذكر المسدى إليه بالاثنتين.

فساد المعروف:

وفي الناس فريق يتبع معروفه بطول المن والتذكير به، وهؤلاء هم أسوأ أهل المعروف والإحسان عملاً، وأقبحهم فعلاً، وأشدهم على الناس ألماً وكرباً، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم بدل الشكر والامتنان، وكفى بهذا الخلق السيىء شناعة وفظاعة ما ورد فيه من الآيات المتعددة في الكتاب الكريم، فمنها قوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[3].

ومن جوامع الكلم قولهم: «صنوان من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضنّ».

الأمور التي تذهب ببهاء المعروف:

أهم هذه الأمور كثرة الوعود وطول التسويف. ومن الناس من يقصد ذلك ويتعمده للتباهي بتردد القصاد عليه وإقامة الوفود ببابه، كأنما فعل الخير عنده سلطان لديه يتمتع بمظاهر أبهته وجلاله أمام حاشيته وأتباعه، ولا حق لمثل هؤلاء في الشكر على الصنيعة، بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال إلى الكفران، لأن كل ما يدخل في حساب الوعد والمطل يخرج من حساب الشكر والاعتراف بالمعروف، وربما أدى طول الانتظار وكثرة الوعود إلى البغض والحقد في نفس صاحب الحاجة.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٦٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

لماذا يقابل المعروف بالكفران؟

السبب الرئيسي في انتشار رذيلة الكنود والكفران خبث نفس المسدى إليه، ولؤم طبيعته وإقفار نفسه من الفضيلة، وإمعانه في الإساءة إلى من أحسن إليه، ولا عجب فقد أبان رسول الله ﷺ تلك النفس بقوله: «جبلت النفس الخبيثة على ألا تخرج من الدنيا حتى تسيء إلى من أحسن إليها» ومع هذا كله فإن كثرة أهل الجحود والكنود لا توجب تثبيط همتنا. ولا تحول وجوهنا عن إسداء المعروف. ألا ترى أن كفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا، وما زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر، وإنا لنستحق خيبة الرجاء في الشكر إذا كنا أعطينا ما أعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه، كما أننا لا ينبغي أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود، فكثيراً ما خاب ظن المرء في امرأته وولده، فما منعه ذلك معاودة الزواج وتربية الأولاد، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر مرة أُخرى، والنكوص عن صنع الجميل بحجة عدم المكافأة عليه يدل على التطلع إلى استجلاب الفائدة من ورائه. وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء»[1].

ويتفرع من المعروف أمور: منها الأمر بالمعروف. ومنها العفو عن المسيء. ومنها الإحسان.

إن من المعروف الأمر بالمعروف:

لا نرتاب بأن الأمر بالمعروف من أهله في محله ربما كان أعظم من فعل المعروف، لأن فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الإنساني، وبه اكتساب الفضائل الدينية والعقلية، وإزلة الأخلاق الفاسدة، والعمل بما فيه الحياة في الدارين. ولا أراك تشك بأن التهذيب والتعليم والالزام لشخص بما فيه ظهور كماله وجميل صنعه وحسن سيرته، خير له من إعطائه ألف دينار يتنعم بها في معاشه مع تلوثه بأقذار المفاسد وتهوره في هوة الجهالة.

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً على كافة العقلاء، ولا شرط لوجود فعل المعروف سوى القدرة عليه.

إن تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقف تحريك خطابه للمكلفين عليها:

---

(١) الخلق الكامل.

الأول: القدرة على الأمر بالمعروف، وغير القادر لا يجب عليه.

الثاني: العلم أو الظن أو احتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف.

الثالث: أن يكون الآمر بالمعروف عاملاً به وإلا لم يكن أهلاً لأن يأمر به، لأن (فاقد الشيء لا يعطيه). نعم فاقد الشيء لا يعطيه إذ كل شيء تتصوره، وترى أنك تفقده، يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك. فالمرتكب للمنكر نجد من المنكر نهيه عنه فضلاً عن كونه لا يؤثر نهيه بأحد، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به ولا يؤثر أمره بأحد. كل ذلك لأن (فاقد الشيء لا يعطيه).

جاء النص في القانون الإسلامي على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

دلت هذه الآية الشريفة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصرحت بانحصار الفلاح فيمن قام بهما. والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للنظام وسداً لأبواب الفساد.

ومن ظاهر الآية عرفنا أن الوجوب كفائي، حيث قال سبحانه: ولتكن منكم أمة، ولو كان الوجوب عينياً لكان الخطاب بغير هذا البيان.

وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الإيمان: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢]. فانظر كيف قرن إيمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبيهاً على أهمية وجوبهما وأثرهما.

قال صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأعظم محمد ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه». وقال ﷺ حين سئل عن خير الناس: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم». وقال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون وتستغيثون فلا تغاثون». وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان لأن يكون

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٤.

فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر».

وربما يقال إنه يوجد في كل زمان من يتباعد عمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يتباعد عن جيفة الحمار، فكيف يصح تعليق ذلك على زمان خاص والحقيقة أن الكلمات الحكمية لا تنظر إلى فرد من النوع بل المقصود منها انطباقها على أغلب أفراد النوع وأكثرها، ولعل مصداق ذلك في هذا الزمان (أعاذنا الله من بلائه ووفقنا لفعل المعروف به وترك المنكر والنهي عنه). وقد استوفينا مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابنا (علي والأسس التربوية) فليرجع إليه من طلب الزيادة.

العفو واصطناع المعروف:

العفو عن أرباب الهفوات، والتجاوز بإقالة العثرات، والحلم عن مقترفي الزلاّت، والصفح عن ذوي الهيئات، وإسداء الإحسان وفعل الخيرات، واصطناع المعروف ـ وبخاصة أهل الدرايات ـ كل ذلك معدود من محاسن الحسنات، ومكارم الأخلاق التي هي خير الصفات. وقد نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات، وصرحت به السنة النبوية على ألسنة الرواة الثقات، قال الله تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾[٤]. وقال تقدس اسمه يخاطب نبيه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٦].

وقال رسول الله ﷺ: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنة، قلت: يا جبرائيل لمن

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.
(٣) سورة النور، الآية ٢٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٥) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.
(٦) سورة الشورى، الآية ٣٧.

هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

وبينما هو ذات يوم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه، فقيل له في ذلك: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. فقال: يا رب ما بقي من حسناتي شيء، فقال: يا رب فليحمل من أوزاري. ففاضت عينا رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك اليوم ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم أوزارهم، ثم قال: قال الله تعالى للطالب حقه: ارفع بصرك إلى الجنة، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الخير والنعمة، فقال: لمن هذا يا رب؟ فقال: لمن أعطاني ثمنه. قال: ومن يملك قيمته يا رب؟ قال: أنت. قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك. قال: يا رب قد عفوت عنه. قال: فخذ بيده وادخل به إلى الجنة، ثم قال رسول الله ﷺ: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم».

من ضروب المعروف، والاحسان:

من المعروف الإحسان بجميع ضروبه:

وقد عُرف الإحسان بمعنى الإنعام والتفضل، إلا أن معناه يتسع لأكثر من ذلك. فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى أحسن: فَعلَ الحسن، ضد أساء والحسنة هي الفعل الحسن.

والأفعال الحسنة تشمل كل خير وكل معاملة ترقي وترفع من شأن الإنسانية وتهذب نفسية المرء، وترفع المستوى الإنساني بصرف القوى في ترقية الحياة، وإفاضة البر على من هم في حاجة إلى البر والرحمة.

فالمحسنون في نظر الإسلام أحباب الله يكلؤهم بعنايته، ورحمته لا تفارقهم طرفة عين.

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وقد بين القرآن أن الإحسان يجب أن يكون الواجب الطبيعي للإنسان، وأن الله

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

كما أحسن إليه بنعمه عليه، أن يحسن بهذه النعم إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[١].

وبين أن الإحسان تعود منفعته وفائدته على المحسن نفسه. قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٢].

وهذا حق فإن المحسنين يشعرون بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم، ويكفي ما يقابلون به من الذين يحسنون إليهم من الود والمحبة والتقدير مما يدخل السعادة إلى نفوس المحسنين، بينما الإساءة تجعل صاحبها منبوذاً محتقراً لا يهنأ له عيش ولا يقر له قرار.

لهذا أمر الله بالإحسان وألح عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[٣].

وصلة الإنسان بالله مهما عظمت لا يعترف بها إلا إذا صحبها الإحسان.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٤]. ـ أي إن من أخلص لله، وأسلم نفسه إليه وهو على طريق الإحسان ـ فقد تعلق بأسباب النجاة، وتمت له الحظوة عند الله.

وجزاء الإحسان يعجل الله به في الدنيا.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾[٥]. وفي الآخرة يضاعفه أضعافاً مضاعفة، فيأتي المحسن ربه آمناً يوم القيامة. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٦] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾[٧].

اتساع نطاق الإحسان:

١ ـ الإحسان يتناول كل شأن من الشؤون، وينتظم به كل عمل من الأعمال يقول

(١) سورة القصص، الآية ٧٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٧.
(٣) سورة النحل، الآية ٩٠.
(٤) سورة لقمان، الآية ٢٢.
(٥) سورة الزمر، الآية ١٠.
(٦) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.
(٧) سورة النمل، الآية ٨٩.

الرسول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» - أي فإذا الإحسان مطلوب في كل شيء، حتى في حالة ما إذا أراد الإنسان أن يذبح ذبيحة فإنه لا ينبغي له أن يتخلى عن فضيلة الإحسان، وعليه أن يسوقها إلى الموت سوقاً رقيقاً، ويحد السكين ليجهز عليها في سرعة فيريحها ويخفف آلامها.

٢ - والله سبحانه ما خلق الإنسان وزوده بالقوى والقدرة، إلا لينشط ويبدع ويأتي بجلائل الأعمال، فإذا قصر عن هذه الغاية وبدد قواه في غير ما خلقت له كان جاحداً بهذه النعمة وناسياً فضل الله عليه. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[2].

٣ - ومن الإحسان أن يؤدي المرء عبادته في يقظة تامة ونشاط كامل. سأل جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٤ - والإحسان الذي هو من أخص صفات الأبرار، ومظهر إحسانهم يتجلى في قيام جزء من الليل في مناجاة الله وطلب الغفران منه، ومحاسبة النفس والتطهر من الإثم، كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنواً عليه ومعاونة له على شؤون الحياة. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[3].

٥ - اختيار منهج قويم للحياة، واتخاذ مثل أعلى يسعى الإنسان لتحقيقه من الإحسان ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[4].

٦ - والمجاهدة بالنفس والمال من أجل استقرار المبادىء الكريمة، والتمكين لكلمة الله في الأرض - من الإحسان. ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[5].

---

(١) سورة الملك، الآية ٢.
(٢) سورة الكهف، الآية ٧.
(٣) سورة الذاريات، الآيات ١٥ - ١٩.
(٤) سورة الزمر، الآيتان ١٧ - ١٨.
(٥) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٧ ـ من خير ضروب الإحسان انتقاء العبارات الحسنة، والألفاظ النظيفة والكلمات المهذبة في مخاطبة الناس والتحدث إليهم، فإن ذلك يوثق الصلات ويقوي الروابط، ويبعد عن نزغات الشياطين التي تفسد العلاقات وتقطع ما أمر الله به أن يوصل. ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾(١).

٨ ـ رعاية حقوق الوالدين، والأقربين والجيران والأصدقاء والفقراء والخدم، من أعظم ضروب الإحسان، وقد قرنها الله بعبادته ليلفت النظر إلى هذه الرعاية، وليؤكد هذه الحقوق. ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(٢).

وذي القربي: هم الأقرباء.. والجار ذي القربى: الجار المجاور... والجار الجنب: الجار البعيد... والصاحب بالجنب الزوجة والصديق، والرفيق في العمل.. وابن السبيل: المسافر المنقطع عن أهله.. فهؤلاء يجب أن يعمهم الإحسان ليسود الجميع المودة والمحبة، ويظللهم الأمن والسلام.

وهكذا إذا تتبعنا نواحي الإحسان وضروبه نجد معناه واسعاً، وأن الله يريد للناس أن يعيشوا في ظله لينعموا بالعافية ويسعدوا بالحياة، ويصلوا إلى المثل الأعلى، ويحققوا رسالتهم كخلفاء عن الله في الأرض.. وهذا هو الدين الحق الذي يتقبله الله ولا يتقبل غيره.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٣).

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤).

ولقد أخذ أئمتنا عليهم السلام بهذه الفضيلة ـ فضيلة الإحسان ـ فإذا هم أئمة الهدى،

(١) سورة الاسراء، الآية ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية ٣٦.
(٣) سورة النساء، الآية ١٢٥.
(٤) سورة البقرة، الآتيان ١١١ ـ ١١٢.

الرسول ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» - أي فإذا الإحسان مطلوب في كل شيء، حتى في حالة ما إذا أراد الإنسان أن يذبح ذبيحة فإنه لا ينبغي له أن يتخلى عن فضيلة الإحسان، وعليه أن يسوقها إلى الموت سوقاً رقيقاً، ويحد السكين ليجهز عليها في سرعة فيريحها ويخفف آلامها.

٢ ـ والله سبحانه ما خلق الإنسان وزوده بالقوى والقدرة، إلا لينشط ويبدع ويأتي بجلائل الأعمال، فإذا قصر عن هذه الغاية وبدد قواه في غير ما خلقت له كان جاحداً بهذه النعمة وناسياً فضل الله عليه. ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[١]. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[٢].

٣ ـ ومن الإحسان أن يؤدي المرء عبادته في يقظة تامة ونشاط كامل. سأل جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإحسان، فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٤ ـ والإحسان الذي هو من أخص صفات الأبرار، ومظهر إحسانهم يتجلى في قيام جزء من الليل في مناجاة الله وطلب الغفران منه، ومحاسبة النفس والتطهر من الإثم، كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنواً عليه ومعاونة له على شؤون الحياة. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[٣].

٥ ـ اختيار منهج قويم للحياة، واتخاذ مثل أعلى يسعى الإنسان لتحقيقه من الإحسان ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤].

٦ ـ والمجاهدة بالنفس والمال من أجل استقرار المبادىء الكريمة، والتمكين لكلمة الله في الأرض ـ من الإحسان. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٥].

---

(١) سورة الملك، الآية ٢.
(٢) سورة الكهف، الآية ٧.
(٣) سورة الذاريات، الآيات ١٥ ـ ١٩.
(٤) سورة الزمر، الآيتان ١٧ ـ ١٨.
(٥) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٧ ـ من خير ضروب الإحسان انتقاء العبارات الحسنة، والألفاظ النظيفة والكلمات المهذبة في مخاطبة الناس والتحدث إليهم، فإن ذلك يوثق الصلات ويقوي الروابط، ويبعد عن نزغات الشياطين التي تفسد العلاقات وتقطع ما أمر الله به أن يوصل. ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[1].

٨ ـ رعاية حقوق الوالدين، والأقربين والجيران والأصدقاء والفقراء والخدم، من أعظم ضروب الإحسان، وقد قرنها الله بعبادته ليلفت النظر إلى هذه الرعاية، وليؤكد هذه الحقوق. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

وذي القربي: هم الأقرباء.. والجار ذي القربى: الجار المجاور... والجار الجنب: الجار البعيد... والصاحب بالجنب الزوجة والصديق، والرفيق في العمل.. وابن السبيل: المسافر المنقطع عن أهله.. فهؤلاء يجب أن يعمهم الإحسان ليسود الجميع المودة والمحبة، ويظللهم الأمن والسلام.

وهكذا إذا تتبعنا نواحي الإحسان وضروبه نجد معناه واسعاً، وأن الله يريد للناس أن يعيشوا في ظله لينعموا بالعافية ويسعدوا بالحياة، ويصلوا إلى المثل الأعلى، ويحققوا رسالتهم كخلفاء عن الله في الأرض.. وهذا هو الدين الحق الذي يتقبله الله ولا يتقبل غيره.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[3].

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4].

ولقد أخذ أئمتنا عليهم السلام بهذه الفضيلة ـ فضيلة الإحسان ـ فإذا هم أئمة الهدى،

(١) سورة الاسراء، الآية ٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية ٣٦.
(٣) سورة النساء، الآية ١٢٥.
(٤) سورة البقرة، الآتيان ١١١ ـ ١١٢.

وقادة الأمم، وسادة الشعوب، وإذا هم يبرزون في كل ميدان، ويبرزون في كل ناحية، ويسبقون في كل نشاط حضاري، ويتفوقون تفوقاً لم يُسبقوا إليه ولم يُلحقوا فيه.

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

* * *

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام:

أحسن إلى من شئت تكن أميره
واستغن عمن شئت تكن نظيره
واحتج إلى من شئت تكن أسيره

«أي... أحسن إلى أي إنسان تكن فوقه، واستغن عنه تكن مثله، واحتج إليه تكن دونه، وهذه الطبقات من سنن الطبيعة ليس بين الأحياء فقط، وإنما تتعدى ذلك حتى إلى الجمادات، فمن الناس من يعبد الشمس لإحسانها إليهم بالدفء والنور. ومنهم من يعبد الأنهار لإحسانها إليهم بالماء والجمال. ومنهم من يعبد البقر لإحسانها إليهم بالخدمة والغذاء. وعلى العكس نرى الجماد والنبات يعبد الحيوان صامتاً وناطقاً، إذا اعتبرنا الخضوع والامتثال عبادة، وليست العبادة إلا هذا.

فالإنسان والحيوان إذ يحرثان الأرض يحسنان إليها بتأهيلها للنور والهواء وتنقيتها من العفونة والغش والطفيليات، ومن جاء لبنان ورأى شقاء الإنسان ونصبه في العناية بما يزرع وبما يغرس، ورأى جمال الشجر والثمر، ثم رأى الجداول والظلال فوق صفحة هذه الأرض المسبغ عليها فن الإنسان بتبسيطها وتنسيق غرسها، وصيانتها من أعراض الطبيعة وظلم النبات الدخيل والحيوان الأرعن. أقول: إن من يرى عناية الإنسان هذه بالأرض والماء والشجر والنبات، رأى مبلغ ما يحسنه الحيوان صامتاً وناطقاً إلى الجماد؛ ثم رأى خضوع النبات والجماد بعد ذلك إلى الحيوان بإنتاج الطعام والشراب له، ورأى تضحية هذه الأرض بما تتحمله من مشقة هذا الخضوع للإنسان بين حرث وإجهاد، ورأى تضحية ذلك النبات بما يتحمله من مشقة الخضوع للإنسان بين تشذيب وتهذيب حتى يزهر ويثمر. أقول: من رأى ذلك عجب من تضامن الحيوان والجماد والنبات، بين آمر ومأمور في سبيل الحياة واستقامة الوجود.

(١) سورة الزمر، الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

وهكذا نجد أن الفن الذي يسبغه الإنسان على الجماد بنحت الصخر وحرق التراب ليقيم لبنات للبناء والإعمار، هذا الفن إنما يقوم على إحسان الإنسان للجماد بتطويره من عالم الخام المهمل إلى عالم الفن المنتج، وعلى خضوع الجماد للإنسان بتضحيته فيما يتحمل من مشاق النحت والإحراق، بين يدي الخلود القائم على سنن التطور من القبيح إلى الحسن ثم من الحسن إلى الأحسن، هكذا تتبادل عناصر الحياة، بين جمودها وحركتها، جمال التطور والتجدد، وجلال البقاء والخلود، وهكذا تتحقق آخر الأمر، على حساب هذا التبادل، عناصر الحياة التي يتقوم بها ذلك الخلود، فالإنسان يحسن للجماد في سبيل حياته، والجماد يخضع للإنسان في سبيل حياته، وهذه الحياة هي العمود الفقري لقوام الكون وبقائه.

بهذا يتحقق تعليل وتحليل الفقرتين: الأولى والثانية من قول الإمام. وأما الفقرة الثانية فتشير إلى أن استغناء أي عضو عن أي عضو من العناصر التي يتقوم بها الحيوان والجماد، الاستغناء يفضي إلى الاستقلال الفردي الذي يفضي إلى الاستقلال النوعي، وبذلك يتلاشى تضامن العناصر الساكنة والمتحركة من مقومات الوجود، إذ ثبت من تحليل الفقرتين ـ اللتين تكتنفان هذه الفقرة التي نحن بصدد البحث فيها ـ ضرورة التضامن بين الحيوان والجماد.

يقرر الإمام عليه السلام في هذه الجمل الحكيمة أمراً واقعاً في حياة الإنسان، وقد قبس هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى» يعني بذلك أن المعطي في سبيل الله خير من المعطى.

وفي الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾[1] أي إن التفاوت في الناس بين الفضل والنقص طبيعي في الإنسان، وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين ولو كانوا معذورين في قعودهم، وفضل الله المؤمنين على المسلمين ولو أدى هؤلاء واجبهم نحو الله ولكنهم لم يؤثروا على أنفسهم أحداً ولم يطعموا الطعام وهم جياع.

من هنا نصل إلى أن العقل لا ينكر على الإمام قوله: «أحسن إلى من شئت، تكن أميره» في أن إكرام الغني أو القوي أو العالم أو العامل أو الفقير أو الضعيف أو الجاهل أو العاجز عن العمل، يخوله السيادة والإمارة عليه، بينما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «الناس

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٥.

سواسية كأسنان المشط» إذا آمنوا بالله ورسله وكتبه، ولكن بعضهم سعيد والآخر شقي لحكمة لا نستطيع دركها بعقولنا المحدودة.

أقول: إن العقل لا ينكر على الإمام هذا القول إذا كان الأمر كما فصلنا. ثم إن في قول الإمام حضاً كبيراً على الإحسان، أي إنه يريد منا أن نتنافس ونتكاثر في الغنى والعلم والعمل، لندرك فضل المحسن على من يحسن إليه، بماله أو علمه أو عمله، فما لم يدرك الإنسان أن للكريم فضلاً على من يلتمس كرمه، وللمحسن فضلاً على من يرجو إحسانه، لا يقدم على الجهاد في سبيل الغنى والعلم والعمل ليكون فاضلاً، وفي كلام الإمام حث على أن المسلم يجب عليه أن يعمل ليكون قوياً بماله وعلمه وعمله ليسود غيره ممن لم يدخل الإيمان قلبه، وها نحن نقع اليوم في أكبر الآثام ونحن لا نعمل بقول الإمام المقتبس من قول الله.

أقول: ها نحن نخضع ونركع بين يدي غير المسلم في سبيل هذا الإحسان المتدفق إلينا منه، أفلا نمتص أيدي وأرجل الأجنبي، ونلعق حذاءه ليغيثنا بماله وعلمه وعمله؟ أفلا يبيع المسلم منا دينه وشرفه ووطنه لهذا الأجنبي في سبيل الدنيا القاصرة بجمالها وجلالها على من يعلم ويعمل في حياته، وهل هذا العلم وذلك العمل إلا وقف على الأجنبي المسيطر علينا ونحن خول له؟ والعجيب أن بعض المتعنتين الذين يعيشون على أوهام، أن أمجادنا في ديننا وقوميتنا فوق أمجاد الغربيين في دينهم وقوميتهم، من أجل ذلك لا نرى لهم فضلاً علينا في أن نلتمس منهم المال أو العلم أو العمل، لأن آباءنا أسلفوا آباءهم ذلك من قبل.

والأعجب من ذلك، أن هؤلاء العظاميين يقولون: وأي فضل لهم علينا إذا اقترضنا منهم المال والعلم، ديناً نفيهم إياه مع الزمن، وبعد أن نملك أنفسنا ونستغني عنهم. يقولون ذلك، ثم يغفلون عن قوله ﷺ وهو يشرع لنا سوء العصبية في الأمجاد الغابرة بقوله: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه». وقوله لعلي عليه السلام: «ذهبت الجاهلية بعصبيتها» وقوله لفاطمة: «اعملي فإني لا أُغني عنك من الله شيئا»

وقول الشاعر:

إنـــا وإن كـــرمـــت أوائلنـــا ... لسنـــا علـــى الآبـــاء نتكـــل
نبنـــي كمـــا كـــانـــت أوائلنـــا ... تبنـــي ونفعـــل فـــوق مـــا فعلـــوا

وقول الآخر:

فمن الوهن أن نفاخر بالجد ونغضي عن أن نكون الجدودا
ومن العجز أن نفاخر باليقظة فيهم وأن نكون رقودا

ثم نرى هؤلاء النفر الأنانيين على لا شيء، يقولون: وأي فضل لهم إذا ساعدونا بالمال، طالما نحن على استعداد لأن نعيد إليهم أموالهم، وأي سبب في ذلك يخولهم الإمارة علينا؟؟ وجواب ذلك بديهي إذ يتحقق هنا قول الإمام في آخر كلماته التي هي بين أيدينا، وقوله هو: «احتج إلى من شئت تكن أسيره»، فإن مجرد قبولنا فضلهم الذي يسمونه (مساعدة الشعوب الضعيفة)، وقبول هذه التسمية لنا منهم، وهم ينسبون إلينا الضعف، أقول: إن مجرد هذا هو الذل والعبودية والاستخدام.

فليس الذل في المدين قاصراً على الخضوع للدائن والاستكانة له، وإنما الذل يتعدى ذلك إلى قبول المدين الذي يمد يده إلى الدائن به، ويقبل على نفسه الحاجة إليه والاعتصام بإحسانه، ثم لا يمتثل لقول الإمام بذلك: «أحسن إلى من شئت تكن أميره» إنه يأمرنا بالإحسان لنكون أمراء، وينهانا عن الحاجة فنكون أسرى، وهل في هذا ريب إذا أخذنا في الواقع من الحياة؟؟ إن واقعنا ما يصوره الإمام عليه السلام في كلامه السابق واللاحق، إذ هو كلام مقتبس من الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

وإذا تتبعنا قول الله وقول رسوله ووصيه، رأينا أكثره قائماً على تحريك العواطف وتأثير الهمم ودفع القوى إلى شحذ العزائم والتصميم على الأخذ بوسائل الحياة التي تبعثنا أشداء أعزاء أباء، لا نمد أيدينا إلا لنعطي، ولا نشخص بأبصارنا إلا لنستلهم، ثم لا نضع أنفسنا إلا في المكان اللائق بأمجادنا وكرامتنا، على هذا يجب أن نحمل قول الإمام في هذه الكلمة العصماء، في صدر هذا البحث فهو يحثنا بلفظ الأمر على التماس وسائل الحياة التي نحسن بها إلى غيرنا فتكون لنا السيادة على هذا الغير، ثم يأمرنا في النهاية أمر تقريع وتأنيب ويأس أن نتخلى عن عزنا وكرامتنا إلى الذل والخضوع للغير ما دمنا غير مستغنين عنه ولا محسنين إليه.

يقول الجاهلي:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

ويقول شاعر آخر:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

ويقول الإمام في غير مكان من نهجه القويم: «فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه». كل ذلك يقوم على قول الإمام هنا: «أحسن تسد» وقوله هناك: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

والشاعر يقول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وخلاصة قول الإمام في هذه الكلمة: إن حياة الإنسان قائمة على طبقات ثلاث: أولاها السيادة وهي وليدة الإحسان وثانيتها السلامة وهي وليدة الغنى عن الناس. وثالثتها الاستكانة وهي وليدة الحاجة إلى الناس. وهو (سلام الله عليه) يختار لنا السيادة لأنه بدأ بها في كلمته هذه الشاملة للطبقات الإنسانية، والأمر بها يفيد الوجوب.

وأما الأمر بالاستغناء عن الناس فإنه يفيد الاستحباب، وثالث الأوامر يفيد التقريع والتهديد، كقولك لمن لم يطع أمرك: «اعصني ما استطعت فسوف تدرك مغبة أمرك»[1]

---

(١) دين وتمدين.






حَقُّ المُؤَذِّنَ

قوله عليه السلام :

«وَأَمَّا حَقُّ المُؤَذِّنِ: فَأَنْ تَعْلَمَ أَنّهُ مُذَكِّرُكَ بِرَبِّكَ عزَّ وجلّ، وَدَاعٍ لَكَ إِلَى حَظِّكَ، وَعَوْنُكَ عَلَى قَضَاءِ فَرْضِ اللهِ عَلَيْكَ، فَاْشْكُرْهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْرَكَ لِلْمُحْسِنِ إِلَيْكَ».

* * *




في ساعات غفلة الإنسان، وانغماسه في صخب هذه الحياة، ومتاعب طلب القوت، ومتطلبات العيش، أو انغماره في سكرة الراحة ولذائذ المتع.

في هذه الساعات الغافلة المغفلة، يقف المؤذن على ربوة أو مئذنة ليبلغ أهل الأرض دعوة السماء. لينادي بصوته الجهير:

(الله أكبر) فيملأ الأسماع ويملأ العقول وينفذ إلى القلوب ويهز العواطف والمشاعر، ويوقظ الغافل ويذكر الناسي.

(الله أكبر) من أن يحد، وأكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يتناهى في كبريائه، وأكبر من أن يقايس بكبير، أو يقايس به كبير.

و (الله أكبر) من أن يغفل عنه، أو تصد الحوادث عن ذكره، أو تشغل عن امتثال أمره.

(الله أكبر) من أن يعجزه شيء، وهو الذي فطركم على الحاجة وقدَّر لكم أسباب الحصول عليها، ويسّر لكم طرائق الوصول إليها، فلا تشغلكم هذه التوافه عن مصوركم ومدبركم، ولا تصرفكم عن طاعته وابتغاء الزلفة لديه وطلب السعادة والزيادة من لدنه.

الصلاة الصلاة، فهي سبب الفلاح وهي خير العمل، وهذا أول وقتها، فالبدار البدار والفرصة الفرصة فقد تفتحت الأبواب واتصلت الأسباب.

في ساعات غفلة الإنسان وغمرته وسهوه ولهوه، يقف المؤذن ليبلغه دعوة الله جهيزة عالية، فيذكره بربه وينبهه من غفلته، ويعرفه حلول أمر الله إياه، وحضور وقت الفريضة العظيمة التي افترضها عليه، فليأخذ بحظه من سبب الطاعة وليبادر إلى نجاته بقضاء الفريضة. فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض، ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه! ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله: وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج

الإسلامي. التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد ونشاط وكسب. وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر. وهو ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى.

وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة. ولكنه ـ مع هذا ـ لا بد من فترة للذكر الخالص والانقطاع الكامل والتجرد المحض.

كان الحسن بن علي عليه السلام إذا سمع المؤذن تغير وجهه واصفر لونه، فقيل له في ذلك، فقال: «إن الله تعالى أرسل إلي من يطلبني لخدمة خاصة، ولا أدري أيقبلها مني أم لا، فكيف لا يتغير لوني».

والأذان هو الشعار الإسلامي الذي يعرف به المجتمع المسلم.

والأذان هو اللسان العام عن أهل ذلك الصقع، أو أهل تلك المدينة، أن عقيدتهم توحيد الله، وأن سبيلهم الدعوة إليه، وأن سيرتهم السعي إلى مرضاته وطلب الفلاح من عنده.

والأذان هو البلاغ الكامل الشامل بالله توحيد الله والدعوة إلى سبيله والخضوع التام لأمره، هو الرسالة التي يجب أن يسمعها كل موجود وأن يعترف بها كل عاقل، وأن يفيد منها كل إنسان.

شعار المسلمين في كل صلاة، وما أحلاه شعاراً يُصاعد من أعماق القلوب فيتجاوب صداه في أجواء الفضاء بالغاً عنان السماء، فيردده الملأ الأعلى ملائكياً خالداً، فتصغي إليه عوالم الكون كله، من قمة العرش إلى أخمص الثرى، خاشعة طروباً تهلل (الله أكبر).

(الله أكبر) كلمة تملأ قلبي (الصغير) بل وتذيبه خوفاً وطمعاً ـ بيد أني أعجب لهذا (الصغير) يضنى بالخفوق لكل ما سوى الله الخالق الأكبر.

(الله أكبر) أنشودة الخلد، رتلتها في الأزل حينما كنت في عالم الذر، وغشيتني أنغامها وأنا في المهد، وصدحت بموسيقاها وأنا هابط إلى العاجلة، وملكت علي حواسي وأنا غلام لم أشب على الطوق ـ بعد ـ واستقرت في عين فؤادي وأنا فتى، فنظرت بها في كل مكان فلم أجد غيرها، ففتنت بها حتى فنيت فيها، وها أنذا الآن إن صحوت فلا أسمع شيئاً سوى دقات قلبي تجود (الله أكبر). وكلما وضعت يدي على

قلبي أتلمس قدسية هذا السر، ألحَّ علي التضاؤل شيئاً بعد شيء فتضاءلت وتضاءل معي كل شيء، ولم يبق سوى ذياك الرنين الخالد (الله أكبر) فأضع يدي على قلبي وأناجيه:

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

(الله أكبر) هذا النشيد الذي لم يحمل بريد السماء إلى أهل الأرض، ولم يلق لسان الزمان في أذن الدنيا، نشيداً مثله، حربياً إن شئته للحرب، عاطفياً إن شئته للقلب، صوفياً إن أردته للصفاء.

(الله أكبر) هذا الهتاف الذي كان صرخة الحق من أفواه جنود محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أسمعوه كل بطن واد، وكل ظهر جبل، وكل مغارة تفزع من سلوكها الجن، سلكوها يجاهدون في سبيل الله، وكل أسوار قلعة لا تستطيع أن تحوم فوقها من منعتها العقبان، فتحوها ليدخلوا إليها هدى الله ـ وكان أبداً نشيد النصر.

(الله أكبر) تسري في هدأة الليل والناس غارقون في نشوة العبادة أو في أحلام الهوى، أو في حمأة الفجور، أو في لجج الكرى، وفي وضح النهار والناس منغمسون في معتركات السياسة، أو غمرات التجارة، أو معامع المطامع والدسائس والشهوات.

يهبط عليهم جميعاً كما تهبط البركات من السماء، ويمشي في قلوبهم كما يمشي النور في الفضاء، ينزل من فوق، من فوق كراسي الحكم، ومقاعد الثروة، ومخادع اللذاذات، يذكر الأقوياء بأن لا يتكبروا على الضعفاء، فإن الله معهم، والله أكبر منهم، ويصرخ في آذان هؤلاء الذين غرتهم أنفسهم وغرهم الشيطان، فعبدوا المادة، ونسوا الروح، وجحدوا المعاد. يذكرهم أن وراء الجسم روحاً وأن بعد الدنيا آخرة، وأن في الوجود رباً يمهل ولا يهمل، ويُنسى ولا ينسى، وأن الدنيا لم تدم لأحد حتى تدوم لهم، وأن الموت لم يترك أحداً حتى يتركهم، وأن التراب قد احتوى أمماً من الناس كانوا أشد قوة، وأكثر مالاً، وأعظم آثاراً، وكان لهم المال ولهم الجند ولهم القلاع، فما أغنى عنهم مالهم، ولا دفعت عنهم المنايا جنودهم.

وإذن فالمؤذن محسن، وله بعمله ذلك حق ينبغي أن يؤدى وأن يشكر.

والإمام السجاد عليه السلام يلم بهذه المعاني حين يقول: «وأما حق المؤذن فأن تعلم أنه مذكرك بربك، وداعيك إلى حظك، وعونك على قضاء الفريضة...».

هذه هي المرحلة الأولى لأداء حق هذا المحسن، فإن العلم بحق ذي الحق والاعتراف له به هو الأداء الأول لحقه.

أما المرحلة الثانية «فتشكره على ذلك» على تذكيره إياك ودعوته وعونه لك. «شكرك للمحسن إليك».

وصفوة القول: إن ـ حكمة الأذان ـ هي مجموعة ثلاثة أمور:

١ ـ إن الإنسان إذا كان من دأبه مزاولة الأشغال وتعاطي أسباب الكسب، وهي تشغله في الغالب وتنسيه دخول وقت الصلاة فتفوته صلاة الجماعة ـ ذات الخير الكثير ـ. وأيضاً خشية خروج الوقت فتفوته صلاة الأداء.

٢ ـ لما كانت الصلاة من أجلّ النعم، إذ تقرب العبد من ربه، وهذا هو الفلاح بعينه، كان الأذان بصفة دعوة خير حتى لا تفوت المسلم هذه النعمة الكبرى، فهو يدعوه لاغتنام الفرصة واكتساب النعمة.

٣ ـ هو إظهار عظمة الدين الحنيف لغير المسلمين، وباعثاً للمشركين على الترغيب في الدخول فيه.

ومن يتأمل في ألفاظ الأذان يجدها جمعت عقيدة الإيمان، واشتملت على صفات التنزيه والتعظيم لله سبحانه وتعالى، وإثبات الوحدانية، كما أنه اعتراف لنبينا ﷺ بالرسالة، وفيها الدعوة إلى الصلاة، كأنه يقول المؤذن: هلموا إلى الصلاة التي هي خير من كل شيء، وفيها الفوز العظيم والخير الجسيم.

«وهنا نستمع إلى نشيد الروح، وهي من روائع الأستاذ شاعر الطبيعة (السيد أحمد الصافي النجفي) تحت عنوان:

الله أكبر

أفكر بالسفاسف في الحياة ... وأحسبها حقائق راهنات
فيقطع لي سلاسل ترهاتي ... هتاف مؤذن: الله أكبر

* * *

وأضرب سادراً بين الهموم ... وأسعى للوصول إلى النعيم
فيهديني إلى النهج القويم ... هتاف مؤذن: الله أكبر

* * *

وأفنـــي فـــي الـــرقـــاد ثميـــن عمـــري كـــأنـــي ميـــت فـــي جـــوف قبـــر
فيـــوقظنـــي لأُحشـــر كـــل فجـــر صيـــاح مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

وأغـــرق فـــي مطـــالعـــة الكتـــاب وأنعـــم بيـــن أوهـــام عـــذاب
فيـــرجعنـــي إلـــى دنيـــا الصـــواب صـــراخ مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

وأسعـــى نحـــو آمـــال عظـــام وأخشـــى أن يخيبهـــا حمـــامـــي
فيشفينـــي مـــن الـــداء العقـــام هتـــاف مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

وأذهـــب للتنـــزه فـــي اختيـــال وأمـــرح بيـــن أنـــواع الجمـــال
فيـــوقفنـــي ويسخـــر مـــن خيـــالـــي نـــداء مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

وأنظـــر فـــي مشيـــدات المبـــانـــي وقـــد حفـــت بـــأنـــواع الجنـــان
فيـــدعـــو ثَـــم أن الكـــل فـــانـــي هتـــاف مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

وتبهـــرنـــي أحـــاديـــث العظـــام ومـــا تحـــويـــه مـــن حكـــم ســـوام
سينفـــد فـــي غـــد كـــل الكـــلام ولا يبقـــى ســـوى: الله أكبـــر

* * *

ونمعـــن فـــي التخـــاصـــم والنضـــال ونفنـــي العمـــر فـــي قيـــل وقـــال
فيعلـــو قـــاطعـــاً صـــوت الجـــدال صيـــاح مـــؤذن: الله أكبـــر

* * *

ونـأخـذ فـي أحـاديـث شتـات ونبقـى بيـن هـاك وبيـن هـات
فـأسمـع صـوت حـي علـى الصـلاة فـأنهـض صـائحـاً: الله أكبـر»[1]

تاريخ مشروعية الأذان:

شرّع الأذان في السنة الأولى من الهجرة النبوية بالمدينة المنورة ـ على اختلاف في ذلك ـ.

وسبب مشروعيته: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة عسر على المسلمين معرفة أوقات صلاته ﷺ لكثرتهم واتساع دائرتهم، فتشاوروا في أن ينصبوا علامة يعرفون بها وقت صلاة النبي ﷺ لئلا تفوتهم الجماعة فأشار بعضهم بالناقوس فقال النبي: هو للنصارى. وأشار بعضهم بالبوق. فقال: هو لليهود. وأشار بعضهم بالدق. فقال: هو للروم. وأشار بعضهم بإيقاد النار. فقال: ذلك للمجوس. وأشار بعضهم بنصب راية فإذا رآها الناس أعلم بعضهم بعضاً. فلم يعجبه ﷺ ذلك، فلم تتفق آراؤهم على شيء، فهبط الأمين جبرائيل بالأذان على النبي ﷺ ورأسه حينذاك في حجر علي عليه السلام.

يتحدث إلينا الصدوق في كتابه ـ من لا يحضره الفقيه ـ عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لما هبط جبرائيل عليه السلام بالأذان على رسول الله ﷺ وكان رأسه في حجر علي عليه السلام فأذن جبرائيل وأقام فلما انتبه رسول الله ﷺ قال: يا علي سمعت؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: حفظت؟ قال: نعم. قال: ادع بلالاً فعلمه، فدعا بلالاً فعلمه».

اختلاف العلماء في الأذان والإقامة:

«اختلف العلماء في الأذان والإقامة، هل هما من الواجبات أم من السنن؟ والمشهور عند الشيعة أنهما من السنن لا الواجبات، بل مستحبان استحباباً مؤكداً ومنهم من ذهب إلى الوجوب.

ووافقهم على القول بالاستحباب، مالك وأبو حنيفة، والشافعي. فقالوا: بأنهما مستحبان لكل صلاة، في الحضر والسفر، للجماعة والمنفرد لا يجبان بحال.

(١) اللآلىء المنظومة (للعلامة السيد محمد صادق بحر العلوم).

وعن أحمد بن حنبل أنهما فرض كفاية، واختار أكثر أصحابه أنهما من السنن.

وقال أصحاب الشافعي، وأصحاب مالك: بأنهما فرض كفاية.

وعن مالك: إنما يجبان في مسجد الجماعة. وعن محمد بن الحسن الشيباني القول بالوجوب. وقيل: إن المراد من قول أبي حنيفة أنهما من السنن المؤكدة، أراد بذلك الوجوب.

ولكن المشهور عند الحنفية أنهما من السنن لا الواجبات.

ولا فرق عندهم بين الأذان والإقامة من حيث تكرار الألفاظ. وعند المالكية، والحنابلة، والشافعي، أن الإقامة بالإفراد إلا لفظ قد قامت الصلاة فقال أحمد، والشافعي: إنهما مرتان»[١].

جاء في كتاب (الإمام زين العابدين) تأليف العلامة المتبحر (السيد عبد الرزاق المقرم) تحت عنوان (فقه الشريعة) ما نصه:

«وحكاية الأذان في المعراج جاءت به رواية محمد ابن الحنفية عن أبيه[٢]، وخرجه الطبراني من طريق سالم بن عبدالله بن عمر، والدارقطني في الإفراد من حديث أنس[٣] وأبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق البزار من حديث زياد بن المنذر عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عن الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب[٤] والشيخ الكليني من طريق زرارة، والفضيل عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام قال: «لما أُسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء وبلغ البيت المعمور أذن جبرائيل وأقام وتقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصلى بالأنبياء والملائكة».

ومن طريق منصور بن حازم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إن جبرائيل هبط بالأذان على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان رأسه في حجر أمير المؤمنين، فأذن وأقام، فلما انتبه النبي سأل أمير المؤمنين عما سمعه ووعاه من الأذان، فقال: نعم قال: علمه بلالاً».

من هذا يتجلى أن الأذان كبقية الأحكام الموحى بها إلى نبي الإسلام، وهو

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٣.

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٣٧٩.

(٤) الروض الأنف للسهيلي ج٢ ص ٢٠. وشرح الشفا للخفاجي ج٢ ص ٣٠٧. والفتاوى الحديثة لابن حجر ص ١٥٢.

(صلوات الله عليه وعلى آله) وإن كان مسدداً بالفيض الأقدس ومستغنياً بالإرادة الإلهية عن الاستعانة بأي أحد، فقد صدرت منه المشاورة مع أصحابه لأجل أن يعرفهم خطأ الاستبداد بالرأي، والتعريف بأن الرجل مهما بلغ الرتبة العالية في الإدراك، قد يضل في الرأي، فكانت الصحابة تبصر من أشعة أمره بالاستشارة فوائد مهمة، إلا أن مشاورته مع أصحابه مقصورة على الأمور العادية وما يتعلق بمصالح الحرب، وأما الأحكام الإلهية الشرعية فلا مجال للتشاور فيها[١].

ومنها الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام الثابتة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾[٢] وغيره، لأنها لا تصدر إلا من حكيم عليم بالمصالح الباعثة عليها، والمفاسد الموجبة للزجر بوحيها إلى من حباه بالسفارة الكبرى فيبلغها العباد ويرشدهم إلى الطريقة المثلى.

والأذان بما أنه نداء للأمة ودعوة للانقياد إلى (الحق) عزَّ شأنه وبه التأهب لما هو (معراج المؤمن) لا يعدوه الوحي الإلهي، مضافاً إلى وقوف الرسول الأطهر صلى الله عليه وآله وسلم عليه ليلة الإسراء التي صلى فيها بالأنبياء والملائكة، غير أن تدرج التشريع في الأحكام أرجأ الأمر به إلى ما بعد الهجرة كغيره من الفرض والمندوب والمكروه، إن لم نقل به قبل الهجرة. كما يدل عليه قوله تعالى في حم السجدة ٣٣: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين**﴾.

ففي السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٠ نقلاً عن الدر المنثور (للسيوطي)، إنها نزلت بمكة في شأن المؤذنين، ووافقه ابن العربي في أحكام القرآن ج٢ ص ٢١٣، والآلوسي في روح المعاني ج ٢٤ ص ١٢٢، والشيخ الطوسي في التبيان ج٢ ص ٥٤٧، غاية الأمر ذهبوا إلى تأخر حكمه إلى ما بعد الهجرة.

وقد أجمعت الإمامية على كون الأذان مما نزل به الوحي الإلهي كبقية الأحكام حتى عدوه من ضروريات مذهبهم، وإليه تنبه الشهاب الخفاجي، فقال: «الظاهر أن الأذان ثبت بحديث الإسراء، ولم يبين زمانه، ولم يمكن إعلامه قبل الهجرة، فأخَّر ذلك حتى يستقر ظهور الدين»[٣] ويشهد له حديث أنس بن مالك قال: لما تذاكر الناس

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٣) شرح الشفا ج٢ ص ٣٠٧ ط سنة ١٣٢٦.

فيما يعلمون به وقت الصلاة من إشعال النار أو الضرب بالناقوس، أمر النبي ﷺ بلالاً أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة[١].

وإني لم أرتإِ هذه الكيفية للأدلة القوية على خلافه، إلا أن المماشاة مع أحاديثهم دعت إلى تسجيله، فالنبي ﷺ لو لم يكن واقفاً على كيفية الأذان لا يسعه الأمر به، وذكر الزمخشري والفخر الرازي: إن قوله تعالى في المائدة ٥٨: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ دال على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده[٢].

وقال البيضاوي: فيها دلالة على مشروعية الأذان للصلاة[٣].

ونقل العيني عن الداودي: أن جبرائيل نزل بالأذان على النبي ﷺ قبل أن يخبره عبد الله وعمر بثمانية أيام[٤] وعليه فهل يبقى مجال للتشاور في الإعلام بالوقت بحضرة الرسول ﷺ وقد عرف الأذان بالوحي.

هذا ما وقفنا عليه مما دل على تشريع الأذان كما هو مذهب الإمامية. ولكن الطائفة الأُخرى من المسلمين خرقوا قدس التشريع بإخراج الأذان عن سنن الوحي، معتمدين على رؤيا عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري، بتلفيق ما يحط من كرامة الإسلام وصاحب الدعوة الإلهية، فقالوا: إن النبي ﷺ لما دخل المدينة بقي مدة يصلي بلا أذان، فشق على المسلمين معرفة الوقت وتشاوروا بحضرة الرسول الأعظم ﷺ فيما يرشدهم إلى أوقات الصلاة، فارتأى بعضهم الضرب بالناقوس، وآخر النفخ بالشبور (بتشديد الموحدة) وهو البوق وثالث إشعال النار، ورابع رفع الراية، وخامس النداء بالشوارع، فلم يرغب فيها (نبي التشريع الإلهي)، وبقي متحيراً لا يدري ما يصنع، إلى أن كشف هذه الكربة منام عبد الله بن زيد، فإنه رأى رجلاً يحمل ناقوساً فأراد ابتياعه منه ليضرب به النبي ﷺ في الأوقات فأرشده الرجل إلى الأذان، وتعلمه منه ثم قصه على النبي ﷺ ففرح وأمره أن يعلمه بلالاً، فلما نادى به بلال

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص ١٠٠. وصحيح مسلم ج١ ص ١٥٠. وسنن البيهقي ج١ ص ٣٩٠ وسنن النسائي ج١ ص ١٠٢. وعمدة القاري ج٢ ص ٦١٨ عن ابن حبان. ومسند أبي عوانة ج١ ص ٣٢٦ عن ابن عمر.

(٢) تفسير الكشاف ج١ ص ٣٤٨. وتفسير الرازي ج٣ ص ٤٢٣.

(٣) تفسير البيضاوي ج١ ص ٣٤٦.

(٤) عمدة القاري شرح البخاري ج٢ ص ٦٢٣. والزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٣٧٨.

خرج (عمر) يجر رداءه صارخاً إني رأيت كما رأى عبد الله[١]. وتصرح بعض رواياتهم أن عمر وبلالاً سمعا أذان جبرائيل في السماء، فسبق عمر بلالاً وأخبر رسول الله بما سمعه، فقال ﷺ لبلال: سبقك عمر[٢]. وتكلف السيوطي في إخراج القصة عن المنام بأنها مكاشفة تعتري الأولياء وأرباب المشاهد[٣]. ولا يدري المنجم وجه اختصاص الكشف بعبد الله دون (من كان من ربه قاب قوسين أو أدنى).

هذا كل ما في علبة القوم مما هو ملحق بخرافة الغرانيق وأمثالها، المنزه عنه جلال النبوة، لو لم تكن القصة مدبرة بليل، أرادوا من إثبات التشاور في الأحكام الإلهية بحضرة من تنزل عليه، التوصل إلى تصحيح الشورى في الخلافة الكبرى. وحكاية سماع عمر أذان جبرائيل في السماء وتصديق النبي ﷺ إياه، مما يهون التصرف في الأحكام بالوضع والرفع، ولا يكون من العسير تشريع التراويح التي يقول فيها نعمت البدعة هذه[٤]. ومعلوم أن البدعة ما حدث في الشريعة ولم يسنه الشارع[٥] كتحريم المتعتين وإحداث التثويب (وهو قول المؤذن في صلاة الصبح الصلاة خير من النوم)[٦] وإسقاط حي على خير العمل من الأذان، مع أنه ثابت على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، ولم يعبأ في الإسقاط زيد بن أرقم وابن عمر وأبو أمامة بن سهل ابن حنيف، والإمام السجاد يجاهر بثبوته في الأذان الأول بعد حي على الفلاح، فكان هؤلاء الجماعة يأتون به في أذانهم[٧]. ويتحدث برهان الدين الحلبي: أن زين العابدين وابن عمر يأتيان به، ولم تتركه الرافضة أيام البويهيين إلى تملك السلجوقيين سنة ٤٤٨ فألزموهم بالترك[٨]. ولكن أهل كرخ بغداد بالرغم من إعمال السلطان قوته لم يتطامنوا

---

(١) مسند أحمد. صحيح الترمذي موطأ مالك. سنن البيهقي. سنن السجستاني. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية. سيرة ابن هشام. نور اليقين للخضري.

(٢) شرح ابن العربي على صحيح الترمذي. والزرقاني على المواهب اللدنية. والروض الأنف. والسيرة الحلبية.

(٣) السيرة الحلبية، ج٢ ص ١٠١.

(٤) صحيح البخاري ج١ باب التراويح.

(٥) عمدة القاري ج٥ ص ٣٥٦.

(٦) نيل الأوطار ج٢ ص ٣٣.

(٧) المحلى لابن حزم ج٣ ص ١٦٠. وسنن البيهقي ج١ ص ٤٢٥. ونيل الأوطار ج٢ ص ٣٣.

(٨) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٥.

إلى تركه، واستمرأوا ذعاف الموت في سبيل إقامة هذا الشعار الإلهي وهان عليهم ما يلاقونه من الحرق والنهب والتنكيل بإزاء مظاهر التشيع، ومن ذلك ما كتبوه على أبواب الدور والأزقة (علي خير البشر)، ولا أهمهم إنكار الفرقة المقابلة لهم، كما لم يوافقوهم على رواية الحديث «محمد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر» حتى ثارت من جرائه فتنة أدت إلى النهب في الطرقات(١). كل ذلك بإزاء تركيز اسم أمير المؤمنين صاحب الخلافة الإلهية، وأقاموا في جامع (براثا) الذي يسميه ابن كثير الحنبلي (معدن الرفض) الخطبة يوم الجمعة، وذكروا أمير المؤمنين عليه السلام بما وصفه الله تعالى به، وأنه محيي الموتى ومكلم الجمجمة، ومكلم أهل الكهف، وجهروا في الأذان (بحي على خير العمل) فلم يهضم ذلك مقابلوهم وثاروا على القادر العباسي، فأرسل الخطيب ابن تمام فأقام الخطبة في جامع (براثا) وقصر من مدح أمير المؤمنين عليه السلام فثار عليه رجال من الشيعة بالآجر حتى كسروا أنفه وأدموا وجهه وخُلع كتفه وذهبوا إلى داره فنهبوها(٢). وفي هذا الجامع كان أبو العباس أحمد بن عقدة (من أعاظم رجال الشيعة)، يحدث في فضل أهل البيت عليهم السلام، فإنه يحفظ ستمائة ألف حديث، ثلاثمائة ألف منها في فضائل المعصومين من أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويذكر ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحابة (٣). وكانت هذه المظاهرات بمرأى من أكابر الطائفة وأعلام الدين، كالمفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي مع نفوذهم وسيطرتهم، حتى أصابهم من جرائها نهب دورهم وحرق كتبهم، ولم يسلم المرتضى حتى عبر إلى دار الخلافة(٤) ونفي عميد الجيوش الشيخ المفيد إلى خارج بغداد ولم يرجعه إلا بشفاعة علي بن مزيد الحلي(٥) وهرب الشيخ الطوسي إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن أُحرقت كتبه ونهب أثاث بيته(٦). مع أن أحاديث التقية بمرأى من هؤلاء الأعلام

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ج٨ ص ١٤٩ حوادث ٤٤٣.

(٢) مرآة الجنان لليافعي ج٣ ص ٣٥ حوادث سنة ٤٢٠.

(٣) تاريخ بغداد ج٥ من ص ١٤ إلى ص ٢٣ والبداية لابن كثير ج١١ ص ٣٣٢.

(٤) المنتظم لابن الجوزي ج٨ ص ٢٥ سنة ٤١٧.

(٥) مختصر تاريخ دول الإسلام للذهبي ج١ ص ١٨٦، ذكر نفيه من بغداد، وفي كامل ابن الأثير ج٩ ص ٧٢ حوادث سنة ٣٩٨ ذكر شفاعة ابن مزيد.

(٦) البداية ج١٢ ص ٦٩ قال: نهبت دار أبي جعفر الطوسي، وفي ص ٧١ قال: كبست العامة داره وأحرقت كتبه ودفاتره التي كان يستعملها في ضلالته وبدعته ويدعو إليها أهل ملته ونحلته والحمد لله، وفي ص ٩٧ قال: توفي فقيه الشيعة أبو جعفر محمد بن الحسن =

أقطاب المذهب، لكنهم علموا أن إبقاء المعاندين لهم على ما هم عليه مما يقضي على التشيع ويزلزل العقائد عن مراكزها، ويذهب كل ما تحمله الأئمة في سبيل تثبيت الدين الحنيف أدراج الأضاليل، فرأوا من الصلاح المجاهرة بدعوة الحق حتى لا يعذر الغافل يوم الدين، وهذه الناحية هي التي ألزمت حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وميثم التمار وكميل بن زياد والفرزدق والكميت ودعبل، إلى أمثالهم من رجالات الشيعة النهضة وخرق التقية، وإلا فالتقية كما تمضي على أهل الكرخ وغيرهم تمضي على أولئك الرجال (عمد الإسلام)، والعمل بالتقية في تلك الأزمان إماتة للمبدأ الصحيح، مع أنا لا نقول بطرح أخبار التقية بل لها تخريج آخر».

ألفاظ الأذان:

لا خلاف بين المسلمين بأن للأذان ـ وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة ـ ألفاظا مخصوصة، ولكن الخلاف في لفظتين وهما: (حي على خير العمل) بعد قوله (حي على الفلاح) كما يذهب إليه الشيعة.

والثانية قول: (الصلاة خير من النوم) بعد قول: (حي على الفلاح) وصورة الأذان عند الشيعة بالإجماع:

الله أكبر أربع مرات، أشهد أن لا إله إلا الله مرتان، وأشهد أن محمداً رسول الله مرتان، حي على الصلاة مرتان، حي على الفلاح مرتان، ثم حي على خير العمل مرتان، ثم الله أكبر مرتان، ثم لا إله إلا الله مرتان. وإقامة كذلك، إلا أن فصولها مرتان، وقول لا إله إلا الله في آخرها مرة واحدة. ويزاد فيها بعد حي على خير العمل وقبل التكبيرات: قد قامت الصلاة مرتان.

ولا خلاف عند جميع المذاهب في ذلك إلا في أمرين:

١ ـ تكرار الألفاظ في الأذان والإقامة، فمنهم من يوافق الشيعة في ذلك، ومنهم من يقول: بأن الأذان مرتان، والإقامة مثلها. ومنهم من يقول: إن الأذان مرتان، والإقامة مرة، وعند المالكية أن التكبير الأول في الأذان مرتان.

= الطوسي سنة ٤٦٠ في مشهد علي عليه السلام وكان مجاوراً فيه حين أحرقت داره بالكرخ، وكتبه سنة ٤٤٨ إلى محرم هذه السنة فتوفي ودفن هناك اهـ، فتكون مدة مجاورته في النجف سنتين.

٢ ـ كلمة (حي على خير العمل) كما تذهب الشيعة إلى جزئيتها. وكلمة (الصلاة خير من النوم) كما تذهب إليه بقية المذاهب، ولا بد لنا من الإشارة هنا حول ذلك.

أما كلمة (حي على خير العمل): فإن الثابت من طريق أهل البيت عليهم السلام أنها جزء من الأذان والإقامة، وقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: إنه هو الأذان الأول (أي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كما أخرجه البيهقي في سننه الكبرى.

وقال الإمام الباقر عليه السلام: وكانت هذه الكلمة (حي على خير العمل) في الأذان، فأمر عمر بن الخطاب أن يكفوا عنها مخافة أن تثبط الناس عن الجهاد، ويتكلوا على الصلاة. (انظر البحر الزخار).

وحكى سعد الدين التفتازاني (في حاشيته على شرح العضد) عن عمر أنه كان يقول: «ثلاث كن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا أُحرمهن، وأنهى عنهن: متعة الحج، ومتعة النكاح، وحي على خير العمل».

وذكر (القوشجي) في أواخر مباحث الإمامة من (شرح التجريد) وهو من أئمة المتكلمين على مذهب الأشاعرة: «ثلاث كن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أنهى عنهن، وأحرمهن، وأُعاقب عليهن: متعة النساء ومتعة الحج، وحي على خير العمل».

وروى البيهقي بسند صحيح عن ابن عمر أنه كان يؤذن بحي على خير العمل.

وقال ابن حزم: وقد صح عن ابن عمر، وأبي أمامة أنهم كانوا يقولون: حي على خير العمل. (المحلى).

وروى المحب الطبري في أحكامه عن زيد بن أرقم: أنه أذن في حي على خير العمل.

وقال الشوكاني نقلاً عن كتاب الأحكام: وقد صح لنا أن حي على خير العمل كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤذن بها، ولم تطرح إلا في زمان عمر. وهكذا قال الحسن بن يحيى. (نيل الأوطار).

وروى محمد بن منصور في كتابه (الجامع) عن أبي محذورة أحد مؤذني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أقول في الأذان حي على خير العمل».

وفي الشفاء عن هذيل بن بلال المدائني قال: سمعت ابن أبي محذورة يقول: حي على خير العمل. (البحر الزخار).

وفيه أيضاً عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن خير أعمالكم الصلاة» وأمر بلالاً أن يؤذن حي على خير العمل.

وقال برهان الدين الشافعي في (سيرته): ونقل عن ابن عمر وعن علي بن الحسين أنهما كانا يقولان: حي على خير العمل، بعد حي على الفلاح (السيرة).

والخلاصة أن الشيعة قد أجمعوا على لزوم الإتيان بلفظ حي على خير العمل لأنها ثابتة على عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أمر أهل البيت عليهم السلام أتباعهم بذلك، فكانت شعارهم في جميع أدوار التاريخ.

والأمر الثاني هو: كلمة (الصلاة خير من النوم) والشيعة لا يجيزون ذلك وذهب الشافعي في قوله الجديد إلى الكراهة.

إذ من المعلوم أن هذه اللفظة لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأول من جعلها في الأذان عمر بن الخطاب.

جاء في موطأ مالك أن المؤذن جاء عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح فوجده نائماً، فقال المؤذن: الصلاة خير من النوم فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح. (موطأ مالك في هامش مصابيح السنة للبغوي).

وقال الإمام علي عليه السلام عندما سمع ذلك: لا تزيدوا في الأذان ما ليس منه.

وأما ما يدعى من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بلالاً أن يقول: الصلاة خير من النوم في الأذان، فهو غير صحيح لا يقره التحقيق وذلك أن الذي روى عن بلال ذلك هو عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهذا غير صحيح، لأن ولادة عبد الرحمن كانت سنة ١٧ من الهجرة النبوية، وتوفي سنة ٨٤ (انظر تهذيب الأسماء واللغات لمحيي الدين النووي). ووفاة بلال سنة ٢٠ من الهجرة، فكيف يصح أن يروي عن بلال وعمره ثلاث سنين، هذا شيء غريب؟!

وادعى أيضاً بأن بلالاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجده راقداً، فقال: الصلاة خير من النوم. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أحسن هذا اجعله في أذانك. وهذا لا يصح أيضاً، لأن الراوي هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المتوفى سنة ٢٨٢، عن أبيه زيد بن أسلم عن بلال. وعبد الرحمن ضعيف الحديث لا يعتمد عليه، كما نص على ذلك أحمد، وابن المديني، والنسائي، وغيرهم.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى إن زيداً لم يسمع من بلال، لأن ولادة زيد كانت

سنة ٦٦ هجرية ووفاته سنة ١٢٦ هجرية. فكيف يصح سماعه من بلال، وهو لم يولد إلا بعد وفاة بلال بست وأربعين سنة؟!!.

وعلى أي حال فإن المقطوع به أن التثويب لم يكن على عهد النبي ﷺ وأن هذه الكلمة كانت في أيام عمر. وبدون شك أن الأذان كان بأمر من الله ووحي أنزله على نبيه ﷺ.

وقد أنكر الحسين بن علي عليه السلام عندما سمع الناس يتحدثون عن رؤيا عبد الله ابن زيد في تشريع الأذان، فغضب وقال: «الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبد الله بن زيد! والأذان وجه دينكم، ولقد سمعت أبي علي بن أبي طالب يقول: أهبط الله ملكاً عرج برسول الله ﷺ إلى السماء.... الحديث».

***

ضبط الشهادة الثالثة:

والمجال وسيع لتخطيط الشهادة الثالثة التي يقيمها الشيعة في الأذان والإقامة (أشهد أن علياً ولي الله) ولعلها المسألة المفتقرة للبحث والتمحيص، لما وقع حولها من الملابسات وطول الكلام بين الشيعة وغيرهم، ونكتفي هنا بتدوين كلمة العلامة المتبحر السيد عبد الرزاق المقرم (حفظه الله)، التي رسمها في كتابه (سر الإيمان) حيث استوفى الغرض وألمَّ به من جميع نواحيه، ولم يترك فوهة لقائل أو متردد. قال (أبقاه الله):

«وإني لا أظن بمن يفقه أسرار ما نصت به الأحاديث وما اقتضته ملابسات الأحوال، التباعد عن الإيمان باستحباب الجهر بالولاية (لسيد الأوصياء) عليه السلام بعد الشهادتين، وهو يعرف أنها من كمال الدين وإتمام النعمة على الأمة، كما يقرأ ليله ونهاره ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[1]. وعلى هذا فقد جاء الأمر من أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فليقل علي أمير المؤمنين»[2] والحديث لم يتقيد بزمان ولا مكان ولا في فعل خاص، فهو عام يشمل (الأذان والإقامة) وغيرهما. والعلماء الأعلام ساندوا الروايات الواردة في المستحبات

(١) سورة المائدة، الآية ٣.
(٢) الاحتجاج.

المحتملة الصدق بأخبار صحح بعضها شيخنا المجلسي، عرفت بينهم بأخبار التسامح في أدلة السنن، منها ما يرويه الشيخ الجليل الثقة أبو جعفر أحمد بن محمد البرقي المتوفى سنة ٢٧٤ هجرية، عن أبيه عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «من بلغه عن النبي صلى الله عليه وآله شيء من الثواب فعمله كان له أجر ذلك وإن كان رسول الله لم يقله»[1]. فأصبح ما تضمنته هذه الأحاديث قاعدة مطردة بينهم.

والآراء وإن كانت حرة، وباب الاجتهاد مفتوح لكل من درس العلم وبحث في أصول الشريعة، بيد أن الخطأ في الرأي لم يتنزه عنه إلا من أودع الله العصمة فيهم وبوّأهم أوعية العلم ما كان وما يكون (صلوات الله عليهم)، فمن لم يؤمن بهذه الأخبار لضعفها عنده لا نضايقه على ما يرتئيه، ولكن لا يصح له أن يفرض رأيه على من ثبت لديه صحة إسناد هذه الروايات ووضحت له دلالتها ومغزاها.

وعلى هذا الأساس الذي قررناه، ترى أعلام الإمامية من عهد بعيد يصارحون في رجحان الشهادة بالولاية لعلي بن أبي طالب مع الشهادتين في الأذان والإقامة وغيرهما، لا يردعهم عنها وقفة غيرهم، مهما عظمت مكانته في العلم. نعم لم يذهبوا إلى عدها من أجزاء فصولها، وإن لم يستبعد الجزئية المجلسي وصاحب الحدائق والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء. وآية الله السيد ميرزا إبراهيم الاصطهباناتي النجفي يعتقد الجزئية واقعاً، ولكن الظرف لم يساعد النبي على إعلام الأمة بها، والشهادة بالولاية بناء على عدم كونها من أجزاء الأذان لا تفقد الاستحباب المطلق والرجحان الذاتي الذي أفادته الأخبار المتضمنة للدعوة إلى الولاية على اختلاف ألفاظها، ولا يرمى فاعلها بالضلالة والبدعة.

رأي الشيخ الصدوق:

يتجلى للمتأمل في كلام الشيخ الصدوق عدم تباعده عن الإذعان بمحبوبية الشهادة لأمير المؤمنين عليه السلام على الإطلاق، فإنه في كتابه (من لا يحضره الفقيه) بعد أن روى عن أبي بكر الحضرمي وكليب الأسدي، عن الصادق عليه السلام فصول الأذان والإقامة، وكانت الرواية خالية عن ذكر الشهادة الثالثة، قال ما هذا نصه: «هذا هو

(١) المحاسن ج١ ص ٢٥. وروى الكليني نحوه في الكافي على هامش مرآة العقول ج٢ ص ١٠٦ باب من بلغه ثواب. والخطيب في تاريخ بغداد ج٨ ص ٢٩٦. والمناوي في الفيض القدير ج٦ ص ٩٥.

الأذان الصحيح لا يزاد فيه ولا ينقص، والمفوضة وضعوا أخباراً وزادوا في الأذان محمداً وآله خير البرية مرتين، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن علياً أمير المؤمنين مرتين، ومنهم من روى بدل ذلك أشهد أن علياً أمير المؤمنين حقاً مرتين، ولا شك أن علياً ولي الله وأنه أمير المؤمنين وأن محمداً وآله خير البرية، ولكن ليس ذلك من أصل الأذان، وإنما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتهمون بالتفويض المدلسون أنفسهم في جملتنا» انتهى بحروفه.

ولم يخف على القارىء النابه غرضه ومراده، فإنه بصدد نفي جزئية الشهادة الثالثة في الأذان ردّاً على المفوضة المثبتين جزئيتها فيه من جهة خلو ما استصحه من الأخبار الشارحة لفصوله، ولم يكن غرضه نفي محبوبية الشهادة بالولاية على نحو يحكم بالضلال على من يأتي بها لأجل الرجحان المطلق المستفاد من كثير من الأخبار المقارنة بين الشهادتين والشهادة الثالثة كما عرفتها فيما تقدم، بل قوله الأخير: (لاشك أن علياً ولي الله وأنه أمير المؤمنين، وأن محمداً وآله خير البرية ولكن ليس ذلك من أصل الأذان). يفسر لنا رأيه وإيمانه في رجحان الشهادة بالولاية حتى في الأذان، لكن لا على أن يكون من أصله بل من جهة المحبوبية المطلقة، وعلى هذا فلا يصح أن ينسب إليه (نور الله ضريحه) اعتقاد عدم رجحان الشهادة بالولاية في الأذان لا بقصد الجزئية.

وليت شيخنا الصدوق ذكر لنا تلك الأخبار التي نسبها إلى المفوضة، لنعرف مقدار ما نصت به من الجزئية أو غيرها، ولننظر في رجال السند لنعرف الثقة في النقل من غيره، فإن كثيراً من الأخبار ناقش المتقدمون من العلماء (رضوان الله عليهم) في أسانيدها ودلالتها، وخالفهم المتأخرون فصححوا السند كما استوضحوا الدلالة (وكم ترك الأول للآخر) على أنه (أعلى الله مقامه)، اعترف بورود الأخبار الدالة على جزئية الشهادة الثالثة، غاية الأمر ردها بأنها من وضع المفوضة، فاعترافه بورودها رواية ورده لها دراية (والرواية لا تعارضها الدراية)، ورأيه وإن كان محترماً لأنه من أقطاب المذهب وأعلام الملة، ولولاه وأمثاله لاندرست أحاديث الشريعة الحقة، إلا أن العصمة عن الخطأ مختصة بالمعصومين عليهم السلام.

وبالجملة، لم يظهر من كلام الصدوق أنه يرى نفي محبوبية الشهادة الثالثة في الأذان وإنما كان بصدد نفي الجزئية، لأنه في مقام الرد على المفوضة القائلين بالجزئية في زعمه كما قال: «إنما ذكرت ذلك ليعرف المتهمون المدلسون أنفسهم في جملتنا»، واسم الإشارة يعود إلى الجزئية التي رواها المدلسون، ولا يكاد يشك متأمل فيما

أوضحناه من غرضه ومراده، ولو تنازلنا وقلنا بأن له رأياً في المنع عن الشهادة الثالثة حتى بنحو الرجحان المطلق، فلا يكون رأيه حجة ولا يجب علينا تقليده فيما ذهب إليه، خصوصاً لم نجد أحداً من أعلام الإمامية من عهد المجلسي المتوفى سنة ١١١٠ إلى اليوم من يفتي بعدم الاستحباب المطلق للشهادة الثالثة في الأذان، ونصوص فتواهم التي ستقرأها تنادي بالرجحان المطلق الذي دلت عليه العمومات، فهل يعقل خفاء الحكم عليهم أجمع، وسيتبين لك من الشيخ الطوسي والشهيدين الذهاب إلى عدم المنع منها أيضاً.

ثم إن جملة من الرجال رماهم (القميون) بالتفويض والغلو لإكثارهم من ذكر فضائل الأئمة بما يرفعهم إلى فوق مستوى البشر، كما هو كذلك، حسب النصوص المتواترة معنى، ولم يكن غرضهم من ذكر تلك الروايات إثبات تفويض الخلق والرزق إليهم عليهم السلام كما هو رأي (المفوضة). وحديث أهل البيت صعب مستصعب لا يتحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان، وليس كل ما يذكر من المنازل العالية لأهل البيت عليهم السلام مستلزم للقول بالغلو والتفويض، فلقد ورد في أحاديث كثيرة «نزهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم».

ولعل هؤلاء الذين نسبهم الصدوق إلى التفويض من هذا القبيل، فكان من المناسب ذكر أسمائهم ليعرفهم أهل التنقيب من أي طائفة، ولقد أوضح المحققون من العلماء سلامة جماعة من الرجال المنسوبين إلى الغلو والتفويض، كما يتجلى ذلك لمن نظر في كتب الرجال.

رأي الشيخ الطوسي والشهيد:

إن شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وإن نفى جزئية الشهادة الثالثة في الأذان، لكنه حكم بعدم عصيان من يأتي بها، قال في كتابه (المبسوط) في فصل الأذان: «فأما قول أشهد أن علياً أمير المؤمنين وآل محمد خير البرية على ما ورد في شواذ الأخبار، فليس بمعمول عليه في الأذان ولو فعله الإنسان لم يأثم به».

وهذه العبارة حكاها الشهيد الأول محمد بن مكي المتوفى سنة ٧٨٦ في (البيان) من دون تعقيب، فلو كان الإتيان بالشهادة بولاية علي عليه السلام بدعة وضلالة لكان المؤذن عاصياً بفعله، فحكمهما بعدم الإثم يدلنا على المحبوبية عندهما غاية الأمر لا بقصد الجزئية، ودعوى شذوذ الأخبار لا يخرجها عن احتمال الصدق، فتكون مشمولة

لأخبار التسامح في أدلة السنن ومعه تتم دعوى جزئيتها من الأذان إن كان لسانها الجزئية، فيقال: قام الخبر على جزئية الشهادة بالولاية من الأذان، والعمل به مجبور بأخبار التسامح، فتكون النتيجة صحة العمل على طبقه ولو بعنوان الجزئية على نحو الاستحباب.

فتوى الشهيد الثاني:

وقد اقتفى أثرهما الشهيد الثاني زين الدين علي بن أحمد العاملي الجبعي، المتوفى سنة ٩٦٦ في (الروضة)، فإنه بعد أن منع من إدخال قول محمداً وآله خير البرية أو خير البشر، وأن علياً ولي الله في فصول الأذان، لكونه من العبادة المفوضة شرعاً قال: «ولو فعل هذه الزيادة أو أحدها أثم اعتقاده ولا يبطل الأذان بفعله وبدون اعتقاد ذلك لا حرج عليه».

فدل هذا الكلام على أن هذه الشهادة محبوبة في الواقع للشارع، غاية الأمر لا تعد من أجزاء الأذان وفصوله لكونه عبادة محدودة الأجزاء والشرائط فالمؤذن إذا جاء بهذه الزيادة: وهي إن محمداً وآله خير البرية، وأن علياً ولي الله، لم يأت بما هو مبغوض للشارع، لكون هذه الشهادة محبوبة له بمقتضى العمومات إلا أنه إذا قصد كونها من جملة فصول الأذان وأجزائه أثم في هذا الاعتقاد خاصة لكونه نوى شيئاً لم يجعله الشارع جزءاً، وهذا معنى قوله رحمه الله: «أثم في اعتقاده ولا يبطل الأذان بفعله»، وإذا لم يقصد المؤذن جزئية الشهادة لعلي بالولاية، بأن قصد المحبوبية المطلقة فلم يتعد الحدود الشرعية. وإلى هذا أشار (أعلى الله مقامه) بقوله «وبدون ذلك لا حرج عليه» فتحصل أن الشهيد الثاني في هذا الكلام لا يمنع من الإتيان بالشهادة الثالثة إذا لم يكن بقصد الجزئية، وما ذكرناه يفهمه كل أحد من هذه العبارة المذكورة في شرح اللمعة.

وإذا كان الشيخ الطوسي في المبسوط، والشهيد الأول في البيان ينفيان ارتكاب الإثم والعصيان عمن يأتي بالشهادة الثالثة في الأذان والشهيد الثاني ينفي الحرج عمن يأتي بها لا باعتقاد الجزئية، فهل يسوغ المذهب أن ينسب إلى هؤلاء الأعلام الحكم بعصيان كل من يأتي بالشهادة الثالثة حتى مع عدم اعتقاد الجزئية.

فتوى العلماء في الشهادة الثالثة:

لقد استضاء العلماء الأعلام من الأحاديث المستفيضة الحاكمة برجحان الشهادة

لأمير المؤمنين بالولاية، فصارحوا في الحكم بمحبوبيتها وجهروا بها، ولم يسمع من أحد إنكارها ولا ردع من جاء بها، وجلهم لم يعتقد الجزئية من الأذان التي لم يستبعدها المجلسي (المولى محمد باقر، والشيخ يوسف البحراني، والمحقق النراقي، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قدس الله أسرارهم) والجميع أعلنوا الفتوى باستحبابها بعد الشهادتين. وإلى القراء أسماء العلماء الماضين (رحمهم الله)، الذين سجلوا في كتبهم الاستدلالية ورسائلهم العملية آراءهم واعتقادهم مرتبين على سني وفياتهم:

١ ـ شيخنا مجدد المذهب المجلسي محمد باقر المتوفى سنة ١١١٠ قال في البحار ج٨ ص ١٦٢: «لا يبعد كون الشهادة بالولاية من الأجزاء المستحبة في الأذان، لشهادة الشيخ الطوسي والعلامة والشهيد، بورود الأخبار بها، غاية الأمر لم يعملوا بها لدعواهم شذوذها، ومما يؤيد هذه الأخبار ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن القاسم ابن معاوية عن الصادق عليه السلام وذكر الحديث إلى أن قال في آخره: «إذا قال أحدكم: لا إله إلا الله محمد رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين» ثم قال المجلسي: وهذا الخبر يدل على الاستحباب عموماً، والأذان من هذه المواضع، ولو قال المؤذن والمقيم، لا بقصد الجزئية بل بقصد البركة، لم يكن آثماً وهذا من أشرف الأدعية والأذكار» انتهى.

٢ ـ وبعد أن نقل هذا الكلام الشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١٢٨٦ في (الحدائق) في فصل الأذان قال: هو (جيد).

٣ ـ وقال الوحيد البهبهاني المولى محمد باقر المتوفى سنة ١٢٠٦ في حاشيته على المدارك عند ذكر الترجيع: «لقد ورد في العمومات: متى ذكرتم محمداً صلى الله عليه وآله فاذكروا آله، ومتى قلتم محمد رسول الله قولوا علي أمير المؤمنين، كما رواه في الاحتجاج، فيكون حال الشهادة بالولاية حال الصلاة على محمد وآله بعد قول المؤذن أشهد أن محمداً رسول الله في كونه خارجاً عن الفصول ومندوباً».

٤ ـ السيد محمد مهدي الطباطبائي المشتهر ببحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ قال في المنظومة في الفصل المتعلق بالأذان:

وأكمل الشهادتين بالتي	قد أكمل الدين بها في الملّه
وأنها مثل الصلاة خارجة	عن الخصوص بالعموم والجلّه

فالسيد (نوّر الله ضريحه) جعل الشهادة الثالثة من مكملات الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالرسالة، واستدل على هذا بأن الله (جلَّ شأنه) أكمل بها

الدين حيث يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1]. ثم قارن (رضوان الله عليه) بين الشهادة بالولاية في الأذان وبين الصلاة على محمد وآله فيه عند ذكر اسمه، فكما يستحب للمؤذن إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله أن يقول: اللهم صل على محمد وآله، فكذلك يستحب أن يقول: أشهد أن علياً ولي الله، وكما أن الصلاة على محمد وآله عند شهادة المؤذن بالرسالة لا تخل بالأذان، فكذلك الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية لا تخل فيه، والدليل عليهما العمومات الدالة على الرجحان.

٥ ـ الشيخ الأكبر الشيخ جعفر المتوفى سنة ١٣٢٨ في (كشف الغطاء) بعد أن منع من جعل الشهادة الثالثة من فصول الأذان قال: «ومن قصد ذكر أمير المؤمنين لإظهار شأنه، أو لمجرد رجحانه لذاته، أو مع ذكر رب العالمين، أو ذكر سيد المرسلين، كما روي ذلك فيه وفي باقي الأئمة الطاهرين أُثيب على ذلك».

٦ ـ الشيخ محمد رضا جد الشيخ محمد طه نجف من تلامذة الشيخ الأكبر كاشف الغطاء، على ما ذكره الحجة الشيخ آغا بزرك الطهراني، قال في (العدة النجفية) (شرح اللمعة الدمشقية)، عند ذكر كيفية الأذان: «الذي يقوى في النفس أن السر في سقوط الشهادة بالولاية في الأذان إنما هو التقية، ومعه فقد يكون هو الحكمة فيطرد، نعم لو قيل لا بقصد الجزئية لم يبعد رجحانه».

٧ ـ السيد علي الطباطبائي المتوفى سنة ١٢٣١ قال في (الرياض) عند الكلام على الترجيع: «التشريع المحرم هو أن يعتقد شرعية شيء من دون استناد إلى شيء، وأما مع الاستناد إلى سبب فلا يكون بدعة، ومنه يظهر جواز زيادة أن محمداً وآله خير البرية، وكذا علياً ولي الله مع عدم قصد الشرعية في خصوص الأذان، إلى أن قال: بل يستفاد من بعض الأخبار استحباب الشهادة بالولاية بعد الشهادة بالرسالة».

٨ ـ الميرزا أبو القاسم القمي صاحب (القوانين) المتوفى سنة ١٢٣١ قال في (الغنائم) ص ١٧٠، بعد نقل كلام الصدوق والشيخ الطوسي: «ويظهر من هؤلاء الأعلام ورود الرواية بها، فلا يبعد القول برجحان الشهادة الثالثة بالولاية سيما مع المسامحة في أدلة السنن، ولكن بدون اعتقاد الجزئية، ومما يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار المطلقة، متى ذكرتم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فاذكروا آله، ومتى قلتم محمداً رسول الله فقولوا علياً ولي الله، والأذان من جملة تلك الأخبار على ما رواه الطبرسي في

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

الاحتجاج وفي آخره «إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فليقل: علي أمير المؤمنين . . .».

٩ ـ ملا أحمد النراقي المتوفى سنة ١٢٤٤ في (المستند) ج١ ص ٣١٤ طبع سنة ١٣٢٥ بعد أن ذكر كلام الصدوق والشيخ وما استفاده المجلسي من نفي البعد عن كون الشهادة بالولاية من الأجزاء المستحبة قال: «أما القول بالتحريم فمما لا وجه له والأصل ينفيه، وعمومات الحث على الشهادة بها ترده وليس من كيفيتهما (الأذان والإقامة)، اشتراط التوالي وعدم الفصل بين فصولهما حتى يخالفها الشهادة، كيف ولا يحرم الكلام اللغو بينهما فضلاً عن الحق، وتوهم الجاهل الجزئية غير صالح لإثبات الحرمة كما في سائر ما يتخلل بينهما من الدعاء، بل التقصير على الجاهل حيث لم يتعلم، بل وكذا التحريم مع اعتقاد المشروعية، إذ لا يتصور اعتقاد إلا مع دليل ومعه لا إثم، إذ لا تكليف فوق العلم، ولو سلم تحقق الاعتقاد وحرمته فلا يوجب حرمة القول ولا يكون ذلك القول تشريعاً وبدعة كما حققناه في موضعه.

وأما القول بكراهتها (أي الشهادة بالولاية)، فإن أُريد بخصوصها فلا وجه لها أيضاً، وإن أُريد من حيث دخولها في التكلم المنهي عنه في خلالهما، فلا وجه له لولا المعارض، ولكن يعارضه عمومات الحث على الشهادة مطلقاً، والأمر بها بعد ذكر التوحيد والرسالة بخصوصه كما في المقام، ورواه الاحتجاج عن الصادق عليه السلام، إذا قال أحدكم: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فليقل: علي أمير المؤمنين عليه السلام بالعموم من وجه، فيبقى أصل الإباحة سليماً عن المزيل، بل الظاهر من شهادة الشيخ الطوسي والفاضل والعلامة والشهيد كما صرح به في البحار ورود الأخبار بها في الأذان بخصوصه أيضاً، قال في (المبسوط): فأما قول أشهد أن علياً أمير المؤمنين على ما ورد في شواذ الأخبار فليس بمعمول عليه، وقال في (النهاية) قريباً من ذلك، وعلى هذا فلا بعد في القول باستحبابها ـ الشهادة بالولاية ـ فيه للتسامح في أدلته، وشذوذ الأخبار لا يمنع إثبات السنن بها، كيف وتراهم كثيراً يجيبون عن الأخبار بالشذوذ ويحملونها على الاستحباب».

فقد دلنا هذا الكلام بطوله على ما يعتقده من رجحان الشهادة بالولاية لعلي بعد الشهادتين استناداً إلى عموم الأخبار الدالة عليها ومنها خبر الاحتجاج، وأن القول بتحريمها في الأذان من جهة أنها خارجة عن تحديد فصوله، لا وجه له كما لا وجه

للقول بكراهتها أيضاً لأنها كلام حق ورد في أثناء عبادة، بل لم يستبعد كونها جزءاً مستحباً.

١٠ ـ ميرزا إبراهيم الكرباسي المتوفى سنة ١٢٦١ قال في (المناهج) ص ٤٥ عند ذكر كيفية الأذان: «الشهادة بالولاية ليست من أجزاء الأذان والإقامة، ولكن لو شهد بها بقصد رجحانها بنفسها أو بعد ذكر الرسول كان حسناً». وله رسالة عملية أسماها (النخبة) ذكر فيها كما في المناهج؛ ورأيت منها ثلاث نسخ على إحداها حاشية الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد الميرزا الشيرازي والسيد إسماعيل الصدر، ولم يعلقوا على الفتوى المذكورة، والثانية عليها حاشية الميرزا الشيرازي الكبير السيد محمد حسن والشيخ زين العابدين الحائري وولده الشيخ حسين طبعت سنة ١٣١٥، والفتوى ذكرت في ص ٦٥. وأمضى كلهم الفتوى، والثالثة عليها حاشية السيد إسماعيل الصدر والحاج ميرزا حسين الخليلي وميرزا محمد تقي الشيرازي والآخوند ملا محمد كاظم الخراساني، ذكرت الفتوى في ص ٥٢ وأمضاها كلهم.

١١ ـ الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ قال في (نجاة العباد) عند ذكر كيفية الأذان ما هذا نصه: «يستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية لله، وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره».

وقد أمضى هذه الفتوى الصريحة في استحباب الإتيان بالشهادة الثالثة في الأذان كل من كتب حاشية على (نجاة العباد) كالشيخ مرتضى الأنصاري، والسيد ميرزا محمد حسن الشيرازي والسيد إسماعيل الصدر العاملي، والسيد محمد كاظم اليزدي، والميرزا محمد تقي الشيرازي، والشيخ محمد طه نجف، والميرزا محمد مهدي الشهرستاني، فإني رأيت ثلاث نسخ من نجاة العباد عليها حواشي هؤلاء الأعلام.

وذكر صاحب (الجواهر) عين هذه الفتوى في رسالة عملية بالعربية ص ٩٢ طبعت في إيران سنة ١٣١٣، عليها حاشية الشيخ مرتضى الأنصاري، والسيد ميرزا محمد حسن الشيرازي، والحاج ميرزا حسين الخليلي، وكلهم أمضوا الفتوى بلا تعقيب. وقال (نوّر الله ضريحه) في نفس كتابه (الجواهر) الذي لم يؤلف مثله في الفقه الجعفري وعليه مدار الاستنباط ما هذا نصه: «لا بأس بذكر الشهادة بالولاية لا على سبيل الجزئية عملاً بالخبر المزبور، (هو خبر الاحتجاج) ولا يقدح مثله في الموالاة والترتيب، بل الشهادة بالولاية كالصلاة على محمد وآله عند سماع اسمه، وإلى هذا أشار السيد بحر العلوم (نوّر الله ضريحه) في منظومته وذكر البيتين المتقدمين، ثم قال:

لولا تسالم الأصحاب لأمكن دعوى الجزئية بناء على دعوى العموم لمشروعية الخصوصيتين والأمر سهل» فصاحب الجواهر (قدس سره)، يقوي في نفسه دعوى جزئية الشهادة بالولاية في الأذان، غير أن إعراض العلماء عن الجزئية أوقفه عن الفتوى بها، وهذا المعنى فوق القول باستحباب الإتيان بالشهادة.

١٢ ـ الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ في رسالته العملية المسماة (بالنخبة) بالفارسية ص ٥٢ قال: «الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزءاً من الأذان، ولكن يستحب أن يؤتى بها بقصد الرجحان، إما في نفسه أو بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

١٣ ـ الشيخ مشكور الحولاوي النجفي المتوفى سنة ١٢٨٢ في (كفاية الطالبين) ص ٨٧ قال: «ويستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية لله تعالى وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره»، وأمضاه ولده الشيخ محمد جواد المتوفى سنة ١٣٣٤ فيما علقه على الرسالة.

١٤ ـ ملا آقا الدربندي من تلامذة شريف العلماء توفي سنة ١٢٨٥ قال في رسالته الفارسية المطبوعة سنة ١٢٨٢: «لا بأس بالشهادة لعلي عليه السلام بإمرة المؤمنين، وقول إن محمداً وآله خير البرية إذا لم يكن بقصد الجزئية، وبقصد الجزئية وإن كان حراماً إلا أنه لا يبطل الأذان به».

١٥ ـ السيد علي الطباطبائي آل بحر العلوم المتوفى سنة ١٢٩٨ قال في البرهان القاطع ج٣ عند ذكر كيفية الأذان، ونصه: «وبالجملة بالنظر إلى ورود تلك العمومات، يستحب كلما ذكر الشهادتين تذكر الشهادة بالولاية، وإن لم ينص باستحبابه في خصوص المقام، إذ العموم كافٍ له ومنه الأذان والإقامة فيستحب الشهادة بالولاية بعد الشهادتين فيهما لا بقصد جزئيتهما منهما لعدم الدليل وفاقاً (للدرة)» ثم ذكر أبيات السيد بحر العلوم المتقدمة.

١٦ ـ سيد حسين الترك المتوفى سنة ١٢٩٩ في رسالته العملية بالفارسية طبع إيران قال: «ويستحب بعد الشهادة بالرسالة الشهادة لعلي بالولاية». وقال في رسالة أُخرى سؤال وجواب بالفارسية، بعد وصف الشهادة لأمير المؤمنين وبيان معناها: «هذه الكلمة الطيبة لم تكن جزءاً من الأذان والإقامة، ولكن تذكر تيمناً وتبرّكاً باسمه الشريف». وللسيد إسماعيل الصدر العاملي والشيخ محمد الشربياني حاشية على هذه الرسالة ولم يعلّقا على ما أفتى به.

١٧ ـ الشيخ جعفر الشوشتري المتوفى سنة ١٣٠٣ في (منهج الرشاد) بالفارسية ص ١٧٥ طبع بمبيء سنة ١٣١٨ وعليه حاشية للسيد إسماعيل الصدر العاملي وتعريب ما أفتى به: «إن الشهادة بالولاية ليست جزءاً من الأذان، ولكن يستحب الإتيان بها فيه تيمناً وتبرّكاً للرجحان المطلق» وأمضاه السيد الصدر.

١٨ ـ ميزار محمد حسن القمي المتوفى سنة ١٣٠٤ في (مصباح الفقاهة) المطبعة العلمية في النجف الأشرف سنة ١٣٧٣ ص ٣٦ ج١ قال في الشهادة بالولاية: «لا بأس بذكر اسمه الشريف لا على سبيل الجزئية».

١٩ ـ الفاضل الآقا شيخ محمد الأيرواني المتوفى سنة ١٣٠٦ في (نجاة المقلدين) ص ١١٦ بالفارسية وتعريبه: «من الجائز أشهد أن علياً ولي الله، وأن آل محمد خير البرية في الأذان والإقامة، لكن بدون قصد الجزئية، والأحوط الاكتفاء دفعة واحدة في هذه الشهادة».

وللسيد علي النخجواني حاشية عليها، ولم يتعقب هذه الفتوى بشيء.

٢٠ ـ الشيخ زين العابدين الحائري المازندراني المتوفى سنة ١٣٠٩ في (ذخيرة المعاد) بالفارسية ص ٣١٦ طبع بمبيء وعليها حاشية للسيد محمد كاظم اليزدي مطبوعة، وللشيخ محمد تقي الشيرازي خطية قال: وهذا تعريبه: «لا بأس بالشهادة لعلي بن أبي طالب بالولاية بقصد الاستحباب لا بقصد الجزئية» وأمضى هذه الفتوى المحشيان. وذكر الشيخ زين العابدين مثله في رسالة عملية أسماها (مختصر زينة العباد) ص ١٢٤ طبع إيران سنة ١٢٨١.

٢١ ـ الميرزا الكبير السيد محمد حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢، في رسالته (مجمع الرسائل)، عليها حاشية للسيد إسماعيل الصدر العاملي، قال في ص ٩٨ طبع بمبيء وتعريبه: «الشهادة بالولاية لعلي ليست جزءاً من الأذان ولكن يؤتى بها إما بقصد الرجحان في نفسه، وإما بعد ذكر الرسالة فإنه حسن ولا بأس به».

وأمضاه السيد إسماعيل الصدر العاملي، وفي نسخة أُخرى من (مجمع الرسائل) طبع سنة ١٣١٥ عليها حاشية السيد إسماعيل الصدر والآخوند صاحب الكفاية محمد كاظم الخراساني، والحاج ميرزا حسين الخليلي والسيد كاظم اليزدي والحاج محمد تقي الأصفهاني المعروف بأقا نجفي، وكلهم أمضى ما أفتى به السيد الشيرازي من استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام. وفي (مجمع المسائل) للسيد الميرزا

الشيرازي الكبير طبع إيران سنة ١٣٠٩، عليها حاشية لتلميذه الشيخ عبد النبي النوري المتوفى سنة ١٣٤٤، وقد أمضى ما أفتى به السيد، وكانت الفتوى عين ما ذكره (أعلى الله مقامه) في (مجمع الرسائل).

٢٢ ـ الشيخ محمد بن محمد مهدي الأشرفي المتوفى سنة ١٣١٥ في رسالة عملية بالفارسية ص ٦٣ طبع بمبىء سنة ١٢٨٣ قال وهذا تعريبه: «أما الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام وإمرة المؤمنين لم تكن جزءاً ولكنه في محله وموجب لرضى الله تعالى».

٢٣ ـ ميرزا محمد حسين الشهرستاني المتوفى سنة ١٣١٥ له حاشية على نجاة العباد لصاحب الجواهر، ولم يعلق على فتوى صاحب الجواهر بالاستحباب.

٢٤ ـ الحاج شيخ محمد علي بن الحاج محمد باقر ابن الشيخ محمد تقي صاحب الحاشية على المعالم، المتوفى سنة ١٣١٨ له حاشية على مجمع الرسائل للسيد حسن الشيرازي الكبير، طبعت في سنة ١٣١٥ وفي ص ١٦٠ ذكر السيد رجحان الشهادة لعلي عليه السلام بإمرة المؤمنين، ولم يعلق عليها الحاج شيخ محمد علي.

٢٥ ـ السيد إسماعيل النوري المتوفى سنة ١٣٢١ قال في (شرح نجاة العباد) عند ذكر الماتن كيفية الأذان: «المتصفح للروايات الواردة في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام يحصل له القطع بمحبوبية اقتران اسمه المبارك والشهادة له بولايته باسم الله تعالى واسم رسوله، كلما يذكران لفظاً وكتابة وذكراً، ولا معنى للاستحباب إلا رجحانه الذاتي النفسي الأمري».

٢٦ ـ الشيخ محمد الشربياني المتوفى سنة ١٣٢٢، له حاشية على رسالة بالفارسية للسيد حسين الترك تقدم ما فيها، ولم يعلق عليه، وله حاشية على رسالة الشيخ محمد الأشرفي طبعت في إيران سنة ١٣١٦ وأمضى ما أفتى به الأشرفي من رجحان الشهادة واستحبابها.

٢٧ ـ الشيخ أغا رضا الهمداني المتوفى سنة ١٣٢٢، في (مصباح الفقيه) ص ٢٢١ المطبعة المرتضوية سنة ١٣٤٧ قال: «الأولى أن يشهد لعلي بالولاية وإمرة المؤمنين بعد الشهادتين قاصداً به امتثال العمومات الدالة على استحبابه، كالخبر المتقدم (خبر الاحتجاج) لا الجزئية من الأذان، كما أن الأولى والأحوط الصلاة على محمد وآله بعد الشهادة بالرسالة بهذا القصد».

٢٨ ـ الشيخ محمد طه نجف المتوفى سنة ١٣٢٣ تقدم أن له حاشية على نجاة

العباد وأمضى ما أفتى به صاحب الجواهر.

٢٩ ـ الشيخ حسن المامقاني المتوفى سنة ١٣٢٣ في رسالة عملية بالفارسية طبع إيران سنة ١٣٠٧ قال في ص ١٥٥ وتعريبه: «يستحب بعد الشهادة بالرسالة الصلاة على محمد وآله، والشهادة بالولاية لعلي بن أبي طالب وأمير المؤمنين، لكن لم يكن جزءاً منهما».

٣٠ ـ السيد محمد بحر العلوم صاحب (بلغة الفقيه) المتوفى سنة ١٣٢٦، قال في رسالته (الوجيزة) ص ٨٩ طبع سنة ١٣٢٤ هـ عند ذكر فصول الأذان والإقامة: «ويستحب فيهما إكمال الشهادتين، بالشهادة بالولاية لعلي عليه السلام وإن كانت خارجة عن فصولها». وعلى هذه الرسالة حاشية للسيد محمد كاظم اليزدي ولم يعلق على هذه العبارة.

٣١ ـ الحاج ميرزا حسين الخليلي المتوفى سنة ١٣٢٦، فقد أمضى جميع ما علقه على الرسالة التي تضمنت استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مثل نجاة العباد لصاحب الجواهر، ومجمع الرسائل للميرزا الشيرازي الكبير، والنخبة للميرزا الكرباسي.

٣٢ ـ الآخوند شيخ محمد كاظم الخراساني، صاحب (كفاية الأصول)، المتوفى سنة ١٣٢٩، قال في (ذخيرة العباد) ص ٥٣ طبع بمبىء سنة ١٣٢٧ بالفارسية وتعريبه: «الشهادة بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام لم تكن جزءاً من الأذان، ولكن لا بأس بذكرها بقصد القربة المطلقة بعد ذكر الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»، ولم يعلق عليها الحجة الشيخ عبد الحسين الرشتي فيما كتبه من الحواشي عليها.

٣٣ ـ شيخ عبد الله المازندراني المتوفى سنة ١٣٣٠ لم يعلق على فتوى ملا محمد الأشرفي من استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام.

٣٤ ـ شيخ محمد تقي بن محمد باقر ابن صاحب الحاشية على المعالم، المعروف بأقا نجفي الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٣٢، قال في رسالة عملية بالفارسية ص ٧٨ طبع بمبىء سنة ١٢٩٦ وتعريبه: الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزءاً من الأذان، ولكن يستحب أن يؤتى بها بقصد الرجحان، «إما في نفسه أو بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

٣٥ ـ ملا محمد علي الخوانساري الإمامي المتوفى ١٣٣٢، قال في رسالته

الفارسية طبع سنة ١٣٢٣: «الشهادة لعلي عليه السلام ليست جزءاً بل يؤتى بها بقصد الرجحان، إما في نفسه أو لما ورد بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

٣٦ـ ميرزا أبو القاسم الأوردبادي المتوفى سنة ١٣٣٣، في كتابه الاستدلالي في الفقه مخطوط، وكان من تلامذة النهاوندي والفاضل الأيرواني، قال: «لقد ورد الإقرار بأن علياً أمير المؤمنين كلما أقرَّ بالتوحيد والرسالة، وهو بعمومه يقتضي الاستحباب في الأذان والإقامة».

٣٧ ـ محمد علي مدرس جهاردهي المتوفى سنة ١٣٣٤، في رسالة (زبدة العبادات) طبع بمبيء سنة ١٣٢٤ قال في ص ١٥٥ وتعريبه: «لم تكن الشهادة بالولاية جزءاً من الأذان والإقامة، بل يؤتى بها بعد الشهادة بالرسالة بعنوان الرجحان المطلق، لدلالة الروايات عليها بعد الرسالة في كل وقت».

٣٨ ـ شيخ محمد جواد الشيخ مشكور الحولاوي المتوفى سنة ١٣٣٤ له حاشية مطبوعة على رسالة والده المسماة (كفاية الطالبين) وقد أمضى ما أفتى به والده.

٣٩ ـ السيد مهدي ابن السيد أحمد ابن السيد حيدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٣٦، له رسالة عملية طبعت في بمبيء سنة ١٣٢٧ قال في ص ٧٦: «ويستحب الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية لله وإمرة المؤمنين بعد الشهادتين لا بعنوان الجزئية» وللميرزا النائيني حاشية خطية عليها وقد أمضى هذه الفتوى.

٤٠ ـ السيد محمد كاظم اليزدي المتوفى سنة ١٣٣٧ في (طريق النجاة) قال في ص ٢٨ طبع بغداد سنة ١٣٣٠: «الشهادة لعلي بالولاية لم تكن جزءاً من الأذان، وبعنوان القربة حسن». وقد عرفت في حواشيه على (نجاة العباد) وغيرها الموافقة على الاستحباب.

٤١ ـ السيد إسماعيل الصدر العاملي المتوفى سنة ١٣٣٨ قال في (أنيس المقلدين) ص ١٥ طبع بمبيء سنة ١٣٢٩: «الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان والإقامة بقصد القربة ولا بقصد الجزئية لا إشكال فيه». وقال (أعلى الله مقامه) في رسالته (مختصر نجاة العباد) ص ٤٤ طبع بمبيء سنة ١٣١٨ هـ: «وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية لله وإمرة المؤمنين حسن لا بأس به».

٤٢ ـ ميرزا محمد تقي الشيرازي المتوفى سنة ١٣٣٨ قال في رسالة عملية طبعت في بغداد مطبعة الآداب سنة ١٣٢٨ قال في ص ٦٠: «ويستحب الصلاة على محمد وآله

عند ذكر اسمه الشريف وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره». وقد مرّ عليك مصادقته على ما نصت به الرسائل التي علق عليها.

وعلى هذه الرسالة حاشية خطية للشيخ موسى الأردبيلي المتوفى سنة ١٣٥٧، ولم يعلق عليها.

٤٣ ـ الشيخ الشريعة الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٣٩ في (الوسيلة) طبع تبريز سنة ١٣٣٧ ص ٦٨ بالفارسية وتعريبه: «والشهادة لعلي عليه السلام لم تكن جزءاً من الأذان، وبقصد القربة بعد الشهادة بالرسالة حسن جيد».

٤٤ ـ الشيخ أحمد كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٤٤ في (سفينة النجاة ج١ ص ٢٠٦ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٣٨ قال: «ويستحب في الأذان والإقامة إكمال الشهادتين بالشهادة بالولاية لعلي مرتين، وإن كانت خارجة عن فصولهما».

٤٥ ـ الشيخ عبد النبي النوري من تلامذة الميرزا الشيرازي الكبير، المتوفى سنة ١٣٤٤، له تعليقة على رسالة أستاذه (مجمع المسائل)، ووافقه على الفتوى بالاستحباب.

٤٦ ـ السيد محمد الفيروز أبادي المتوفى سنة ١٣٤٦ قال في (ذخيرة العباد)، المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٢ ص ٦٢ بالفارسية وتعريبه: «الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام لم تكن جزءاً من الأذان، والإتيان لها بعد الشهادة بالرسالة بقصد القربة جيد».

٤٧ ـ شيخ شعبان الرشتي المتوفى سنة ١٣٤٧ قال في (وسيلة النجاة) ص ٧٨ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٦ وتعريبه: «الشهادة بالولاية لم تكن جزءاً من الأذان، ولكن يؤتى بها بقصد القربة المطلقة بعد الشهادة لرسول الله».

٤٨ ـ الشيخ عبد الله المامقاني المتوفى سنة ١٣٥١ قال في (مناهج المتقين) ص ٦٢ المطبعة المرتضوية سنة ١٣٤٤: «لو أُتي بالشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مرتين بعد الشهادة بالرسالة تيمناً، بقصد القربة المطلقة لا بقصد الجزئية لم يكن به بأس وكان حسناً».

٤٩ ـ السيد حسن الصدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٤ في (المسائل المهمة) ص ٢٢ طبع صيدا سنة ١٣٣٩ قال: «ويستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان

٥٠ ـ الشيخ موسى الأردبيلي المتوفى سنة ١٣٥٧ له حاشية على رسالة ميرزا محمد تقي الشيرازي المتقدمة، ولم يتعقب ما أفتى به الميرزا.

٥١ ـ السيد محمد مهدي الصدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٨ في (بغية المقلدين) طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٤٩، قال في ص ٥٢ وهذا تعريبه: «الشهادة بولاية أمير المؤمنين وإن لم تكن جزءاً من الأذان والإقامة، لكنه حسن جداً وإعلاء لكلمة الإيمان، وفعلاً هو من شعار الشيعة، وأحسن كيفيات الشهادة لعلي أن يقول بعد الشهادة بالرسالة: وأن علياً أمير المؤمنين ولي الله».

٥٢ ـ الميرزا محمد حسين النائيني المتوفى سنة ١٣٥٥ في (وسيلة النجاة) ص ٥٦ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٠: «يستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف، وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره».

٥٣ ـ الشيخ محمد حسين الأصفهاني الكبني المتوفى سنة ١٣٦١ في (وسيلة النجاة) نفس ما ذكره النائيني، لأنه علق عليها وأدخل الحواشي في الأصل.

٥٤ ـ السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٦٥ في (ذخيرة العباد) بالفارسية مطبعة الراعي في النجف سنة ١٣٦٤ ص ١١٢ قال وهذا تعريبه: «والشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزءاً من الأذان، ولكن حسن إذا أُتي بها بعد الشهادة بالرسالة بقصد القربة».

٥٥ ـ السيد حسين القمي المتوفى سنة ١٣٦٦ في (مختصر الأحكام) بالفارسية المطبعة العلمية سنة ١٣٥٥ ص ٢٦ وتعريبه: «ويستحب الصلاة على محمد وآله بعد الشهادة بالرسالة في الأذان والإقامة، ومن كمال الشهادتين الشهادة بالولاية وإمرة المؤمنين لعلي»، ومثله في رسالته (ذخيرة العباد) بالفارسية المطبعة العلمية سنة ١٣٦٦ ص ١٠٧.

٥٦ ـ الشيخ محمد رضا آل ياسين المتوفى سنة ١٣٧٠ له حاشية على (بغية المقلدين) للسيد محمد مهدي الصدر خطية، ووافقه على ما أفتى به من الاستحباب.

٥٧ ـ السيد صدر الدين الصدر المتوفى سنة ١٣٧٣ له حاشية على (منتخب المسائل) للسيد حسين القمي طبع دار النشر والتأليف سنة ١٣٦٥ ص ٧٢ ووافق السيد على قوله: «وأما الشهادة بالولاية لعلي فليست جزءاً من الأذان، ولو أُتي بها بقصد

القربة بعد الرسالة كان حسناً».

٥٨ ـ الشيخ عبد الحسين الرشتي المتوفى سنة ١٣٧٣ له حاشية خطية على (ذخيرة العباد) للآخوند الخراساني، صاحب (كفاية الأصول)، ووافقه على ما أفتى به من الاستحباب.

٥٩ ـ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٧٣ في (حاشيته على العروة الوثقى) ص ٦٣ المطبعة المرتضوية في النجف قال: «يمكن استفادة كون الشهادة بالولاية والصلاة على النبي ﷺ أجزاء مستحبة في الأذان والإقامة من العمومات».

هذه كلمات فطاحل العلماء المحققين، والكل ينادون بصوت واحد رفيع في الأذان والإقامة بعد الشهادتين: (أشهد أن علياً ولي الله) غير هيّابين ولا محابين في ذلك، استناداً إلى عمومات الأخبار الآمرة بالشهادة الثالثة بعد الشهادتين، وأنها مكملة لهما، ولم تتقيد تلك العمومات بزمان ولا مكان ولا فعل خاص، والأذان من جملة تلك الموارد، وهذا الاتفاق منهم كما قرأته في فتواهم التي قدمناها لك، يشهد بثبوت هذا الحكم في الشريعة المقدسة، بل قد عرفت رجحان الإتيان بالشهادة الثالثة حتى عند الصدوق والشيخ الطوسي والشهيد الأول والشهيد الثاني فتسالم الشيعة على الإعلان بهذه الشهادة في أوقات صلاتهم لم يكن جزافاً، وإنما أخذوا هذا الحكم الإلهي كبقية الأحكام الشرعية من علماء أبرار وحفظة للدين أتقياء لا يردعهم عما علموه وقفة غيرهم، والذي يوضح ما قلناه: (أولاً، اتفاقهم على عدم جزئية الشهادة الثالثة، وإن لم يستبعدها بعضهم، واتفاقهم (ثانياً): على رجحانها المطلق واستحباب الإتيان بها في الأذان بقصد القربة، وإن الواقف على تراجمهم يتجلى له تورعهم عن الإسراع في الفتوى من دون تثبت، كيف وقد أحيوا الليالي وقطعوا الأيام الطوال في التنقيب عن مستند الأحكام فلا تراهم يهابون أحداً في نشر ما صح لديهم من الأخبار الدالة على الشريعة الحقة والمذهب الصحيح، ولا تأخذهم في تثبت الدعوة الإلهية لومة لائم، وهذه مؤلفاتهم الاستدلالية ورسائلهم العملية تشهد بجهودهم الجبارة في درس حقائق الشريعة الراهنة، والغاية المتوخاة لهم، انتشال الأمة من هوة المخالفة للدين المستتبعة للخزي يوم يقوم الناس لرب العالمين، فقدموا إلى الملأ الديني نتائج أفكارهم ليسيروا على ضوء التعاليم القدسية فيفوزوا بالرضوان الأكبر، وما ضرهم إذا أبت النفوس إلا النكوص على الأعقاب والتردد في الطغيان ونبذ المبادىء الصحيحة، فتقلبوا في هذه

الدنيا الذميمة آمنين مناقشة الحساب ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

فتوى علماء العصر الحاضر:

على ضوء تلك العمومات الدالة على رجحان الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام، وما نص به خبر الاحتجاج المتقدم ذكره، وتسالم عليه أعلام الإمامية من عهد يرتقي على عهد الشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١، ولم يتباعد عنهم الشيخ الطوسي والشهيدان.

أفتى علماء الأمة وفقهاء العصر الحاضر باستحباب الشهادة بالولاية في الأذان لا بقصد الجزئية: منهم السيد البروجردي في رسالته العملية التي أسماها (المسائل الفقهية) ص ١٢٦. والسيد عبد الهادي الشيرازي. والسيد محمود الشاهرودي. والسيد حسين الحمامي. والسيد ميرزا أغا الشيرازي الاصطهباناتي في رسالته (ذخيرة العباد) ص ٤٦ طبع سنة ١٣٦٦. والسيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي، والسيد محمد البغدادي، والشيخ محمد حسن مظفر في رسالته (وجيزة المسائل) ص ٢٦ طبع سنة ١٣٧٠.

فتوى السيد محسن الحكيم:

قال في (مستمسك العروة الوثقى) ج٤ ص ١٤: «لا بأس بالإتيان بالشهادة بالولاية بقصد الاستحباب المطلق، لما في خبر الاحتجاج، «إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمد رسول الله، فليقل علي أمير المؤمنين»، بل ذلك في هذه الأعصار معدود من شعائر الإيمان ورمز إلى التشيع، فيكون من هذه الجهة راجحاً شرعاً، بل قد يكون واجباً، لكن لا بعنوان الجزئية من الأذان، ومن ذلك يظهر وجه ما في البحار من أنه لا يبعد كون الشهادة بالولاية من الأجزاء المستحبة للأذان، لشهادة الشيخ والعلامة والشهيد وغيرهم بورود الأخبار بها، وأيد ذلك بخبر القاسم بن معاوية المروي عن الاحتجاج للطبرسي عن الصادق».

وقال في (منهاج الصالحين) ص ١٢٩ الطبعة السابعة: «وتستحب الصلاة على

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٢.

محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف، وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره».

فتوى ميرزا باقر الزنجاني:

قال في جواب من سأله عن هذه المسألة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وجوب الإذعان بولاية علي (صلوات الله عليه) وإمرته للمؤمنين من صلة الدين الإسلامي، وبها أكمل الله تعالى ديننا ورضي لنا الإسلام ديناً، والإقرار بها في اللسان والشهادة بها في الإسرار والإعلان، أمر مطلوب لا شك فيه، وقد شهد بولايته (صلوات الله عليه) ملائكة السماء رديف شهادتهم له سبحانه وتعالى بالوحدانية، ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة، وسمعها النبي منهم ليلة (الإسراء) وقد بلغنا عن أئمتنا الهداة (صلوات الله عليهم) الأمر عقيب قول لا إله إلا الله محمد رسول الله أن يقول: (علي أمير المؤمنين) بنحو الاطلاق، وبه أخذ الإمامية خلفاً عن سلف فجهروا بتلك الشهادة عقيب الشهادتين في الأذان على المآذن وفي المساجد وأوقات الصلوات، حتى صار ذلك شعاراً لهم، كل ذلك بمرأى ومسمع من أكابر الفرقة وأعلامها في الأعصار البعيدة، ولم ينكر ذلك عليهم أحد منهم ممن له شأن يذكر، ومن أنكر منهم، فإنما أنكر الإفتاء بمضمون بعض الأخبار الظاهرة في كون الشهادة بالولاية من فصول الأذان وأجزائه.

فالعلماء الأعلام مع ما لهم من المساعي المشكورة في إبطال البدع الباطلة وإن اتفقت كلمتهم على أن الشهادة الثالثة لم تكن من أجزاء الأذان وفصوله المأثورة إلا أنهم أطبقوا على الجهر بها بأنفسهم وعرفوا من يقلدهم باستحباب الإتيان بالشهادة الثالثة وأنها من مكملات الشهادتين.

فالإمامية يعلمون أن هذه الشهادة كالصلاة على النبي وآله عقيب ذكر اسمه الشريف في خروجهما عن فصول الأذان، وإنما هما من الآداب المطلوبة على الإطلاق المرغوب فيهما بمقتضى الأخبار، فكما أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم راجحة ومستحبة عند ذكر اسمه الشريف سواء في ذلك الأذان وغيره، فكذلك الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مستحبة في الأذان وغيره كلما ذكرت الشهادتان، وكما لا تعد الشهادة بها من فصول الأذان، لا تعد الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم من فصول الأذان.

نعم للصلاة على النبي ﷺ خصوصية تفارق الشهادة بالولاية، وهي جواز الإتيان بالصلاة على الرسول ﷺ أثناء الصلاة، وأما الشهادة بالولاية فلا يؤتى بها في أثناء الصلاة للأخبار الخاصة الناهية عن إدخال الكلام في أثناء الصلاة، إلا ما كان ذكراً أو قرآناً أو دعاء، والصلاة على النبي من الدعاء دون الشهادة بالولاية.

فعلى أبناء الشيعة (ثبتهم الله تعالى بالقول الثابت) أن يقتفوا أثر أسلافهم التابعين لفتاوى علمائهم الأبرار، أن لا يتركوا هذا الشعار المشروع الذي لا مطعن فيه ولا مغمز، وليستقيموا كما أُمروا. وفقهم الله لما يحب ويرضى.

فتوى السيد الخوئي:

ممن سئل عن الشهادة الثالثة في الأذان السيد أبو القاسم الخوئي، فكتب في الجواب ما نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا ريب في أن الشهادة لعلي (عليه وعلى أولاده الطاهرين أفضل التحية والسلام) بالولاية، وإن لم تكن جزءاً من الأذان والإقامة، إلا أنها في نفسها مستحبة بلا إشكال، وقد ورد الأمر بها لخصوص عند الشهادة بالرسالة بلا تقييد بحال دون حال، بل الشهادة بالولاية مكملة للشهادة بالرسالة، فكما أن الإيمان بالله وبرسوله ﷺ لا يتم إلا بالإيمان بالولاية، لأنه بها كمل الدين وتمت النعمة، فكذلك لا تتم الشهادة بالرسالة إلا بالشهادة بالولاية، وقد جرت سيرة العلماء والأبرار على الشهادة بالولاية في الأذان والإقامة لا بقصد الجزئية منذ عهد بعيد من دون نكير من أحدهم حتى أصبح ذلك شعاراً للشيعة ومميزاً لهم عن غيرهم، ولا ريب في أن لكل أمة أن تأخذ ما هو سائغ في نفسه، بل راجح في الشريعة المقدسة شعاراً لها، نعم لا يجوز ذلك فيما هو ممنوع منه في الدين، ومن هنا لا تجوز الشهادة الثالثة في الصلاة، لأن الدين منع عن كل كلام فيها غير القرآن والذكر والدعاء، فليس كل كلام مستحب في نفسه يجوز في الصلاة ما لم يكن قرآناً أو ذكراً أو دعاء، وتفضيل ذلك موكول إلى محله».

فتوى السيد علي مرد القائيني:

«بسم الله الرحمن الرحيم لا ريب ولا إشكال في رجحان الشهادة بالولاية لعلي ابن أبي طالب في الأذان والإقامة لا بقصد الجزئية، للأصل وعدم المانع والأخبار

المطلقة الآمرة بذكر الآل بعد ذكر الرسالة، وما رواه في الاحتجاج من اقتران الشهادة بإمرة المؤمنين لعلي عليه السلام بعد الشهادتين، والأخبار الخاصة التي شهد بها الصدوق والشيخ الطوسي، ولأجلها ذهب المجلسي وبعض من تأخر عنه إلى استحباب الشهادة الثالثه ولو بقصد الجزئية، وبعد اعتراف هذين العلمين، الصدوق والطوسي بوجود الأخبار الآمرة بالشهادة الثالثة في الأذان لا وجه لرفع اليد عنها. وأما رميهم لها بالشذوذ فيرده ما تسالم عليه العلماء من جبر الخبر الضعيف بالتسامح في أدلة السنن، مع أن مسألة الولاية من كمال الدين كما نص عليه الكتاب ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] ومما بني عليها الإسلام، فقد ورد في الحديث: «بني الإسلام على خمس» وعدّ منها الولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية، أما رواية الاحتجاج «إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمد رسول الله، فليقل: علي أمير المؤمنين» وإن كان لسانها العموم، فتشمل حتى الأذان إلا أن العارف بأساليب كلام المعصومين، لا يفوته الجزم بأن غرض الإمام الإشارة عليه السلام إلى جزئية الشهادة الثالثة في الأذان الذي يكرره الإنسان في اليوم والليلة، ولكن لما أوصد سلطان الضلال الأبواب على الأئمة عليهم السلام، كما تشهد به جدران الحبوس وقعر السجون المظلمة لم يجد الإمام بداً من اختيار هذا النحو من البيان، لعلمه بتأثير كلامه في نفوس الشيعة وقيامهم بما يأمرهم به في كل الأحوال وأهمها حال الأذان، لأنه وجه العبادة ومفتاح الأصول إلى ساحة الجلال الإلهي، وهذا لطف من إمام الأمة عليه السلام بشيعته لينالوا الدرجات العالية وأقصى المثوبات، ومن هنا يمكن دعوى اتصال سيرة العلماء والمتدينين على الجهر بالولاية في الأذان في صلواتهم بزمان المعصوم عليه السلام وهذه السيرة من العلماء مع العمومات الآمرة بالولاية في كل الأحوال في السر والعلانية، تصد دعوى البدعة. فالشهادة بالولاية لأمير المؤمنين في الأذان والإقامة مما لا ريب في رجحانه».

فتوى الشيخ مرتضى آل ياسين:

«بسم الله الرحمن الرحيم: لا ينبغي الإشكال في استحباب الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية، عقيب ذكر الشهادتين في كل من الأذان والإقامة، إذا لم يقصد بها الجزئية، كما عليه سيرة المؤذنين من أبناء الشيعة الإمامية في كل زمان وكل مكان، وذلك للأخبار الدالة بكل صراحة على استحباب القران بين الشهادتين: الشهادة للنبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

بالرسالة، والشهادة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام بالولاية. ودعوى لزوم التشريع من ذكرها زيادة على الفصول المعتبرة في الأذان والإقامة، مدفوعة بعدم لزومه قطعاً مع عدم قصد الجزئية فيهما كما هو المفروض.

وأما الأخبار الدالة على كراهة التكلم في الأذان والإقامة فلا تصلح معارضاً لتلك الأخبار الدالة على استحباب القران بين الشهادتين مطلقاً، لأن مورد الكراهة حسبما هو المستفاد من أدلتها مختص بالتكلم بعد إقامة الصلاة (أي بعد قول المقيم قد قامت الصلاة، أو فيما بين الأذان والإقامة في خصوص صلاة الغداة)، وليس فيها ما يدل على كراهته في الإقامة قبل إقامة الصلاة، كما ليس فيها ما يدل على كراهته في الأذان مطلقاً كما لا يخفى ذلك على من راجع أخبار الباب. هذا بعد تسليم كون الشهادة الثالثة من الكلام الخارج عن عنوان الكلام المرخص فيه شرعاً في مثل الصلاة، فضلاً عن غيرها من الوظائف الشرعية، كالتكلم بذكر الله (جلَّ شأنه) وذكر النبي صلى الله عليه وآله، مع أن للمنع من خروجه عن هذا العنوان مجالاً واسعاً: أما أولاً فلإمكان دعوى انصراف الكلام المحكوم عليه بالكراهة أو الحرمة عن مثل الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام، كما اعترف به غير واحد من أهل العلم، وأما ثانياً فلما دل على أن ذكره وذكر الأئمة من ولده (عليهم أفضل الصلاة والسلام) من ذكر الله تعالى، وذلك ما رواه في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله ولم يذكرونا، إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة»، ثم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ذكرنا من ذكر الله وذكر عدونا من ذكر الشيطان». وهذا التنزيل المستفاد صريحاً من هذه الرواية الشريفة يقضي بخروج ذكرهم (صلوات الله عليهم) عن دائرة الكلام المكروه والمحرم ولحوقه بذكر الله سبحانه وتعالى في جميع ما رتب عليه من الأحكام، وقد جاء في رواية الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: «كل ما ذكرت الله (عزَّ وجلَّ) به والنبي فهو من الصلاة». ومن هنا يظهر لك وجه القول بجواز ذكر الشهادة الثالثة في الصلاة فضلاً عن الأذان والإقامة، والله العالم».

ما جعل الله للمؤذن من الأجر:

يتحدث إلينا الشيخ الصدوق (ره) في كتابه (من لا يحضره الفقيه)، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للمؤمن فيما بين الأذان والإقامة مثل أجر الشهيد المتشحط بدمه في سبيل الله (عزَّ وجلَّ)، فقال علي عليه السلام: إنهم يجتلدون على الأذان. فقال: كلا، إنه يأتي

على الناس زمان يطرحون الأذان على ضعفائهم فتلك لحوم حرمها الله على النار».

وقال ﷺ: «من أذن في مصر من أمصار المسلمين سنة وجبت له الجنة».

وقال أبوجعفر عليه السلام: «المؤذن يغفر الله له مد بصره ومد صوته في السماء ويصدقه كل رطب ويابس يسمعه، وله من كل من يصلي معه في مسجد سهم، وله بكل من يصلي بصوته حسنة».

وقال عليه السلام: «من أذن سبع سنين محتسباً جاء يوم القيامة لا ذنب له».

وقال الصادق عليه السلام في المؤذنين: «إنهم الأمناء».

وروي عن عبد الله بن علي قال: «حملت متاعي من البصرة إلى مصر، فقدمتها فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بشيخ طويل شديد الأدمة أبيض الرأس واللحية، عليه طمران أحدهما أبيض والآخر أسود. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا بلال مولى رسول الله ﷺ، فأخذت ألواحاً فأتيته فسلمت عليه، فقلت له: السلام عليك أيها الشيخ فقال: وعليك السلام. قلت: يرحمك الله تعالى حدثني بما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: وما يدريك من أنا؟ فقلت: أنت بلال مؤذن رسول الله. قال: فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي، قال: ثم قال: يا غلام من أي البلاد أنت؟ قلت: من أهل العراق، قال: بخ بخ ثم سكت ساعة، ثم قال: اكتب يا أخا أهل العراق، بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: المؤذنون أمناء المؤمنين على صلواتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم، ولا يسألون الله عزَّ وجلَّ شيئاً إلا أعطاهم، ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا. قلت: زدني يرحمك الله: قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أذن أربعين عاماً محتسباً بعثه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة وله عمل أربعين صدّيقاً، عملاً مبروراً متقبلاً. قلت: فزدني يرحمك الله. قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أذن عشرين عاماً بعثه الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء، قلت: زدني يرحمك الله، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أذن عشر سنين أسكنه الله عزَّ وجلَّ مع إبراهيم الخليل عليه السلام في قبته أو في درجته. قلت: زدني يرحمك الله عزَّ وجلّ. قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أذن سنة واحدة بعثه الله عزَّ وجلّ يوم القيامة وقد غفرت ذنوبه كلها بالغة ما بلغت، ولو كانت مثل زنة جبل أحد. قلت: زدني يرحمك الله، قال: نعم فاحفظ واعمل واحتسب، سمعت رسول الله ﷺ يقول: من أذن في سبيل الله صلاة

واحدة إيماناً واحتساباً وتقرباً إلى الله عزَّ وجلّ غفر الله له ما سلف من ذنوبه، ومنَّ عليه بالعصمة فيما بقي من عمره، وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة. قلت: زدني يرحمك الله. حدثني بأحسن ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: ويحك يا غلام قطعت أنياط قلبي، وبكى وبكيت حتى إني والله لرحمته، ثم قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة وجمع الله عزَّ وجلّ الناس في صعيد واحد، بعث الله عزَّ وجلّ إلى المؤذنين بملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور، يقودون نجائب أزمتها زبرجد أخضر وخفائفها المسك الأذفر، يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياماً تقودهم الملائكة، ينادون بأعلى صوتهم بالأذان، ثم بكى بكاء شديداً حتى انتحب وبكيت، فلما سكت قلت: مم بكاؤك؟ فقال: ويحك ذكرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيي ﷺ يقول: والذي بعثني بالحق نبياً إنهم ليمرون على الخلق قياماً على النجائب، فيقولون: الله أكبر الله أكبر، فإذا قالوا ذلك سمعت لأمتي ضجيجاً، فسأله أسامة بن زيد عن ذلك الضجيج ما هو؟ قال: الضجيج التسبيح والتحميد والتهليل، فإذا قالوا: أشهد أن لا إله إلا الله، قالت أمتي: نعم إياه كنا نعبد في الدنيا، فيقال لهم: صدقتم، فإذا قالوا: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت أمتي: هذا الذي أتانا برسالة ربنا جلَّ جلاله، وآمنا به ولم نره، فيقال لهم: صدقتم هذا الذي أدى إليكم الرسالة من ربكم وكنتم به مؤمنين، فحقيق على الله عزَّ وجلّ أن يجمع بينكم وبين نبيكم، فينتهي بهم إلى منازلهم وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم نظر إلي فقال: إن استطعت ولا قوة إلا بالله أن لا تموت إلا وأنت مؤذن فافعل...».

نوادر المؤذنين:

قيل: استؤجر رجل في قرية على أن يؤذن بعشرة دراهم، فاستزادهم فقالوا: ليس لنا ما نزيدك، ولكن قد سامحناك في حي على الفلاح فلا معنى له مع قولك حي على الصلاة.

وقال بعضهم: مررت برجل يقول في أذانه: أشهد أن لا إله إلا الله وهم يشهدون أن محمداً رسول الله. فقلت ما لك لا تشهد شهادتهم؟ فقال: إنه يهودي مستأجر.

وقال بعضهم: دخلت قرية فحان وقت الصلاة، فدخلت مسجدها فأذنت وأقمت

وصليت بجماعة منها دخلوا المسجد، فلما سلمت ودعوت قال أحدهم: أمسلم أنت أم يهودي؟ فقلت: هل رأيت يهودياً صلى بمسلمين؟ قال: إنما نقول: لأن يهودكم خير من مسلمينا.

شوهد مؤذن يؤذن من رقعة، فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي. فأتوه فقالوا: السلام عليكم. فأخرج دفتراً وتصفحه، وقال: وعليكم السلام. فعذروا المؤذن.

* * *



حَقُّ الإمَامِ

قَوْلُهُ عليه السلام :

«وَأَمَّا حَقُّ إِمَامِكَ فِي صَلاتِكَ، فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ تَقَلَّدَ السَّفَارَةَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ عزَّ وجلَّ، وَتكلَّمَ عَنْكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ، وَدَعَا لَكَ وَلَمْ تَدْعُ لَهُ، وَكَفاكَ هَوْلَ المُقامِ بَيْنَ يَدَي الله عزَّ وجلَّ، فَإِنْ كَانَ نَقْصٌ كَانَ عَلَيْهِ دُونَكَ، وَإِنْ كَانَ تَمامٌ كُنْتَ شَرِيكَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلٌ، فَوقَى نَفْسَكَ بِنَفسِهِ وَصَلاتَكَ بِصَلاتِهِ، فَتَشكُرَ لَهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ».

* * *



المدخل

إن الأمة تقوى وتعز بقدر ما تترابط وتتماسك، وتنتصر فيها الروح الجمعية، وتنعدم الأثرة والأنانية وحب الذات.

فالأمة المتفرقة التي يسير كل فرد فيها وراء أهوائه ورغباته الخاصة، هدف قريب المنال، ولقمة سائغة المذاق، لكل من تحدثه نفسه بإذلالها واستعبادها، بل إن ضعف الأمة وتفرقها شيعاً وأحزاباً، ليغري بها الغاضبين والمستعمرين. وصدق رسول الله ﷺ : «فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

وصدق علي أمير المؤمنين عليه السلام : «الشاذ من الجماعة للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب» وأُمة هذا شأنها يتعذر توجيهها وإرشادها إلى ما فيه خيرها وصلاحها، فلا يرجى منها سمع ولا طاعه، ولا تثار فيها غيرة ولا كرامة.

وهنا نستطيع أن نلمس الفائدة التي يمكن أن تعود على الأمة الإسلامية من صلاة الجماعة، فهي عامل فعال من عوامل التكتل والترابط، على أساس فاضل متين تلغى فيه الفوارق بين الطبقات، ولا يذكر فيه كل إنسان عن نفسه إلا أنه لبنة صالحة في مجتمع قويم، يشعر كل واحد بأنه أخ لكل من في المسجد، وأنه مساوٍ له، فتنمو روح المساواة الحقيقية، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عظيم وحقير، فكلهم عباد الله اجتمعوا في بيته يظللهم ظلال المحبة والأخوة في الله.

وبهذه الممارسة العملية للمساواة تنتفي فوارق اللون وفوارق الثراء وفوارق الدم، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنه للجماعة، وتشعر الجماعة بأنها للفرد، وهذه الغاية هي أسمى الغايات التي يجهد العلماء الحكماء، والمربون والفلاسفة أنفسهم في تحقيقها، ليعم البشرية الأمن والسلام.

ويلاحظ أن هذه الحكم لا يمكن أن تتحقق إلا إذا أقبل المصلي على صلاته بوعي كامل ويقظة تامة، وتأمل حقيقي في أقوال الصلاة وأفعالها.

في ظل المجتمع يتلقى المسلمون أيضاً درساً عملياً في النظام، من وحدة الشعور وتوحيد المشاعر، والمفاداة في سبيل نصرة الحق والاعتزاز بالدين والتمرين على النظام الإلهي، والطاعة والانقياد للإمام، (كجيش مرابط) فليس لهم أن يقفوا كيفما اتفق، ولكن الشارع يفرض أوضاعاً دقيقة لا تستطيع المدنية أن تتحداها مهما طال عليها العمر.

وبالتالي يقف هذا المجتمع المنظم ليتدرب مرة ثالثة على الطاعة، وليراقب بسمعه وبصره تصرفات إمامه وحركاته، فيتابعه غير متقدم ولا متراخ.

في هذا الجو من الوحدة والطاعة والنظام، والتناسق والإقبال والصفاء، يطرق الهدي الإلهي باب القلب المؤمن فيملأه رحمة ونوراً، ويطرق العمل الإنساني باب الرب العلي فيتقبله غفوراً شكوراً.

فإمام الجماعة بهذا الاعتبار، كالقائد الحربي أو غير الحربي عند الناس، فهو يقود المصلين لا إلى حرب، ولا إلى عداء، ولا إلى ظلم وجور، إنما يقودهم إلى منبع القوة ومصدر الإرادة، إلى المرجع والمنتهى، يقودهم إلى الله، يقودهم ـ وهو كأحدهم ـ إلى مغفرة من الله ورحمة، إلى خير كثير وغنم عظيم.

وهو أيضاً سفير بين الله وبين عباده، الذين أنابوا إليه وأخبتوا، على حد تعبير الإمام (صلوت الله وسلامه عليه) بقوله: «فأن تعلم أنه قد تقلد السفارة فيما بينك وبين الله».

والجماعة التي يترأسها الإمام، إنما هي في الحقيقة وفد إلى الله سبحانه، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والوفادة إلى ربك». وهذا الوفد إنما يتكلم بلسان الإمام والقائد وإنما يقدم طلباً بلسان الإمام، ويدعو ويرجو ويسأل بلسان الإمام، فالإمام ممثل لهذا الوفد المؤلف من هذه الجماعة، وهو الذي يقود الجماعة وعليه تبعتها، وهو الذي يقي بنفسه نفوس الجماعة، كل ذلك يقوم به الإمام. فيجب حينذاك شكره والثناء عليه ما وسع ذلك. يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فتشكر له على قدر ذلك».

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1] ـ أي أدوا الصلاة

(١) سورة البقرة، الآية ٤٣.

وأقيموها جماعة ـ ولا يستبعد ذلك لما في صلاة الجماعة من منافع للناس كما يحسون ويرون.

فمن جملتها: أن الغني والفقير، والرئيس والمرؤوس، والأعلى والأدنى، يصلون جميعاً بصلاة واحدة، متجهين إلى الله وإلى الكعبة على حد سواء، لا يتفاضل أحد على أحد. وهذا إظهار فعلي للمساواة الحقة، وأن البشر كلهم شرع سواء لا تفاضل بينهم بالاعتبارات الدنيوية، ودعوة فعلية إلى العدل وعدم التفاضل بالاعتبارات الموهومة، ألا ترى أنه يقوم مرؤوس أمام الرئيس، وأدنى الطبقات مع أعلى الطبقات على حد سواء، بل لو قام المرؤوس أمام الرئيس من أي طبقة كان لما صح للرئيس أن يزاحمه.

قال الكاتب (هراس ليف): ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس، ولو أن بعضهم يتظاهرون بهذه الدعوة فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد، فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها، وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لا بد كذلك داخل المساجد الإسلامية، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمّه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ودكنج بلندن)، وهناك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحق أخوياً، ولم أكن شاهدت مثل ذلك، ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (ممباسا)، يصافح عظيماً من رجال الأعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً، وأنك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد، لأنه ليس هنالك أي مكان ممتاز، فالكل عند الله سواء، لا فضل لأحد على سواه، وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أُنزل إليهم كدت لا أصدق أذني، وكان هذا جديداً استفدته عن الإسلام، لذلك لم أعد أشك في أن هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً.

ومنها تفقد حال الفقراء والضعفاء والمظلومين، فيعان الفقراء وينعش حالهم ويُدر عليهم من الخير ما يلم شعثهم ويخفف البؤس عنهم، وينتصر للمظلوم وتدفع ظلامته ويرفع كابوس الضغط عنهم، ويعلّم الجاهل ويرشد الضال، ويكون كلهم بالنسبة إلى كل فرد منهم بمنزلة الأب والأخ والولد.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في بعض وصاياه: «أن تجعل كبيرهم بمنزلة أبيك،

ومن يساويك سناً بمنزلة أخيك، ومن هو أصغر منك بمنزلة ولدك».

ومنها أن صلاة الإمام تقع أول الوقت، وتصعدها الحفظة، فإذا أتى بها أول وقتها صعدت مع صلاة الإمام في وقت واحد، فلعل الله سبحانه أن يمن عليه بقبول تلك الصلاة المردودة بسبب صعودها مع تلك الصلوات المقبولة، لأنها صارت كأنها صفقة واحدة فلا بد من قبول الكل بسبب الاتفاق في الصعود، لأن صلوات المؤمنين إذا اجتمعت كلها وصعدت إلى جناب الحق تعالى، فإما أن يقبلها بأجمعها أو لا يقبل شيئاً منها، ولكن لا بد من القبول، لأن الجماعة الكثيرة إذا تعاونوا على العبادة كان بينهم من هو مقبول الصلاة.

ومنها ما روي في الأخبار: أن صلاة المتزوج تعدل صلاة العزب بسبعين مرة، وكذلك صلاة المتطيب تفضل على غيره سبعين مرة، ومن قدَّم شيئاً من الصدقة قبل صلاته كانت صلاته أفضل من غيرها، إلى غير ذلك من الأمور الباعثة لمزيد الثواب، وقل أن يكون واحد من المصلين مستجمعاً لهذه المقدمات كلها، أما إذا اجتمع جماعة كثيرة على عبادة واحدة، كان واحد منهم متطيباً والآخر متزوجاً والثالث متصدقاً إلى غير ذلك، فتكون صلاتهم كلها كأنها صلاة واحدة مستجمعة لتلك الأمور والمقدمات، فيكون لكل واحد منهم ثواب الصلاة الكاملة.

ومنها أن المصلي إذا أخذ في الصلاة تقدمت إليه الشياطين ووقفت أمامه ليلقوه في الوسواس والغفلة عن الصلاة فيقوم بين المصلين والشيطان الجهاد العظيم ومن هذا سمي محراب الصلاة به، لأنه مكان الحرب مع الشيطان، أما إذا كان المؤمنون مجتمعين متعاضدين ظهروا على الشياطين وأبعدوهم عن أمكنة العبادة، ولهذا أمر الله سبحانه بالاستعاذة حال قراءة القرآن، وأكده في قراءة الصلاة، وذلك أن الشيطان كالكلب العقور الجاثي على باب صاحبه يمنع الداخلين من دخول البيت، فمن أراد الوصول إلى منزل ذلك الرجل والدخول فيه، فلا بد له من أن يلجأ إلى صاحب الكلب ويدعوه ويناديه حتى يخرج هو أو أحد خدامه ليمنع الكلب، فكذا ههنا فإن الشيطان كلب، والصلاة باب من أعظم أبواب الله تعالى، وأكثر حضور الشيطان إنما يكون عندها، فلهذا فلا بد أن يلجأ المصلي وينادي الله تعالى ويقول: يا رب أستعيذ بك من شر هذا الكلب العقور.

ومنها ما جاء في كتاب (الصلاة جامعة المسلمين): «إنها إرهاب عظيم دونه كل إرهاب للكافرين وأعداء الإسلام، فإنهم عندما ينظرون إلى وحدة المسلمين وتمسكهم

بدينهم وإطاعتهم لأوامر مشرعهم واقتدائهم بأئمتهم، تستولي على كل من يكيد للإسلام ويناوئه الرهبة منهم. وهذه وقعة القادسية تقدمت فيها جيوش الفرس، والفرس يومئذ مستولون على الشرق وما العرب إلا مستعمرة صغيرة من مستعمراتهم، وأخذوا يستهزئون بكتاب النبي ﷺ مذ دعاهم إلى الإسلام أو الجزية وإلا إعلان الحرب، فقد حدثنا التاريخ أن كسرى أبرويز بن هرمز لما جاءه كتاب النبي ﷺ، مزقه واستخف به وأمر بإخراج رسول النبي بعدما حمله وقراً من التراب فأثقلوه وقراً من التراب على رأسه وساقه حتى أخرجه وقال: سأكتب إلى رستم أن يدفنه وجنده بالخندق، وبعث القائد (رستم) عيوناً إلى جيش الإسلام فانغمسوا فيه من أجل الإطلاع على عددهم وعدتهم، فرأوهم يقفون صفوفاً ـ وكان عدد المسلمين سبعين ألفاً ـ يتقدمهم قائدهم فيركع ويركع معه سبعون ألفاً ويسجد ويسجد معه سبعون ألفاً، ويقوم ويقومون معه فظنت رىايا الفرس أن هذه رياضة حربية، فذهلوا من وحدة المسلمين وتآلفهم، ولما فرغوا جعلوا يستاكون بعود الأراك ثم ينتشرون إلى مواقفهم، فرجع هؤلاء إلى القائد الفارسي وأخبروه بخبرهم متعجبين من تألفهم وطاعتهم لقوادهم، وكبرائهم، فسأل القائد عن طعامهم، فقالوا: مكثنا فيهم ليلة ما رأينا أحداً يأكل شيئاً إلا أنهم يمصّون عيداناً لهم حين يمسون وحين يصبحون، فذهل القائد وجعل يصيح كالمذهول من شدة تعجبه، واستولى الرعب على الفرس فكان كلما تقدم المسلمون الأشاوس في جبهة من الجبهات تصايح الفرس: (ديوانه ها امدند) أي جاء المجانين».

وفي كتابنا (نزهة الخاطر) تحت عنوان (حكمة تشريع صلاة الجماعة) ما نصه:

«إن الدين الإسلامي الحنيف، دين اجتماع وائتلاف، دين سلام ووداد، دين سعادة ووئام، ولأجل هذه الغاية السامية فقد شرّع صلاة الجماعة لأمور نذكر منها ما بلغ إليه العقل البشري، ونترك ما لم نصل إليه إلى الزمن، فنقول: أراد الشارع بها:

١ ـ استيلاء عظمة الله تعالى على النفوس، وأخذ رهبته بمجامع القلوب بما تحدثه هيئة المصلين وقيامهم في صعيد واحد للعبادة.

٢ ـ ظهور جماعة المسلمين مظهر القوة والشوكة بهذه الاجتماعات المتكررة التي تنبىء بائتلافهم ووحدتهم مما يدعو إلى تعظيم أمر الدين ورجوع مناوئيه بالخيبة والخسران.

٣ ـ تنبيههم إلى الانتظام في أمورهم والاعتدال في أعمالهم بطاعتهم للإمام في الصلاة، وما يرونه من استقامة صفوفهم واتحادهم في تلك المتابعة.

٤ ـ أنس بعضهم ببعض في تلك الاجتماعات، وحصول الصلة والألفة فيما بينهم إذا ما اجتمعوا في كل يوم خمس مرات، مؤتلفين مرتبطين متحدين في عمل واحد وصعيد واحد.

٥ ـ حصول الاعتماد من بعضهم لبعض في أداء شهادة أو معاملة أو غير ذلك، إذا ما رأوهم يصلون ملتزمين بأداء الوظائف الدينية، لا سيما هذا الركن الجليل.

٦ ـ لأن العبادة في الجماعة عبادة ظاهرة لخلق الله تعالى، مكشوفة للناس، وذلك أدعى لتكون حجة لله على خلقه بالغة يوم الحساب.

٧ ـ إن الصلاة لمن أقرب مواضع القرب من الله، ومن أبلغ مظانّ استجابة الدعاء وطلب الغفران، فإذا أراد العبد الاعتذار إلى ربه وطلب رضاه، كان هذا الجمع من المسلمين شفعاء له عنده، وكان العفو عنه أقرب.

٨ ـ الإقبال على الله بانتظارها، والإعراض عن الدنيا بالمشي إليها.

٩ ـ تأدية هذه الاجتماعات للصلاة إلى إنشاء المساجد أو عمارة خرابها، ولولاها لحصل التساهل والتسامح لعدم الحاجة إلى ذلك.

١٠ ـ إدراك الصلاة التي هي عمود الدين في أول وقتها، بسبب هذا الالتزام، فإن المنفرد ربما تكاسل أو تسامح حتى يفوت وقتها.

١١ ـ إن صلاة المسلمين بعضهم وراء بعض مما يبعد الكبر ويخضع النفس وهي خلة محمودة لدى الله والناس، محببة لصاحبها في القلوب.

١٢ ـ تعلم من لا يحسن الصلاة بدخوله مع الجماعة.

١٣ ـ اجتماع الإخوان المسلمين مع بعضهم، وتفقد كل حال الآخر وإفشاء السلام فيما بينهم، وإظهار الأخوة والعطف على بعضهم، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى الإطالة فيه.

ثواب صلاة الجماعة:

منها ما جاء في الرواية، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «أتاني جبرائيل عليه السلام ومعه سبعون ألف ملك بعد صلاة العصر، فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام، وأهدى إليك هديتين لم يهدهما إلى نبي قبلك. قال: يا جبرائيل وما تلك الهديتان؟ قال: الوتر ثلاث ركعات، والصلوات الخمس في الجماعات. قلت: يا

جبرائيل وما لأمتي في الجماعة؟ قال: يا محمد إذا كانا اثنين كتب الله تعالى لكل واحد منهما بكل ركعة مائة وخمسين صلاة، وإذا كانوا ثلاثة كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة مائتين وخمسين صلاة، وإذا كانوا أربعةً كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة ألفاً ومائتي صلاة، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفاً وثلاثمائة صلاة، وإذا كانوا ستة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا سبعة كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة أربعة آلاف وثمانمائة صلاة وإذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعمائة ألف صلاة وستمائة صلاة، وإذا كانوا تسعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعة عشر ألف صلاة، وإذا زادوا على عشرة فلو صارت بحار السموات والأرض كلها مداداً والأشجار أقلاماً والثقلان والملائكة كتاباً، لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة، يا محمد تكبيرة يدركها المؤمن مع الإمام خير له من سبعين حجة وألف عمرة سوى الفريضة».

وعن عبد الله بن مسعود: «فاتته تكبيرة الافتتاح يوماً فأعتق رقبة، وجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله قد فاتتني تكبيرة الافتتاح يوماً فأعتقت رقبة، هل كنت مدركاً فضلها؟ فقال: لا. فقال ابن مسعود: ثم أعتقت أُخرى، فقلت: يا رسول الله هل كنت مدركاً فضلها؟. فقال: لا يابن مسعود لو أنفقت ما في الأرض جميعاً لم تكن مدركاً فضلها».

وقال ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة خير من صلاته في بيته أربعين سنة قيل: يا رسول الله صلاة يومه؟ قال: صلاة واحدة، وإذا كان العبد خلف الإمام كتب الله له مائة ألف وعشرين درجة»[١].

وجاء في (العروة الوثقى) للسيد (محمد كاظم اليزدي): «وفي رواية محمد بن عمارة قال: أرسلت إلى الرضا عليه السلام أسأله عن الرجل يصلي المكتوبة وحده في مسجد الكوفة أفضل، أو صلاته مع جماعة؟ فقال عليه السلام: «الصلاة في جماعة أفضل» مع أنه ورد أن الصلاة في مسجد الكوفة تعدل ألف صلاة وفي بعض الأخبار ألفين.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الصلاة خلف العالم بألف ركعة، وخلف القرشي بمائة».

ولا يخفى أنه إذا تعددت جهات الفضل تضاعف الأجر، فإذا كانت في مسجد

---

(١) أنوار النعمانية.

السوق الذي تكون الصلاة فيه باثنتي عشرة صلاة يتضاعف بمقداره، وإذا كانت في مسجد القبلة الذي تكون الصلاة فيه بخمسة وعشرين فكذلك، وإذا كانت في المسجد الجامع الذي تكون الصلاة فيه بمائة، يتضاعف بقدره وكذا إذا كانت في مسجد الكوفة الذي بألف، أو كانت عند علي عليه السلام الذي فيه بمائتي ألف، وإذا كانت خلف العالم أو السيد فأفضل، وإن كانت خلف العالم السيد فأفضل، وكلما كان الإمام أوثق وأورع وأفضل، فأفضل، وإذا كان المأمومون ذوي فضل فتكون أفضل، وكلما كان المأمومون أكثر، كان الأجر أزيد.

ولا يجوز تركها رغبة عنها، أو استخفافاً بها. ففي الخبر لا صلاة لمن لا يصلي في المسجد إلا من علة، ولا غيبة لمن صلى في بيته ورغب عن جماعتنا ومن رغب عن جماعة المسلمين وجب على المسلمين غيبته وسقطت بينهم عدالته، ووجب هجرانه، وإذا رفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذره، فإن حضر جماعة المسلمين وإلا أحرق عليه بيته، وفي آخر أن أمير المؤمنين عليه السلام بلغه أن قوماً لا يحضرون الصلاة في المسجد، فخطب فقال: «إن قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا فلا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يشاورونا ولا يناكحونا أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة، وإني لأوشك بنار تشعل في دورهم فأحرقها عليهم أو ينتهون. قال: فامتنع المسلمون من مواكلتهم ومشاربتهم ومناكحتهم حتى حضروا جماعة المسلمين. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة. فمقتضى الإيمان عدم الترك من غير عذر لا سيما مع الاستمرار عليه، فإنه كما ورد لا يمنع الشيطان من شيء من العبادات منعها ويعرض عليهم الشبهات من جهة العدالة ونحوها حيث لا يمكنهم إنكارها، لأن فضلها من ضروريات الدين».

نوادر أئمة الجماعة:

قرأ إمام في الصلاة: ألم غلبت الترك، فلما فرغ قيل له إنما الآية: ﴿**غلبت الروم**﴾، فقال: كلهم أعداء لا نبالي من ذكر منهم.

قرأ إمام في صلاته: ﴿**إذا الشمس كورت**﴾، فلما بلغ قوله: ﴿**فأين تذهبون**﴾، أُرتج عليه وجعل يرددها، وكان خلفه رجل معه جراب فضرب به رأس الإمام وقال: أما أنا فأذهب إلى دارنا. وأما هؤلاء السفهاء فلا أدري إلى أين يذهبون.

صلى رجل خلف إمام بمكة فقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾[1]. فقال الرجل:

---

(١) سورة يس، الآية ٢٢.

ما أدري والله فضحك الناس وقطعوا الصلاة.

صلى أعرابي مع إمام في الصف الأول، وكان اسمه مجرماً، فقرأ: ﴿**ألم نهلك الأولين**﴾[١] فتأخر الأعرابي إلى الصف الثاني، فقرأ الإمام: ﴿**ثم نتبعهم الآخرين**﴾[٢] فتأخر إلى الصف الثالث، فقرأ الإمام: ﴿**كذلك نفعل بالمجرمين**﴾[٣]. فقال الأعرابي: والله ما أراد غيري، فأخذ نعله وهرب من المسجد.

اشترك ثلاثة إخوة في بناء مسجد، اسم أحدهم إبراهيم، والثاني موسى والثالث الحاج أحمد، وعينوا له إماماً، فقرأ الإمام في الصلاة وهم خلفه في الصف الأول ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[٤] فلما فرغ من الصلاة دعاه الحاج أحمد، فقال: ألم تعلم أنني أنا وإخوتي إبراهيم وموسى بنينا هذا المسجد من مالنا جميعاً، ونقوم بنفقتك كلنا؟ فقال: نعم. قال: فلماذا تذكر أسماء إخوتي في الصلاة ولا تذكر اسمي؟ قال: إن هذا قرآن ولا تجوز الزيادة فيه. قال: بل هذه محاباة منك لإخوتي، والله لئن لم تذكر اسمي بعد هذه المرة لأُوجعنك ضرباً. فلما كانت الصلاة الثانية قرأ الإمام: إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى والحاج أحمد. فلما فرغ سأله الناس عن ذلك وقالوا هذه الزيادة ليست في القرآن! قال: إنها نزلت البارحة بعصا غليظة.

قرأ إمام في الصلاة: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾[٥] وأُرتج عليه، فجعل يرددها فلما طال الأمر قال له أعرابي من خلفه: إذا لم يذهب نوح فأرسل غيره وأرحنا.

اشترى إمام سطلاً فاستحيى أن يجعله قدامه في الصلاة فجعله خلفه، فلما ركع شغل قلبه به فظن أنه سرق، فأراد أن يقول: ربنا لك الحمد، فقال: ربنا لك السطل. فقال له بعض المأمومين: السطل خلفك لا بأس عليك.

كان رجل يصلي خلف إمام فقرأ الإمام الفاتحة ثم أُرتج عليه، فجعل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويكررها. فقال رجل من خلفه: ليس للشيطان ذنب إلا أنك لا تحسن أن تقرأ.

---

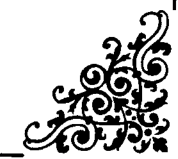
(١) سورة المرسلات، الآية ١٦.
(٢) سورة المرسلات، الآية ١٦.
(٣) سورة المرسلات، الآية ١٦.
(٤) سورة الأعلى، الآيتان ١٨ ـ ١٩.
(٥) سورة نوح، الآية ١.




حَقُّ الجَليسِ

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ جَلِيسِكَ أَنْ تُلِينَ لَهُ جَانِبَكَ، وَتُنْصِفَهُ فِي مُجَارَاةِ اللَّفْظِ وَلاَ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمَن تَجْلِسُ إِلَيْهِ يَجوزُ لَهُ القِيَامُ عَنْكَ بِغيْرِ إِذنِكَ، وَتَنْسَى زَلاَّتِهِ وَتَحْفَظَ خَيْرَاتِهِ، وَلاَ تُسْمِعَهُ إِلاَّ خَيْراً».

تمهيد

الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات. ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[١] ثم يذكر ـ بعد ـ ما يكلفهم به: ﴿ . . . ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[٢].

وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.

فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد. يقول رسول الإسلام في وصف حاله: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء. يحكم الدين عليه حكماً قاسياً فيقول فيه الرسول ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يؤمن جاره بوائقه!!».

وتجد الرسول ـ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر ـ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله..

على أن بعض المنتسبين إلى الدين، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٩.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٩.

ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم ـ في الوقت نفسه ـ يرتكبون أعمالاً يأباها الخلق والإيمان الحق.

إن نبي الإسلام توعد هؤلاء الخالطين، وحذر أمته منهم.

ذلك أن التقليد في أشكال العبادات يستطيعه من لم يشرب روحها، أو يرتفع لمستواها.

ربما قدر الطفل على محاكاة صلاة وترديد كلمات.

ربما تمكن الممثل من إظهار الخضوع وتصنع أهم المناسك . . .

لكن هذا وذاك لا يغنيان شيئاً عن سلامة اليقين، ونبالة المقصد. والحكم على مقدار الفضل وروعة السلوك يرجع إلى مسبار لا يخطىء، وهو الخلق العالي! وفي هذا ورد عن النبي ﷺ «أن رجلاً قال له: يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. فقال: «هي في النار». قال: يا رسول الله فإن فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق «بالأثوار من الأقط» (بالقطع من الجبن) ولا تؤذي جيرانها. قال: «هي في الجنة».

في هذه الإجابة تقدير لقيمة الخلق العالي، وفيها ـ كذلك تنويه بأن الصدقة عبادة اجتماعية، يتعدى نفعها إلى الغير، ولذلك لم يفترض التقلل منها كما افترض التقلل من الصلاة والصيام، وهي عبادات شخصية في ظاهرها.

إن رسول الإسلام، لم يكتف بالإجابة على سؤال عارض، في الإبانة عن ارتباط الخلق بالإيمان الحق، وارتباطه بالعبادة الصحيحة، وجعله أساس الصلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة.

إن أمر الخلق أهم من ذلك، ولا بد من إرشاد متصل، ونصائح متتابعة ليرسخ في الأفئدة والأفكار، أن الإيمان والصلاح والأخلاق، متلازمة متماسكة لا يستطيع أحد تمزيق عراها.

لقد سأل ﷺ أصحابه يوماً: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم ذاك وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار ذلك هو المفلس: إنه كتاجر يملك في محله

بضائع بألف، وعليه ديون قدرها ألفان، كيف يعد هذا المسكين غنياً»؟

والمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب امرأ تقياً؟

روي أن النبي ﷺ ضرب لهذه الحالات مثلاً قريباً. قال: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل».

فإذا نمت الرذائل في النفس، وفشا ضررها، وتفاقم خطرها، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه، وأصبح ادعاؤه للإيمان زوراً، فما قيمة دين بلا خلق؟ وما معنى الفساد مع الانتساب لله؟

وتقريراً لهذه المبادىء الواضحة في صلة الإيمان بالخلق القويم، يقول النبي الكريم ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وحج واعتمر، وقال إني مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان». وقال في رواية أُخرى: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم»! وقال كذلك: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ظهر من هذه التعاليم أن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات وإلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، وأنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعاداً عنه.

فليست الأخلاق من مواد الترف التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين، ويحترم ذويها..

وقد أحصى الإسلام الفضائل، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة. ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلي بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسفر لا يعرف مثله، لعظيم من أئمة الإصلاح.

وقبل أن نذكر تفاصيل هذه الفضائل، وما ورد في كل منها على حدة، نثبت طرفاً من دعوته الحارة إلى محامد الأخلاق، ومحاسن الشيم:

عن أسامة بن شريك قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير

ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أُناس فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «أحسنهم خلقاً». وفي رواية: «ما خير ما أُعطي الإنسان؟ قال: خلق حسن». وقال ﷺ: «إن الفحش والتفحش ليس من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً». وسئل: «أي المؤمنين أكمل إيماناً»؟ قال: «أحسنهم خلقاً» وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ ـ فأعادها مرتين أو ثلاثاً ـ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: أحسنكم خلقاً». وقال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، إن الله يكره الفاحش البذيء. وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة».

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل بشؤون الإصلاح الخلقي فحسب لما كان مستغرباً منه، وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير، والأديان ـ عادة ـ ترتكز في حقيقتها الأولى على التعبد المحض.

ونبي الإسلام ﷺ دعا إلى عبادات شتى، وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين. فإذا كان ـ مع سعة دينه وتشعب نواحي العمل أمام أتباعه ـ يخطرهم بأن أرجح ما في موازينهم يوم الحساب، هو الخلق الحسن فإن دلالة ذلك على منزلة الخلق في الإسلام لا تخفى..

والحق أن الدين إن كان خلقاً حسناً بين إنسان وإنسان، فهو ـ في طبيعته السماوية ـ صلة حسنة بين الإنسان وربه، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة.

إن هناك أدياناً تبشر بأن اعتناق عقيدة ما، يمحو الذنوب، وإن أداء طاعة معينة يمسح الخطايا.

لكن الإسلام لا يقول هذا، إلا أن تكون العقيدة المعتنقة محوراً لعمل الخير، وأداء الواجب، وأن تكون الطاعة المقترحة غسلاً من السوء، وإعداداً للكمال المنشود، أي إنه لا يمحق السيئات إلا الحسنات التي يضطلع بها الإنسان ويرقى صعداً إلى مستوى أفضل.

وقد حرص النبي ﷺ على توكيد هذه المبادىء العادلة حتى تتبينها أمته جيداً، فلا تهون لديها قيمة الخلق، وترتفع قيمة الطقوس.

قال ﷺ: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل ـ وإنه لضعيف العبادة ـ وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم». وقال: «إن

المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». وفي رواية: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار». وقال: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام والقوام بآيات الله. بحسن خلقه وكرم طبيعته». وقال: «كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه».

وروى عنه أبو ذر (ره): «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة».

وحسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر والنواهي المجردة، إذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا أو لا تفعل كذا، فالتأديب المثمر يحتاج تربية طويلة، وتعهداً مستمراً.

ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيىء لا يترك في نفوس من حوله أثراً طيباً، وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه، فيروعها أدبه، ويسبيها نبله، وتقتبس ـ بالإعجاب المحض ـ من خلاله، وتمشي ـ بالمحبة الخالصة ـ في آثاره.

بل لا بد ـ ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل ـ أن يكون في متبوعه قدر أكبر، وقسط أجلّ.

وقد كان رسول الله ﷺ بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامي، بسيرته العاطرة قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات. وكان يقول: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

وعن أنس قال: خدمت النبي عشر سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء: لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا؟

وعنه: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله فتنطلق به حيث شاءت. وكان إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده، حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، يعني أنه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر ولا يطوي عن أحد بشره ولا خلقه. يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. من جالسه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء.

على ضوء هذه السيرة ـ سيرة النبي العطرة ـ ركز الإمام السجاد عليه السلام سيرته النيرة مع الجليس، بأسلوب سائغ من الإقناع والمحبة، وتعليقة بالفضائل الجليلة، استثارة إلى للسموّ والكمال.

إن الإمام (صلوات الله عليه) يتحسس النفوس بين الحين والحين، ليغسلها من أدران الحقد الرخيص، وليجعلها حافلة بمشاعر أزكى وأنقى نحو الناس ونحو الحياة فتراه قائلاً: «وحق جليسك أن تلين له. . .» فمداراة الجليس ومعرفة حقه دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. فقيام الإنسان والتزامه بحفظ حقوق جليسه، أساس كرامته في الدنيا، وسعادته في الآخرة.

قال سعيد بن العاص: لجليسي عليَّ ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أصغيت إليه، وإذا جلس أوسعت له، وقد قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] إشارة إلى الشفقة والإكرام.

كان القعقاع بن شور إذا جالسه رجل فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيباً في ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حاجته وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً.

وقسم معاوية يوماً آنية فضة، ودفع إلى القعقاع حظه منها، فآثر به القعقاع أقرب القوم إليه. فقال:

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوس

فالإمام في هذه الفقرات اللامعة يضع بذور الود والإخاء، فهو يدعو إلى لين الجانب مع الجليس، وحسن الخلق والالتزام بأدب اللفظ واختياره معه، وإنصافه وإعطاء حقه، وأن يغض ويتجاوز عن أي كلام يصدر منه يشمّ منه رائحة الخشونة ويجتنب القسوة والغلظة ويبتعد عن العنف والشدة، ويسلك معه الإيناس واللطف والمداراة والتجمل، فيجتنب الصراحة إن كانت مؤلمة، ويترك الحقيقة إن كانت منفرة، ويبذل الجهد في الأسباب التي تقربه منه وتدنيه إليه.

وإذا أراد الانصراف فعليه أن يستأذن منه، فليس من أدب الإسلام أن ينصرف بدون استئذان، فإنه يشعر منه عدم الاعتناء والاحترام، وعدم الاهتمام بشأن الجليس، وقد يؤدي إلى النفور والاشمئزاز بينهما فيؤدي إلى البعد.

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

وقد أمر الله سبحانه حبيبه المختار من خيار خلقه، أن يجالس الفقراء ويصبر نفسه معهم ويحبسها على صحبتهم ومجالستهم، فقال في محكم كتابه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1] قال المفسرون: المراد بهم فقراء المؤمنين، مثل: عمار وخباب وسلمان وأبي ذر وغيرهم. وقيل: أصحاب الصفّة وكانوا نحو سبعمائة رجل، قيل: إنه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله ﷺ: نحّ هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك. كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[2].

وروي عن سلمان وخباب قالا: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ جالساً مع ناس من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله ﷺ حقروهم، فأتوه ﷺ فقالوا: يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرياح جبابهم، (وكانت عليهم جباب من صوف)، جالسناك وحادثناك وأخذنا عنك. فقال ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين. قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا فيه العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد (يعنون فقراء المسلمين)، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا بذلك كتاباً. فدعا بالصحيفة وبعلي عليه السلام ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ﴾[3] إلى آخر الآية، فرمى ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام، فنزلت: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[4] الآية، فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه. وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أُمتي. معكم الحياة ومعكم الممات.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

(٤) سورة الكهف، الآية ٢٨.

وينبغي للإنسان أن يختار الجليس. فليس كل أحد يصلح للمجالسة ولا كل أحد يصلح أن يكون جليساً، فرب جليس يكون ضرره أكثر من نفعه، ورب جليس يجلب السوء ويجلب تشويه السمعة وسوء الخلق، ورب جليس يحطم كيان الإنسان.

قال رسول الله ﷺ: «مثل الجليس الصالح مثل الداري، إن لم يحذك من طيبه علقك من ريحه، ومثل الجليس السوء مثل الكير إن لم يحرقك بشرار ناره علقك من نتنه».

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومجالسة الأخيار تلحق الأشرار بالأخيار، ومجالسة الأبرار للفجار تلحق الأبرار بالفجار، فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله فلا حظ له من دين الله، إن رسول الله كان يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يواخين كافراً ولا يخالطن فاجراً، ومن آخى كافراً أو خالط فاجراً كان كافراً أو فاجراً».

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله ﷺ: المرء على دين خليله وقرينه».

وعن سليمان الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبي: ما لي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟ قال: إنه خالي. فقال له أبو الحسن عليه السلام: إنه يقول في الله قولاً عظيماً، يصف الله ويحده والله لا يوصف، فإما جلست معه وتركتنا وإما جلست معنا وتركته. فقال: إن هو يقول ما شاء أي شيء عليَّ منه إذا لم أقل ما يقول. فقال له أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظه وأدركه موسى وأبوه يراغمه حتى بلغا طرف البحر فغرقا جميعاً، فأتى موسى الخبر فسأل جبرائيل عن حاله فقال له: غرق رحمه الله. ولم يكن على رأي أبيه لكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب».

* * *

وينبغي أن يكون الجليس رحب الملاقاة حسن المحاضرة خفيف الطبع

والأريحية، آخذاً بأربع، تاركاً لأربع، آخذاً بأحسن الحديث إذا حدث، وبأحسن الاستماع إذا حُدّث، وبأحسن البشر إذا لقي، وبأيسر المؤنة إذا خولف. ويكون تاركاً لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللجوج، ومماراة السفيه، ومصاحبة المأبون. وأن لا يكون فظاً غليظاً يكره الناس مجالسته. ولا ثقيلاً يورث الضجر والألم النفسي.

مجالسة الثقلاء:

قال بختيشوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء، فإنا نجد في كتب الطب، أن مجالسة الثقيل حمى الروح.

وقال بعضهم: سخنة العين النظر بها إلى الثقلاء. ودخل أبو حنيفة على الأعمش يوماً، فأطال جلوسه، فقال: لعلي قد ثقلتُ عليك. قال: وإني لأستثقلك وأنت في منزلك فكيف وأنت عندي؟

قال بعض الشعراء:

إنـــي أُجـــالـــس معشـــراً   نـــوكـــى أخفهـــم ثقيـــل
قـــوم إذا جـــالستهـــم   صـــدئـــت بقـــربهـــم العقـــول
لا يُفهمـــونـــي قـــولهـــم   ويـــدق عنهـــم مـــا أقـــول
فهـــم كثيـــر بـــي وأعلـــم   أننـــي بهـــم قليـــل

وقال آخر:

فمـــا الفيـــل تحملـــه ميتـــاً   بـــأثقـــل مـــن بعـــض جـــلاسنـــا

ومر رجل بصديق له ومعه رجل ثقيل، فقال له: كيف حالك؟ فقال:

وقـــائـــل كيـــف أنـــت قلـــت لـــه   هـــذا جليســـي فمـــا تـــرى حـــالـــي

وقال بشار:

ربمـــا يثقـــل الجليـــس وإن كـــان   خفيفـــاً فـــي كفـــة الميـــزان
ولقـــد قلـــت حيـــن وتـــد فـــي الأر   ض ثقيـــل أربـــى علـــى ثهـــلان
كيـــف لـــم تحمـــل الأمـــانـــة أرض   حملـــت فـــوقهـــا أبـــا سفيـــان

وقال آخر:

هـــل غـــربـــة الـــدار منـــك منجيتـــي   إذا اغتـــدت بـــي قـــلائـــص ذمـــل

وما أظن الفلاة تنجيني … منك ولا الفلك أيها الرجل
ولو ركبت البراق أدركني … منك على نأي دارك الثقل
هل لك فيما ملكت نافلة … تأخذه جملة وترتحل

وقال آخر:

ثقيل يطالعنا من أمم … إذا سره رغم أنفي ألم
لطلعته وخزة في الحشا … كوخز المشارط في المحتجم
أقول له إذ بدا طالعاً … ولا حملته إلينا قدم
فقدت خيالك لا من عمى … وأذني كلامك لا من صمم

وأتى رجل ابن المقفع في حاجة فلم يصل إليه، وكان مستثقلاً له، فكتب بيتاً في رقعة وأرسل به إليه:

هل لذي حاجة إليك سبيل … وقليل تلبثي لا كثير

فوقع إليه:

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل … وقليل من الثقيل كثير

فأجابه الرجل:

قد بدأت الجواب منك بفحش … أنت بالفحش والبذاء جدير

فضحك وقضى حاجته.

وكتب أعرابي إلى حماد الراوية المعروف بعجرد، وكان حماد يستثقله:

إن لي حاجة فرأيك فيها … لك نفسي الفدا من الأوصاب
وهي ليست مما يبلغها غيري … ولا أستطيعها في كتاب
غير أني أقولها حين ألقاك … رويداً أسرها باكتئاب

فكتب إليه: اكتب بالحاجة يا ثقيل: فكتب:

إنني عاشق لجبتك الدكناء … عشقاً قد حال دون الشراب
فاكسنيها فدتك نفسي وأهلي … أتمزى بها على أصحابي
ولك الله والأمانة أني … أجعلها عمري أمير ثيابي

وقال آخر:

سألتك بالله إلا صدقت … وعلمي بأنك لا تصدق

أتبغض نفسك من ثقلها ... وإلا فأنت إذاً أحمق

وقال آخر:

قل للبغيض أخي البغيض ابـ ... ـن البغيض ابن البغيضه
أنت الذي حملتك أمك ... بين فاحشة وحيضه
ضاقت على الثقلين من ... بغضائك الأرض العريضه
ودعت ملائكة السماء ... عليك دعوى مستفيضه

ولآخر:

شخصك في مقلة النديم ... أثقل من رعية النجوم
يا رائحاً روحة علينا ... أثقل من سبة اللئيم
إني لأرجو بما أقاسي ... منك خلاصاً من الجحيم

وقال آخر:

يا مفرغاً في قالب البغض ... بعضك يشكوك إلى بعض
كأنما تمشي على ناظري ... إذا تخطأت على الأرض

وقال آخر:

يا من له حركات ... على النفوس ثقيله
وليس يعرف معنى ... قصيره من طويله
أورثتني بجلوسي ... إليك حمى مليله
فاصفع لنفسك عني ... فإن كفي عليله

وقال آخر:

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه ... وقال إلهي زيدت الأرض ثانيه

وأنشد آخر:

تحمل منه الأرض أضعاف ما ... يحمله الحوت من الأرض

وأنشد آخر:

مشتمل بالبغض لا تنثني ... إليه لحظاً مقلة الرامق
يظل في مجلسنا قاعداً ... أثقل من واش على عاشق

قاله القيرواني في زهر الآداب.

وقد أكثر الناس في الثقلاء، وأنا أستحسن قول جحظة، وإن كان غيره قد تقدمه في مثله:

يا لفظة النعي بموت الخليل | يا وقفة التوديع بين الحمول
يا شربة اليارج يا أجرة | المنزل يا وجه العذول الثقيل
يا طلعة النعش ويا منزلاً | أقفر من بعد الأنيس الحلول
يا نهضة المحبوب عن غضبة | يا نعمة قد آذنت بالرحيل
ويا كتاباً جاء من مخلف | للوعد مملوءاً بعذر طويل
يا بكرة الثكلى إلى حفرة | مستودع فيها عزيز الثكول
يا وثبة الحافظ مستعجلاً | بصرفه القينات عند الأصيل
ويا طبيباً قد أتى باكراً | على أخي سقم بماء البقول
يا شوكة في قدم رخصة | ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عثرة المجذوم في رحله | ويا صعود السعر عند المعيل
يا ردة الحاجب عن قسوة | ونكسة من بعد برء العليل

ألفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء:

فلان ثقيل الطلعة، بغيض التفصيل والجملة، بارد السكون والحركة، قد خرج عن حد الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال. يحكي ثقل الحديث المعاد، ويمشي في القلوب والأكباد، ولا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعدما أقلته؟ كأن وجهه أيام المصائب، وليالي النوائب، وكأنما قربه فقد الحبائب، وسوء العواقب. وكأنما وصله عدم الحياة، وموت الفجأة، وكأنما هجره قوة المنة، وريح الجنة. يا عجبي من جسم كالخيال، وروح كالجبال. كأنه ثقل الدين، على وجع العين. هو ثقيل السكون بغيض الحركة، كثير الشؤم، قليل البركة، وهو بين الجفن والعين قذاة، وبين الأخمص والنعل حصاة. ما هو إلا غداة الفراق، وكتاب الطلاق، وموت الحبيب وطلوع الرقيب. ما هو إلا أربعاء لا تدور في صفر، والكابوس في وقت السحر وأثقل من خراج بلا غلة، وداء بلا علة، وأبغض من مثل غير سائر، وأجمع للعيوب من بغلة أبي دلامة، وحمار طيار، وطيلسان ابن حرب، وأير أبي حكيمة.




حَقُّ الجَارِ

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ جَارِكَ حِفْظُهُ غَائِباً، وَإِكْرَامُهُ شَاهِداً، وَنُصْرَتُهُ إِذَا كَانَ مَظْلوماً، وَلاَ تَتْبَعْ لَهُ عَوْرَةً، فَإِنْ عَلِمْتَ عَلَيْهِ سُوءاً سَتَرْتَهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّه يَقْبَلُ نَصِيحَتَكَ نَصَحْتَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلاَ تُسَلِّمُهُ عِنْدَ شَدائِدِهِ، وَتُقِيلُ عَثَراتِهِ وَتَغْفِرُ ذَنْبَهُ، وَتُعَاشِرُهُ مُعَاشَرَةً كَرِيمَةً. وَلاَ تَدَّخِرُ حِلْمَكَ عَنْهُ إِذَا جَهِلَ عَلَيْكَ، وَلاَ تَخرُجُ أَنْ تكونَ سِلْماً لَهُ، تَرُدُّ عَنْهُ لِسَانَ الشّتِيمةِ وَتُبْطِلُ فِيهِ كَيْدَ حَامِلِ النَصيحَةِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاّ بِاللهِ».

***




تمهيد

الأعمال الاختيارية من الإنسان، إنما تصدر عن بواعث النفس وميل القلب، فإن كانت النفس زكية والقلب طاهراً نقياً، صدرت من الإنسان أعمال الخير والصلاح، وتجنب الشر والمكروه والفساد، وإن كانت النفس خبيثة والقلب دنساً صدرت منه أعمال الشر وظهر منه الفساد، ومع ذلك فليس من الخير أو الشر يصدر من الإنسان بفعل فاعل غيره، وكل ما يصدر عن المكلف إنما هو باختياره، ففاعل الشر يستطيع أن يفعل الخير، وإن كانت نفسه أمارة بالسوء، وفاعل الخير يقدر على فعل الشر، وإن كانت نفسه مطمئنة راضية مرضية، ولذلك استحق العقاب على الشر فاعله والثواب على الخير عامله.

قال بعض علماء النفس: (قد يكون الإنسان مجرماً بالذات فاعلاً للشر، وإن لم يقصده لخبث نفسه، وقد يكون محسناً بالطبع فاعلاً للخير، وإن لم ينوه به وذلك لطيب نفسه).

واتبع بعض علماء الحقوق ورؤساء المحاكم هذا الرأي، فدونوا العقوبات وحكموا بالأحكام الجزائية، جرياً على هذه القاعدة، فإن أرادوا أن الإنسان قد يكون مجبولاً على الشر، بحيث لا يستطيع فعل الخير، وقد يكون مقهوراً على الخير بحيث لا يقدر على فعل الشر، فهذا مما يأباه العقل والوجدان، وتنفيه التجارب والاختبارات المعمولة في أصول التربية، ويرده الطب والفسيولوجيا وأصول علم النفس وكل ما يبحث عن الدماغ والعصب من علم وفن. وإن أرادوا أن الإنسان قد يكون مائلاً إلى الخير أكثر من الشر، أو إلى الشر أكثر من الخير، فذلك حق ولكن لا يوجب التفاوت في العقوبات والأحكام.

وما قاله الأطباء من وجود غدد في الجسم تفرز مواد هرمونية، تؤثر في توجيه الإنسان وسلوكه، وقالوا: نستطيع أن نرتب الناس بحسب أمزجتهم، فالمزاج

الأدرينالي للشخص الانفجاري الذي يمتاز بالنزوة والاندفاع، والمزاج الدرقي للشخص الصبور المتجلد المثابر، والمزاج النخامي للشخص الذكي المتزن، وهذا الترتيب ناتج عن وجود تلك الغدد، من جملتها الغدد المنوية التي تترتب عليها صفات الرجولة العضوية والمزاجية، وكذا المبيضان بالنسبة للمرأة. وإن الغدة الدرقية الواقعة إلى جانبي قصبة العنق يؤدي نقص الإفراز منها إلى تعطل النمو وخمول الذهن، وهي تزود الجسم بقوة المثابرة على الجهد. أما الغدتان الأدريناليتان الواقعتان فوق الكليتين، فتزودان الجسم بالانبعاث الفجائي وقت الغضب أو الخوف. والغدة النخامية في أسفل المخ، تؤثر في بقية الغدد، وتدفع الإنسان للاتجاه في سلوكه وجهة معينة.

فنعلم من هذا أننا لا نتصرف في الحياة بالعقل فحسب، ولكن بكل الجسم، وفي الحقيقة أن العقل هو الضابط أو الحارس لأعمالنا واتجاهاتنا. فالأعمال الجسمية تؤثر على قلة وزيادة إفراز تلك الغدد، كما يؤثر عليه التوجيه العقلي، فللتربية والمحيط أثر كأثر الرياضة، والمآكل والمشارب والصحة والمرض والراحة والتعب، وما قالوه في هذا الصدد، ليس معناه أن الإنسان مجبور على عمل الخير أو الشر المتولد من الغضب والشهوة والوهم، بحيث لا يستطيع مخالفته والجري على خلاف مقتضاه، بل معناه أن للتركيب الجسمي أثراً في ميول الإنسان إلى الشر أكثر من الخير، أو إلى الخير أكثر من الشر، ميلاً لا يفقد معه الاختيار والقدرة على مخالفته، وهذا الميل تؤثر فيه التربية والتفكير والمحيط وحمل النفس على ضده وترويضها والأكل والشرب والأعمال البدنية الأُخرى، فتخرجه عن اعوجاج الإفراط والتفريط إلى استقامة الاعتدال.

وقد ذكر علماء الأخلاق قديماً، وعلماء علم النفس حديثاً، طرقاً لكسر هذا الميل وتوجيهه إلى الصراط المستقيم من فعل الخير في مورده والشر في محله، ولكنهم لم يأتوا بالمفيد، وخير الطرق لتوجيه الإنسان وجهة صحيحة في نفسه وقلبه وترويض روحه وهواه، بحيث يكون تابعاً لعقله (غالباً) على شهواته وغضبه غير مغلوب لهواه ووهمه، هو ما ذكر في الشرع الشريف ونطق به القرآن المجيد وبينته السنة الصريحة الصحيحة، وهو أن يكون الإنسان دائماً مفكراً في عقاب الله على الشر وثوابه على الخير، واطلاعه على ما يفعل الإنسان في السر والخفاء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[1] وكل ذلك علمه عند الله في كتاب لا

(١) سورة هود، الآية ٥٦.

يضل ربي ولا ينسى.

هذا التفكير هو الذي يوقف القوة الغضبية عند حدها من الشجاعة، ولا يدعها تميل إلى الإفراط في التهور أو التفريط من الجبن، وهو الذي يقود القوة الشهوية إلى الصلاح، فلا يدعها تميل إلى الإفراط من الشره والبطر ولا إلى التفريط من الخمول والكسل، وهو الذي يهذب القوة العاقلة ويمنعها أن تتردى في مساوي الجربزة، أو تهوي في حضيض البله.

ومع ذلك، فقد وردت في الشرع أحكام وآداب وأعمال تعين على حفظ تلك القوى وسلامة المزاج، والسير بها إلى الصراط المستقيم والنهج القويم الذي يأمن معه المكلف من أليم العقاب وشديد العذاب، ويحظى فيه بجزيل الأجر وعظيم الثواب، وتنتظم به أمور الجامعة البشرية وأفرادها، حتى تدرك السعادة في الدنيا والآخرة.

فمن تلك الأحكام والآداب التي أعارها الشرع أهمية كبرى، حفظ الجار ورعاية حقوقه والقيام بواجبه وحرمة إيذائه والتعدي عليه، وجعل حقه من أعظم حقوق الإنسانية.

* * *

الجار بتخفيف الراء، يجيء لمعان: منها الجنب القريب: وهو الذي يجاورك في المسكن ويميل ظل بيته إلى بيتك.

والجار الذي يجير غيره (أي يؤمنه مما يخاف).

والجار يطلق على الشريف والحقير، والزوج والزوجة، والضرة، والحليف، والناصر، والملاصق.

وقد عني الإسلام بحق الجار وجعله عظيماً يكاد يكون من أعظم الحقوق الإنسانية. والتدليل عليه قول الرسول الأعظم محمد ﷺ: «ما زال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، فمن قصر في حقه عداوة أو بخلاً فهو آثم».

وأمر الجليل (جل وعلا) بحفظه والقيام بحقه، والوصاية برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين. فقال تعالى في الآية الخامسة والثلاثين من سورة النساء: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ... ﴾.

وعلى هذا، فالوصاية بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلماً كان أو كافراً. والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه، فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر، فلا خير فيهما لسائر الناس.

قال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه» وهذا عام في كل جار.

وقد أكد ﷺ ترك أذيّته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره. فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه.

وورد عنه ﷺ أنه قال: «الجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق، فالجار المسلم القريب، له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام. والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم، فله حق الإسلام وحق الجوار. والجار الذي له حق واحد، الكافر له حق الجوار».

وهنا أمور:

الأول: جاء عن عائشة قالت: يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً» فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] وأنه القريب المسكن منك. ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾[2] هو البعيد المسكن منك.

الثاني: اختلف الناس في حد الجيرة، فكان بعضهم يقول: أربعون داراً من كل ناحية.

ورووا أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إليَ جواراً أشدهم لي أذى، فبعث النبي ﷺ من يصيح على أبواب المسجد: ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.

وقال أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه): «من سمع النداء فهو جار».

---

(١) سورة النساء، الآية ٣٦.
(٢) سورة النساء، الآية ٣٦.

وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد.

وقالت فرقة: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهو جار. والجيرة مراتب بعضها ألصق من بعض أدناها الزوجة. قال الأعشى:

أيا جارتا بيني فإنك طالقه

الثالث: ومن إكرام الجار ما جاء عن أبي ذر (ره) قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» فحض ﷺ على مكارم الأخلاق، لما يترتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة، فإن الجار قد يتأذى بقتار قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لاسيما إذا كان القائم ضعيفاً أو أرملة فتعظم المشقة، ويشتد منهم الألم والحسرة. وكل هذا يندفع بإشراكهم في شيء من الطبيخ يُدفع إليهم، ولهذا المعنى خص ﷺ الجار القريب بالهدية، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه، وأيضاً فإنه أسرع إجابة لجاره عندما ينوبه من حاجة في أوقات الغفلة والغرة، فلذلك بدأ به على من بعد بابه، وإن كانت داره أقرب.

الرابع: قال العلماء: لما قال ﷺ: «فأكثر ماءها» نبه بذلك على تيسير الأمر على البخيل تنبيهاً لطيفاً، وجعل الزيادة فيما ليس له ثمن وهو الماء، ولذلك لم يقل إذا طبخت مرقة فأكثر لحمها، إذ لا يسهل ذلك على كل أحد، ولقد أحسن مسكين الدارمي بقوله:

قدري وقدر الجار واحدة وإليه قبلي ترفع القدر

ولا يُهدى النزر اليسير المحتقر لقوله ﷺ: «ثم انظر أهل البيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» أي بشيء يُهدى عرفاً، فإن القليل وإن كان مما يهدى فقد لا يقع ذلك الموقع، فلو لم يتيسر إلا القليل فليهده ولا يحتقره، وعلى المهدى إليه قبوله.

الخامس: ورد حديث جمع النبي ﷺ فيه مرافق الجار، وهو حديث معاذ بن جبل قال: قلنا: يا رسول الله ما حق الجار؟ قال: «إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير سرك وهنّيته، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزيته، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، ولا تستطل عليه بالبناء لتشرف عليه وتسد عليه الريح إلا بإذنه، وإن

اشتريت فاكهة فأهد له منها وإلا فأدخلها سراً، لا يخرج ولدك بشيء منه يغيظون به ولده، وهل تفقهون ما أقول لكم، لن يؤدي حق الجار إلا القليل ممن رحم الله».

وعلى هذا النهج القويم من القرآن، وهذا الأسلوب المنير من السنة، سار الإمام زين العابدين (سلام الله عليه) في هذا الفصل من رسالته الخالدة في التنويه بحق الجار والعناية والاهتمام به، ألا تنظر إليه قائلاً: «وحق جارك حفظه غائباً، وإكرامه شاهداً ونصرته إذا كان مظلوماً و. . .»، ولم يكن الإمام ممن يقتصر في روايته على القرآن وعلى النبي، بل يستنبط ويدرك ويفيض عن علم ذاتي توحيه عبقريته ويثيره فيه محيطه ومجتمعه.

يعني: يجب حفظه إذا. . . ـ بمعنى أن لا يخونه ـ وأن يكون أميناً على ما ائتمنه عليه، وإكرامه واحترامه والحفاوة به إذا حضر، ونصره ومعونته إذا ألمَّ به خطب أو نزل به ضرّ.

ويجب على ما قرره (روحي فداه) ستره ما أمكن، فالله يحب الساترين ويكره الفضيحة والإفشاء، ويكره التجسس والمراقبة، فإن ظهر على الجار شيء ما من دون تجسس أو مراقبة فعلى جاره أن يكتم كل ما عرف، وأن يكون حصناً حصيناً لهذا السر الذي بيده مفتاحه.

ويجب أن ينصره إذا سمع عليه مقالة سوء، ويكره الله أن يستمع إلى قوم ينوشون جارهم بالسوء وفسق اللسان وهو عنهم راضٍ، وأن يقيل عثرته وينهضه من كبوته، ويغضي عن بعض ما قد يسوء من أعماله، فإن الإنسان معرض للخطأ، وأن يمنعه ويذود عنه ويدفع كل ما يضر به.

قال رسول الله ﷺ: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً».

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن آذى جاره حرّم الله عليه الجنة».

وقال ﷺ: «جار السوء في دار المقامة قاصمة الظهر».

وقال ﷺ: «من جهد البلاء جار سوء معك في دار مقامة، إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها».

ومن أدعيتهم: «اللهم إني أعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة، ومن ولد يكون عليّ كلاًّ، ومن حليلة تقرب الشيب، ومن جار تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى خيرا

دفنه، وإن سمع شراً طار به».

وعن ابن مسعود يرفعه: «والذي نفسي بيده لا يسلم العبد حتى يسلم قلبه ولسانه ويأمن جاره بوائقه. قالوا: ما بوائقه؟ قال: غشمه وظلمه».

قال لقمان: «يا بني حملت الحجارة والحديد فلم أرَ شيئاً أثقل من جار السوء».

وأنشدوا:

ألا مـــن يشتـــري داراً بـــرخـــص كـــراهـــة بعـــض جيـــرتهـــا تبـــاع

وكان يقال: من تطاول على جاره حرم بركة داره.

وكان يقال: من آذى جاره ورثه الله داره.

وقالوا: ليس حسن الجوار كف الأذى، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى.

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرساً محضيراً، فقال لأصحابه: لماذا يصلح هذا؟ فذكروا سباق الخيل وصيد الحمر والنعام واتباع الفارّ من الحرب، فقال: لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء.

وكان يقال: الجيران خمسة: الجار الضارّ السيىء الجوار، والجار الدمث الحسن الجوار، والجار اليربوعي المنافق، والجار الراقشي المتلون في أفعاله، والجار الحسود الذي عينه تراك وقلبه يرعاك.

وعن أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه): إن رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه.

وقال ﷺ: «إن يعقوب عليه السلام لما ذهب عنه بنيامين، نادى: يا رب أما ترحمني أذهبت عيني وأذهبت ابني؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: لو أمتهما لأحييتهما لك، أجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت، وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً، فكان يعقوب بعد ذلك ينادي مناديه كل غداة ومساء من منزله على فراسخ ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب.

وفي بعض الأخبار: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة، ويقول: سل يا رب هذا لِمَ منعني معروفه وسد بابه دوني؟

وقال ﷺ: «من آذى جاره فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن

حارب جاره فقد حاربني ومن حاربني فقد حارب الله».

ونزل به ﷺ أضياف، فلما توضأ ﷺ شربوا ما فضل منه ومسحوا وجوههم بما وقع منه على الأرض. فقال ﷺ: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: حب الله ورسوله لعل الله ورسوله يحبنا. فقال: المرء مع من أحب إن كنتم تحبون الله ورسوله فحافظوا على ثلاث خصال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحفظ الجوار، فإن أذى الجار يمحو الحسنات».

وقال ﷺ: «لا يشبع الرجل دون جاره».

وقال ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حسن الجوار زيادة في الأعمار، وعمارة الديار».

وقال عليه السلام: «ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره».

حدود الجار وحقه:

معرفة الجار موكولة إلى العرف، فأي دار يطلق عليها الجار عرفاً، يلزم مراعاة حقوق أهلها، والمستفاد من بعض الأخبار أن كل أربعين داراً من كل من الجوانب الأربعة جيران، كما تقدم ذكره.

ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى، إذ ذلك يستحقه كل أحد، بل لا بد من الرفق وإهداء الخير والمعروف، وإشراكه فيما يملكه ويحتاج إليه من المطاعم.

وينبغي أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ويستر ما اطلع عليه من عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فنائه ولا في المرور عن طريقه، ولا يمنعه ما يحتاج إليه من الماعون. ويغض بصره عن حرمه ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ويتلطف لأولاده في كلمته، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشترى شيئاً من لذائذ المطاعم وطرفها فليهد له، وإن لم يفعل فليدخلها بيته سراً، ولا يخرج بها أولاده

حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره.

فكل جار يتصف بهذه الصفات، فجاره يكون في راحة وطمأنينة، وأمن، لذلك أول ما يسأل عن الجار قبل الدار. قال لقمان في وصيته لولده: «يا بني الجار ثم الدار».

باع أبو الجهم العدوي داره، وكان في جوار ـ سعيد بن العاص ـ بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار فأعطني ثمن الجوار. قال: أي جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحد جواراً قط؟ فقال: رد عليّ داري وخذ مالك، لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني، وإن رآني رحب بي، وإن غبت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قربني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابني نائبة فرج عني، فبلغ ذلك سعيداً، فبعث إليه مائة ألف درهم وقال: هذا ثمن دارك، ودارك لك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل، قام له بما يصلحه وحماه ممن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات وداه لأهله. فجاوره أبو دؤاد الإيادي فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جاراً قالت: جار كجار أبي دؤاد. قال قيس بن زهير:

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى جار كجار أبي دؤاد

ثم تعلّم منه أبو داؤد وكان يفعل لجاره فعل كعب به.

قال طرفه بن العبد:

إني كفاني من أمر هممت به ... جار كجار الحذاقي الذي اتصفا

الحذاقي هو أبو دؤاد، وحذاق بطن من إياد، هكذا في مجمع الأمثال تحت المثل: «جار كجار أبي دؤاد».

وقال مسكين الدارمي:

ما ضر جاري أن أُجاوره ... أن لا يكون لبابه ستر

أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي ينزل القدر

قال رجل لعبد الله بن المبارك: إن جارنا يشتكي من عبدي، ولعله يكذب عليه. فقال له: إذا أذنب عبدك ذنباً فاحفظه عليه، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك، فتكون قد

أرضيت جارك وأدبت عبدك.

وإكرام الجار من شيم العرب وعاداتهم التي اشتهروا بها ومدحوا من أجلها، وجاء الإسلام فأقر ذلك وزاده توكيداً بما جاء في الكتاب والسنة، حتى ضُرب المثل بعُديّ بن حاتم الطائي، حيث كان يفتّ الخبز لمن جاوره من النمل، ويقول: له علينا حق الجوار.

وضرب المثل بمجير الجراد فقيل: (أحمى من مجير الجراد).

قالوا: هو مدلج بن سويد الطائي، ومن حديثه فيما ذكر ابن الأعرابي، عن ابن الكلبي أنه خلا ذات يوم في خيمته، فإذا هو بقوم من طيىء ومعهم أوعيتهم فقال: ما خطبكم؟ قالوا: جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال: والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته، إنكم رأيتموه في جواري ثم تريدون أخذه، فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار، فقال: شأنكم الآن فقد تحول عن جواري. هكذا جاء في مجمع الأمثال.

ومن أجل ذلك هاجت حرب البسوس بين بني بكر وتغلب بن وائل أربعين سنة.

ومن خبرها أن كليب بن ربيعة، اشتهر بحماية الجار حتى صار يضرب به المثل، وكان لا يدخل أحد حماه مخافة منه، وكان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه أحد، وكان يحمي من المرعى مدى صوت كلب، فيختص به ويشارك قومه في غيره، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته، ويقول: وحش أرض كذا في جواري فلا يهاج، ولا يورد مع إبله أحد ولا توقد نار مع ناره، حتى قالت العرب: (أعز من كليب وائل). دخل يوماً حماه فرأى قنبرة قد باضت، فلما رأته فزعت منه وطارت فلما رأى ذلك كليب تنحى عنها فقال لها:

يا لك من قنبرة بمعمري ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري ... لا ترهبي خوفاً ولا تستنكري
فأنت جاري من صروف الحذر ... إلى بلوغ يومك المقدر

ومنع الناس من التعرض لها، وكانت إبل جساس (وهو رئيس وائل)، ترعى في حمى كليب ومع إبل جساس ناقة للبسوس (وهي خالة جساس واسمها هيلة ولقبها البسوس، وناقتها تسمى السراب، وقد كانت جاورت ابن اختها جساس)، فأقبلت السراب فرعت من شجرة القنبرة، فأفزعت أفراخها وكسرت بيضها، فلما بصر بها كليب

رماها بسهم فوقع في ضرعها فأقبلت وضرعها يشخب دماً ولبناً إلى مناخ البسوس ولها رغاء وعويل، فسمعتها البسوس فخرجت وإذا ضرعها يشخب دماً ولبناً، فصاحت وا جوار مرة (وهو أبو جساس)، وا جوار جساس، وا جوار همام، ثم أقبلت عليهم وهم في مجالسهم قالت:

لعمري لو أصبحت في دار منقر ... لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة ... متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ... فإنك في قوم عن الجار أموات

فخرج إليها جساس وقال لها: مهلاً يا خالة، لا بأس عليك، وأعطاها عشرة من الإبل بدل ناقتها، وقال لها: أنا أقتل جملاً من جمال كليب أحسن من جملك. وكان عند كليب جمل يقال له عُليان وهو أحسن جماله. فلما سمع كليب قال: دون عُليان ودون عقره خرط القتاد في الليلة الظلماء. فبلغ جساس ذلك فأخذ ينتهز الفرص ويدبر الحيلة في قتل كليب، وأخذ يتوقع خروجه إلى الحمى ووضع عليه العيون، فلما بلغه أن كليباً خرج إلى الحمى ركب جساس فرسه وتبع كليباً فلما دخل الحمى أحس كليب بوقع الفرس فالتفت إليه، وقال جساس هذا؟ قال: نعم قال: يا بن عمي (وكان كليب قد تزوج أخته) إن كنت من رجالي فائتني من قدامي لأنك تعلم أني قد حلفت لا ألتفت إلى أقل من أربعين، (وكان كليب من شجاعته وفراسته لا يلتفت إلا إلى أربعين فارساً) فلم يلتفت جساس إلى ذلك دون أن طعنه بالرمح في ظهره؛ فوقع كليب وجعل يفحص الأرض برجليه وهو يقول يا جساس أغثني بشربة ماء، فولى جساس عنه وتركه صريعاً يخور بدمه، فأقبل يُركض فرسه وقد بدت ركبتاه، فلما نظر أبوه مرة إلى ذلك، قال لقومه: لقد أتاكم جساس بداهية. قالوا: كيف ذاك؟ قال: ما رأيته بادي الركبتين قط، فلما وقف على أبيه وأخبره بأنه قد قتل كليباً، لامه أبوه على ذلك، وخاف مرة خذلان قومه لما كان من لائمته إياه، فالتزم محاربة بني تغلب، فدعا قومه إلى نصرته فأجابوه، وجلوا الأسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتأهبوا للرحلة إلى جماعة قومهم. وكان همام بن مرة (أخو جساس) و (مهلهل بن ربيعة أخو كليب) متنادمين، وكانا في ذلك الوقت يشربان، فبعث جساس إلى همام جارية له تخبره الخبر، فانتهت إليهما وأشارت إلى همام فقام إليها فأخبرته الخبر، فلما عاد قال له مهلهل: ما قالت لك الجارية (وكان بينهما عهد لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً)، فذكر له ما قالت الجارية. فقال مهلهل: است أخيك أضيق من ذلك، اشرب فاليوم خمر وغداً أمر. فأقبلا على

شربهما فشرب همام وهو حذر خائف، وشرب مهلهل شرب الآمنين، فلما سكر مهلهل انصرف همام إلى أهله، فساروا من ساعتهم إلى جماعة قومهم. وأما مهلهل فإنه لما صحا من سكره لم يرعه إلا النساء يصرخن وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه، فجز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك اللعب والطرب، وحرم القمار والشراب، ثم جمع قومه وأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان فأتوا مرة بن ذهل (أبو جساس) وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة، وإنا نعرض عليك خلالاً أربعاً، لكم فيها مخرج ولنا مقنع: إما أن تحيي كليباً، أو تدفع لنا قاتله جساس نقتله به، أو همام، فإنه كفؤ له، أو تمكّنا من نفسك، فإن فيك وفاء من دمه. فقال لهم: أما إحيائي كليباً فلست بقادر عليه، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة ثم ركب فرسه فلا ندري أي البلاد احتوت عليه، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، كلهم فرسان قومهم، فإن يسلموه أدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل بينهما، ولكن لكم عندي خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم بصاحبكم، وأما الأُخرى فأنا أدفع لكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر. فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت، تبذل لنا صغار ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب. ونشبت الحرب بينهم ودامت بين الفريقين أربعين سنة، وفي كل هذه السنين تكون الغلبة لبني تغلب على وائل، وقتل همام أخو جساس، وكانت تغلب تطلب جساس أشد الطلب فقال له أبوه مرة: إلحق بأخوالك بالشام فامتنع، فألحّ عليه وسيره سراً في خمسة نفر، فبلغ الخبر مهلهل فندب أبا نويرة ومعه ثلاثون رجلاً من شجعان أصحابه، فساروا مجدِّين فأدركوا جساساً فقاتلهم، فقتل جساس أبا نويرة وأصحابه ولم يبق منهم غير رجلين، وجرح جساس جرحاً شديداً مات منه وقتل أصحابه فلم يسلم منهم سوى رجلين، فعاد كل منهم (من السالمين) إلى أهله، فلما سمع مرة بقتل ابنه جساس قال: إنما يحزنني أن لم يقتل منهم. فقيل له: إنه قتل بيده أبا نويرة رئيس القوم، وقتل معه خمسة عشر رجلاً ما شركه منا أحد في قتلهم. فقال: ذلك مما يسكن قلبي. فلما قتل جساس دعا مرة مهلهل وقال له: إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساساً وهماماً، فاكفف عن الحرب ودع اللجاج والإسراف وأصلح ذات البين فهو أصلح للحيين. فلم يجب مهلهل إلى ذلك. فلما مضت على حربهم هذه السنون وكبر الصغير وهرم الكبير وفني الحيان وثكلت الأمهات ويُتم الأولاد ونائحة لا تزال تصرخ بالنواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف

مشهورة ورماح مشرعة، جزع الفريقان مهلهلاً، وكان له عبدان يخدمانه فملاّه، وخرج بهما إلى سفر فبينما هو في بعض الفلوات عزما على قتله لتهدأ الحرب، فلما عرف ذلك أوصاهما أن يقرآ هذا البيت على ابنته:

من مبلغ الحيين أن مهلهلاً لله دركما ودر أبيكما

ثم قتلاه ورجعا إلى قومه فقالا لابنته إنه مات، وأنشداها البيت، فقالت: إن مهلهلاً لا يقول مثل هذا، ولكن امكثا على الباب، ثم صعدت على السطح وأشرفت على الحي ونادت:

من مبلغ الحيين أن مهلهلاً أمسى قتيلاً في الفلاة مجدلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فأسرعوا إلى العبدين فضربوهما حتى أقرا، ثم قتلوهما.

وكانت العرب بعد ذلك تضرب المثل في كليب وحماه، حتى قالوا: (أعز من كليب وائل).

ولم يقفوا عند هذا الحد من حفظ الجوار بل تعدى إلى غير ذلك، فمنعوا من استجار بقبور أشرافهم وأسلافهم. فقد روي أن رجلاً من بني حنظلة قتل رجلاً من بني تميم فخافهم على نفسه فلم يدر ما يصنع، فقيل له عذ بقبر قيس بن عاصم المنقري، فجاء إلى قبره ليلاً فضرب خيمته عليه، فلما أصبح جاء بنو منقر فسألوه عن شأنه فأخبرهم، فقالوا له: أمنت، ثم رحل ومعه مشايخ قومه إلى أهل القتيل فودوه عنه بدية مشعرة.

وولى الحجاج تميم بن زيد القيني على السند، فأخرج من شاء معه من الرجال، فجاءت عجوز إلى الفرزدق فقالت له: إني استجرت بقبر أبيك غالب وهذه حصيات من قبره فقال لها: ما شأنك؟ قالت: خرج تميم بابني ولا قرة لعيني سواه ولا كاسب لي غيره. فقال: هو عائد إليك ما اسمه؟ قالت: خنيس. فكتب مع بعض من شخص إلى السند:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيى عليّ خرابها
هب لي خنيساً واحتسب فيه منة لعبرة أم لا يسوغ شرابها

فلما وردت الأبيات على تميم شكك بالاسم هل هو خنيس أو حبيش (لأن العرب كانوا لا ينقطون الحروف)، ثم قال لأصحابه: انظروا من له مثل هذا الاسم فأرجعوه،

فوجدوا ستة أو سبعة فأرجعوهم.

وهجا الكميت الأسدي بني أمية في قصائده (الهاشميات) بقوله:

ألا أبلـــغ أميـــة حيـــث حلـــت ولا تخـــش المهنـــد والقطيعـــا
أجـــاع الله مـــن أشبعتمـــوه وأشبـــع مـــن بجـــوركـــم أُجيعـــا

فلما بلغ هشام بن عبد الملك أهدر دمه، فكتب إلى خالد بن عبد الله القسري ليقتله، فأخذه خالد وحبسه، فجاءت إليه امرأته فناقلته ثيابها بثيابه فخرج من الحبس ولم يعرفه السجان، وبعد ساعة نادى السجان الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره صاحت به زوجة الكميت وراءك لا أم لك. فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر، فأحضر خالد المرأة وقال لها: يا عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه من السجن لأُثكلنك بنفسك. فاجتمع بنو أسد (قومها) وقالوا له: لا سبيل لك على امرأة خدعها زوجها. وبقي الكميت خائفاً سنة كاملة متخفياً في دار أبي الوضاح، فسقط يوماً غراب على حائط أبي الوضاح ونعب، فقال له الكميت: إني لمأخوذ وإن حائطك لساقط. فقال: سبحان الله هذا لا يكون إن شاء الله. وكان الكميت خبيراً بالزجر، فقال له: لا بد أن تحولني، فخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون، فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب. قال أبو المستهل: وأقام مدة متوارياً حتى أيقن أن الطلب خف عنه، خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل، وأخذ الطريق على القطقطانة. وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها، فلما صار السحر صاح بنا هوّموا يا فتيان فهومنا، وقام يصلي. قال أبو المستهل: فرأيت شخصاً فتضعضعت له فقال: ما بالك؟ قلت: أرى شخصاً مقبلاً، فنظر إليه فقال: هذا ذئب قد جاء يستطعمكم، فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه جزوراً فتعرقها، ثم أهوينا له بإناء فيه ماء فشرب منه، فارتحلنا وجعل الذئب يعوي فقال الكميت: ما له ويله ألم نطعمه ونسقه؟ وما أعرفني بما يريد، هو يدلنا أنا لسنا على الطريق، تيامنوا يا فتيان فتيامنّا فسكن عواؤه، فلم نزل نسير حتى جئنا الشام، فضرب الكميت خيمة له على قبر معاوية بن هشام (وقد مات قريباً)، وقد جزع عليه هشام جزعاً شديداً، فجاءه ولد هشام وسألوه عن شأنه فقال: أنا الكميت أهدر هشام دمي، فلما أصبحوا ربطوا ثيابهم وأقبل هشام على عادته منطلقاً من قصره إلى قبر ولده، فلما رأى الخيمة مضروبة على قبر ولده قال: ما هذه؟ فقالوا: لعله مستجير في القبر، فقال: يجار كائناً من كان إلا الكميت فإنه لا جوار له. فقيل له: إنه الكميت، فأمر أن يحضر بأعنف إحضار فخرج

أولاده وقد ربطوا ثيابهم بثياب الكميت وقالوا له: إن أردت قتله فاقتلنا قبله. فلما نظر هشام إلى أولاد معاوية اغرورقت عيناه واستعبر باكياً، وقالوا له: يا أمير، إنه استجار بقبر أبينا وقد مات ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة له ولنا ولا تفضحنا فيمن استجار بقبر أبينا. فبكى وقال: إني قد أجرته، ونجا الكميت.

* * *

«هي في النار، هي في النار»

قالها (صلوات الله عليه) لمن قال له: إن فلانة يا رسول الله تقوم ليلها وتصوم نهارها وتكثر من الصدقات، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال عليه السلام: «هي في النار...» يقول بعض أصحابه: ما زال عليه السلام يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه.

وقد كانت العرب في الجاهلية تتبارى في إكرام الجار، في حمايته حتى عد ذلك من مزاياهم الخاصة، وحتى قال شاعرهم الكريم حاتم يخاطب زوجته:

إذا ما وضعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فإنني ... أخاف مذمّات الأحاديث من بعدي

فالإسلام لا يجب ما قبله من محاسن الأخلاق، وإنما يقرّها ويعززها، وكذلك ليس من فطرة الإسلام أن يقضي السجايا السيئة التي تتقوم بها الغرائز، كسجية القتل بغير حق الذي كانوا يقترفونه بدافع الثأر أو الغضب.

أقول: ليس حجر هذا من طبع الإسلام، وإنما طبع الإسلام على تحوير هذه السجايا وصرفها عن الباطل ثم توجيهها إلى الحق، فالإسلام يدرك أن هذه السجايا ذخيرة حية خالدة وثمينة في العرب، فأبقى عليها وعززها، ثم وجهها إلى خير الإنسانية وفق نظامه العادل ودستوره الحي وناموسه الأعلى.

فالغضب الذي كان يستغله العربي في جاهليته لنفسه أو قومه أو وطنه، بدافع الأنانية الجائرة، أبقاه عليه ولكنه دفعه إلى العمل به لدينه أو ربه أو إنسانيته، وهكذا أصبح الغزو المشروع في طبيعة العرب الجاهليين للانتقام، أو العيش بالباطل، أصبح غزواً مشروعاً في الإسلام للدعوة إلى الحق، أو الجهاد في سبيل الإنسانية وتعزيز الدين.

من هنا نصل إلى الخلق العربي القائم على حماية الجار وتعزيزه وإكرامه،

كالخلق الداعي لإكرام الضيف وحمايته، والدفاع بالنفس والمال عن كل خلق كريم تأصل فيهم، مثل الشجاعة والكرم والوفاء والحمية.

وإكرام الجار يكاد يكون أحظى ما تبناه الإسلام في أهله من أخلاق الجاهليين، لما فيه من توثيق عرى الصلة بين الإنسان والإنسان، ولما فيه من وسائل التضامن والتآلف، ومن شد أواصر المجتمع البشري، لذلك اهتم به ـ صلوات الله عليه ـ فجعله (أي حسن الجوار) إحدى دعامات المجتمع التي يقوم عليها بناء الوجوب الإنساني، ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يربي في نفوس قومه عامة وأصحابه الأدنين وأهل بيته خاصة، معاني الحياة الكريمة التي لا جفاء فيها ولا تنازع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

ولقد كان ﷺ يتفقد أصحابه إذا غابوا، ويتعهدهم بتحببه وتودده إذا حضروا، وقد سأل بعضهم، وقد عادوا في تجارة لهم من الشام، سألهم عما رأوا فقالوا: جاء معنا يا رسول الله رجل أتقى ما يكون يقوم الليل ويصوم النهار، في جبهته كثفنة البعير من السجود لا يفتر عن ذكر الله. فقال ﷺ وقد رأى في وجوههم تأثراً بالغاً مما رأوا في هذا العابد، وحسب أنهم لا يرون الدين إلا في مثل هذه الصفات، فسألهم: ومن أين كان يأكل؟؟ فقالوا: نحن أطعمناه وخدمناه. فقال: أنتم أفضل منه عند الله. يعلمهم بذلك أن الدين ليس قاصراً على الآخرة، وإنما هو ثمرة الدنيا.

وقد أثر نهجه هذا في توجيه أهل بيته من الأئمة الهداة المعصومين بعده، فقد سأل الإمام بعضهم عن أصحابه فقالوا: قد أغلق عليه بابه وقال: لأعبدن الله حتى يأتيني رزقي. فسأل عليه السلام مخبره: من أين يأكل؟؟ فقال: إن بعض الجيران يتصدق عليه من نافذة صغيرة في جدار بيته. فقال عليه السلام: «إن الذي يقوته أشد عبادة منه».

في هذا كله وأمثاله كثير تربية وتوجيه وتعاليم لنا، كيف ندين لله برسالة محمد ﷺ، فليس الدين قاصراً على التهذيب الروحي فيما نعمل أو نقول، ولكنه إلى ذلك توجيه عملي يضمن لنا الحياة الدنيا التي نجتازها إلى حياتنا الأخرى.

فقوله ﷺ: هي في النار وإن صامت وإن برت وتصدقت، من قبيل قوله: «لا صلاة لمن جاره المسجد». وقوله في الحديث السابق: «أنتم أفضل منه» والحديث الذي تلاه. «الذي يقوته أشد عبادة لله منه». ومن قبيل قوله ﷺ: «الدين المعاملة»

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

«والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده» وقوله: «لا يؤمن المرء حتى يأمن الناس بوائقه» وأمثال هذا كثير في سيرته عليه السلام.

كل ما مر بك هو من مميزات الإسلام التي فقدها العصر الحديث، من أجل ذلك فقد بفقده الاطمئنان إلى الحياة، إذ شغل الإنسان بحراسة نفسه من ظلم أخيه الإنسان وبطشه واستعباده عن التفرغ إلى الحياة الكريمة الهادئة الشريفة التي يعيش بها الإنسان مع أخيه كريماً هادئاً، مطمئناً شريفاً.

أذكر وأنا في مدينة السيارات (ديترويت) تحت سماء أميركا الشمالية، مرت بي سيارة بعض المواطنين العرب، في شارع تكاد هيبة الحياة وجلالها يكونان مفرغين على ذلك الشارع، ولاحظت أن أكثر الأبنية فيه خالٍ من أهله إلا الأشجار الباسقة والطيور المغردة، فسألت مرافقي عن سبب ذلك فقال: إنه سوء الجوار بسبب الأنانية الطبقية والعنصرية، ففيما يعتاد الناس هنا أن الغني لا يجاور فقيراً، والأبيض لا يجاور أسود، والنبيل لا يجاور صعلوكاً، ثم الرفيع لا يجاور وضيعاً، وقد شاء الله أن يثري بعض السود من هنود أمريكا، وأن يبنوا أو يشتروا قصوراً في هذا الشارع، فتركه أهله البيض وأقفلوه كما ترى لسوء الجوار كما يزعمون.

من عادات العرب التي يمتازون بها، احتفاؤهم بالنزيل إذا جاورهم، فقد شهدت ذلك إذ زرت البداة، ومكثت فيهم أكثر من عام، فكنت أُدعى أحياناً لولائم، وأسأل عن السبب في إقامتها فأجاب بأن جاراً جديداً نزل في الحي، وهذا الجار له حقان: حقّ على القبيلة أو الحي الذي ينزل فيه وحق على من لاصقت داره داره، فالأول يدعى جار الحي أو القبيلة، فعلى القبيلة أن تكرمه وتحميه إذا كان لاجئاً. والثاني يدعى جار فلان، فعلى فلان أن يكرمه ويحميه، فهو إذ ذاك عزيز فيهم محترم بينهم، كواحد منهم أو أعز.

ولا تزال هذه العادة جارية في العرب البداة حتى اليوم. وأما في بلاد الغرب فهم على عكس ذلك، وخاصة في بريطانيا، فإنك إن تنزل فيهم وتجاورهم يتعمدون اجتناب التعرف إليك، ويفرون من مواجهتك والتحدث معك، ولو قطعت حياتك فيهم فأنت غريب عنهم منكور لديهم، وقد تجاور الشخص في شقة واحدة من العمارة يفتح بابه فيراك أو تفتح بابك فتراه، وكذلك يحصل بين أهلك وأهله وأولادك وأولاده. وقد يستمر هذا الجوار أعواماً كثيرة قد تستهلك حياتك وحياته، ثم لا يكون بينك وبينه تعاون ولا تآلف ولا محاولة ذلك منه أو منك. وقد يحصل جناية في بيتك من لص عدا

عليك وتهتز العمارة من هول تلك الجناية ولا يشعر جارك؛ أو لا تحب أن يشعر بما يدور حولك.

كل ذلك عندهم يقع تحت المثل العربي القائل: (من تدخل فيما لا يعنيه وقع فيما لا يرضيه)، فهم يعتبرون هذا المثل دستوراً تقوم حياتهم عليه، بينما نحن وضعنا هذا المثل، وليس في بلاد العرب كلها عربي يعمل به أو يرى فيه ضرورة لحياته، وعلى العكس نرى العربي عامة، والمسلم خاصة، يرى الدستور الأول والناموس الأعلى في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[١] فالتعارف عندنا سنة طبيعية تقوم عليها حياتنا، وأما عندهم، فالحياة إنما تقوم على القوانين التي يحميها سلطانهم ويسهر عليها رجال الحكم فيهم. ذلك ما خبرته، ولا بد فيهم من الشواذ، والشاذ لا قياس عليه.

من هذا النادر: أن شخصاً قد يألفك لأنك تعرضت لألفته فوجدت فيه ميزة التعارف ورب امرأة ألفتك لنظرة أعلقتها بجمالك أو مالك، ورب شخص آخر أحس بمهنته السيئة، أنك ثري ويريد أن يتقرب إليك في سبيل التحايل عليك لأنهم يعبدون المادة، والتعارف بين الأشخاص عندهم للإنسانية أو للدين أو للأخلاق الفاضلة يكاد يكون مفقوداً، فلا تعارف إلا لمصالح مادية تجمع بين شركاء أو عملاء حتى إذا انتهت المعاملة أو الشركة انتهى التعارف، أما الصداقة البريئة من المادة والتي يبني الشرقيون عامة والعرب والمسلمون خاصة عليها رابطة إنسانيتهم، والتي يعززها الدين بقوله: «المسلم أخو المسلم أحب أم كره» والتي أكدها الرسول بعد كتاب الله بأقواله وأعماله في مواطن كثيرة.

أقول: أما هذه الصداقة فليس لها أصل عندهم ولا فرع. لذلك تعززت عندهم الأنانية الشخصية، إذ يرى الغربي نفسه قبل كل شخص، والأنانية الجماعية إذ ترى كل أمة منهم عنصرها قبل كل عنصر لمجرد الشخصية والعنصرية، وعلى هذا قام تناحرهم وتفانيهم في الحروب، وعلى هذا سيقوم دمارهم آخر الأمر»[٢].

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) دين وتمدين.




حَقُّ الصَّاحِبِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ الصَّاحِبِ: أَنْ تَصْحَبَهُ بِالتَفَضُّلِ وَالإنْصَافِ، وَتُكْرِمَهُ كَمَا يُكْرِمُكَ، وَلاَ تَدَعَهُ يَسْبِقُ إِلىَ مَكْرُمَةٍ، فَإِنْ سَبَقَ كَافَيْتَهُ. وَتُودُّهُ كَمَا يُودُّكَ، وَتَزْجُرُهُ عَمّا يَهْتَمُّ بِهِ مِنْ مَعْصِيَةٍ، وكُنْ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَلاَ تَكُنْ عَلَيْهِ عَذَاباً. وَلاَ قُوَّةَ إِلاّ بِاللهِ».

* * *




لا شيء يعمر القلوب بالسعادة والهناء، ويضاعف من أفراحها إن كانت مسرورة مبتهجة، ويبدد من أحزانها إن كانت بائسة يائسة. . . مثل الصحبة والأصحاب.

لا شيء أجمل وأثمن من الصحبة، لأنها أعظم نعم الحياة عند من يفهم الحياة.

لا شيء أقوى وأمتن من الصحبة، لأنها أرواح متآلفة متكاتفة بالذات لا بتوسط المشاركة في الدماء والأنساب.

لا شيء يغني عن الأصحاب أبداً حتى الجاه والمال، وحتى النساء والعيال بل وحتى الصحة والأمان.

لا شيء يوازي الصحبة، لأنها حب وولاء، وتضامن واصطفاء، وصدق وصفاء، وتفاعل الروح مع الروح، وانجذاب القلب للقلب، واستجابة العقل للعقل.

ومن عاش بدون أصحاب فقد عاش في مفازة موحشة مظلمة، وإن كان جنة تجري من تحتها الأنهار، ومن عاش بهم فهو في نعيم الله والإنسانية، وإن كان في قفر مخيف لا سبيل فيه ولا دليل.

فالإنسان بمعناه الإنساني، وإن كثر ماله، وامتد جاهه، يظل يحس ويشعر أن في حياته فراغاً ونقصاً إذا فقد الأصفياء والأوفياء، لأنهم يمنحون الحياة البهجة والمسرة.

وهي أيضاً أهم الدعامات التي يشيد عليها بناء الوحدة الإسلامية، فإنك لا يمكنك أن تتصور وجود التضامن بين أناس لم يكن الشعور بالصحبة أظهر مميزاتهم.

وهي نفسان تحابا حباً معتدلاً ثابتاً، وتعاقدا على الوقوف جنباً لجنب حيال عاديات الدهر، وتعاهدا على السير كتفاً لكتف في طريق هذه الحياة.

ويبتدىء شعور الإنسان بالصحبة وهو في مهده، فإن الطفل الصغير ليبتسم لمن يداعبه ويحنو عليه، ويخفق فؤاده طرباً لابتسامة والديه، ولا تزال هذه العاطفة التي هي أساس الشعور بالصحبة تنمو بنموه إلى أن تصبح طبيعة ثانية، فإن الإنسان حتى وهو على حافة القبر ليعلق قلبه بمن يوليه الجميل.

«وكل امرىء يولي الجميل محبب»

فالصحبة بصفتها أساس التضامن هي أساس العمران، وسر تقدم الأمم، فما كان لقوم ـ كل فرد منهم غير ذي إحساس بفكرة التضامن مع غيره من الأفراد ـ نصيب من السعادة والوفاء، وهل كان الحظ غير مجموع نقط؟ بل أو ليس لسطح مجموع خطوط؟ هكذا طبيعة التضامن في الأمم.

ويمكننا أيضاً أن نعبر عنها بأنها معنى من معاني السعادة الفردية، فإنك ليوليك سروراً ويملؤك جذلاً أن تعلم أن هناك من يفرح بحق لفرحك ويألم لألمك، بل من قد يؤثرك على نفسه، وهل فوق هذا الشعور ما يحبب الحياة إلى الإنسان ويجعله يحرص على البقاء؟

هذا ولنفهم أن الصحبة شيء آخر يختلف عن تلك الصور التي ألفناها ممن يحيط بنا من أدعياء الصحبة، فليست الصحبة مدلولاً لعبارات لحمتها الرياء، ولا حنواً كاذباً ولا ثغراً باسماً فوق أتون من الحقد، بل هي حكمة ربانية في طيها أسرار الصدق والنبل والشهامة، وأسمى مراتب التضحية.

ولقد عمت الشكوى من فقدان الصاحب الصالح، وأصبح اليأس من وجوده أمراً مألوفاً، فإنك لا تسمع في المجالس عن ذكر الصاحب المخلص إلا كل متذمر لعدم وجود من هو كفؤ للصحبة، وكذلك لا ترى على صفحات الجرائد والكتب إذا خاض كاتب في هذه القضية إلا مثالاً لا يخرج عن حد الشكوى من فقدان الصاحب النزيه قد كتب فوقه بالقلم العريض: (أين الصاحب)؟ فكأن الصاحب المطلوب خرافة من خرافات الأقدمين، أو خاطر جاد به خيال شاعر عبقري أودع به الحسرة في قلوب الناس. وما كان الأمر كذلك، بل إنما تلك الصورة الشعرية التي تكيفت بها إحساساتنا وامتلأت به عواطفنا من الوفاء المطلق والإيثار المحض، هي التي جعلتنا نعتبر الصاحب اسماً لغير مسمى، إذ يتعذر علينا تحقيقه في الواقع، بل هو جهلنا بطبائع النفوس الذي جعلنا نتلمس الصاحب في ديجور من خدعة العواطف فلا نعثر عليه.

وللصحبة بأبعد غايات الكلمة صفات الباحث عن الصحبة. ثم إنها تنقسم إلى قسمين قسم يجب أن يتصف به كلا المتصاحبين، وقسم يجب أن يتصف به أحدهما دون الآخر، وبقدر ما تتمشى هذه القاعدة الثابتة على حالة المتصاحبين كان الأمل ببقاء الصحبة كبيراً والوثوق بمتانة دعامتها عظيماً والعكس بالعكس ولنضرب مثلاً لكلتا

الحالتين:

الأولى: أنه لا يمكن أن تكون الصحبة مقيمة بين أديب مؤدب وغر رقيع بل لا بد لكي يتصاحبا صحبة صحيحة: من أن يشارك أحدهما الآخر في صفته.

الثانية: أنه لا ينتظر أن تدوم الصحبة بين اثنين اتصفا بحدة الطبع، بل لا بد من أن يكون أحدهما لين العريكة، وإلا انفصمت عرى صحبتهما لأول خطوة، وعلى هذين القياسين تتمشى كافة الطبائع والنزعات. ولما كانت هذه الحقائق لا ينفع في إدراكها القياس النظري عند الإحساس بالصحبة بين اثنين، بل لا بد من التجربة العملية لمعرفة نصيبهما منها، لذلك كانت التجربة هي القياس الوحيد لدرجة استعداد كل من الصاحبين لصحبة الآخر، فإنه كلما طالت مدة الوفاق بين الأصحاب، كان ذلك فألاً حسناً يبشر بدوام الصحبة، لأنه دليل على توفر الصفات المطلوبة في كل منهم.

ولقد تعترض الصحبة في كافة أدوارها أمور تافهة تقضي في بعض الأحيان على ذلك الإحساس الشريف قضاء مبرماً، ولكن الضمانة الوحيدة التي تعترض لتلافي تلك، هي التسامح والأناة وسعة الصدر وحسن التفاهم، وإن أهمية اتخاذ الأصحاب كما قال أحد أباطرة الرومان: لا يضاهيها إلا أهمية الحرص عليهم.

تالله ما حياة المرء بغير صاحب إلا كلفظ خلا من المعنى، وما الحياة التي يرفرف عليها ملاك الصحبة إلا كالبيت العامر من الشعر يملأ مشاعر النفس ويملك الوجدان.

بل ليس لامرىء أن يشكو مر الحياة، وله صاحب يبدل من صور الأيام، ويغير من طعم الليالي إذا مجتها الأذواق، بل حسب المرء في الوجود نفس تنير لنفسه طريق الحياة، وأن امرأ يشعر بفراغ عظيم في حياته لا يعرف له سبباً وما سببه غير إحساسه الطبيعي بالصحبة.

فللصحبة الخاصة إذن أثر عميق في توجيه النفس والعقل. ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر، ومن قلق أو اطمئنان.

فالإنسان مولع بالتقليد، فكما يقلد من حوله في أزيائهم، يقلدهم في أعمالهم، ويتخلق بأخلاقهم. قال حكيم «نبئني عمن تصاحب أُنبئك من أنت». إن مصاحبة الأخيار تغرس في النفس الأخلاق الطيبة، وتدفعها إلى معالي الأمور. أما مصاحبة الأشرار فإنها تقود إلى الاستهانة بالأخلاق، وتجرىء على اقتراف الآثام، وتباعد بين الإنسان وبين القيام بالأعمال العظيمة، فالصاحب الصالح يعتبر بحق أفضل نعم هذه

الحياة، فهو الملاذ في الملمات، وهو المرشد الأمين لطريق الحق وللنجاح في هذه الحياة، فكثير من النابغين وعظماء الناس والمتفوقين في هذه الحياة يعزون سبب نجاحهم إلى أنهم وفقوا في اختيار قرين صالح ساروا على إرشاده واقتبسوا من نصحه.

وقد عني الإسلام بهذه الصحبة التي تربط الإنسان بأشخاص يؤثرون فيه ويتأثرون به، ويقتربون من حياته اقتراباً خطيراً لأمد طويل.

إن الصحبة إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها، وإن كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه أصحابها.

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[1].

إن الإسلام دين تجمع وألفة، ونزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليمه. وهو لم يقم على الاستيحاش، ولا دعا أبناءه إلى العزلة العامة والفرار من تكاليف الحياة. ولا رسم رسالة المسلم في الأرض على أنها انقطاع في دير، أو عبادة في صومعة. كلا كلا، فإن الدرجات العالية لم يعدها الله عزَّ وجلَّ لأمثال أولئك المنكمشين الضعاف.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

والإنسان يشعر في قرارة نفسه، أنه محتاج إلى أصحاب تربطه بهم روابط وثيقة، من تقارب طباع وتناسب أخلاق، واتفاق مشارب، كما أنها ـ أي الصحبة ـ تجعل الشخص محبوباً إلى كل إنسان، مكرماً في كل مكان ينزل به، مثنياً عليه في المحافل، بل كثيراً ما يلقى أناساً يهوى أن يكون بينه وبينهم قديم ود، وسابق عهد، ليجاذبهم الحديث، ويغتنم شرف صحبتهم.

إن الصحبة التي تكون الحد الأعلى من المحبة والإيثار، أمر مستصعب طمع إليه الفلاسفة فلم يبلغوه، وفتشوا عنه فلم يجدوه، وحاولوا خلقه وإبداعه فوقفوا حيارى عاجزين، لأن للحياة فروضاً وأحكاماً فوق أحكام الفلاسفة. ولكننا نجد بين الحد الأعلى للصحبة، وبين الحد الأدنى، مراتب كثيرة نستطيع أن نصل إليها بقليل من الجهد ويسير من العناء، ولا زالت الحياة ترضينا بأقل قليل مما نطلب، وأيسر أمر مما

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

نرغب، فكسب الأصحاب وزيادة الأحباء لا يحصل إلا بالعمل والسعي، كما علمنا وأرشدنا أهل البيت - عليهم السلام - قال الإمام الصادق عليه السلام عن جده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر». ولا ريب أن من تلقاه بوجه مشرق وأسارير مستنيرة وثغر باسم، طبعاً تنعكس ملامحك في وجهه، ويشرق سرورك على نفسه، فيرتد إليك النور قوياً مضاعفاً، فإذا لقي الإنسان صاحباً له بوجه طلق وثغر مشرق، فلا بد أن يجذب إليه قلبه، فإذا جذب قلبه والتفاته إليه، فلا بد أن يكون متهيىء القلب لخلق ألفة ومحبة بينه وبينه، ويستعد لأن ينفذ إلى قلبه بالوسائل الممكنة، وأهمها بعد انبساط الوجه وابتسامة الثغر، أن يكون رفيقاً بصاحبه يعتمد اللين والسهولة، ويتجنب القساوة والخشونة، ويبتعد عن العنف والشدة ويسلك معه الأنس واللطف والمداراة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

وكان أهل البيت عليهم السلام، يبذلون جهدهم في حمل الناس على الحب والصحبة، حيث إن غرض الإسلام وهدفه توثيق الصلة والمحبة، ويعلمون الناس حقوق الصحبة وواجباتها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تكون الصداقة إلا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها، فلا تنسبه إلى الصداقة، فأولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثاني: أن يرى ما يضرك يضره، وزينك زينه، وشينك شينه، وأن لا يغيره عليك ولاية ولا مال، وأن لا يمنعك شيء تناله مقدرته، وأن لا تسلمك عنه النكبات».

فإذا كانت هذه واجبات الصحبة فكل مسلم لكل مسلم أخ وصاحب، وقال عليه السلام: «وطّن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت، في حسن خلقك وكف لسانك واكظم غيظك وأقل لغوك، وتفرش عفوك وتسخو نفسك».

وعلى ضوء هذا البيان نفهم قول الإمام السجاد عليه السلام في كلماته العبقة حيث يقول: «أن تصحبه بالتفضل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك، وتوده كما يودك، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً». لأنه صاحبك، أو هو أخوك، يجب أن تحسن صحبته ومعاشرته وإن لم تستطع أن تصحبه بالفضل، فليس أقل من أن تنصفه من نفسك.

فالإمام عليه السلام أول ما دعا إلى الصحبة بالفضل - وهي فوق الإنصاف - فأما إذا لم تحصل الصحبة بالفضل، فالإمام يجيز التنزل إلى الإنصاف على الأقل، وهل يجيز

الإمام بعد ذلك شيئاً؟ كلا: فهو لا يجيز أن تصحبه بغير الحق والإنصاف، ولا يجيز أن تصحبه بالسوء.

ولا يلزم أحد المتصاحبين بالإنصاف أو الصحبة بالخير، وإنما على المتصاحبين كليهما يقع عبء الصحبة، فيجب أن تكرمه كما يكرمك أو لأنه يكرمك وأن تحفظه وتمنعه وتدفع عنه، كما يحفظك ويمنعك ويدفع عنك. وأن تسبقه إلى كل ما تجد له فيه خيراً، فإن سبقك هو كان عليك أن تكافئه. وأن تحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لها. وأن تبذل له نصحك، وتحوطه وتعضده وتساعده على عبادة ربه، وتكون متحداً معه في كفاح نفسه إن همت بمعصية. ويعرف من هذا كله، أن الصاحب إنما يجب أن يكون رحمة ورأفة، لا نقمة وعذاباً.

وحق الصحبة: أن تكون بالمال والنفس، واللسان، والقلب. بالعفو والدعاء والإخلاص والوفاء والتخفيف، وترك التكلف والتكليف، وتجمعها ثمانية أمور:

الأول: المال وله مراتب ثلاث:

أولها: وهي أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك في القيام بحوائجه وأموره، من دون أن تحوجه إلى سؤال.

الثانية: وهي أوسطها أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالك.

الثالثة: وهي أعلاها أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

قال الإمام عليه السلام لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريده من غير إذن؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان.

الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء حاجاته، والقيام بها قبل السؤال. وهذه أيضاً لها درجات: أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني». هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء.

الثالث والرابع: على اللسان بالسكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته والمماراة والمنافسة معه إلا في الله، وعن أسراره التي تنهى إليه، ولو بعد القطيعة، فإن

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

ذلك من لؤم الطبع، وأن يسكت عن القدح في أحبائه، وأهله وولده، وعن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبك من بلّغك. وبالنطق بإظهار التودد والتفقد والدعاء والثناء، وينصحه ويخوفه إذا ارتكب حراماً، وينبهه على عيوبه، ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن. قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن» أي يرى منه ما لا يرى من نفسه، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.

الخامس: العفو عن زلاته وهفواته، وهفوته إن كانت في الدين نصحته وأرشدته، وإن كانت لتقصير في الأخوة عفوت عنه ولا تعاقبه، وإذا اعتذر إليك فاقبل عذره.

قال النبي ﷺ: «من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل، فعليه مثل إثم صاحب المكس».

ﷺ **السادس**: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله، ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك. قال النبي عليه السلام: «إذا دعا رجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك».

وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾[1] قال: هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فتقول له الملائكة: آمين. ويقول الله العزيز الجبار: ولك مِثْلاَ ما سألت، ولقد أعطيت ما سألت بحبك إياه».

السابع: الوفاء والإخلاص، والوفاء هو الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قيل: «الوفاء بعد الوفاة خير من كثير الوفاء في حال الحياة». ومن الوفاء مراعاة جميع أقاربه وأصدقائه، وأن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه، وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته، وأن لا يصاحب أعداءه.

جاء في شرح الصحيفة السجادية تأليف السيد علي خان المدني - «إن من حق الصحبة مع الأصحاب مطلقاً: طلاقة الوجه والبشاشة والكلام والسلام والمصافحة والمعانقة والمواكلة، وتحصيل ما يحتاجون إليه ورفع ما يغتمون منه، ومخالفة من خالفهم وموافقة من وافقهم، وتعظيمهم وتوقيرهم وعدم التهجم عليهم والصفح عن

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٦.

عثراتهم ومداراتهم، وأن لا يحتجب عنهم ولا يهجرهم، ويبسط لهم معروفه، ويعاشرهم ببسط الكف وصدق الوعد ودوام العهد وحفظ الأسرار وإيثار الارفاق وقبول العذر واحتمال الأذى وصدق الوفاء ونشر المحاسن وستر المقابح، وبذل النصيحة وقبولها منهم، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه، ويكرم كل واحد منهم على قدره، ويسترسل معه على سجيته، ويكون طوع أمره ونهيه ووفق قوله وفعله، ويعود من مرض منهم، ويشهد جنازة من مات منهم».

الثامن: التخفيف وترك التكليف. وذلك بأن لا يكلف من يصحبه ما يشق عليه، ولا يستمد منه من جاه ولا مال.

عن أحمد القلانسي (وكان من مشايخ الجنيد) قال: صحبت أقواماً بالبصرة فأكرموني، فقلت مرة لبعضهم: أين إزاري؟ فسقطت عن أعينهم.

وعن أبي علي الرباطي قال: صحبت عبد الله المروزي، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد فلما صحبته، قال لي: أيما أحب إليك، تكون أنت الأمير أم أنا؟ فقلت: لا بل أنت الأمير. قال: وعليك الطاعة؟ قلت: نعم. فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره، فإذا قلت له: أعطني حتى أحملها. قال لي: ألست أنا الأمير فعليك الطاعة؟ قال: فأخذنا المطر ليلة، فوقف على رأسي طول الليل إلى الصباح وعليه الكساء وأنا جالس يمنع عني المطر، فكنت أقول في نفسي: ليتني مت ولم أقل له أنت الأمير، ثم قال: إذا صحبك إنسان فاصحبه يا أخي كما رأيتني صحبتك، أو انفرد.

وكان شرط إبراهيم بن أدهم مع من يصحبه أن تكون الخدمة والأذان له، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله به عليهم من الدنيا كيدهم.

وعلى هذا الأساس نتخير الأصحاب، ونرغب في الصحبة أو نزهدها، وأول شرائط الصحبة الكريمة أن تبرأ من الأغراض، وأن تخلص لوجه الحق، وأن تولد وتكبر في طريق الإيمان والإحسان. وهذا هو معنى الحب لله.

إن الإنسان إذا رسخ في فؤاده اليقين، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه وأحس بحلاوته في مذاقه، أصبح ينظر للأحياء قاطبة على ضوء العقيدة التي تمحص لها. فهو يحب لمبدأ لا لشهوة، ويكره لمبدأ لا لحرمان.

قد تتجمع القطعان على مورد عذب أو كدر. وقد يلتقي الناس على دنيا عارضة دائمة. وربما تأسست بينهم علاقات متينة. بيد أن هذا الضرب من التعارف والتواد لا

يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا من محبة وصفاء، وتعاون وتفانٍ.

ولذلك احتفى الإسلام بمشاعر الصحبة النقية. ورغب المؤمنين في إخلاصها لله، وإبقائها لوجهه، وجعل لها من جميل المثوبة ما هي له أهل.

***

دعوة أهل البيت عليهم السلام إلى الصحبة

في كل نفس حلم جميل ساحر، وأمنية ملازمة مغرية.

في نفس كل إنسان يذهب ويجيء ويروح ويغدو، رغبة صادقة أن يكون محبوباً إلى كل إنسان، مكرماً في كل مكان ينزل به، مثنًى عليه في المحافل والأندية، بل كثيراً ما يلقى أناساً يهوى أن يكون بينه وبينهم قديم ود، وسابق عهد، ليجاذبهم الحديث ويربح مجالستهم ويغنم شرف صحبتهم وأعرب المتنبي عن هذا بقوله:

وكاد سروري لا يفي بندامتي ... على تركه في عمري المتقادم

إن صحبة الناس وأخوتهم ليست بالشيء الذي يترك إلى القضاء والقدر، وليس القانع بصحبة النزر اليسير من الناس، بعيد الهمة كبير القلب طامح النفس فسيح الأمر، إنما أرحب الناس صدراً وأوسعهم أفقاً من كان له في كل الأرض منازل، وفي كل قبيلة أصحاب، وفي كل مجتمع معارف يسرون بقربه ويبتهجون لمنظره.

نحن نريد أصحاباً، ونريد أصدقاء، ونريد أحباباً، ولا نصل إلى ما نريد إلا بالعمل والسعي لاكتساب الأصحاب. وقد علمنا الإسلام وأهل البيت عليهم السلام عن جدهم كيف نعامل الناس لنربح عطفهم، ونكسب صحبتهم، وننعم بمودتهم.

قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حسن البشر يذهب بالسخيمة».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله أوصني، فكان فيما أوصاه: أن الق أخاك بوجه منبسط».

وروي عن أهل البيت عليهم السلام: «صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار».

«فالصاحب هو شريك الحياة، هو الذي يجري في الإنسان مجرى الروح في البدن، هو المرآة التي تنعكس عليها حسنات المرء وسيئاته، هو محط الأسرار ومبعث

الآمال، لذلك يجب أن يكون حسن السيرة، طيب السريرة طاهر الذات جميل الصفات، حتى يقتدي به صاحبه، ويهتدي به رفيقه، فإن تأثير الصاحب عظيم جداً، لا أُغالي لو قلت إنه أعظم مؤثر في حياة الإنسان وأهم مكيف له، فكم من رجل صالح أثر في أصحابه ورفقائه فأصبحوا صالحين، هذا أمر ثابت لا ريب فيه، يؤيده الوجدان وتدعمه الحوادث الواقعة، وينص عليه المفكرون قديماً وحديثاً. يقول الشاعر:

صاف الكرام فخير من صافيته ... من كان ذا أدب وكان ظريفا
واحذر مصاحبة اللئيم فإنه ... يبدي القبيح وينكر المعروفا
إن الكريم وإن تضعضع حاله ... فالخلق منه لا يزال شريفا
والناس مثل دراهم قلبتها ... فأصبت منها فضة وزيوفا

وقال آخر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فابصر بعين منك أمراً فيعتمد
ولن يصحب الإنسان إلا نظيره ... وإن لم يكونوا من قبيل ولا بلد
وما الغيّ إلا أن تصاحب غاوياً ... وما الرشد إلا أن تصاحب مرتشد

وقال آخر:

أخو الفسق لا يغررك منه تودد ... فكل حبال الفاسقين مهين
وصاحب إذا ما كنت يوماً مصاحباً ... أخا ثقة بالغيث منك أمين

وقال آخر:

اجعل قرينك من رضيت فعاله ... واحذر مقارنة اللئيم الشائن
كم من قرين شائن لقرينه ... ومهجن منه لكل محاسن

ونظراً لأهمية هذا الأمر وتأثيره البالغ في حياة الإنسان من حيث السعادة والشقاء، جاءت النصوص عن أهل البيت عليهم السلام متوافرة تحث الناس على اتخاذ الأصحاب الصالحين، وتحذرهم من مصاحبة المجرمين والمفسدين.

لم يكتف أهل البيت بالحديث عن الصحبة والدعوة إليها، حتى بينوا للناس صفات الصاحب الصالح ومن هو الجدير بالصحبة والمودة، ثم بينوا صفات صاحب السوء، ومن هم الذين يجب على الإنسان أن يبتعد عنهم، ويفر منهم. والأحاديث في مثل هذه الظاهرة كثيرة، نرسم جملة منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سائلوا العلماء: وخاطبوا الحكماء، وجالسوا الفقراء».

وما ذلك إلا لأن في مساءلة العلماء تهذيباً للنفس، وتنويراً للعقل، وزيادة في المعارف. وكذلك مخاطبة الحكماء فإن فيها اكتساباً للحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١]. ومجالسة الفقراء رياضة للنفس وتحليتها بالتواضع والتذلل، والتأسي بهم في القناعة باليسير من حطام الدنيا، والرضا بالقليل من متاعها، وصيانة النفس عن الانهماك في شهواتها ولذاتها.

وسئل صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأصحاب أفضل؟ فقال: «إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكرك».

وقال في وصيته لأبي ذر (ره): «يا أبا ذر لا تصاحب إلا مؤمناً». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أسعد الناس من خالط كرام الناس». وقال صلى الله عليه وآله وسلم في صفة من يجب أن يؤاخى ويصاحب: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته».

كل ذلك حتى يكتسب الإنسان منه هذه الصفات الحميدة، لذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تصحب إلا عاقلاً تقياً، ولا تخالط إلا عالماً ذكياً، ولا تودع سرك إلا مؤمناً وفياً». وقال عليه السلام: «واعلموا أن صحبة العالم واتباعه دين يدان به، وطاعته مكسبة للحسنات ممحاة للسيئات، وذخيرة للمؤمنين ورفعة في حياتهم ومماتهم، وجميل الأحدوثة عند موتهم».

وقال لكميل بن زياد النخعي: «يا كميل: قل الحق على كل حال، ووازر المتقين واهجر الفاسقين، يا كميل جانب المنافقين ولا تصاحب الخائنين، يا كميل لا بأس أن تعلم أخاك سراً، يا كميل من أخوك؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة، ولا يقعد عنك عند الجريرة، ولا يخذلك حين تسأله». وقال: «ولا تصحبن أبناء الدنيا، فإنك إن أقللت استقلوك، وإن أكثرت حسدوك». وقال: «لا تصحبن من لا عقل له». وقال: «مصاحبة الأبرار توجب الشرف ومصاحبة الأشرار توجب التلف». وقال: «لا تصحب المائق، فإنه يزين لك فعله ويود أن تكون مثله».

وهب أنك لا تتأثّر بأفكاره الفاسدة ومعتقداته الباطلة، وأخلاقه السافلة، ولكن لا شك أنه يؤثر على سمعتك، ويشوه ذكرك، فلا تذكر إلا معه. ولا يذكر إلا معك.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

لذلك حذرنا عليه السلام من وخامة هذه العاقبة بقوله: «إياك وقرين السوء، فإنك به تعرف». وقال عليه السلام: «لا تصحب همازاً فتعد مرتاباً، ولا تخالط ذا فجور فترى متهماً».

ومما ينسب إليه عليه السلام من الشعر قوله:

فــلا تصحــب أخــا الجهــل وإيـــــاك وإيـــــاه
فكـــم مـــن جـــاهـــل أردى حكيمـــاً حيـــن آخـــاه
يقـــاس المـــرء بـــالمـــرء إذا مـــا هـــو مـــاشـــاه
وللمـــرء مـــن المـــرء مقاييـــس وأشبـــاه
وللقلـــب علـــى القلـــب دليـــل حيـــن يلقـــاه

وقال الإمام الحسن السبط عليه السلام يوصي جنادة بن أبي أمية: «وإذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرجال، فاصحب من إذا صحبته زانك وإذا خدمته صانك، وإذا أردت معونة أعانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شد صولك وإن مددت يدك بفضل مدها، وإن بدت منك ثلمة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، وإن تنازعتما منقسماً آثرك».

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إياك ومصاحبة القاطع لرحمه فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله». وقال: «إياك ومصاحبة العاصين، ومعونة الظالمين، ومجاورة الفاسقين، اجتنبوا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم، فتصيروا عند الناس كواحد منهم». وقال عليه السلام: «صاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيماناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمر الله الذين يخشون ربهم».

وقـــال عليه السلام: «لا تصحـــب خمســـة: الكـــذاب فـــإنـــك منـــه علـــى غـــرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب. والأحمق فإنك لست منه على شيء فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه. والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة. والفاسق فإنه يبيعك بأكلة

أو أقل منها»[١].

الصفات المشروطة في الصاحب:

لا يصلح للصحبة كل إنسان، قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». فالصاحب الكامل يقود صاحبه إلى النجاح في الدنيا والفوز في الأخرى. أما الصاحب الغبي المفتون فهو شؤم على صاحبه، وكم من غر قرع سن الندم على هذه الصحبة السيئة، لأنها وضعته على شفا جرف نار فانهار به، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[٢].

إن الطبع يسرق من الطبع، وما أسرع أن يسير الإنسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه. وللعدوى قانونها الذي يسري في الأخلاق كما يسري في الأجسام، بل إن الروح الذي يسود المجلس قد يكون مصدره من شخص قوي، يغمر من حوله بفيض مما يتفجر من باطنه. قد شوهد أن عدوى السيئات أشد سرياناً وأقوى فتكاً من عدوى الحسنات، ففي أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البريء منها، ويندر أن يقع العكس.

وتقديراً لهذه الآثار، وحماية للخلق الحسن والعادات الكريمة، أمر رسول الله ﷺ بتخير الجليس، فقال ﷺ: «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من دخانه». فإن كانت تلك حال الجليس الذي قد تجتمع به في لقاء عابر في ساعة يسيرة من ليل أو نهار فكيف بك مع صاحب العمر الذي يخالطك في السراء والضراء؟... إن صحبة الأذكياء الأتقياء قد ترفع إلى القمة، أما صحبة السفهاء البله فهي منزلق سريع إلى الحضيض.

إن الصحبة يجب أن تعتمد على قوة العقائد وسمو الأعمال، وخير من يستديم المرء عشرتهم، ويستبقي ـ للدنيا والآخرة ـ مودتهم أولئك الذين عناهم الأثر: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته».

---

(١) كيف تكسب الأصدقاء في نظر أهل البيت.

(٢) سورة الفرقان، الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

لذلك يشترط في الصاحب خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال، وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتهما وإن طالت. كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري.

قال الشاعر:

إنـــي لآمـــن مـــن عـــدو عـــاقـــل وأخـــاف خـــلاً يعتـــريـــه جنـــون
فـــالعقـــل فـــن واحـــد وطـــريقـــه أدرى فـــأرصـــد والجنـــون فنـــون

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما إذا فُهِّم.

وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن، أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصحبته، بل يتغير بتغير الأغراض، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[3]. وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

وأما المبتدع: ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته؟

وأما الحريص على الدنيا، فصحبته سم قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا، ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة.

---

(١) سورة الكهف، الآية ٢٨.
(٢) سورة القصص، الآية ٨٧.
(٣) سورة النجم، الآية ٢٩.

محاسن كرم الصحبة:

ذكر البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوىء): «حدث من حضر مجلس المأمون، وقد أمر بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما حضر قال: ياعباس، خذ هذا إليك واستوثق منه ولا يفوتنك، وبكر به واحذر كل الحذر.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يكن يقدر أن يتحرك، فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، ثم سألته عن قصته وحاله من أين هو، فقال: من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: لا تزد أن تسألني. فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصة معه، فقال: ما أنا بمعرفك خبره أو تعرفني قصتك. فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بها، فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالي أن يدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وجميع أصحابه، وهربت فيمن هرب، فإني لفي بعض الطريق إذا جماعة يعدون خلفي، فما زلت أُحاضرهم حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله. فقال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت لي امرأته: ادخل الحجلة، فدخلتها، وأتى الرجال خلفي، فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك. فقال: دونكم الدار، ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه. فقالوا: ها هنا. فصاحت المرأة وانتهرتهم، فانصرفوا، وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائفاً. فقالت المرأة: اجلس، لا بأس عليك، فجلست فلم ألبث أن دخل الرجل وقال: لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة، إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله عني خيراً. ثم ما زال يعاشرني أحسن المعاشرة وأجملها، ولا يفتر من القصف والأكل والشرب والفرح أربعة أشهر، إلى أن سكنت الفتنة وهدأت. فقلت له: أتأذن لي في الخروج لأتعرف خبر غلماني ومنزلي، فلعلي أن أقف لهم على أثر أو خبر، فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أرَ لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر، وهو مع هذا لا يعرفني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني بغير الكنية، ثم قال لي: ما تعزم؟ فقلت: قد عزمت على الشخوص إلى بغداد، : فإن قافلة تخرج بعد ثلاثة أيام، وقد تفضلت علي هذه المدة، فأسألك أن تعطيني ما أُنفقه في طريقي وما ألبسه. فقال: يصنع الله عزَّ وجلَّ، ثم قال لغلام له أسود: انعل الفرس الفلاني، وتقدم إلى من في منزله بإعداد السفر. فقلت في

نفسي ما أشك إلا أنه يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي، فوقعوا يومهم ذلك في تعب وكد، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر، وقال: يا أبا فلان قم، فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: ما أعطاني شيئاً مما سألته، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان إلي خفاتين مقطوعة جداً ورانات وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم البغل فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشين، ودفع إلي نسخة بما في الصناديق، وفيها خمسة آلاف درهم، وقدم إلي الفرس الذي كان أنعله بسرجه ولجامه، وقال لي: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري، وركب معي فشيعني، وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالأسفار واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عزَّ وجلّ بمن تريد مكافأته بلا مؤنة عليك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل. ثم قال لي: أثبتك، فتعرف إلي وأقبل يذكرني بأشياء يتعرف بها إليَّ حتى أثبته وعرفته، فما تمالكت أن قمت إليه فقبلت رأسه، وقلت له: ما الذي أصارك إلى هذا؟

فقال: هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وحملت إليه وأمري عنده غليظ جداً، وهو قاتلي لا محالة، وقد خرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من عبيدي من ينصرف إلى منزلي بخبري وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تنعم وتبعث إليه حتى يحضر فأتقدم إليه بما أُريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة لي. قال: فقال العباس: يصنع الله. ثم قال: علي بحدادين فأتوا بهم فحل قيوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأُحضر وأخذ من شعره، ثم قال: عليَّ بمولاه فأنفذ في طلبه من يحضره، قال الرجل: فلما أن أخذ شعري أدخلني الحمام فطرح علي من ثيابه ما اكتفيت به، ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس: علي بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني حتى عد عشراً، ثم قال: علي من الصناديق والكسوة بكذا، ومن صناديق بكذا، ثم أمر لي ببدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسمائة دينار، وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار. فقلت له: إن أمري غليظ وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأُرد وأقتل. فقال: انج بنفسك ودعني أُدبر أمري. فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من

خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا، فليكن في موضع كذا كذا، فإن سلمت في غداة فسبيل المحبة، وإن قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأُنشدك الله أن تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلصه حتى تخرجه من بغداد. قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة فصيرني في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه واغتسل وتحنط وتكفن.

قال العباس: فلم أفرغ من ذلك حتى وافتني رسل المأمون في السحر وقالوا: أمير المؤمنين يقول هات الرجل. فسكت وأتيت الدار وإذا أمير المؤمنين جالس عليه ثيابه أمام فراشه، فقال: الرجل، فسكت. فقال: ويحك الرجل. فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني. فقال: أُعطي الله عهداً لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع مني حديثي وحديثه، ثم أنت أعلم بما تفعله في أمرنا. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كذا وكذا وقصصت عليه القصة، وعرفته أني كنت أُريد مكافأته فشغلت عن ذلك، حتى إذا كان البارحة عرفته وعبرت به جسر الأنبار، وقلت: أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين: إما صفح عني، وإما قتلني وأكون قد كافيته ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه.

فلما سمع المأمون الحديث، قال: ويحك لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعنا وعن هذا الفتى الحر، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا، لم لا عرفتني خبره، فكنت أُكافيه عنك. فقلت: يا أمير المؤمنين إنه والله هاهنا قد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتيج إلى حضوره حضر. قال: وهذه والله منه أعظم من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيّب نفسه وسكّن روعه وتصير به إليّ حتى أتولى مكافأته عنك. فصرت إليه وقلت: ليسكن روعك، إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيره، ثم تهيأ للصلاة فصلى ركعتين ثم جئنا، فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتى أجلسه إلى جانبه وآنسه وحدثه حتى حضر الغداة، ثم قال: الطعام، فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفاه، ثم قال المأمون: علي بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بجميع آلاتها، وبعشرة بدر وبعشرة تخوت، وعشرة مماليك بذواتهم وجميع آلتهم، فدفع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأوغر خراجه، وكتب إلى صاحب البريد أن ينفذ كتبه وصرفه إلى بلده. قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس هذا كتاب صديقك.




حَقُّ الشّرِيكِ

قَوِلُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ الشّرِيكِ : فَإِنْ غَابَ كَفَيْتَهُ ، وَإِنْ حَضَرَ رَعَيْتَهُ ، وَلاَ تَحْكُمْ دُونَ حُكْمِهِ ، وَلاَ تَعْمَلْ بِرَأْيِكَ دُونَ مُنَاظَرَتِهِ ، وَتَحَفْظُ عَلَيْهِ مَالَهُ ، وَلاَ تَخُنْهُ فِيمَا عَزَّ أَوْ هَانَ مِنْ أَمرِهِ ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ تَبَارَك وَتَعَالَى عَلَى الشّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا ، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ» .






كثيراً ما يفشل الفرد وتتلاشى رغائبه، عندما ينفرد بعمل لا يمكن تحقيقه إلا للجماعات، وقليلاً ما تفشل الجماعات إلا عندما ترافقها أسباب من شأنها ارتجاج الكيان العام الذي تتأثر منه كافة العوامل التي كانت في الأصل رابطة الأفراد متفرقين صيرتهم بحكم التقارب جماعة يعملون لوحدة الغاية ـ فالفرد وإن توفرت لديه كل الوسائل التي قد يمكن أن لا تتوفر بعضها للجماعة، نراه وقد أُسقط في يده عند إقدامه على تنفيذ فكرة أو عمل مهما كان نوعهما أن يقصد النفع أو الضرر بحسن النية أو بسيئها، لأن العمل اللاتعاوني سريع التلاشي، كما أنه لا يحدث فراغاً يفتقر لمثله، وقد أثبتت الاختبارات صحة هبوط عمل الفرد، عاجلاً إذا عجز عن إتمام كافة نواحيه أو آجلاً إذ يموت بموته، وبكلا الحالتين فهو بعيد عن الخلود، وإذا استثنينا بضعة أفراد قاموا بالأعمال الخطيرة التي تتشابه مع أعمال الجماعة، فليس هذا بمقياس يعتمد على صحته، فالفرد الذي يوفق لتحقيق عمل كبير كان للزعامة والهمة والمادة شأنها للوصول إلى النتيجة بيد أن هذه الاعتبارات وكثيراً غيرها لا يمكن أن تتخذ أساساً لنجاح الفرد ولو توفرت لديه ما لم يستخدم معارفه ويتجلبب بالأناة ويجعل وقته وقفاً على العمل الذي يعود عليه وحده بتحقيق الأمنيات لأجل محدود، إذ بعد هذا يندثر باندثار هذا الفرد، وما أشبه الدور الذي يلعبه بمرور جمل في صحراء.

وإذا نظرنا إلى عمل الفرد من ناحية العلم، نراه يختلف كثيراً عن مثله في العمل الذي بيّنا فشله، إذ قد يمكن الفرد المتعلم أن يتحف المجتمع بأبحاثه العلمية التي إذا حققتها الجماعة بالعمل جاءت بالنتيجة المتوخاة، فالفلاسفة الذين قلبوا بنظرياتهم وجه العالم هم أفراد، كما أن الفضل بانتشارها يرجع إلى الجماعات التي اقتنعت بصوابيتها وأخذت في نشرها وتبيان صحة نفعها يوم وضعتها موضع التنفيذ.

فيتضح مما تقدم، أن كل مشروع يقوم به الفرد فاشل إذا استأثر به وحده، دون أن يكون للجماعة اشتراك في تحقيقه الأمر الذي أهاب بالكثيرين في أرجاء العالم إلى إنشاء الشركات والجمعيات وما إليها، رغبة في إحياء نواحٍ عامة في جسم المجتمع

الإنساني، ولإيجاد كيان من مجموع أفراد يعملون تحت اسم واحد ولغاية واحدة لتبادل المنفعة بينهم، ناهيك عن التآلف والتكاتف وما إليها من الأسباب التي تساعد الأقوام على إحياء المبادىء الشريفة التي تثبت فيهم رغبة العمل وتولد في نفوسهم طموحاً نحو الحياة المستقلة الحرة.

ولو أسهبنا بوصف الفوائد التي جنتها الإنسانية من عمل الجماعات لضاقت بها المجلدات، ولكننا نستعرض ما نراه بأم العين من نتائج العمل المشترك، لعلنا نعي لأمر جهلناه أو عرفناه فتجاهلناه.

فالشركات على اختلاف أنواعها من رأسمالية ودينية وغيرها، كانت ولم تزل السبب الأوحد في تعريف أمة لغيرها من حيث الرسوخ في المبدأ، والثبات في ميدان التزاحم الاقتصادي وبث الدعايات المختلفة لترويج ما تصبو لتحقيقه، ومن جهة أُخرى فهي القوة الوحيدة لتحقيق المشاريع العامة، إذ هي التي تشق بطن الأرض وتستخرج خيراتها المدفونة، وهي التي يمكنها تسخير عناصر الطبيعة لنيل مبتغاها فتستفيد وتفيد، وإذا نظرنا المدنية الحديثة وتطورها، وانتشار العلوم بين الشعوب وتسهيل مختلف سبل الحياة أمام الناس، تتحقق قوة عمل الجماعات وتتراءى لنا عظمة الاتحاد وحسن نتائج العمل المشترك التعاوني، إذاً فالشركات قوة أوجدها اتحاد الأفراد وأبقاها حسن التفاهم، فهي تحيا طويلاً لأن الجماعة لن تموت طالما شريعة التواتر ترافق الأحياء.

وما يقال عن الشركات، يقال عن الجمعيات على اختلاف غاياتها ومراميها، فكم لها من الفضائل على الإنسانية، وكم سدت من ثلمات كان المجتمع يتألم منها، وكم للخيرية منها حسنات أدتها للمعوزين وللذين أخنى عليهم الدهر، فأبقت بذلك على حياة الكثيرين من الأفراد العاجزين القابعين في الزوايا المظلمة، فضلاً عن المآوي والمستشفيات التي تضم بين جدرانها من الكهول وذوي العاهات العدد الكبير، وإذا استرسلنا في تعداد مناقب هذا العمل الخيري الصادر عن الجماعة ضاقت الصفحات عن استيعابه، لكننا نستعرض باختصار ما نراه من أعمال الجمعيات الأُخرى كالأدبية والأخلاقية، فالمشاهد المدقق يمكنه أن يعطي عن كثب حكماً عادلاً إذ إنها أحدثت في الأوساط التي نشأت فيها نوعاً جديداً من الحضارة والتهذيب وجرفت بأساليبها كثيراً من المهيمنات المستأثرة بقلوب الأفراد من جراء فطرتهم الحيوانية، فاستبدلت الشراسة باللين وصقلت الغرائز الشاذة بمتنوع طرق التعاليم التهذيبية فقومت بذلك اعوجاج فطرة الفرد الهمجية وأوجدت منه إنساناً يحسن التدبير نحو نفسه ومقربيه وبني جلدته، وإذا

كانت المدارس هي التي تهيىء، فالمجتمع بواسطة جمعياته يوصل إلى بعض الكمال المنشود ويزيل التعجب عند المقابلة بين حالة الفرد بالأمس وحالته اليوم، فقد كان مصدر الشرور وعلتها حتى على الأرض التي يطؤها، وكان الغد فإذا به نعم الرجل، نسبة إلى إمكان تهذيبه وقابليته للتطور، ففضائل الجمعيات أزالت عجزاً بيناً من صفوف أفراد أمة يشكلون خير فئة من مجموعها، ولم تقف عند هذا الحد فحسب بل تناولت المخلوقات الأعجمية، إذ إنها أوجدت لها جنوداً مسالمين يعلّمون القساة الرفق بها، وتحرت خفايا كثيرة كانت تنخر في جسم المجتمع، فعملت على إزالتها قبل تهوره بما لديها من الوسائل السلمية التي تتذرع بها لإظهار الحقائق والقضاء على الأباطيل.

أما وقد بيّنا الضعف في عمل الفرد، والظفر والقوة اللذين يرافقان الجماعة، أفلا يحق لنا أن نعمل بدستور الإمام السجاد عليه السلام، ونعتبره قوة لرجالنا وجماعتنا؟ إذاً متى نبدأ أن نفاخر الغير بجديد أوجدناه وعمل مفيد أنجزناه، قد نتفاءل إذا طبقناه ومشينا على ضوئه، ولعل المستقبل يحقق آمالنا.

أفليس دعوة الإمام السجاد عليه السلام ـ وفقاً لتعاليم الإسلام ـ تكوين مجتمع تنتصر فيه قوى الخير، وتنتظم أفراده تحت روح التعاون بالمال والعمل والنصيحة، ويحاول من الناس أن يقضوا على قوى الشر وانتزاعها من نفوسهم، وتطهير القلوب من قذارتها، وسلامة النفوس من أمراضها؟

إن الإسلام يأمر بحسن المعاملة، وجعل هناك مقياساً شاملاً ألا وهو: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به». وهذا مقياس لا يترفع عنه الخاصة، بل يتقبلونه ويعجبون به، وتفهمه العامة حق الفهم، فالفيلسوف في مكتبته، وراعي الضأن في قطيعه يفهمه حق الفهم، فهو يحب أن يصدق الناس معه، ويحب أن يحفظ الناس أمانته، ويحتقر من يحتال عليه، أو يسرق شيئاً من قطيعه، ويحب أن ينصره الناس إذا عدا عليه ذئب، أو تعرض له سارق، ويحب أن يعرف الناس له قدره، ويرعوا عهوده، فلذلك ينبغي أن يلزم نفسه بما يحب أن يعامله الناس به.

وهنا يأتي الإمام زين العابدين عليه السلام يستعرض الشريك من إعطائه حقه، ويستعرض الصفات التي يجب أن يتحلى بها، من أداء الأمانة وترك الخيانة، وحفظ شريكه في حال حضوره وحال غيبته، وأن يحب له ما يحب لنفسه.

ولنصغ الآن إلى ما يقوله عليه السلام في هذا الدرس: «وتحفظ عليه ماله ولا تخونه

فيما عز أو هان من أمره، فإن يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا».

فالشريك الذي يعنيه الإمام عليه السلام، هو الشخص الذي حدثت شركته مع إنسان آخر بسبب تعترف به الشريعة. فإن الشركة كما نصت الشريعة، تنقسم إلى شركة أموال، وشركة أعمال، وشركة مفاوضة، وشركة وجوه.

والمعتبر من هذه الأقسام في مذهب الإمام عليه السلام هو شركة الأموال، وتسمى شركة العنان.

جاء في كتاب (فقه الإمام جعفر الصادق) ـ سلام الله عليه ـ تأليف العلامة(الشيخ محمد جواد مغنية).

«للشركة معنيان: لغوي، وشرعي، والأول اجتماع حقوق الملاك في الشيء الواحد على سبيل الشياع فيه، وقد يكون سببها اضطرارياً، كالإرث أو اختلاط مالين من غير قصد اختلاطاً لا يمكن الفصل معه بينهما، وقد يكون السبب اختيارياً، كما إذا اشترك اثنان في شراء عين، أو قبلاها من الغير بالهبة أو الوصية، أو نصبا معاً شبكة أو فخاً لهما للاصطياد.

وتسمى هذه الشركة شركة الملك وشركة الشيوع، ولا شأن بها للفقيه بما هو فقيه، لأن وظيفته البحث عن الحكم التكليفي كالوجوب والحرمة، أو الحكم الوضعي كالصحة والفساد. والشركة بمعنى الملك والشيوع ليست من الحكم التكليفي ولا الوضعي في شيء، لأن الحقوق إن اجتمعت في الشيء تحققت الشركة، وإن لم تجتمع لم تتحقق.

أجل إن شأن الفقيه أن يبين الأحكام المترتبة على شركة الملك، من أن ناتج المال المشترك هو للجميع، وأن أحد الشريكين لا يتصرف إلا بإذن الآخر وأن له أن يطالب بالقسمة، ولا يجب عليه الصبر على الشركة.

أما بيان معنى المال المشترك وتحديده، فليس من اختصاصه كفقيه.

أما المعنى الثاني، (أي الشرعي الذي يبحث عنه الفقيه): فهو عقد بين اثنين أو أكثر، أُنشىء ليكون كل من المالين أو الأموال إشاعة بين جميع الشركاء، والأغلب أن يكون الغرض من شركة العقد، هو التجارة... وهذه الشركة هي التي يبحث عنها الفقيه.

أقسام الشركة أربعة:

١ - **شركة العنان**: وهي شركة في الأموال، فيأتي كل من الشريكين بماله، ويمزجه بمال الآخر، ويعملان فيه معاً على أن يكون الربح لكل على قدر ماله والخسارة عليه كذلك، وهذه الشركة جائزة بالإجماع، بل قيل: لا يجوز غيرها.

٢ - **شركة الأبدان**: وهي أن يتفق اثنان أو أكثر على أن يعمل كل واحد بأجر، ثم يقتسمون الأجور بين الجميع حسبما يتفقون عليه، ولا فرق بين أن يكون عمل الجميع من جنس واحد كمحاميين، أو من أكثر من جنس، كمحام وطبيب.

وقد اتفق الفقهاء (بشهادة صاحب الجواهر، والحدائق، ومفتاح الكرامة) على بطلان هذه الشركة، لأن الأصل عدم الشركة، ومجرد التراضي غير كافٍ ما لم يرد النص على جوازه، كما قال صاحب الجواهر.

٣ - **شركة المفاوضة**: وهي أن يلتزم كل منهما للآخر، بأن الذي يحصل له من غنم يكون شركة بين الاثنين، ولا يستثني من ذلك إلا قوته وثياب بدنه، وأن ما يلزمه من غرم يكون عليهما معاً، وهذه الشركة باطلة أيضاً بالإجماع، لأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسب.

٤ - **شركة الوجوه**: قال (صاحب الجواهر، والحدائق، ومفتاح الكرامة): إن لها أكثر من معنى، وأشهر معانيها أن يجتمع اثنان ممن ليس لهما رأس مال، ويتفقا على أن مايشتريه أحدهما نسيئة يكون بينهما، ثم يبيعا ويؤديا ما على كل كل، والزائد بينهما شراكة، وهذه الشركة باطلة إن قصد كلٌ الشراء لنفسه، والنتيجة أن يكون الربح له، والخسارة عليه وحده، أما إذا وكل كل منهما الآخر بالشراء فإنها تدخل في شركة العنان. وقد جاء في (مفتاح الكرامة) ج٧ ص٣٩٢: «مما انفردت به الإمامية أن الشركة لا تصح إلا في الأموال» وهي شركة العنان، وعلى هذا فما نذكره من الشروط والأحكام مختص بالشركة في الأعيان الناشئة عن عقد الشركة بالذات.

***

الشروط:

١ - الصيغة: وهي من المقومات. وتتحقق بقول كل من الاثنين: اشتركنا في كذا، أو قول أحدهما: شاركتك في كذا، وقبول الآخر، وما إلى ذلك مما يدل على الشركة بوضوح.

٢ ـ أن يكون كل من الشريكين أو الشركاء، أهلاً للتوكيل والتوكل، لأنه لا يتصرف إلا بإذن من صاحبه، فيكون وكيلاً عنه، وموكلاً له.

٣ ـ أن يكون محل الشركة مالاً من الشريكين، وموجوداً بالفعل، وأهلاً للالتزام به شرعاً، فلا يصح أن يحدثا شركة على مال في الذمة، ولا في الخمر والخنزير.

٤ ـ أن يمتزج المالان مزجاً لا يمكن الفصل بينهما، قال صاحب (مفتاح الكرامة): «إن كلمة الفقهاء متفقة على أن المزج شرط في الصحة، فإذا لم يخلطاه لم تصح الشركة».

وقال (صاحب الجواهر): «التحقيق أن يقال بعد الإجماع على كون الشركة عقداً: إن قول اشتركنا لإنشاء تحقق الشركة، وصيرورة كل من المالين بين الشريكين على الإشاعة، إلا أنه يشترط في صحة ذلك تحقق المزج، ومتى حصل مزج بقصد إنشاء الشركة من دون قول تحققت، وكانت كالمعاطاة، أما المزج القهري المجرد عن إرادة إنشاء الشركة، فلا يترتب عليه ملك كل منهما الحصة المشاعة في نفس الأمر، وإنما يفيد الاشتباه في كل أجزاء المال».

والمعنى المتحصل من هذه العبارة: أن الشركة الشرعية التي يتكلم الفقيه عنها، تتحقق بمزج المالين مع قصد الشركة وإرادتها، سواء أقال الشريكان (اشتركنا) أو لم يقولا، فإن قالا، كانت الشركة بالعقد، وإلا فهي شركة بالمعاطاة، والنتيجة واحدة، أما مزج المالين من غير قصد الشركة فلا تتحقق به الشركة الشرعية لعدم قصدها، لا أن كل جزء هو مالك مشاع بين الاثنين.

إذن، فالشركة شرعاً لا توجد بالقصد وحده، ولا بالمزج وحده، بل بهما معاً، كما أن المزج لا يحقق الشركة بمعنى الشيوع في نفس الأمر والواقع، وإنما يصير مجموع المالين شركة بين المالكين لعدم إمكان الفصل بين المالين بعد الخلط والامتزاج.

وإذا باع إنسان حصة شائعة من ماله بحصة من مال الآخر كذلك، أو باعه إياها بثمن، واشترى بالثمن حصة من الثاني تتحقق الشركة في المالين حتماً، وأن يتحقق المزج ويتحد المالان، ولكن هذه الشركة ليست محلاً للبحث هنا، لأنها تستند إلى غير عقد الشركة.

أحكام الشركة:

متى توفر في الشركة جميع ما يعتبر فيها صحت، وترتب عليها الأحكام التالية:

١ ـ الشركة جائزة من الجانبين، فللشريك أن يرجع عنها ويطالب بالقسمة متى شاء، لأن الناس مسلطون على أموالهم بشتى أنواع السلطة، ومنها إفراز ملكه عن ملك الغير. ولو اشترط التأجيل وتحديد الشركة إلى أمد معين لم يلزم ذلك، وله العدول عنه، لأنه شرط في عقد جائز، والشرط يتبع المشروط في الحكم.

٢ ـ إذا اشترطا أن يكون العمل لأحدهما دون الآخر، أو أن يعمل كل منهما دون مراجعة الآخر صح، ولكن الشرط غير لازم، فيجوز الرجوع عنه متى شاء الشريك، وإن لم يشترطا ذلك، فلا يجوز لأحدهما التصرف في مال الشركة إلا بإذن الثاني، لحرمة التصرف في مال الغير، ومجرد الاشتراك لا يدل على إباحة التصرف في مال الشريك.

٣ ـ إذا أطلقا عقد الشركة، ولم يبينا مقدار الأسهم، يقسط الربح على أصحاب الأموال بنسبة أموالهم، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن رجل يشارك في السلعة؟ قال: «إن ربح فله، وإن وضع ـ أي خسر ـ فعليه».

وقال (صاحب الجواهر): «بلا خلاف في ذلك، سواء أتساوى الشريكان في العمل، أو تفاوتا فيه، بل الإجماع على ذلك والسنة مستفيضة أو متواترة، مضافاً إلى اقتضاء أصول المذهب وقواعده في المشاع ذلك بل هو مقتضى الأصول العقلية أيضاً».

واختلف الفقهاء فيما إذا اشترط أحد الشريكين الزيادة له في الربح مع تساوي المالين، أو اشترط التساوي في الربح والخسران مع تفاوت المالين، دون أن يكون لمن اشترط الزيادة أية ميزة من نشاط أو أثر في زيادة الأرباح.

فذهب جماعة إلى صحة الشركة والشرط، وآخرون إلى بطلانهما معاً، وثالث إلى بطلان الشرط فقط.

واختار (صاحب الجواهر) القول الأول ـ أي صحة الشركة والشرط لأنه شرط عن تراضٍ، ولا يحلل حراماً، أو يحرم حلالاً، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن رجل شارك رجلاً في جارية له، وقال: إن ربحنا فيها فلك النصف، وإن كانت وضيعة ـ أي خسارة ـ فليس عليك شيء؟ فقال الإمام: «لا أرى بهذا بأساً إذا طابت نفس صاحب الجارية».

انتهاء الشركة:

فرق بين انتهاء الشركة، وبين انتهاء الإذن للشريك بالتصرف في المال المشترك، فإن الشركة لا تنتهي إلا بالقسمة أو تلف المال، ولا أثر لقول الشركاء:أنهينا الشركة ما لم يحصل الإفراز. . أجل، تنتهي بذلك شركة العقد، لأنه من العقود الجائزة.

أما شركة الملك والشيوع فلا. . . وينتهي الإذن بالتصرف بانتهاء الشركة أو بجنون المأذون له أو موته، أو التحجير عليه لسفه، أو فلس، وتنتقل الشركة إلى الوارث بموت الشريك، وينوب عنه الولي مع الجنون أو السفه.

أوصاف الشريك:

ثم إن الشريك في نظر الإمام عليه السلام ـ كما هو في نظر الشريعة ـ أن يكون موضع ثقة واطمئنان، فلا يخون ولا يغدر، وأن يكون حيث يظنه الشريك، فإذا غاب قام مقامه يكفيه أمره ويحفظ ماله، ويصرف ثروته حسبما يجب أن يصرفها، ويستثمرها كما يحب أن يستثمرها، وأن لا يقطع أمراً دون مشاورة شريكه، كما أن الأمانة أصل مهم من الأصول التي ترتكز عليها الشركة، فلا شيء يفسد الشركة كما تفسدها الخيانة وترك الأمانة، والله سبحانه يحب حفظ الأمانة ويدعو إليها، فهو ثالث الشريكين وعينه ترعاه ويده مع أيديهما ما أمن الشريك شريكه، فإن تخاذلا وتخاونا رفع الله عنهما يده وتركهما لشأنهما.

* * *

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يقول: أنا ثالث الشريكين، ما لم يخن أحدهما الآخر، فإذا خان أحدهما الآخر خرجت من بينهما».

قال صاحب لي وهو يتحدث إليَ: هذا من الأحاديث القدسية المرفوعة إلى الله سبحانه بلسان رسوله، وكثير من مثل هذا مروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم كقوله: «يا عبدي أطعني تكن مثلي. .» وقوله: «ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه. . .». وهو صلى الله عليه وآله وسلم صادق فيما يقول، لأن الله جعل قوله من الوحي ولو لم يتنزل به الروح الأمين، حيث قال جلت عظمته يصف نبيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[1].

(١) سورة النجم، الآيتان ٣ ـ ٤.

وإنما اتصفت هذه الأحاديث بالقدسية، لأنها مرفوعة إلى ذات القدس على لسان الرسول الأعظم، والذات القدسية هي القوة الأولى التي يتقوم بها الكون. ولنعد بعد هذا التمهيد إلى صلب الحديث الأقدس، والمجمل بمعناه أن الله بين كل شريكين، إلا إذا خان أحدهما الآخر، فالأحاديث القدسية مفصلة لما أجمله القرآن، فقد ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾[1] فالله مع كل أحد، بل مع كل شيء، فإذا كان هذا الأحد مؤمناً بربه كان هادياً له، وإذا كان كافراً بربه كان مضلاً له، فإذن هو معه على أي حال، وإنما قال: خرجت من بينهما فهو من التجوز، أو يقصد بذلك أنه تعالى خرج من عونهما والعمل على هديهما، وإلا فهل يخلو منه مكان؟؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وليس معنى قولنا: لا يخلو منه مكان، أنه موجود بذاته في كل شيء، وإنما علمه وهيمنته وقدرته مسيطرة على كل شيء ومتغلغلة فيه.

والحديث القدسي المذكور في صدر هذا البحث، إنما اختص بالشركة في كونه ثالث الشريكين مع أنه ثاني كل اثنين، وثالث كل ثلاثة، ورابع كل أربعة، وما يكون من شيء إلا وهو معه أينما كان.

أقول: إنما أخص الشركة هنا إيذاناً بأن التضامن والتكافل والتعاضد والتعاون والتكاتف، التي نطلق عليها لفظ الشركة، هي القوام الأول لحياة الإنسان. والقرآن الشريف، يليه الحديث المأثور والحكمة السائرة فياض بالنداء على أن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، والأخوة التي هي مشروعة في الإسلام تستدعي التحابب والتآلف وكثيراً من التعارف، وهذه هي عين الشركة التي يكون الله بها ثالث الشريكين.

فالشركة في الحياة إذن هي من صميم الحياة إذا لم تكن عنصرها الأول الذي تتقوم به. ومن هنا نصل إلى أن الخيانة هدم لهذه الشركة التي هي بناء للإنسانية، وعلى مقدار ما يتقوم به الحي من مشاركة نزيهة في الحياة، يتقوم انهيار هذا الحي بالخيانة التي يصدع الشريك بها شريكه، فالله إذن مع الشريكين في عونه وتوفيقه، إذا استعانا به والتمسا توفيقهما منه، وأحسنا الأمانة التي يقوم عليها الحق في تعزيز كرامة الإنسان العزيز على خالقه، والله إذن مع الشريكين في بطشه وانتقامه إذا خان أحدهما الآخر،

---

(١) سورة المجادلة، الآية ٧.

وهذا البطش والانتقام هو عين تخليه عنهما، لأن الراعي إذا تخلى عن رعيته ضلت السبيل الذي تسلكه إلى حياتها، وفي رعاء البهيمة إذا أهملها الراعي مثل لما نحن بصدده من تخلي الحق الذي يرعى الإنسان، عن الرفق به والهيمنة عليه.

أما قوله، جلت عظمته: «خرجت من بينهما» فهو إشارة جلية إلى أنه كان الصلة بينهما، وإذا كان الله صلة بين كل اثنين من عباده سادت المحبة بينهما، وكانت هذه المحبة سبباً في سعادتهما والعمل على توثيق الأواصر بينهما، فإذا زاغت قلوبهما كان هذا الزيغ سبباً في زوال تلك الصلة، وانفصام العروة الوثقى بينهما، وذلك هو الدمار الذي يساور الشركة التي هي علة اتحادهما وتعاضدهما، وقديماً ضرب الإنسان مثلاً أعلى في التضامن بين الزوجين اللذين هما شريكان في الحياة، ضرب مثلاً في أن الولد صلة وثقى بين الزوجين، وأنه سبب أول في تركيز دعائم الأسرة التي يقوم عليها بناء المجتمع الإنساني.

فالولد الذي هو خلاصة المحبة بين الزوجين، والذي هو مزيج من دمهما المعبر عنه بالروح، والذي هو النقطة الحساسة في استدرار عطفهما عليه والرفق به والحنين إليه والتضامن في سبيل حياته، هذا الولد هو الصلة الوثقى بين أبويه، فإذا تزعرعت الثقة بين الزوجين كان خروج الولد من بينهما أول ضحية لزعزعة تلك الثقة التي قد تفضي بهما إلى الفراق الأبدي فيكون هذا الفراق سبباً في انهيار الأسرة بزوال الأبوة والنبوة من صميم ذلك الكيان القائم على التضامن في الحياة.

وإذا كان الولد الذي هو مزيج من دم الأبوين، والذي هو خلاصة المحبة التي كانت وليدة اشتراكهما في الحياة.

أقول: إذا كان هذا الولد الصلة الوثقى بين أبويه تربطهما في العمل الخير بين خلودهما في الحياة، فكم تكون الصلة بينهما وثيقة إذا كانت وليدة الخلق الإنساني القائم فيهما؟؟ فإن الله الذي جعل بين عباده المودة والرحمة، وأقام على هاتين الدعامتين بناء العوالم التي تعمر الوجود الحي، هو أقرب إليهما من الولد الذي يؤلف بينهما فيخلق من هذا التأليف شركة يؤسسان بها نظام الأسرة وبناء الكيان العاصم لهم جميعاً من فساد الحياة المفضي بهم إلى تلاشي ذلك الوجود.

فالله إذن هو صلتنا الوثقى بالروح التي تحاول رفعنا إلى السماء، والشيطان إذن هو صلتنا الوثقى بمادتنا التي تخلد بنا إلى الأرض، فحيث يكون الشيطان لا يكون الرحمن، وحيث يكون النور لا تكون الظلمة، ومناط كون هذا النور، أو تلك الظلمة

هو المسيطر علينا إنما يعود لحسن اختيارنا أو سوئه بين يدي سلطان العقل أو النفس علينا.

وصفوة القول: إن معونة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين. فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفع أثرهما من تجارتهما بالحرمان منها، وهذا أمر شاهد، فإن صفة الأمانة في التاجر توطد ثقة إخوانه فيه وإقبالهم على معاملته، فتزداد أرباحه وتغزر ثروته، وبالعكس إذا كان خائناً خرب الذمة، حل به الإفلاس والسقوط من عيون الناس. ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «الأمانة غنى»، «الأمانة تجلب الرزق، والخيانة تجلب الفقر». وقال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

من الأمور المشاهدة التي تقع تحت أسماعنا وأبصارنا، بين الآونة والأُخرى، نهوض بعض التجار ونجاحهم، وسقوط آخرين وخسارهم، فيستغرب الناس ذلك، وبعد مدة يظهر لهم أن سبب نجاح الأولين حسن نياتهم، وعزمهم على أداء الحقوق التي ائتمنوا عليها لأصحابها، لذلك جعل الله تجارتهم رابحة وأدى عنهم. وسبب سقوط الآخرين وخسارهم سوء نياتهم، وعزمهم على أكل أموال الناس التي ائتمنوا عليها، فخسرت تجارتهم، وأتلفهم الله بإتلاف أموالهم، وكانت عاقبة أمرهم خسراً.

أجل إذا لم يكن الشريك أميناً، ولم يكن موضع ثقة واطمئنان، انحلت عقد التعاون، وشلت أيدي التجارة وكسد العمل وتحطمت أركانه، وتأخر سيره عن الركب الذي شرعه الحكيم لخير عباده، وهو أن جعل العمل روح الحياة وأساس العمران، وسبيل الكمال ومنبع الثروة والمال، وجعله من ضروريات الحياة فلولاه ما رأيت قصوراً شاهقة، ولا حقولاً ناضرة، ولا حدائق يانعة تؤتي أُكلها كل حين، وتبعث إليك بأريج أزهارها، وتمدك بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. ولولاه ما رأيت طائرات تحلق في الجو، ولا فلكاً تمخر في عباب اليم، ولا عرفت البخار وآثاره، ولا الكهرباء وعجائبها، ولا حصلت على ثوب تلبسه، ولا رغيف تأكله، ولا ماء صاف تشربه، ولا كتاب مفيد تقرأه، ولوجدت كل شيء على حاله منذ ابتدأ الله خلقه. وإذا كانت حياة الإنسان الخلقية وقيمته الأدبية متوقفتين على واجب الصدق، فإن حياته وقيمته ـ مادة وأدباً ـ متوقفان على تأدية واجب السعي والعمل. وفي هذا قال بعض الكتاب الغربيين: «ليست الحياة يوم عيد ولا يوم حداد، وإنما هي يوم عمل».

وإن عظمة الأمم إنما تقاس بمقدار سعي أبنائها، وثمرة أعمالهم، وكل أمة أنفت

من الأعمال واستحلت طعم الراحة والبطالة، أسرع إليها الفناء، والاضمحلال، وخلفها غيرها من الأمم العاملة النشيطة فالرومانيون مثلاً لم يبيدوا أو يذهب سلطانهم إلا حين احتقروا العمل، وأخلدوا إلى البطالة واللهو والترف، حتى كانوا يرون أن الأعمال لا تليق إلا بعبيدهم.

وقد جعل الشرع الإسلامي حظ كل إنسان في حياتيه الدنيوية والأُخروية منوطاً بعمله ومتوقفاً على مقدار سعيه لها، فقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1] أي أن حظه من النجاح والمكافأة في الدنيا والآخرة على قدر ما يبذله من العمل والسعي خيراً أو شراً قليلاً أو كثيراً. وجاء هذا المعنى أيضاً في قوله ﷺ: «إن الله يعطي العبد على قدر همته ونهمته» وهمته عزمه، ونهمته حاجته وقصده.

روي أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة قد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا هذا فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» وقال ﷺ، في التحذير من البطالة وسوء نتائجها: «إذا قصر العبد في العمل ابتلاه الله بالهمّ».

لا جرم أن الهموم والأكدار والأماني الباطلة، إنما تكون من ذوي البطالة والفراغ والعطالة عن العمل. قال ﷺ: «أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل» كبر البطن كناية عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجلبة للكسل والعجز عن متابعة العمل. فالشارع عاب الكسل عن العمل وما يؤدي إليه من الإفراط في النوم والأكل. وبالجملة، فإن أعدى أعداء العمل، الاتكال المقرون بالإهمال والتقاعد وترك السعي، وأقوى أركان العمل وأشد أنصاره التوكل الصحيح الشرعي المقرون بالسعي والحركة والنشاط، واتخاذ الأسباب الظاهرة التي أمرنا الله ونبيه بمراعاتها والسير على سننها.

فمن كرس حياته للحق والخير فعمله عبادة، وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية

---

(١) سورة النجم، الآيات ٣٩ ـ ٤١.

جهاد، توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته.

وقد نبه النبي ﷺ إلى أن العمل للدنيا من الدين، وأنه شيمة الأنبياء والمرسلين، سواء كان هذا العمل زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة.

وهاك بعض الآثار الشواهد على منزلة الاحتراف والكدح والسعي في طلب الرزق بالوسائل الشريفة: قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

وقال: «طلب الحلال واجب على كل مسلم».

وقال: «أيما رجل كسب مالاً من حلال فأطعم نفسه أو كساها، فمن دونه من خلق الله فإن له به زكاة».

وسئل ﷺ: «أي الكسب أفضل؟ قال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور».

وروي عنه: «إن الله يحب المؤمن المحترف».

إن الإسلام يجعل العمل سمة المسلم، ومظهر تجاوبه مع رسالة الوجود، وانقياده لأمر الله، وفقهه لطبيعة الدنيا وحقيقة الدين.

ولا يجوز أن يكون حب الحياة باباً إلى طلبها بوسائل رديئة، فإن العمل الذي أمر الله به محكوم بإطار سميك من أخلاق العفة والصدق والعدالة والرحمة...

وعندما يسر الله لعباده خيرات هذه الأرض نبههم إلى أن ذلك لا يجوز أن يعدو الحلال الطيب.

فليس الإنسان وحشاً منطلقاً في برية يلتهم ما وقع في براثنه، كلا، إنه إنسان محاسب على سلوكه، مسؤول عن نيته ووسيلته وغايته.

ولذلك لا يجوز أن يقع فريسة الغرائز الخسيسة والوساوس الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]. وقد يستحلي المرء طعاماً وصل إلى يده مريب المصدر، ولو علم عقباه في آخرته لفضل أن يأكل الطين بدل أن يدخل هذا الطعام في جوفه.

يقول رسول الله ﷺ لهذا الإنسان: «... لأن يأخذ تراباً ـ يجعله في فيه ـ خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه». وروي عنه ﷺ: «أيما عبد نبت لحمه من

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

سحت فالنار أولى به» وعقبى التهام الحرام عار الدنيا ونار الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[١].

والعمل الصحيح هو السبب الأول للملكية الصحيحة.

والإسلام يحترم هذا العمل ويصون ثمراته ويجعل العدوان عليها جريمة.

أما الكسب السيىء فلا حرمة له، بل إن الإسلام يطلب من كل امرىء حصل على القليل أو الكثير من المال الحرام أن يتخلص منه فوراً، حتى تكون علاقته بالله سليمة وتوبته إليه مقبولة.

فإن الغش والغصب والقمار والسرقة والربا والاحتكار والاستغلال، وجميع أنواع الكسب الحرام، لا يمكن عدها وسائل للتملك المحترم، إنها - في حقيقتها - اعتداء على التملك الصحيح، وطرق ملتوية لوضع اليد الجائرة على حقوق الآخرين.

وجماع القول: إن الإسلام يرى أن العمل ركن من أركان سعادة الفرد والجماعة، وأنه ينبغي للمربين والمعلمين أن يذكروا للصغار: أن الطريق المحفوف بالأزهار لا يوصل إلى المجد والعز والفخار، وأن نجاحكم ونجاح وطنكم منوطان بعمل كل واحد منكم، ومتوقفان على مقدار ما يبذله من الحركة والسعي والنشاط، وأنه ليس من الإنصاف ولا العدل أن يعيش الإنسان كلاًّ على ثمرات أعمال غيره، فيتمتع بنتائج كدهم وكدحهم وشتى جهودهم، ثم لا يشاركهم في عمل ما هو واجب عليه حتى يستفيدوا منه كما استفاد منهم.

من أجل ذلك أوعد الشارع هذا الفارغ الكسلان بأشد وعيد بقوله ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفي الفارغ». ويعني بالمكفي الذي يكفيه غيره ضرورات حياته. وبالفارغ المتعطل المخلد إلى البطالة والكسل، ومن شعب العمل: الكسب والتجارة.

أما الكسب: فتحصيل المال من أي طريق عدا المحرمات.

وأما التجارة: فتحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع، بيعاً وشراء، أو هي شراء بأرخص ما يمكن من الثمن، ثم بيعه بأغلى ما يمكن منه.

---

(١) سورة النساء، الآية١.

واشتغال فريق من أبناء الأمة في هذا النوع من العمل واجب محتوم عليهم ما دام أمر معاشهم متوقفاً عليه بحيث يستغنون به عن المسألة وإراقة ماء الوجه. ومهما يكن في طلب المعاش والكد في تحصيل الرزق من تعب ومشقة فإن التعرض لصدمات الناس وانتظار صلاتهم أشق على النفس وأصعب. جاء في الحديث الشريف: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً، ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب، فيبيع فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس». بل إن الإمام الصادق عليه السلام جعل المنفق من ماله على ناسك يعبد ربه أشد عبادة من ذلك الناسك.

روى المعلى بن خنيس عن أبيه عن الصادق عليه السلام قال: «سأل أبو عبد الله عن رجل وأنا عنده، فقيل أصابته الحاجة. قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه. قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه. فقال أبو عبد الله: والله للذي يقوته أشد عبادة منه». وكان عليه السلام يجعل المعرض عن ابتغاء المال فاقداً للخير. روى عمرو بن جميع قال: «سمعت أبا عبد الله يقول: لا خير فيمن لا يحب جمع المال من الحلال، يكف به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه».

وأثنى الصحابة ذات يوم على رجل، فقالوا: يا رسول الله، إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أيكم يكفيه طعامه وشرابه؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله. فقال: كلكم خير منه».

فهذا يدل على أن الانقطاع للعبادة إذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة إلى الناس، لا يكون فضيلة دينية ما لم يعضدها فضيلة كسب المال والاستغناء به عما في أيدي الناس. وهكذا كان دأب الصحابة والسلف، فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من مقتضيات المروءة التي لا مندوحة عنها.




حَقُّ المَالِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ مَالِكَ فَأَنْ لاَ تَأْخُذَهُ إلاَّ مِنْ حِلِّهِ، وَلاَ تُنْفِقَهُ إلاَّ فِي وَجهِهِ، وَلاَ تَحْرِفَهُ عَنْ مَواضِعِهِ، وَلاَ تَصْرِفَهُ عَنْ حَقَائِقِهِ، وَلاَ تَجْعَلَهُ إِذَا كَانَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِليْهِ، وَسَبَباً إِلى اللهِ، وَلاَ تُؤْثِرَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ مَنْ لاَ يَحْمَدُكَ، فَاْعْمَلْ بِهِ بِطَاعَةِ رَبِّكَ، وَلاَ تَبْخَلْ بِهِ فتَبوءَ بِالحَسْرَةِ وَالندَامَةِ مَعَ التَّبِعَةِ. وَلاَ قُوّةَ إلاَّ بِاللهِ».






المال نعمة، يعطيها الله للإنسان، وقد يكون نقمة. وإنما المدار في المال هو نوعية اكتسابه، ونوعية صرفه.

لا ينظر الإسلام إلى المال من حيث هو مال، إنما ينظر إليه من حيث اكتسابه، فيبيحه إن كان مشروعاً، ويحرمه إن كان غير مشروع. وينظر إليه من حيث صرفه أيضاً، فإن صرف في غير محل مشروع كان ذلك إثماً، وإن صرف فيما يجوز كان مباحاً. والنتيجة هي أن يكون المال مأخوذاً من حله مصروفاً في حله.

وليس المال أساسياً في ذاته إنما هو وسيلة إما إلى الخير، وإما إلى الشر. وليس هو نعمة إلا إذا صرف في سبيل الخير.

ليس المال ـ كما يقول بعض الغلاة من علماء تدبير المال ـ غاية في ذاته، وإنما هو ذريعة إلى تجميل حال بني الإنسان، واشتراك ذوي الإقلال والإكثار، في الاستمتاع بخير الدنيا ونعيمها، فيقل بينهم التحاسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتكثر المواساة والتواصل، وتنبسط النفوس، فتتفرغ للذود عن حريتها، وتنهض للضرب في الأرض، وشق عباب البحار، وامتطاء متن الهواء تقتنص شوارد العلم، وتتلقن ضروب الصناعة والتجارة، فتتسع آمالهم ويتممون من العمران ما قصرت أعمال السلف عن استيعابه، ويرمّون ما أحدثوه من شعث. وهكذا تكون أحوال أمتهم على الأعصار ملتئمة، وأمورها على مرّ الدهور منتظمة ومن تم له ذلك فأحرِ به أن يحيا حياة أساسها الفضيلة، وثمرها رغد العيش في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

هذا العمل والمال علمنا أهل البيت عليهم السلام، أن نسهر في طلبه ونثابر ونهاجر ونتاجر لنكون في غنى عن الناس، وفي ذلك غفران الذنوب وطاعة الله وجهاد في سبيله، فإذا تيسرت لنا أسباب الثروة وأخذنا بأطراف الغنى فماذا نصنع؟

لو فتشت المجتمع الحاضر، أو رجعت في نظرك القهقرى إلى أدوار التاريخ وعصوره وتتبعت سيرة الإنسان ـ ذلك المخلوق الاجتماعي ـ فلا يمكن أن تجد بخيلاً حقيقياً، وإنما هي أمور نسبية، وبخل نسبي، والبخل الحقيقي الذي هو قبض اليد عن

كل إنسان ما عدا أسرته، فهذا لفظ لا مصداق له في الحياة، ولا معنى له في قاموس الحياة، نعم معناه مشروع ومفسر في قاموس اللغة.

إن الإنسان مهما سيطر عليه حب المال، واستأثرت به الكزازة، لا بد أن تحل عقدته مناسبات. وتستثير نخوته ملابسات، وتحيط به ظروف وتقتضيه أوضاع أن يكون باذلاً لماله مسعفاً لمن يهيج عاطفته وينبه وجدانه ويحرك حماسته، وإن الحياة الواقعية التي رأيناها دلتنا في كثير من الأحيان على سخاء وبذل من أناس عرفوا بالبخل والشح، وتحدث الناس عنهم في المحافل، ونعتهم الشعراء بأنهم لو استطاعوا لتنفسوا من منخر واحد.

في النفس أشياء تنسب إلى الطبع والجبلة، قبل أن تنسب إلى التفكير والتدبير. فمن كان عالماً لا بد أن يرشد جاهلاً في الناحية التي يعرفها العالم ويجهلها الجاهل. ومن كان قوياً لا بد أن يعين ضعيفاً، ومن كان غنياً لا بد أن يسعف فقيراً. ولكن ترك هذه الأمور إلى الموافقات والمناسبات لا يظهر في المجتمع أثرها، ولا يحسن في النفوس وقعها ولا تأتي بالنتيجة المطلوبة والنفع المأمول، ولا تخفف من شقاء الإنسانية المعذبة ولا تقلل من متاعبها.

أهل البيت عليهم السلام كان أقصى همهم في الحياة، تعليم الجاهل وإرشاد الضال وإيقاظ الغافل إلى السعادة ليكون المجتمع تنتظمه السعادة في سائر مرافقه بجميع أفراده، لا فرق يقوم على تمايز وتفاضل واستئثار.

قال الصادق عليه السلام: «إنما أعطاكم الله هذه الفضول من الأموال لتوجهوها حيث وجهها الله، ولم يعطكموها لتكنزوها. فإذا كان لا بد للإنسان من إنفاق وبذل، إذا كان ميسوراً فأفضل الناس من كان بذله في خير الذي يعين على تخفيف ويلات المجتمع وإنقاذ أكبر عدد من أنياب الشقاء ومخالب البؤس، وأن يكون البذل في طريق الفضيلة لا في طريق الرذيلة والنقيصة، ولا في طريق يشجع الطبقة المجرمة الآثمة.

قال الصادق عليه السلام: «إذا أردت أن تعرف إلى خير يصير الرجل أم إلى شر؟ فانظر أين يضع معروفه؟ فإن كان يضعه عند أهله فاعلم أنه يصير إلى خير وإن كان يضع معروفه مع غير أهله، فاعلم أن ليس له في الآخرة من خلاق».

من هذا الحديث نسترشد إلى أن إنفاق المال ينبغي أن يكون لتخفيف بؤس البائسين وإصلاح الفاسد وتقويم المعوج.

يقول الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أربع تذهب ضياعاً: مودة تمنح من لا وفاء له، ومعروف يوضع عند من لا يشكره، وعلم يعلم من لا يستمع له، وسر يوضع عند من لا حصانة له».

قال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من كان منكم له مال فإياه والفساد، فإن إعطاءه في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع ذكره في الناس ويضعه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله، إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم، فإن بقي معه بقية ممن يظهر الشكر له ويريد النصح، فإنما ذلك ملق وكذب، فإن زلت به النعل ثم احتاج إلى معونتهم ومكافأتهم لألأم خليل، وشرّ خدين، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، وعند غير أهله لم يكن له من الحظ فيما أتى إلا محمدة اللئام، وثناء الأشرار ما دام منعما مفضلاً، ومقال الجاهل ما أجوده، وهو عند الله بخيل فأي حظ أبور وأخسر من هذا الحظ؟ وأي فائدة معروف أقل من هذا المعروف؟ فمن كان منكم له مال فليصل به القرابة وليحسن منه الضيافة وليفكّ به العاني والأسير، وابن السبيل، فإن الفوز بهذه الخصال مكارم الدنيا وشرف الآخرة».

وكل مسلم يعرف أن الإنفاق على المشاريع العامة: كالمساجد والمدارس الدينية، والقناطر وسائر الأوقاف، أجرها أعظم وثوابها أجزل. وهذا مصداق الحديث المعلن عن الصدقة الجارية الباقي ثوابها ما بقيت، ينتفع الناس بها ويستفيدون منها.

والإمام السجاد (سلام الله عليه) في هذه الظاهرة، يرى أن المال سبب إلى الله وسبيل إليه ليس غير. فمن حق هذا المال على صاحبه، أن يؤثر به على نفسه من لا يرجو نفعه ولا ينتظر خيره، ولعله لا يحمده ولا يحسن خلافته من بعده، ولعل من يخلفه أن لا يتخذ هذا المال سبيلاً إلى الله. فيؤكد الإمام (سلام الله عليه) على أن الإنسان عليه أن لا يفكر فيمن يخلفه ما كان أمامه سبيل الله مفتوحاً، فلينفقه وليصرفه في وجوه المعروف والإحسان لينفع نفسه، أما ورثته فليس هو كفيلاً لهم، أو مسؤولا عنهم، ومن كان كفيلاً له حينما مات والده هو، وهو بعد في دور الطفولة، إنما الله كفيل له ولهم جميعاً، وعليه رزقه ورزقهم جميعاً.

قيمة المال

المال: إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر، إذ القنيات ثلاثة: نفسية، وبدنية وخارجة.

والخارجة أدونها، وأدون الخارجات المال، لأنه خادم غير مخدوم، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه، لأن النفس يخدمها البدن، والبدن يخدم المأكل والملبس، وهما يخدمهما المال.

فالمال من حقه أن يكون خادماً لغيره من القنيات، وأن لا يكون شيء من القنيات خادماً له، وإن كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيداً، وهم الذين ذمهم النبي ﷺ بقوله: «تعس عبد الدينار».

ولعظم منافع المال في الأمور الدنيوية قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾[1]. وخوّف من أُعجب باقتنائه: فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾[2]. فحق الإنسان أن بعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في فندق يصلح للانتفاع بها المسافر ما دام نازلاً في ذلك الفندق، فيتناول منها مقدار ما يتبلغ به، ويتسلى عنها عندما يرحل، ويستهجن لنفسه أن يكذب، ويغضب ويحزن، ويرتكب القبائح في سبيلها.

إن المال الذي هو العين جعله الله سبحانه سبباً للتعامل به كما تقدم آنفاً، وخادما كما ذكرناه، فقبيح بالحر المترشح لنيل الفضائل والاقتداء بالباريء جلَّ ثناؤه، والوصول إلى الغنى الأكبر، أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج إليه، ويجعل نفسه أقل رفيق وأخسه كما قيل:

فـــــرقّ ذوي الأطمـــــاع رقّ مخلـــــد

الحق أن المال في أيدي الناس عارية، لأن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بلغة، فاعتدها الناس عدة، وصير الدنيا مرتحلاً وممراً، فصيروها موطناً ومقراً إلا قليلا أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[3] تاجروا بها ربهم. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾[4].

وأعراض الدنيا من وجه عارية في أيدي الناس مستردة كما قال الشاعر:

---

(١) سورة النساء، الآية ٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية ٥٥.
(٣) سورة سبأ، الآية ١٣.
(٤) سورة الصف، الآية ١٠.

ومــا النــاس والأهلــون إلا ودائــع ولا بــد يــومــاً أن تــرد الــودائــع

ومن وجه منحة منحها الإنسان لينتفع بها في حياته، وينتفع بها غيره بعد مماته، غير أن الإنسان اغتر بها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة، فركن إليها ولم يؤد أمانة الله تعالى، ثم لما طولب بردها تبرم وضجر، وسخط وجزع. وبعضهم ـ وهم الأقلون ـ حفظوا ما عهد إليهم، فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة، فأدوا فيها الأمانة، وعلموا أنها مستردة، فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا، وردوها شاكرين لما نالوه منها، ومشكورين لأداء الأمانة فيها.

وقد ذكر بعض العارفين في ذلك مثلاً فقال: إنما مثل أرباب الدنيا فيما أُعطوه من أعراضها، كرجل دعا قوماً إلى داره، وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين، فكان إذا دخل أحدهم ناوله إياه لا ليتملكه بل ليشمه ويناوله لمن بعده، فمن كان جاهلاً ظن أنه يملكه، فلما استرجع منه ضجر، ومن كان عالماً تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر.

تعلق النفس بالمال:

لا شك أن النفوس جبلت على حب المال: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١]. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٢] وهو أمر ضروري لا يحتاج لبيان، ولذلك سببان:

أحدهما: حب الشهوات العاجلة، ولا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن علم الإنسان أنه يموت بعد يوم فقد لا يبخل بماله، وقد يبخل به إن كان له أولاد، لأنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة»، وقد يسخو مع ذلك إذا أحسن الظن بالله وتيقن الخلف.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية» وذلك حق، لأن من يوقن بالخلف يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة.

قال الشاعر:

مــن ظــن بــالله خيــراً جــاد مبتــدئــاً والبخــل مــن ســوء ظــن المــرء بــالله

ثانيهما: حب عين المال: فمن الناس من معه ما يكفيه طول عمره ويزيد على

(١) سورة العاديات، الآية ٨.
(٢) سورة الفجر، الآية ٢٠.

جميع مطالبه، وهو شيخ بلا ولد، ولا تسخو نفسه بإخراج شيء في مصالح دنياه وآخرته، ولا بمداواة نفسه عند المرض، وما دفعه إلى ذلك إلا حبه للمال وعشقه له؛ ومثله في ذلك كمثل رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله، لأن المال رسول يبلغ إلى الحاجات فصار محبوباً، وقد تنسى الحاجات ويصير الذهب محبوباً في نفسه.

وحب المال لا يخلو منه أحد، وربما يكون كامناً في النفس فتثيره مشاهدة النعمة عند غيره، لأنها تثير الشوق إليه، وتجعل الشخص يتنبه لألم الحرمان، وقد كان غافلاً عنه قبل ذلك، وهذا من مقتضيات الأمور التي لا تدخل تحت الاختيار، ولم يعر منه أحد عدا من عصم الله من أوليائه، لأن ذلك من مقتضيات البشرية، وإنكار حبه مكابرة، وقد يتعدى حب المال والدنيا إلى حب أهل المال بالطبع.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الإنسان عبد للدنيا ولمن في يديه شيء منها».

ومن وجوه ذم المال أن الولع به قد يؤدي إلى أمور محظورة، كالبخس في الوزن والتطفيف في الكيل، والجحود للحق، والمغالطة في الحساب، والشتم والإهانة، واحتمال أشباه ذلك طلباً للكسب، واللؤم وهو الإمساك عن الإنفاق في أبواب الجميل، ويؤتى صاحبه من قبل أن لا يعرف طرق الجميل. ومنها التقتير، وهو التضييق فيما لا بد منه، كالإنفاق على الأبناء ووجوه الخير ويؤتى صاحبه من قبل أنه لا يعرف الواجب والسرف: وهو الانهماك في الشهوات واللذات. والبذخ: وهو أن يتعدى المرء أهل طبقته مباهاة. وسوء التدبير: وهو أن ينفق في غير ضرورة، ويهمل الأهم من أموره، ويؤتى من قبل أنه لا يعرف مقادير النفقة، ومن أراد أن يجانبه الذم في شأن المال فليراع ما يأتي:

١ ـ أن يعرف أبواب الجميل ويرغب فيها ويبتغيها.

٢ ـ أن يعرف الحق اللازم ويوجبه على نفسه.

٣ ـ أن يتوخى القصد في الإنفاق على لذاته المشروعة.

٤ ـ أن لا يتعدى ما يفعله أهل طبقته.

٥ ـ أن يعرف استحقاق كل حال مما يحتاج إليه.

٦ ـ أن يكون إنفاقه كرماً لا تبذيراً وإسرافاً، فإذا فعل ذلك نسب إلى كل خلق محمود.

القناعة والمال:

المال ضروري للحياة، والحاجة إليه لازمة لا يعرى منها بشر، ومن عدم المال ـ الذي هو مادة الحياة ـ لم يستقم له دين ولا دنيا، ولحقه الوهن في نفسه ومروءته وأخلاقه، وأسباب كسبه كثيرة متنوعة ترجع إلى أصول ثلاثة: هي الزراعة، والتجارة، والصناعة. وما عداها من الأعمال متفرع عنها وراجع إليها.

والمال ليس من الكمال الذي يطلب لذاته: كالعلم وفضائل الأخلاق، وإنما يطلبه من يطلبه لأمور:

منها: منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بوفر المال، وليس لشهوات المرء حد تقف عنده، ولا غاية تصل إليها، ولهذا يكون ما يصيب من اللذة بما جمعه من المال غير واف بما يعانيه من استدامة كده وتعبه، مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمتابعة الشهوات، وهذه حال لا يكف المرء عنها في الغالب عقل زاجر ولا قانون وازع، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد الله به خيراً حال بينه وبين شهواته».

منها: أن يطلب المال ويلتمس كثرته لينفقه في وجوه البر ويصطنع به المعروف عند أهله، وصاحب هذا أجدر بالحمد وأحرى بالتبجيل وأولى باحترام الناس، وبقدر ما يبذل في ذلك من الإفادة والاستفادة يكون حظه من الخير وحسن العاقبة، ومن فعل هذا فقد أصاب بالمال وجهه ووضعه في موضعه، لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان، ومن فقده من الناس قلت الرغبة فيه والرهبة منه، ومن لم يكن موضع رغبة ولا رهبة استهان به الناس ولو كانوا أقاربه الأدنين وخلانه الأوفين، ولهذا قيل: «متى استغنى كرم على أهله»، ولعظم خطره سماه الله تعالى خيراً في كثير من آياته ومدحه فيها، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[2] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾[3] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾[4] وقال في مقام الامتنان: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[5]. وقال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

---

(١) سورة هود، الآية ٨٤.

(٢) سورة النور، الآية ٣٣.

(٣) سورة العاديات، الآية ٨.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٠.

(٥) سورة نوح، الآية ١٢.

وتواترت أقوال الحكماء والكتب السماوية في مدحه وتحبيب الناس في طلبه.

قال بعض الحكماء: «من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين والعرض».

قال بشر الضرير:

كفى حزناً أني أروح وأغتدي ... ومالي من مال أصون به عرضي

وأكثر ما ألقى الصديق (بمرحباً) ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وقال آخر:

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى ... وكل غني في العيون جليل

وليس الغنى إلا غنى زين الفتى ... عشية يقري أو غداة ينيل

وقد اعتبره القرآن الكريم زينة الحياة، وجعله في منزلة البنين قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]. وعد العلماء الغنى خيراً من الصبر، فقالوا: «غني شاكر أفضل من فقير صابر»، لأن الغني واجد من المال ما يسعفه بحاجته في الخير والشر، فانصرف عن الشر إلى الخير.

وأما الفقير فقد غل يده الفقر، ولم يجده مواتاة من حاله على الخير والشر، فانصرف عنهما جملة، وليس يعلم إلا الله ماذا كانت تكون حاله، لو اتسع له ماله ورفهت حاله.

ومنها: أن يطلب المال ليدخره لولده مع ضنه به على نفسه وإنفاقه فيما يكسبه الحمد ويدفع عنه اللؤم إشفاقاً عليهم من الطلب، وخوف أن يبتذلهم ذل السؤال. وهذا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لأنه مأخوذ بما جمع، سيىء الظن بالله واثق ببقاء هذا المال على ولده، وهو عرض زائل وظل منتقل ودولة بين الناس.

وأسوأ ما يعقبه هذا العمل أن يصرف الأبناء عن السعي في طلب العلم والمال لاعتمادهم على ما يصير إليهم من مال آبائهم، ولقد كان سبباً في فساد أخلاق كثير من الشبان وانصرافهم إلى اللهو واللعب حتى أضاعوا كل ما ورثوه من مال، وتبع هذا فقدان الشرف والصحة.

ومنها: أن يجمع المال حباً فيه واستحلالاً لجمعه، وهذا أسوأ الناس حالاً

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٦.

وأقلهم حظاً من دنياه، وأكثرهم عناء بما جمع من المال وما يستلزمه من التدبير والقيام عليه، والعمل لتنميته، لأن من كانت رغبته هذا لا يجد ما يصرفه عنها أو يقلل تلك الرغبة في نفسه حتى يلقى حتفه.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ومن كانت غايته جمع المال وادخاره استولى عليه بعد الأمل، وهو سبب الشح الذي يصيب كثيراً من الناس، فيصرفهم عن أداء الحقوق الواجبة لله ولأنفسهم وللناس، ويبعثهم على التورط في المحرمات وما يستهلك دينهم وأعراضهم وأخلاقهم، إذ ليس للحريص غاية يقف عندها ولا نهاية يقنع بالوصول إليها.

وليس ينجي الإنسان من شرك استعباد المال وخطر استهوائه للأفئدة غير القناعة، فإنه لا غنى إلا بغنى النفس، ومن لزم القناعة زالت عنه صفة الفقر ولهذا قيل:

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فإن زاد شيء عاد ذاك الغنى فقرا

وملاك القناعة الرضا والانصراف عما يثير في النفس الحرص والجشع، وطلب الدنيا بأسباب لا تحل مباشرتها وتتفاوت درجات القناعة في الناس:

فمنهم من يرضى بما يتبلغ به من دنياه، وينصرف عن كل ما سواه، وهذه حال وإن كانت ترتاح إليها نفوس كثير من الناس أشبه بالعجز وأليق بالنوكى والكسالى، ومن لا يرون لهم حظاً من دنياهم يجب أن يحرصوا على طلبه ويجدوا في إدراكه.

ومنهم من يطلب ما يكفيه من الدنيا لنفسه ولأهله ولأصحاب الحقوق عليه، ولا يمد عينيه إلى ما وراء ذلك مما يزيد عناءه ويكثر آلامه، وهذه حال لا بأس بها لمن أراد أن يبقي على نفسه وشرفه.

ومنهم من يقنع بما سنح له قليلاً كان أو كثيراً، وتقر عينه بما صار إليه من متاع الدنيا، وإن فاته شيء منها لم يجدّ في طلبه، ولم يحزن لفوته، لعلمه أن لا شيء من خير الدنيا وشرها إلا وهو بقدر، وما كان له منها أصابه على ضعفه، وما كان عليه منها لم يدفعه بقوته، وهذه حال كثير من العقلاء ممن فيهم أناة وصبر وحسن تصريف للأمور، ونظر في العواقب مع عدم استسلام لهوى النفس وخدعها الكاذبة، وبها يصيرون إلى الراحة واطمئنان النفس وعدم المؤاخذة.

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٤.

وفي هذا يقول أبو تمام:

لا تـأخـذني بـالـزمـان فليـس لـي تبعـاً ولسـت على الـزمـان كفيـلا
مـن كـان مرعـى عـزمـه وهمـومـه روض الأمـانـي لم يـزل مهـزولا

ومن قنع اتصف بكثير من صفات الكمال: كعزة النفس، والمروءة، والشرف، والسخاء، واستبقى لنفسه راحة البال والطمأنينة.

مدح المال:

هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً ففضل قوم الغنى، وفضل قوم الفقر.

فقال أصحاب الغني: قد وصف الله تعالى المال فسماه خيراً، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾[1] وقال ممتناً على عباده واعداً لهم بالإنعام والإحسان: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[2] وقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾[3]. وقال النبي ﷺ: «المال الحسب، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال» وقال: «نعم العون على تقوى الله المال».

قالوا: ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيأ حصولها إلا بالمال: كالحج والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد.

وقد جاء في الخبر: «خير المال سكة مأبورة، أو مهرة مأمورة».

وقالت الحكماء: المال يرفع صاحبه وإن كان وضيع النسب قليل الأدب وينصره وإن كان جباناً، ويبسط لسانه وإن كان عيياً. به توصل الأرحام وتصان الأعراض، وتظهر المروءة وتتم الرياسة، ويعمر العالم وتبلغ الأغراض وتدرك المطالب وتنال المآرب، يصلك إذا قطعك الناس، وينصرك إذا خذلوك ويستعبد لك الأحرار، ولولا المال لما بان كرم الكريم ولا ظهر لؤم اللئيم، ولا شكر جواد ولا ذم بخيل ولا صين حريم ولا أُدرك نعيم.

قال الشاعر:

المـال أنفـع للفتـى مـن علمـه والفقـر أقتـل للفتـى مـن جهلـه

---

(١) سورة ص، الآية ٣٢.
(٢) سورة نوح، الآية ١٢.
(٣) سورة المدثر، الآية ١٢.

ما ضر من رفع الدراهم قدره ... جهل يناط إلى دناءة أصله

وقال آخر:

دعوت أخي فولى مشمئزاً ... ولبى درهمي لما دعوت

وقال آخر:

ولم أر أوفى ذمة من دراهمي ... وأصدق عهداً في الأمور العظائم
فكم خانني خل وثقت بعهده ... وكان صديقاً لي زمان الدراهم

وقال آخر:

أبو الأصفر المنقوش أنفع للفتى ... من الأصل والعلم الخطير المقدم
وما مدح العلم امرؤ ظفرت به ... يداه ولكن كل مقو ومعدم

وقال آخر:

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وقال الحريري في مقالته الدينارية في وصف الدينار:

أكرم به أصفر راقت صفرته ... جوّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرته
وقارنت نجح المساعي خطرته ... وحببت إلى الأنام غرته
كأنما من القلوب نقرته ... به يصول من حوته صرته
وإن تفانت أو توالت عترته ... يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغناته ونصرته ... كم آمر به استتبت إمرته
ومترف لولاه دامت حسرته ... وجيش همّ هزمته كرته
وبدر تمٍّ أنزلته بدرته ... ومستشيط تتلظى جمرته
أسر نجواه فلانت شرته ... وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه حتى صفت مسرته ... وحق مولى أبدعته فطرته
لولا التقى لقلت جلت قدرته

وقال ابن ميثم البحراني:

قد قال قوم بغير فهم ... ما المرء إلا بأكبريه

فقلت قول امرىء حكيم ... ما المرء إلا بدرهميه
من لم يكن درهمه لديه ... فعرسه لا تلتفت إليه

وقال العتابي: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أرفع من السماء وأعذب من الماء وأحلى من الشهد وأزكى من الورد، خطؤه صواب؛ وسيئته حسنة، وقوله مقبول، يغشى مجلسه ولا يمل حديثه.

والمفلس عندهم أكذب من لمعان السراب، ومن رؤيا الكظة، ومن مرآة اللقوة، ومن سحاب تموز، لا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلم عليه إذا قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السائل المبرم.

قال بعض الشعراء الظرفاء وأحسن كل الإحسان مع خلاعته:

أصون دراهمي وأذب عنها ... لعلمي أنها سيفي وترسي
وأذخرها وأجمعها بجهدي ... ويأخذ وارثي منها وعرسي
فيأكلها ويشربها هنيئاً ... على النغمات من نقر وجس
ويقعد فوق قبري بعد موتي ... ولا يتصدقن عني بفلس
أحب إلي من قصدي عظيماً ... كبيراً أصله من عبد شمس
أمد إليه كفي مستميحاً ... وأُصبح عبد خدمته وأمسي
ويتركني أجر الرجل مني ... وقد صارت كنفس الكلب نفسي

ذم المال:

الكتاب والسنة متظاهران في ذم المال وكراهة حبه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾[١] وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾[٣] وقال: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء

---

(١) سورة المنافقون، الآية ٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٨.
(٣) سورة العلق، الآيتان ٦ ـ ٧.
(٤) سورة الإسراء، الآية ٨٣. وفي سورة فصلت، الآية ٥١.

والبقل» وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زريبة غنم، بأكثر فساداً من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم».

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: يابن آدم تقول مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت» وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه وهو ماله، وواحد يتبعه إلى قبره وهو أهله، وواحد يتبعه إلى محشره وهو عمله» وقال ﷺ: «إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم» وقال: «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم».

ووضع أمير المؤمنين عليه السلام درهماً على كفه، ثم قال: «أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني».

وروي أن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما، وقال: «من أحبكما فهو عبدي حقاً» وقال عيسى عليه السلام: «لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم».

وقال أصحاب الفقر: «الغنى سبب الطغيان قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[1]». وكان يقال: الغنى يورث البطر، وغنى النفس خير من غنى المال.

قال محمود النعال:

الفقر خير واقنعن واقتصد	إن من القصمة أن لا تجد
كم واحد أطلق وجدانه	عنانه في بعض ما لم يرد
ومدمن للخمر غاد على	سماع عود وغناء غرد
لو لم يجد خمراً ولا مسمعاً	برد بالماء غليل الكبد
كم من يد للفقر عند امرىء	طأطأ منه رأسه حتى اقتصد

وكان يقال: الفقر شعار الصالحين، والفقر لباس الأنبياء.

قال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة	وصبابة ليس البلاء بواحد

وكان يقال: الفقر مخف، والغنى مثقل، وفي الخبر نجا المخفون. وما أحسن

---

(١) سورة العلق، الآيتان ٦ ـ ٧.

قول أبي العتاهية:

ألـم تـر أن الفقـر يـرجى لـه الغنـى   وأن الغنـى يخشـى عليـه مـن الفقـر

وكان يقال: المال ملول، المال ميال، المال غاد ورائح، طبع المال كطبع الصبي لا يوقف على وقت رضاه ولا وقت سخطه، المال لا ينفعك حتى يفارقك. وإلى هذا المعنى نظر القائل:

وصـاحـب صـدق ليـس ينفـع قـربـه   ولا وده حتـــى تفـــارقـــه عمـــدا

يعني الدينار.

وما أحسن ما قيل:

وقـد يهلـك الإنسـان حسـن ريـاسـة   كمـا يـذبـح الطـاووس مـن أجـل ريشـه

وقال آخر:

رويـــدك إن المـــال يهلـــك ربـــه   إذا جـم واستعلـى وسـد طـريقـه

ومـــن جـــاوز المـــاء الغـزيـر بجمـه   وسـد طـريـق المـاء فهـو غـريقـه

الجمع بين المدح والذم:

وجه الجمع بين الظواهر المادحة والذامة: هو أن المال قد يكون وسيلة إلى مقصود صحيح هو السعادة الأُخروية، إذ الوسائل إليها في الدنيا ثلاث: وهي الفضائل النفسية، والفضائل البدنية، والفضائل الخارجية التي عمدتها المال. وقد يكون وسيلة إلى مقاصد فاسدة: وهي المقاصد الصادة عن السعادة الأُخروية والحياة الأبدية، والصادة عن سبيل العلم والعمل.

فهو إذن محمود ومذموم بالإضافة إلى المقصودين. فالظواهر الذامة محمولة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد فاسدة، والمادحة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد صحيحة. ولما كانت الطبائع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلاً لها وآلة إليها، عظيم الخطر في ما يزيد على قدر الكفاية استعاذ طوائف الأنبياء والأولياء من شره، حتى قال نبينا ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً» وقال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً».

علة هرب الأنبياء والأولياء من المال:

وهرب الأنبياء والأولياء من المال وفرارهم عنه، وترجيحهم فقده على وجوده كما تشير الأخبار والآثار، إما نزول منهم إلى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك، إذ الكمال في حقهم حب الترك وبغض الوجود، لأن مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده، وكونه عندهم كماء البحر، فلو لم يظهر الأنبياء والأولياء النفار والكراهية من المال، ويقتدي الضعفاء بهم في الأخذ لهلكوا، فمثل النبي كمثل المعزم الحاذق يفر بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها، بل لعلمه بأنه لو أخذها لأخذها أولاده أيضاً، إذا رأوها وهلكوا، فالسيرة بسيرة الضعفاء صفة الأنبياء والأوصياء. أو غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به، بل كان نفارهم منه، كنفارهم من الماء، على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم، وتركوا الباقي في الشطوط والأنهار للمحتاجين من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه، فقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وخلفائه المعصومين(سلام الله عليهم)، فأخذوها ووضعوها في مواضعها من غير هرب منه وبغض له، وذلك لاستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم.

وجهة أهل البيت عليهم السلام نحو المال:

«لو أراد أهل البيت الثروة لسعت إليهم دون أن يسعوا إليها، فقد كان شيعتهم منتشرين في عهد الأئمة عليهم السلام في بلاد العرب والعجم، وما من شيعي يملك كثيراً أو قليلاً من المال، إلا ويعتقد أن للإمام فيه الخمس حقاً مفروضاً في كتاب الله وسنة نبيه، هذا إلى أن ما من خليفة أو سلطان أو وزير أو أمير، إلا يود أن يشتري رضاهم وسكوتهم بكل ثمين، وقد استفاد كثيرون من الصحابة أموالاً طائلة لا لسبب سوى اسم الصحبة.

روى المؤرخون: أنه كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن من متروك الزبير خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك.

وكان على مربط عبد الرحمن ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس.

هذا في حين أن أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو من أخص الأصحاب بالرسول

وأفضلهم، قد باع سيفه، وقال: لو كان عندي عشاء ما بعته.

إن علياً عليه السلام لا يتنكر لمبدئه، ولا يناقض بنفسه، قاتل مع الرسول أهل الثراء على شركهم وثرائهم، فكيف يفعل اليوم ما أنكره بالأمس كما فعل بعض الأصحاب.

إن أهل البيت ينظرون إلى المال على أنه وسيلة لا غاية، وسبيل إلى سد حاجة لا تقضى بدونه، فما أدى إلى الواجب فهو خير وصلاح، وما زاد عنه فهو شر وفساد.

قال رجل للإمام الصادق عليه السلام: إنا لنحب الدنيا. قال: تصنع بها ماذا؟ قال: أتزوج منها، وأحج، وأنفق على عيالي، وأُنيل إخواني وأتصدق. قال: ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة.

إن طلب الدنيا سداً لحاجاتها المادية والروحية، طلب لحياة البقاء والنعيم وطلبها ابتغاء علوّ أو فساد في الأرض، طلب لحياة الفناء والجحيم.

فالمال، إذن، وسيلة لغيره لا غاية في نفسه، يكون طيباً، إذا حقق العدالة والمساواة، ورفع حياة المجتمع إلى مستوى أعلى، ويكون خبيثاً، إذا أدى إلى الظلم والطغيان، وعاق الحياة عن التقدم والتطور.

أما الفقر فهو كالظلم والإعانة على الإثم، خبيث بذاته لا يكون طيباً بحال من الأحوال، لأنه مصدر المرض والجهل. قال الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «الفقر هو الموت الأكبر» وقال: «الفقر سواد الوجه في الدارين». وقال الإمام علي عليه السلام لولده محمد ابن الحنفية: «يا بني، إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت». وقال: «الغنى فى الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة» كاد الفقر أن يكون كفراً، فكيف يرضى به العادل الحكيم لمخلوق! إن الله سبحانه يريد لعباده القوة والكرامة، ولا يريد لهم الضعف والهوان، وبإمكاننا أن نتصور التفاوت والتفاضل بين الناس في الرزق، وما يزيد عن قدر الحاجة لسبب معقول عند الله والعدالة، فيرزق هذا عشرة، وذاك ألفاً. أما التفاوت في أصل الرزق والعيش فيأخذ هذا بين مئات الملايين، ويحرم الألوف من قوت يومهم، فقضاء الله وعدله بريئان من هذا الظلم والإجحاف. وبعد هذا، نستمع إلى بعض الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الأعظم في فضل الفقر.

ففي كتاب (إحياء العلوم) للغزالي ـ باب الفقر ـ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال. «إذا أحب الله عبداً الحب البالغ لم يترك له أهلاً وولداً».

ولو صح هذا الحديث لكان علينا، إذا حرصنا على طاعة الله ومرضاته أن نبتهل إليه، ونسأله أن يهلك الحرث والنسل، ويسلط علينا الفقر والمرض، أبهذا الحديث وأمثاله دعا النبي إلى الإسلام! وأقنع الناس بصدقه ورسالته، ودخلوا في دين الله أفواجاً! لقد كان النبي والأنبياء من قبله، والأولياء من بعده يستعيذون بالله من الفقر. من بلاء الدنيا والآخرة، قال أحد الأصحاب المقربين إلى الرسول: اللهم إني أسألك الصبر. فقال له الرسول: «لقد سألت الله البلاء، فاسأله العافية».

أراد ولاة الحكم أن يدوم لهم النفوذ والسيطرة، والظلم والطغيان فأوعزوا إلى أذنابهم الخونة أن يضعوا أحاديث يصوغون للناس منها قيوداً وأغلالاً تساعدهم على استعباد الأحرار، واستغلال الجماهير، فلفقوا أحاديث على لسان الأنبياء مرغبين في الخنوع والخضوع، والخدمة والاستسلام.

وقد روى الرواة عن الرسول ﷺ أنه قال: خير الأمة فقراؤها. الفقراء أحباء الله، وجلساؤه يوم القيامة. اطلبوا الله عند الفقراء. إن الله يستحي من سؤال الفقير وحسابه. إن أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار الأغنياء. إلى ما هنالك من الأحاديث الدالة على أن الفقراء ـ وهم الأكثرية الغالبة ـ أطيب العناصر وأقربها إلى الحق، وأبعدها عن الباطل.

كان الفقراء، وما زالوا القوة والعدة في يد كل مصلح يريد الخير والنفع لأمته، فبهم انتصر محمد ﷺ على الظلم والشرك، ومنهم حواريو المسيح عليه السلام ولولاهم لما تحررت الشعوب من طغاة الاستعمار، ولما عمل بحق من حقوق الإنسان، أما المترفون الذين لا يتورعون عن الحرام فهم أعداء الأنبياء والإنسانية، وحجر عثرة في سبيل كل تقدم وإصلاح، قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1] كفروا بالعدالة والحرية. وآمنوا بالسلب والنهب، بكسب المال من غير حلّه وإنفاقه في غير حله، بكسبه من الغش والتدليس والاحتكار، وتبذيره على الفسق والفجور.

وإذا كان الغنى أو الإفراط فيه يبعث على الطغيان، فإن الفقر يضعف المرء عن القيام بالواجب. والخير كل الخير عند أهل البيت، أن يكون للإنسان رزق حلال يكفيه، لا غنى يطغيه، ولا فقر يشقى به، وكان الإمام يقول في دعائه: «أسألك اللهم

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤.

الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك، وأصير بها إلى دار الحيوان، وارزقني رزقاً حلالاً يكفيني ولا ترزقني رزقاً يطغيني، ولا تبتلني بفقر أشقى به».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى... اللهم ارزق محمداً ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاء».

وصل إلى أيدي أهل البيت أموال طائلة فوزعوها على المعوزين، وأبقوا منها لأنفسهم الكفاف، كانت غلة الإمام أربعين ألف دينار، جعلها كلها صدقة. مرّ ذات يوم على جماعة من قريش، وعليه قميص مخرق، فسمعهم يقولون: أصبح علي ولا مال له، فأرسل إلى وكيله على أملاكه أن لا يوزع من الناتج شيئاً، كما كان يفعل، وأن يبيعه بكامله ويرسل إليه الثمن، ولما اجتمعت عنده الأموال بعث إلى رجل منهم يدعوه، ولما حضروا ضرب المال برجله فانتثر هنا وهناك، فقالوا: ما هذا يا أبا الحسن؟ قال: هذا مال من لا مال له، ثم أمر وكيله أن يوصل المال إلى من كان يصلهم به.

وسمع الحسن عليه السلام رجلاً يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فذهب إلى منزله وبعث بها إليه.

وكان معاوية يرسل إلى الحسين عليه السلام مليون درهم في كل سنة فيأخذها، ويوزعها على الأرامل والأيتام الذين قتل معاوية آباءهم في صفين، ويعيش هو عيش الكفاف.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يعول مائة بيت، ولما مات قال أهل المدينة: ما فقدنا صدقة السر حتى مات زين العابدين.

وكان الإمام الباقر عليه السلام يطعم الناس ويكسوهم ويوزع الأموال من خمسمائة إلى ألف لكل إنسان.

وكان الإمام الصادق عليه السلام يطعم الناس ولا يبقي لعياله شيئاً.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام يعول أكثر من خمسمائة نفس.

وبالتالي، فإن طلب المال في نظر أهل البيت يكون حسناً، ويكون قبيحاً لأنه مقدمة لغيره، وليس بغاية في نفسه، فإن أدى حتماً إلى الحرام فهو قبيح مذموم، وإن كان مقدمة لواجب فحسن مشكور[١].

---

(١) أهل البيت. تأليف محمد جواد مغنية.






حَقُّ الغَرِيمِ

قَـولُـهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ غَرِيمِكَ الَّذِي يُطَالِبُكَ، فَإِنْ كُنْتَ مُوسِراً أَعْطَيْتَهُ، وَلَمْ تَرْدُدْهُ وَتَمْطُلْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَـالَ: «مَطَـلُ الغَنِـيِّ ظُلْـمٌ». وَإِنْ كُنْـتَ مُعْسِراً أَرْضَيْتَهُ بِحُسْنِ القَوْلِ، وَطَلَبْتَ إِلَيْهِ طَلَباً جَمِيلاً، وَرَدَدْتَهُ عَنْ نَفْسِكَ رَدّاً لَطِيفاً، وَلَمْ تَجْمَعْ عَلَيْهِ ذَهَابَ مَالِهِ وَسوءَ مُعَامَلَتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لؤمٌ، وَلاَ قُوّةَ إِلاَّ بِاللهِ».






من الصعب جداً على معظم الناس أن تكلفهم مزاولة الفضائل، والتحلي بها، والسير في حياتنا وعلاقتنا تحت إشرافها ورعايتها.

إن فهم الفضيلة حق الفهم، ومعرفة حدودها حق المعرفة، والانقياد لها في المواقف الزلقة، حيث تتوفر المغريات، وتتعارض المنافع، وتنشط دواعي الجريمة والسوء، شيء صعب وتكليف الناس بما لا يطيقون، وإنما غاية ما تؤثر الفضيلة في فئة قليلة من الناس، تمارس الفضائل وتتلقن المبادىء وتأخذ أنفسها برياضة شاقة حقبة من الزمن، لتكون لها ممارسة الفضيلة عادة مألوفة، وعملاً بينها وبينه نسب وصلة من الممارسة والتمرين، ولا بد أن تكون تلك النفوس كما قال أرسطو: «قلوبها شريفة بالفطرة، أصدقاء للفضيلة، أوفياء بعهدها». هؤلاء الناس قليلون جداً في خضم الحياة الزاخر بالشهوات والاندفاعات والمنافع والأغراض.

إذن، نستطيع أن نوفر على الناس الجهود، ونقدم لهم من كتاب الله وسنة رسوله، وحديث أهل البيت، ما يكون زاداً لكل راغب، وعدة لكل خائض معترك الحياة، عدة وافية تقيه الغرق في تياراتها العنيفة، وتقيه الزلق إذا مشى على مزالقها التي تزل فيها الأقدام، وتتهاوى الرجال صرعى، أو غرقى أو ملوثة.

الإنسان بما أنه اجتماعي لا بد له من تعاون قهري ليس له فيه اختيار، بل هو ملزم أن يبادل المنافع ليستطيع أن يحيا بين الناس، وهناك التعاون الاختياري، وهذا هو فضيلة لها أثرها الحميد وعطرها الذائع وشرفها المرموق بين الناس.

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على بيت أهل الله سروراً».

وقال ﷺ: «خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله» وسئل: من أحب الناس لله؟ قال: «أنفع الناس للناس».

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[١]: جعلني نفاعاً.

وقال: «من كان وصولاً لإخوانه بشفاعة في دفع مغرم أو جر مغنم، ثبت الله قدميه يوم تزل فيه الأقدام».

وقال: تنافسوا في المعروف لإخوانكم، وكونوا من أهله، فإن للجنة باباً يقال له المعروف، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله به ملكين: واحد عن يمينه، وآخر عن شماله، يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجته، ثم قال: «والله، لرسول الله أسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة».

وقال: «من مشى في حاجة أخيه المؤمن يطلب بذلك ما عند الله حتى يقضي له، كتب الله له بذلك مثل أجر حجة وعمرة مبرورتين، وصوم شهرين من الأشهر الحرم، واعتكافها في المسجد الحرام، ومن مشى فيها بنية ولم يقض كتب الله له بذلك حجة مبرورة فارغبوا في الخير».

وقال: «أيما مؤمن نفس عن مؤمن كربة، وهو معسر يسر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مؤمن عورة يخافها، ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة، والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه، فانتفعوا بالعظة، وارغبوا في الخير».

وقال: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله له بذلك اثنتين وسبعين رحمة، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لأفزاع يوم القيامة وأهواله».

هذه الأحاديث تعطينا درساً على أن الدين الإسلامي غرضه سعادة المجتمع، والتعاون على متاعب الحياة، وهي أرفع قدراً من الأمور العبادية، حيث إن العبادة نفعها شخصي وهذه الأعمال تعم المجتمع.

وتدلنا هذه الأحاديث أيضاً على التعاون الاختياري، سواء كان الباعث قوياً على التعاون أم كان ضعيفاً؟ فالمعين على قضاء حوائج الناس له عند الله منزلة رفيعة، وإن لم تكن الحاجة شديدة إلى المعاونة، فإذا كان الإنسان في ضيق من الأمر، قد أحاطت به مفاجأة الحوادث بما يضيق الخناق عليه، عند ذاك تكون المعاونة ألزم. ولو فرضنا

---

(١) سورة مريم، الآية ٣١.

أن رجلاً استعان بآخر على دفع مظلمة، أو قضاء حاجة، أو كشف غمة أو إزاحة مصيبة، وهو قادر على أن يقوم بحقه ولم ينقذه مما هو فيه، فقد تعرض لمقت الله.

روى علي بن جعفر عن أبي الحسن قال: سمعته يقول: «من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله».

معنى قطع ولاية الله: أن المسلم بمقتضى إسلامه، قد التزم أن كل مسلم هو أخ له، يشاركه شعوره ويشاطره همومه، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه، فإذا لم يقم بالواجب الذي يدعو إليه الإسلام، فقد قطع ولاية الله، ولم يكن متحلياً بالصفات الإسلامية التي ينبغي أن يكون عليها، وهذا هو بلاؤنا الذي نكابده ونعانيه، فلو أن المسلمين يحملون هذه المزايا، لم نبلغ هذا الوهن، وهذا التفكك ولم تصبح أوطاننا مسرحاً ومرتعاً لقوم آخرين، وسياستنا وإدارتنا بتوجيهات أعدائنا، وصح قول القائل:

ولنحن أعلم من هم ولمن هم ولمن تمثل هذه الأدوار
ومن المصرف من فضول عنانهم ولمن يعود الورد والاصدار

قال رسول الله ﷺ: «من احتاج إليه أخوه المسلم في قرض وهو يقدر عليه فلم يفعل، حرّم الله عليه ريح الجنة».

وقال: «من أقرض مؤمناً قرضاً ينتظر به ميسوره، كان ماله في زكاة، وكان هو في صلاة من الملائكة حتى يؤديه إليه».

وقال علي زين العابدين عليه السلام: «إني لأستحي من ربي أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله الجنة، وأبخل عليه بالدينار والدرهم، فإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة لك لكنت بها أبخل».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «على باب الجنة مكتوب: القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشرة، وذلك أن القرض لا يكون إلا في يد المحتاج، والصدقة ربما وقعت في يد غير محتاج».

وقال: «من أقرض قرضاً فضرب له أجلاً، فلم يؤت به عند ذلك الأجل، فإن له من الثواب في كل يوم يتأخر عن ذلك الأجل بمثل صدقة دينار واحد في كل يوم».

هذه الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة من أئمة الهدى ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ تستفز النفوس وتحفز الهمم بالدعوة إلى القرض، الذي هو عبارة عن إعطاء الإنسان شيئاً من المال، على أن يرد إليه مثله، وأن هذا المال لا يذهب بالقرض، إنما

هو قرض حسن لله، مضمون عنده يضاعفه أضعافاً كثيرة. يضاعفه في الدنيا مالاً وسعادة وراحة، ويضاعفه في الآخرة نعيماً ومتاعاً ورضى.

ولا شك أن القرض لون من ألوان التعاون والبر بين الناس: كالهبة والوصية، حيث يضع صاحب المال ماله في حاجة المحتاج، يمده به، ويصر على عدم الأداء إلى أن يوسر المدين، وليس كهذا العمل عمل يؤلف بين الناس، ويوثق روابط المودة والرحمة بينهم.

هذا اللون من التعاون هو الذي ينمي المودة، ويليق بالمروءة، ويكفل التضامن بين الجماعة: غنيها وفقيرها، قادرها وعاجزها، فلا فضل للمال في ذاته، إنما هو الانتفاع به والجهد فيه، فوجوده في يد لا يبرر أن تحصل به لذاته على فائدة، والذي يقترضه هو الذي يجهد فيه، فيجب أن تعود غلة الجهد، وأن يعود المال مفرداً ـ بلا زيادة ـ لصاحب المال.

وإنه ليستوي أن يكون القرض للاستهلاك أو الإنتاج في عرف الإسلام، فإنه إن كان للاستهلاك ـ أي لينفقه المستقرض على حاجاته الضرورية ـ فإنه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن قرضه، فحبسه أن يرد أصل القرض عند الميسرة، وإن كان للإنتاج فالأصل أن الجهد الذي يبذله هو الذي ينال عليه الربح، لا المال الذي يستقرضه فالمال لا يربح إلا بالجهد، والجهد هو المعول عليه في الإسلام. لذلك يحرم الربا في جميع الأحوال، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته في جميع الأحوال.

ولست الآن في صدد التكلم حول هاتين المسألتين ـ القرض والربا ـ من جهة الحكم فيهما. فإن استحباب الأول وحرمة الثاني معلوم بالضرورة من الشرع الإسلامي والنص فيهما من الكتاب والسنة مستفيض صريح. وإليكم البعض مما جاء في ذلك.

فمما جاء في استحباب القرض من الكتاب قوله تعالى في آية ٢٤٥ من سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وفي آية ١٨ من سورة الحديد: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

وفي الآية ١٢ من سورة المائدة في حكاية خطابه لبني إسرائيل: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وفي الآية ١٧ من سورة التغابن: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ومما جاء في الحث على القرض من السنة ما روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما من مسلم أقرض مسلماً قرضاً حسناً يريد به وجه الله إلا حسب له أجرها ـ أي تلك الدراهم التي أقرضها، كحساب الصدقة حتى يرجع إليه». يعني ذلك القرض.

هذه جملة وجيزة مما جاء في الكتاب والسنة في الحث والترغيب على القرض.

ومما جاء في تحريم الربا من الكتاب قوله تعالى في الآيتين ٢٧٥ ـ ٢٧٦ من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾.

وفي الآيتين ٢٧٨ ـ ٢٧٩ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي آية ١٣٠ من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفي الآيتين ١٦٠ ـ ١٦١من سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾.

ومما جاء في تحريم الربا من السنة ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «يا علي درهم رِبا، أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام».

وجاء عنه عليه السلام: «شر المكاسب كسب الربا».

وعنه عليه السلام: «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الربا وآكله وبائعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه»، والأخبار في ذلك كثيرة والاستقصاء خروج عن الموضوع.

والجهة التي نحن بصددها الآن هي التنبيه على الحكمة في استحباب القرض وحرمة الربا:

فإن كثيراً من الناس في هذا العصر لا يكادون يؤمنون بالشيء حتى يقفوا على حكمته، والسر الداعي إلى تشريعه، وهذا وإن كان منهم خروجاً عن الأدب مع الله ورسوله، بل خروجاً عن الإيمان والاستسلام لأوامر الله ونواهيه، وذلك أنه ليس على الله إلا بيان أمره ونهيه، وعلى العباد امتثال ذلك، سواء علموا المصلحة والحكمة أو لم يعلموا، ولو فرضنا محالاً أنه يجوز على الله المالك أن يأمر بشيء لا مصلحة فيه، أو ينهى عن شيء لا مفسدة له، فهل يجوز للعبد المملوك أن يعارض مالكه فيما أمره ونهاه، وهل يصح له الامتناع عن طاعته معتذراً عن ذلك بعدم المصلحة فيما أمر، وعدم المفسدة فيما نهى، وهل يجتمع هذا مع الإيمان، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. فهذا وإن كان خروجاً منهم، والله سبحانه يريد الإيمان به والتصديق برسله والاستسلام لأمره على كل حال، إلا أنه لطفاً منه لم يبخل على العباد في بيان الحكم والمصالح الملحوظة في تشريع ما أوجب وحرم.

والذي نفهمه في تشريع استحباب القرض مضافاً إلى أنه إفضال وإحسان والإحسان حسن على كل حال، أن الله أراد أن يقوي المسلمين ويزيد في عددهم ومددهم، وذلك أمر لا يحصل إلا بالاجتماع والتعاون، والاجتماع والتعاون وليد الحب، والحب وليد الإفضال والإحسان.

ذكر ابن خلكان في ترجمة الربيع بن يونس: أن المنصور العباسي قال له يوماً: يا ربيع سل حاجتك. قال: حاجتي أن تحب الفضل ابني. فقال له: ويحك إن المحبة تقع بأسباب. فقال له: قد أمكنك الله من إيقاع سببها. قال: وما ذاك؟ قال: تفضل عليه، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك، وإذا أحبك أحببته والله تعالى أراد أن يجري الأمور بأسبابها، ولما بالقرض من التسبيب للمحبة أمر به.

فإذن هو يوجب القوة في المسلمين من جهتين: تارة من جهة أنه إفضال يولد المحبة، والمحبة تستدعي الاجتماع والتعاون، وهما يقتضيان القوة. وتارة من جهة أنه تعاون بالفعل وقوة بالبداهة، فإن الغني إذا أمد الفقير بما هو زائد عنده من المال كان ذلك قوة للغني بالرجال وللفقير بالمال، ومن هنا ترى الله تعالى حيث أراد تقوية المسلمين حثهم على الأسباب التي تقتضي ذلك، وما المؤاخاة التي دعاهم إليها،

(١) سورة النساء، الآية ٦٥.

والمواساة التي حثهم عليها وغير ذلك من كثير مما أمر، إلا أمور تأخذ بأيدي المسلمين إلى هذا الغرض، وترفعهم على ذلك العرش، ألا تنظرون إلى قول رسول الله ﷺ: «لن تدخلوا الجنة حتى تسلموا ولن تسلموا حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا». كيف يبين لكم أن التحابب أصل يتفرع عليه الإيمان وأساس تبتنى عليه حقائق الإسلام. وهل استطاع ﷺ أن يصنع ما صنع، وأن يفتح بتلك المدة اليسيرة ما فتح، إلا بما عقد في قلوب المسلمين من عقد الإخاء، وأحكم فيما بينهم من محكمات المودة، التي جعلتهم على اختلاف نزعاتهم وتباعد بيئاتهم وتباين قومياتهم، كتلة واحدة ومجتمعاً واحداً.

ثم نعود إلى بيان الحكمة في تشريع تحريم الربا مجملاً، حيث استوفينا موضوعه في المجلد الثاني من كتابنا (الجواهر الروحية) فنقول: الربا لما كان يضاد ذلك ويعارضه، ويغرس في نفوس المسلمين من العداوة والبغضاء، عكس ما يغرسه القرض من المودة والإخاء، نهى الله تعالى عنه وشدد النكبة على أهله بما سمعتم من البيان، حتى جاء في الحديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا أراد الله بقوم هلاكاً ظهر فيهم الربا». ومما يوضح ما قررنا من الحكمة في تشريع تحريم الربا ما جاء في الخبر عن سماعة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني قد رأيت الله تعالى قد ذكر الربا في غير آية وكرره، قال: أو تدري لم ذلك؟ قلت: لا: قال: لئلا يمتنع الناس من صنائع المعروف».

وأوضح من ذلك ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام حيث يقول: فيما روي عن محمد بن سنان «وعلة تحريم الربا بالنسيئة لعلة ذهاب المعروف وتلف الأموال ـ يعني بترك التجارة ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض، والقرض صنائع المعروف».

ويشير إلى ذلك أيضاً ما نراه في سياق الآيات المترادفة في تحريم الربا بعد الآيات المتتالية في الحمل على الصدقات فقال في آخر آيات الإنفاق: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾[1]. ثم أتبعها بلا فصل بقوله تعالى شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[2] الآية.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

من هذا البيان يفهم أن ما يحاوله المسلمون اليوم من التقدم إلى ما بلغه المسلمون بالأمس لا يكون إلا بالسير على الطريقة التي دلهم الله عليها، والقيام بالأعمال التي ندبهم إليها، وأنهم لم يتأخروا إلا بتضييعها والتنكب عنها. وما ربك بظلام للعبيد.

ولنعد إلى أصل الموضوع (القرض): وإذا اقترض وأعسر ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[1] وهذه الصيغة تفيد الأمر لا الندب، وبجوارها التحبيب في التيسير والسماحة، كقول الرسول ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى» فالسماحة في الاقتضاء تحفظ للمقرض كرامته، وتغرس المودة في نفسه لمستقرضه، وتحثه على الجهد في الأداء قدر طاقته. قال ﷺ: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر، أو يضع عنه».

وقال: «من أنظر معسراً أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله».

ويفرض الإسلام في مقابل هذا على المستقرض أن يجتهد في رد القرض إبراء لذمته، ورداً لفضل الاقراض بفضل الوفاء، وتمكيناً للثقة في المعاملات بين الأفراد.

قال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

فمن أخذها يريد أداءها جد وكد ليكتسب ويسترزق، وغالباً ما يكسب المجد الصادق العزيمة. ومن أخذها يريد إتلافها استمرأ أن يعيش بأموال الناس وقعد عن العمل والجهد، فاسترخى وسقطت همته وآض إلى تلف وبوار.

قال ﷺ: «مطل الغني ظلم».

إن من يقترض أموال الناس لحاجة من حاجه، عازماً على أدائها في الموعد المضروب، أو حين يقع في يده مال، فهذا يؤدي الله عنه ديونه، فيفتح له من أبواب الرزق ما لم يكن يحتسبه، مكافأة على نيته الصالحة وعزمه المحمود.

على أن لتلك الإرادة أثراً في اكتساب الرزق، فإنها لا تزال بصاحبها تدفعه إلى تلمس أبواب المكاسب، والبحث عن طرق المال، حتى يهتدي إليها ويؤدي ديونه.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

ومثل هذا من يشتري من التجار طعامه وشرابه وحاجياته الأُخرى، أو بضاعة يتجر فيها إلى أجل، وليس بيده ما يدفعه نقداً، فإن عزم على الأداء والوفاء يسر الله له المال حتى يوفي بما عاهد. أما من استقرض أو اشترى شيئاً قرضاً، أو طلب إلى الناس أن يودعوه أموالهم أو استعار أو استأجر عازماً على الجحود والإنكار، أو الإتلاف والإهلاك، فإن الله تعالى يتلفه فيوقعه في خبث نيته وسوء ظنه. ويفتح له من أبواب النفقات ما يذهب بماله، طارفه وتليده، أو يسلط عليه من البلايا والمصائب ما يستأصل ملكه، أو يرسل إليه جيشاً من الأمراض الفتاكة يعمل في نفسه وأهله وولده ما يحرمهم لذة الحياة ونعيمها، إلى عذاب في الآخرة شديد.

وهل رأيت غنياً في مال غيره المغصوب متنعماً؟ ولئن ضحكت له الدنيا أياماً أو سنين استهزاء به واستدراجاً، لهي كاشرة له عن أنيابها، ثم تلتهمه التهاماً، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾[2] فالنية الصالحة والإرادة الصادقة لها أثرها في كسب المال والهداية لسبله. والنية الخبيثة جائحة المال ومبددة الثروة، والقاضية على صاحبها بالفقر والمتربة.

فلا تستقرض إلا عند الحاجة، وإن استقرضت فاعزم على الوفاء، ومهد لتنفيذ العزم بتذليل الأسباب، والبحث عن مسالك المال، وحذار أن تأخذ أموال الناس في صورة قرض، وطوية نفسك غصب وسرقة وانتهاب وخيانة، فتكون غشاشاً لمن أعانك، بل تكون منافقاً تبدي للناس غير ما تضمر، ولا تنس قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[3].

فالحديث يحض على الإخلاص في النية، وعلى أداء الحقوق، ويتوعد من يضمر الشر أو يستلب أموال الناس بالطرق الخفية.

ولحرص الإسلام على هذا اللون من المعاملات بين الناس، ورغبته في إبقائها سليمة تؤدي وظيفتها الإنسانية في الحياة، أخذ كلاً من المقرض والمقترض بأدب سمح كريم، به تتم هذه النعمة ـ نعمة التعاون ـ وتدوم.

---

(١) سورة النمل، الآية ٥٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٢.
(٣) سورة النساء، الآية ٥٨.

فأولاً: حث الموسرين على إمهال المعسرين من المقترضين، ومطالبتهم بالحسنى، لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾[1]. ولقول الرسول الكريم محمد ﷺ: «رحم الله رجلاً، سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى» ـ. أي طلب قضاء قرضه في سماحة ويسر ـ.

ثانياً: وصى المقترض بحسن أداء ما اقترض في أول فرصة تسنح له، وذلك أقل ما يجب عليه تلقاء من مد إليه العون في ساعة العسرة، يقول الرسول الأكرم محمد ﷺ: «مطل الغني ظلم» وكيف لا يعتبر ظلماً؟ إنه إزراء بالمروءة والفضل، واعتداء على شريعة الوفاء والإنصاف، وإذا مطل الإنسان والتوى في أداء القرض كان سبباً في حرمانه من الاستدانة مرة أُخرى، لأن المقرض سوف لا يطمئن ولا يثق بمثل هذا الشخص الملتوي.

هذا إذا كان المستقرض موسراً، أما إذا كان معسراً، فلا أقل من أن يرضي صاحبه بلين القول ولطف الكلام على وجه يشعره بالحمد لصنيعه والشكر لمعروفه، على ما أوضح الإمام عليه السلام بقول: «أرضه بحسن القول، واردده رداً لطيفاً، ولا تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته». فإن لم يكن كذلك، فإنه يترك أثراً بعيداً في نفس المقرض، بأن تأخذ ماله، ثم لا تعيده إليه بل تقابله حين المطالبة بالقول الغليظ والكلام الخشن، فليس شيء أدل على اللؤم وخسة النفس، من أن تجمع على غريمك ذهاب ماله وسوء المعاملة.

وجماع القول: مما يحقق الثقة بالمرء أداؤه لحقوق الناس، ولو لم يكن من كبار المثرين. ومما يزلزل الثقة أو يزيلها تلكؤه في أداء الحقوق، ولو كان في مقدمة الأغنياء الموسرين. والثقة رأس مال كبير، تسهل للمرء طرق أبواب التجارة وإن كان ماله قلاً، وتقرب إليه جيوب الناس وخزائنهم، وإن لم يكن مليئاً، فلا جرم حذر الرسول ﷺ، مما ينزع الثقة بالمرء من نفوس الناس، وهو المماطلة.

ولقد عرّف علماء الأخلاق العدل بأنه إعطاء كل ذي حق حقه.

ولما كانت مماطلة الغني القادر على الدفع، وتأخره في أداء الحقوق منعاً للحق عن صاحبه، عدها الرسول ﷺ ظلماً بقوله: «مطل الغني ظلم».

وقال ابن الفضل:

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

أثـروا ولـم يقضـوا ديـون غـريمهـم والـلـؤم كـل اللـؤم مطـل المـوسـر

وقال آخر:

إذا أتـــت العطيــــة بعــــد مطـــل فـــلا كـــانـــت وإن كـــانـــت سنيَّــه

ومن كلام الحسن بن سهل: المطل يذهب رونق البر، ويكدر صفو المعروف، ويحبط أجر الصدقة، ويعقل اللسان عن الشكر، وللتعجيل حلاوة وإن قلت العارفة، ولذة وإن صغرت الصنيعة، وربما عرض ما يمنع الإنجاز من تعذر الإمكان وتغير الزمان، فبادر المكنة وعاجل القدرة، وانتهز الفرصة.

قال الشاعر:

لـــو علـــم المـــاطـــل أن المطـــال فقـــد بـــه يـــذهـــب طعـــم النـــوال
وأن أعلــــى البـــــر مـــــا نـــــالـــــه طـــــالبــــه نقـــداً عقيـــب الســـؤال

فالمماطل ظلم غيره بتأخير حقه بدون عذر، بل ظلم نفسه إذ حرمها الثقة، وعرضها للطعن والثلب في الحياة، ولعقوبة الله في الآخرة.

فمن كان مديناً في تجارة أو متاع اشتراه، أو كان قبله حقوق لرعيته أو لمن تحت يده، إن كان ملكاً أو أميراً أو رئيساً أو وزيراً، أو كان عليه نفقة لزوجه، أو والده أو ولده أو قريبه أو عبده، أو كان عليه زكاة وغيرها من الحقوق الشرعية، وحل موعد الدفع وتلكأ والمال في جيبه أو تحت يده كان ظالماً، ولو أمكنه الاكتساب لسداد قرضه فتركه، كان ظالماً فاسقاً. فالواجب على المستطيع بأي طريق كان أداء الحق متى حل أجله، ولو لم يطالبه به أهله، بل لو أمكنه الدفع قبل الموعد بادر إليه تبرئة لذمته، ورحمة لنفسه من ذل الدين وهمه، وربما تعسر عليه غداً ما تيسر له الساعة، والمال غادٍ ورائح. أما إذا كان عاجزاً عن الأداء فليس بظالم، بل لا يعد مماطلاً.

والإسلام لا يعترف بالقرض كمعاملة تجارية رابحة، وإنما هو يعرفه معونة ومساعدة وإيثاراً لا غير. فما على المستقرض إلا أن يقابل ذلك بالحمد وعرفان الجميل، يقابل ذلك الإيثار بإيثار مثله، يقابل المعونة والمساعدة بمعونة ومساعدة مثلها، حين يكون غريمه بحاجة إلى شيء، وأن يكون لغريمه كما كان غريمه له، وليس بين الغريم وغريمه منافع متبادلة من حيث المال المستقرض، إنما الربح والزيادة تكون في الأجر الآجل في الآخرة.

وبالتالي يجب أن يعلم صاحب المال، أنه حين يقرض أخاه المحتاج، فإنما

يجعل له يداً عند الله، وأنه يقصد أن تزيد تجارته، وتنمو أرباحه مع الله وينتظر من الله الثواب الجزيل والمغفرة والرحمة.

ذلك أدب الإسلام، الذي يربط بين المسلمين بروابط المحبة والتعاون والمودة.

ثم إن الإسلام ـ الذي هو دين واقعي ـ يعلم أن بعض النفوس قد تضعف فتتنكر للمعروف، وتلقى الخير بالشر، ويقع الجحود والإنكار، وتقع الفتنة والشحناء، وتشوه معالم هذه المعاملة الإنسانية، وينكمش ظلها بين الناس فيرتفع بارتفاعها من بينهم خير كبير. أمر أن تكتب هذه المعاملة وتدون.

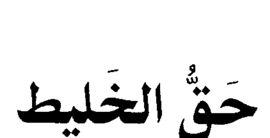
يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.





حَقُّ الخَلِيطِ

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ الخَلِيطِ أَنْ لاَ تَغُرَّهُ وَلاَ تَغُشَّهُ وَلاَ تَخْدَعَهُ، وَتَتَّقِي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَمْرِهِ. وَلاَ تُكَذِّبَهُ وَلاَ تُغْفِلَهُ، وَلاَ تَعْمَلَ فِي انْتِقاصِهِ عَمَلَ العَدُوِّ الَّذِي لاَ يُبْقِي عَلَى صَاحِبِهِ، وَإِنِ اطْمَأَنَّ إِلَيْكَ اسْتَقْصَيْتَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَعَلِمْتَ أَنَّ غُبْنَ المُسْتَرسِلِ رِبَا».

* * *





ليس من أخلاق الإنسان وعاداته ومعتقداته، إلا وهو قابل للتغيير والتبديل، كما هو مشاهد معلوم.

أما الأخلاق فيقع التغيير في بعضها ببطء، وفي بعضها بسرعة، تبعاً لقوة المؤثر وضعفه. وأما العادات وكثير من المعتقدات، فصائرة إلى الإنسان من مزاولة العمل أو القول مرة بعد أُخرى، وبقاء أثر له في النفس يزداد ثباتاً فيها بازدياد تكرره، ثم يستقر ويصبح عادة لازمة واعتقاداً راسخاً.

وسبب هذا أن الأعصاب في الإنسان تأثرت بذلك العمل وتلك الفكرة، حتى أخذت شكلاً خاصاً، وكلما تكرر ذلك ازداد تأثر الأعصاب حتى يكون لتلك الأعمال فيها مجرى تجري فيه وتتجه إليه.

وينشأ من هذا أن يألف الإنسان الأعمال، ويجد مباشرتها أمراً سهلاً عليه، حتى لقد يفعلها بدون تفكير ولا معاناة مشقة، ولا نظر إلى ما تفعله يداه أو رجلاه، وتوافق أوضاعها أو اختلافها، إذ كان الشأن في هذا كالماء الذي يجري إلى المنحدرات فيشق لنفسه فيه وادياً ينحدر إليه بسهولة، ويجري فيه كلما تدفق من نحو سيل أو مطر.

ومما يوضح هذا أن القول يمر بسمعك، والأمر تشهده وهو يخالف منك دينك أو عاداتك أو اعتقادك، فترى من نفسك إنكاراً له وثورة عليه، فإذا تكرر ذلك فقد تألفه وتنجذب إليه، وربما تفعله راضياً له، مسروراً به، إذ كثيراً ما نرى إنساناً يحاكي آخر في قول أو فعل، ازدراء به ومقتاً له، ثم لا يلبث أن يدرج على ما حاكاه ويصبح من عاداته، لا سيما إذا وجد ممن يحيطون به من يستحسنون ذلك منه أو يطلبونه إليه للتسلية واللهو.

وإذا وجدت العادة أو الاعتقاد ما يعارض الميل الذي من أجله نشأ، فإنهما يضعفان في الإنسان وقد يزولان تبعاً لقوة المعارضة وضعفها.

ومن أهم ما يعارض ذلك الميل المخالطة: إذ هي التي تغير في الإنسان كثيراً من

أخلاقه وعاداته من حيث يدري ولا يدري، ومن حيث يريد ولا يريد. وأثرها فينا لا يستطيع إنكاره منكر، بل إنك لتجد أثرها في الجماد والحيوان وهما دون الإنسان قبولاً للتأثر، فالماء، يطيب ريحه، ويعذب في الفم مذاقه، إذا جاور الأزهار، ويخبث ريحه ويشتد عصفه إذا جاور الجيف، والحصان الشرود إذا قرن بآخر ذلول صار ذلولاً سهل القياد.

وقديماً قيل:

والريح آخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

وإن العوامل التي تتخذ في التربية لتجعل الشرير خيراً، والفاسد صالحاً: من وعد ووعيد، وتحذير وترغيب، وثواب وعقاب، قد لا تأتي في الغالب على ما في نفس الإنسان ولا تنتقل به من حال إلى حال. أما المخالطة فإنها لا تحصل بدون أن يكون لها أثر ظاهر في حال الإنسان الخلقية والاعتقادية والفكرية؛ وكل أنواع التربية تعرض وتزول: كالمدرسة والبيت إلا المخالطة فإنها تربية لا تنقضي إلا بالموت، فإن حسنت أثمرت طيباً، وإن ساءت كانت شراً وبلاء.

اختيار الخلطاء:

عني الباحثون وعلماء الأخلاق والدين والمثقفون في كل أمة وعصر، بوصف الخلطاء، وأرسلوا القول في ذلك شعراً ونثراً، ما شاءت لهم البلاغة ووحي البيان ولم تفرط الشريعة الإسلامية في شيء من ذلك، والأحاديث الواردة فيها أكثر من أن تعيها أذن واعية، أو يلمّ بها قلب حافظ أو راوية.

من ذلك قول الرسول ﷺ: «مثل الجليس الصالح كمثل الداري، إن لم يجدك من عطره يعلقك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل القير، إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه».

وقوله ﷺ: «من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه».

من أجل ذلك أفرد الإمام السجاد (سلام الله عليه) فصلاً خاصاً للخليط، مستعرضاً حاله من إعطاء حقه من العناية والاهتمام والقيام بالواجب. فتراه قائلاً: «أن لا تغره ولا تخدعه، وتتقي الله في أمره، ولا تكذبه ولا تعمل في انتقاصه، وإن اطمأن

إليك استقصيت له على نفسك».

ومفهوم هذه الظاهرة: أن الخليط معناه، الذي يخلص لخليطه وينصح له ويرشده ويهديه، ويدعوه إلى صالحه الإنساني. وأن يترك فيما بينه وبينه الغدر والغش والكذب والخداع وكل ما يدعو إلى التعادي أو يخلقه ويجعله متحققاً.

ويبين عليه السلام أنه ليس للخليط أن ينتقص من قدر خليطه أمام أحد، لأن هذا لا يمكن أن يجري بين الخلطاء، وإنما يكون بين العدو وعدوه، ونحن نعرف أن صفة الغدر والغش وأمثالهما كلها تؤدي إلى إفناء الطرف المقابل، أو إنزال الضرر به على الأقل، وذلك مما يقصده العدو بعدوه، لا ما يتطلبه الخليط بخليطه.

يريد عليه السلام، أن يسود الخير بين الخليطين، ويعم المعروف، وتكون القلوب منطوية على الصفاء، منزوعاً عنها كل غل ودغل.

لهذا، ينبغي للإنسان أن يعرف ـ فيمن يختارهم لمخالطته ـ أموراً لا بد منها لتستقيم المخالطة وتدوم الألفة.

خلال الخليط:

فمن ذلك، أن يكون موفور العقل، كامل التجربة، لأن الأحمق لا تدوم مودته، ولا تطول مخالطته، وقد يصيب الإنسان بضرره أكثر مما يصيبه بخيره، وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البذاء لؤم، وصحبة الأحمق شؤم».

وقال بعض الحكماء: «عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق».

ومنها:

أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر، لأن تارك الدين عدو نفسه، فكيف يكون صديق غيره؟ ولهذا قال بعض الحكماء: «اصطفِ من الإخوان ذا الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه ردء لك عند حاجتك، ويد لك عند نائبتك، وأنس

---

(١) سورة الفرقان، الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

عند وحشتك، وزين عند عافيتك».

ومنها:

أن يكون رضيَّ الأخلاق حميد الفعال، يؤثر الخير على الشر، ويفعله ويأمر به، فإن مخالطة سيّيء الخلق تكسب العداوة وتفسد الأخلاق، ولا خير في مودة تجلب عداوة، وتورث صاحبها مذمة وملامة.

قال بعض العقلاء: «مخالطة الأشرار على خطر، والصبر على صحبتهم كركوب البحر، من سلم منه ببدنه من التلف، لم يسلم بقلبه من الحذر منه».

ومنها:

أن يكون ذا ميل إلى المخالطة، ورغبة في المعاشرة، فإن ذلك أوكد لها، وأمدُّ لأسباب المصافاة، وأدعى إلى الاستفادة.

هل يكثر الإنسان من الخلطاء؟

سؤال يتردد في جوانب نفس كل إنسان، فإذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق: فرقة ترى الإكثار وفرقة ترى الإقلال، وفرقة ترى ألا يكون واحد منهما. ولا بد لمن يريد علم هذا أن يقف على رأي المتقدمين من علماء الأخلاق والدين، ممن بلوا الأيام، وعركوا الحوادث، فعرفوا خيرها وشرها، فإن ذلك أدعى إلى اطمئنان النفس، وأهدى إلى سبيل الخير.

يرى بعض هؤلاء أن الاستكثار من الخلطاء ضرورة تدعو إليها حاجة الإنسان إلى المعاضدة والمعاونة، وفي هذا قيل: «حلية المرء كثرة إخوانه» وقيل: «المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه» وفي الأمثال: (يد واحدة لا تصفق).

ويرى فريق آخر أن الإقلال منهم خير من الإكثار، لأنه أخف مؤنة وأيسر كلفة، وأذهب للبغضة والتنازع الذي يحدث من الكثرة، ولهذا قال الإسكندر: «المستكثر من الإخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة، والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر». وقيل: (من كثر إخوانه كثر غرماؤه). وقال إبراهيم بن العباس: (مثل الإخوان كالنار: قليلها متاع، وكثيرها بوار).

وما ينسب لعلي أمير المؤمنين عليه السلام في هذا من الشعر:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

ولما نزل عليه السلام القيروان، اجتمع مع جميل كاتب أنو شروان، سأله عليه السلام فقال: يا جميل، كيف ينبغي أن يكون عليه الإنسان؟ قال: يجب أن يكون قليل الصديق كثير العدو.

قال عليه السلام: أبدعت يا جميل، فقد أجمع الناس على أن كثرة الأصدقاء أولى. فقال: ليس الأمر على ما ظنوا، وذكر ما حاصله أنهم إذا كثروا كلفوا التبعة في حاجة، ولا يمكن أن ينهض الإنسان بها كما يجب وينبغي، وفي المثل - من كثرة الملاحين غرقت السفينة -. قال أمير المؤمنين عليه السلام فما منفعة كثرة الأعداء. فقال: إن الأعداء إذا كثروا يكون الإنسان أبداً متحرزاً متحفظاً أن ينطق بما يؤخذ عليه أو تبدو منه زلة يؤخذ عليها، فيكون أبداً على هذه الحالة سليماً من الخطايا والزلل. فاستحسن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

وفريق ثالث يرى الخير في الوحدة، والانصراف عن الناس جملة، فإن هذا أصون للدين، وأحفظ للوقت، وأضمن لراحة الإنسان وسلامته، وأذهب للعناء الذي يجده الإنسان عادة من تكلف ما يترضى به كل واحد من إخوانه.

وخير الآراء ثانيها، وهو الأجدر بالتقدمة والأولى بالاتباع، إذ لا إفراط فيه ولا تفريط، ولكن على الإنسان أن يتعرف فيمن يختاره لمخالطته ما تقدم من الصفات، وألا يثق به قبل ابتلائه، لا سيما في هذا الزمان الذي كثر شره، وقل خيره، وأتقن الناس فيه التصنع ولباس الرياء، حتى إنه ليعجز أعقل الناس وأكثرهم دهاء وحزماً، عن كشف ما انطوت عليه نفوسهم من خبث وسوء نية، وإن في الحوادث التي يسوقها الدهر كل يوم عظات بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

آثار المخالطة الصالحة:

للمخالطة الصالحة نتائج حسنة، إذ يستحي الإنسان في الغالب من إظهار عيوبه أمام رفقائه والمتصلين به، لا سيما من عرفوا منهم بالترفع عن الدنايا، وفي هذا ما يبعده عن الشر ويدنيه من الخير، كما يأمن على أخلاقه بمعاشرتهم. ومن آثارها أن يذكره خلطاؤه بالخير فيفعله، والشر فيجتنبه وأنه يكتسب بمخالطتهم شرفاً، ويجد

منهم عوناً في الملمات وعضداً في النائبات.

فالمخالطة عامل من عوامل التربية، ومن أجل ذلك يجب على الآباء والمربين أن يعيروا المخالطة عنايتهم كلها، لأن أثرها في التربية تنقطع دونه جميع الأسباب، ولتحقيق الغرض الصالح منها، يجب أن يمنع الأطفال من مخالطة من ساءت أخلاقهم، ولو زمناً قليلاً، وأن يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم، لا سيما التي يغشاها ذوو الدناءة والأخلاق السيئة، وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد، أناساً ممن عرفوا بكرم الأخلاق وصحة الأدب، ليشرفوا عليهم وألا يتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الخلطاء والخلان، فإن قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلى اختيار من يضرون ولا ينفعون، ويفسدون ولا يصلحون.

وقد أدرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهم خطر المخالطة واتصال عدواها بالدين والأخلاق والعادات والمعتقدات، فانتحى كل فريق ناحية أسلوب معيشته، وسلك سبيلاً خاصة به، في تربيته وتعليمه وعاداته وآدابه، وأسلوبه في مأكله ومشربه وحديثه وملبسه، حتى في إشاراته وحركاته وسكناته ليمتاز عن سواه.

فوائد المخالطة:

وللمخالطة فوائد لا تحصل بدونها: كالتعليم والتعلم والنفع والإنتفاع والتأديب والتأدب والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فلنستعرض ذلك على سبيل الإجمال فإنها من فوائد المخالطة وهي سبعة أمور:

١ ـ التعليم والتعلم: وهما من أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة.

٢ ـ النفع والانتفاع: أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة. وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة.

٣ ـ التأديب والتأدب: ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات، وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ولأجل

هذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات، فيخالطون الناس بخدمتهم، وأهل السوق للسؤال منهم، كسراً لرعونة النفس. أما التأديب: فإنما نعني به أن يروض غيره، فإنه لا يقدر على تهذيب المجتمع إلا بمخالطتهم، وحاله حال المعلم وحكمه حكمه.

٤ ـ الاستئناس والإيناس.

٥ ـ نيل الثواب وإنالته، أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المرضى، وحضور العيدين، وحضور الجمعة والجماعة في سائر الصلوات. وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس، أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثواباً.

٦ ـ التواضع: فإنه من أفضل المقامات. فقد روي في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً في الحكمة، حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض، وقال الآن قد بلغت رضا ربي فأوحى الله إلى نبيه: قل له إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم، وواكلهم وأكل الطعام بينهم، ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه الآن قد بلغ رضاي.

٧ ـ التجارب فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة.




حقُّ الخَصْمِ ويشمل:

١ ـ حَقّ المُدّعِي قوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

وَحَقُّ الخَصْمِ المُدّعِي عَليْكَ، فَإِنْ كانَ مَا يَدَّعِي عَليْكَ حقّاً كُنْتَ شَاهِدَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَلَمْ تَظْلِمْهُ وَأَوْفَيْتَهُ حَقَّهُ، وَإِنْ كانَ مَا يَدَّعِي بَاطِلاً رَفِقْتَ بِهِ، وَلَمْ تَأْتِ فِي أَمْرِهِ، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ» .

٢ ـ حَقّ المُدّعَى عَليهِ قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَأَمَّا حَقُّ خَصْمِكَ الَّذِي تَدَّعِي عَليهِ، إِنْ كُنْتَ مُحِقّاً فِي دَعْوَاكَ أَجْمَلْتَ مُقَاوَلَتَهُ وَلَمْ تَجْحَدْ حَقَّهُ. وَإِنْ كُنْتَ مُبْطِلاً فِي دَعْوَاكَ اتَّقَيْتَ اللهَ عزَّ وجلّ وَتُبْتَ إِليهِ وَتَرَكْتَ الدَّعْوَى. فَإِنَّ لِلدَّعْوَى غِلْظَةً فِي سَمْعِ المُدّعَى عَليهِ، وَقَصدْتَ قَصْدَ حُجَّتِكَ بِالرِّفْقِ، وَأَمْهِلِ المُهْلَةَ، وَأَبْيِنِ البيَانَ، وَأَلْطُفِ اللُّطْفَ، وَلَمْ تَتَشاغَلْ عَنْ حُجَّتِكَ بِمُنَازَعتِه بالقِيلِ وَالقَالِ، فتَذْهَبَ عَنْكَ حُجَّتُكَ وَلاَ يَكُونَ لَكَ فِي ذَلِكَ دَرَكٌ» .






في ثنايا هذه التوجيهات المتقدمة، يتألف المنهج الرباني الكامل للحياة البشرية.

في هذه التوجيهات يجد الناظر منهجاً للتربية، قائماً على الخبرة المطلقة بالنفس الإنسانية، ومساوئها الظاهرة والخفية، يأخذ هذه النفس من جميع أقطارها، كما يتضمن رسم نماذج من نفوس البشر، واضحة الخصائص جاهزة السمات، حتى ليخيل للإنسان وهو يتصفح هذه الخصائص والسمات، أنه يرى ذوات بعينها تدب على الأرض، وتتحرك بين الناس، ويكاد يضع يده عليها وهو يصيح: هذه هي بعينها التي عناها الإمام السجاد عليه السلام.

في هذا الدرس تجد الملامح الواضحة لنموذجين من نماذج اعتدال البشر: **الأول**: نموذج المدعي. **الثاني**: نموذج المدعى عليه، وتجد حل الخصومة الواقعة بينهما واضحة، والحق الذي يقيد كلاً منهما سافراً، لا غموض فيه ولا التباس.

ولنضع بين يديك مقدمة تمهيدية لهذا الدرس ترتبط بالمقصود، فنقول:

ليس أروح للمرء ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرَّأ من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد. إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها، وأحسّ فضل الله فيها، وفقر عباده إليها، وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر». وإذا رأى أذى يلحق أحداً من خلق الله، رثى له ورجا الله أن يفرج كربه ويغفر ذنبه.

وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضياً عن الله وعن الحياة، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضغائن داء عياء. وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم! ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة. فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكر صفوها.

أما القلب المشرق فإن الله يبارك في قليله، وهو إليه بكل خير أسرع:

قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان. قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد».

ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقاً هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك والود الشائع، والتعاون المتبادل، والمجاملة الدقيقة. لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود، بل هي كما وصف القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١).

إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها، وتفرعت أشواكها، أشلت زهرات الإيمان الغض، وأذوت ما يوحي به من حنان وسلام.

وعندئذ لا يكون في أداء العبادات المفروضة خير ولا تستفيد النفس منها عصمة. وكثيراً ما تطيش الخصومة بألباب ذويها، فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للعنة، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل، وتضخم الرذائل. وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب. وذلك كله مما يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه، ويرى منعه أفضل القربات.

قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال: «إصلاح ذات البين. فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم. ولكنه ـ هو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك ـ لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه، حتى يجهل حقوقه أشد مما يجهلها الوثني المخرّف، وهو يحتال لذلك بإيقاد نيران العداوة في القلوب. فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم، وتلتهم علائقهم وفضائلهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم». ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودّها، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها، ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.

(١) سورة الحشر، الآية ١٠.

وقد تيقظ الإسلام لبوادر الحقد، فلاحقه بالعلاج قبل أن يستفحل ويستحيل إلى عداوة فاجرة. والمعروف أن البشر متفاوتون في أمزجتهم وأفهامهم وأن التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف ـ إن لم يكن صدام وتباعد ـ ولذلك شرع الإسلام من المبادىء ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة، وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة، فنهى عن البغض والحقد وقد يحدث أن تشعر بإساءة موجهة إليه، فتحزن لها وتضيق بها وتعزم على قطع صاحبها. ولكن الله لا يرضى أن تنتهي الصلة بين مسلم ومسلم إلى هذا المصير.

قال النبي ﷺ: «لا تدابروا ولا تباغضوا».

والإنسان في كل نزاع ينشب، أحد رجلين: إما أن يكون ظالماً، وإما أن يكون مظلوماً. فإن كان عادياً على غيره، ناقصاً لحقه، فينبغي أن يقلع عن غيه وأن يصلح سيرته، وليعلم أنه لن يستل الغل والضغن من قلب خصمه، إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه، وقد أمر الإسلام ـ والحالة هذه ـ أن يستصلح صاحبه ويطيب خاطره.

قال رسول الله ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

ذلك نصح الإسلام لمن عليه الحق. أما من له الحق فقد رغب إليه أن يلين ويسمح.

وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعاً يحارب الإسلام الأحقاد، ويقتل جرثومتها في المهد، ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع، من الصداقات المتبادلة أو المعاملات العادلة. وقد اعتبر الإسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة، أن يرسب الغل في أعماق النفس فلا يخرج منها، بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم.

وكثير من أولئك الذين يحتبس الغل في أفئدتهم، يتلمسون متنفساً له في وجوه من يقع معهم، فلا يستريحون إلا إذا أرغوا وأزبدوا، وآذوا وأفسدوا.

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله. قال: إن شراركم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده. أفلا أُنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله. قال: من يبغض الناس

ويبغضونه. قال: أفلا أُنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنباً. قال: أفلا أُنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره».

والأصناف التي أحصاها هذا الحديث، أمثلة لأطوار الحقد، عندما تتضاعف علته، وتفتضح سوءته. ولا غرو، فمن قديم، أحسّ الناس ـ حتى في جاهليتهم ـ أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق! وأن ذوي المروءات يتنزهون عنه! قال عنترة:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرون.

فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوي الأثرة بالمرء، فتجعله يتمنى الخسار لكل إنسان، لا لشيء إلا لأنه لم يربح!!

إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرة، وأكرم عاطفة، فينظر إلى الأمور من خلال الصالح العام، لا من خلال شهوته الخاصة.

ولا ريب أن الخصومة تورث الحقد وتبعث على الشحناء والبغضاء وتباعد بين الطرفين، وهي داء وبيل يقطع الأواصر وينشر الجرائم، ويفتك بالأخلاق. إن الخصوم فاجر في الخصومة ينكر حق صاحبه ويستحل ماله، وعرضه، ولا يترك باباً من أبواب الإضرار به إلا اقتحمه، ولو أضاع في سبيل ذلك المال الكثير، بل ولو شغله ذلك عن القيام بواجباته. وأنت جد عليم بما يكون بين أرباب القضايا وبين الحزبين من بلد واحد، وبين الأحزاب السياسية وغيرها والمراد من المخاصم: من يخاصم في باطل. أو يجادل بغير علم.

قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم».

وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إياكم والخصومة فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق وتكسب الضغائن».

فإذا وقعت، لا بد من رفعها وإرجاعها إلى قوة فوق قوتها، لتحكم بينها بالعدل

وحلها حلاً عدلاً لا مراء فيه ولا محاباة.

لا بد من رفعها إلى القاضي العدل الورع النزيه من كل شائبة رذلة.

والقاضي يجب عليه أن لا يستثار، وعليه ألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً.

ويجب أن ينطبع على صفاء النفس، وسمو الروح ورقة الوجدان، ولمحة الخاطر وانتباهة الضمير، وحسن التقدير، وروعة المنطق وحسم الدليل.

جاء في عهد الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام للأشتر النخعي يوم ولاه مصر ما نصه: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء وأولئك قليل».

وحاجة الناس إلى القاضي ضرورية، فإن مشاكل الخلاف بين الناس وتنازع البقاء والاستئثار والتزاحم على موارد الحياة جبلة في الإنسان وطبيعة فيه، لا يمكن أن يتخلى عنها ولا أن يتعرى ويتجرد منها.

فالإنسان بدون القاضي لا يتمكن من الحياة، ولا يقدر على الوصول إلى حقوقه ولا على تحصيل غرض الله من إيجاده، والإنسان ليس له من العلم ما يعرف به الحكم الحق.

ينقسم القضاء إلى خمسة أقسام

جاء في كتاب (دليل القضاء الشرعي) تأليف العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم ـ ما نصه:

«طلب القضاء ينقسم إلى خمسة أقسام: واجب، ومباح، ومستحب، ومكروه، وحرام».

(فإن كان) طالبه من أهل الاجتهاد، أو من أهل العلم والعدالة، ولا يكون هناك

قاضٍ غيره، أو يكون ولكن لا تحل ولايته أو ليس في البلد من يصلح للقضاء غيره، أو لكونه إن لم يلِ القضاء وليه من لا تحل ولايته، مع فرض حاجة الناس إلى القاضي، وعدم إمكان رفع التنازع بالمصالحة ونحوها، وكذا إذا كان غيره، لكن لم يكن بقدر كفايتهم، أو كان، ولكن لم يكن ممن يعرفه الناس ولم يمكن تعريفه لهم، فيتعين حينئذ عليه التصدي للقضاء والسعي فيه إذا قصد بطلبه حفظ الحقوق وجريان الأحكام على وفق الشرع لأن في تحصيله القيام بفرض الكفاية.

(وإن كان) فقيراً وله عيال فيجوز له السعي في تحصيل القضاء ليسد خلته، وكذلك إن كان يقصد به دفع ضرر عن نفسه فيباح له أيضاً تولي القضاء.

(وإن كان) هناك عالم خفي علمه عن الناس، فأراد الإمام أن يشهره بولاية القضاء ليعلم الجاهل ويفتي المسترشد، أو كان هو خامل الذكر لا يعرفه الإمام ولا الناس، فأراد السعي في القضاء ليعرف موضع علمه، فيستحب له تحصيل القضاء والدخول فيه بهذه النية.

(وإن كان) سعيه في طلب القضاء لتحصيل الجاه والاستعلاء على الناس فهذا يكره له السعي، (ولو قيل) إنه يحرم كان وجهه ظاهراً لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

ويكره أيضاً تولي القضاء إن كان طالبه غنياً عن أخذ الرزق على القضاء، وكان مشهوراً لا يحتاج أن يشهر نفسه وعلمه بالقضاء.

(وإن كان) سعيه في طلب القضاء ـ وهو جاهل ليس له أهلية القضاء، أو هو من أهل العلم لكنه متلبس بما يوجب فسقه، أو كان قصده بالولاية الانتقام من أعدائه أو قبول الرشوة من الخصوم، وما أشبه ذلك من المقاصد ـ فهذا يحرم عليه السعي في القضاء[٢].

ما يشترط في القاضي

يشترط في القاضي أمور:

«**الأول والثاني**» **البلوغ والعقل**، فلا ينفذ قضاء الصبي وإن كان مراهقاً، بل ومجتهداً جامعاً للشرائط، بل وإن كان أعلم من غيره. ولا المجنون ولو كان أدوارياً في

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

(٢) معين الحكام للطرابلسي ص ٩ ـ ١٠.

دور جنونه، وإن كان عالماً عارفاً بالأحكام، وكان جنونه في غير هذا، فإن الجنون فنون (للإجماع) كما عن جماعة من الفقهاء، ولانصراف الأخبار عنه، (مضافاً) إلى التقيد بالرجل في خبري أبي خديجة، فقد جاء في روايته الأولى قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام : «إياكم أن يحاكم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا، فاجعلوه حكماً بينكم، فإني قد جعلته قاضياً فتحاكموا إليه».

وجاء في روايته الأُخرى. قال: بعثني أبو عبد الله عليه السلام إلى أصحابنا فقال لهم: «إياكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تدارى بينكم في شيء من الأخذ والعطاء أن تتحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً ممن قد عرف حلالنا وحرامنا فإني قد جعلته قاضياً، وإياكم أن يتحاكم بعضكم بعضاً إلى السلطان الجائر».

(مع) كون نفوذ الحكم وترتب الآثار من عدم جواز نقضه ورده على خلاف الأصل، والقدر المتيقن من الخارج منه هو البالغ العاقل كما لا يخفى.

«**الثالث والرابع**»: **الإسلام والإيمان**، (للإجماع)، (ولقوله) عليه السلام في رواية أبي خديجة الأولى المتقدمة: «انظروا إلى رجل منكم» و (لقوله) تعالى: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا** ﴾[1]. (وللأخبار المتواترة المانعة من الرجوع إلى غير المؤمن في رفع التنازع).

(**الخامس**): **العدالة**، (للإجماع)، (والمنع) من الركون إلى الظالم إذ هو ظالم لنفسه، (ولقصوره) عن مرتبة الولاية على الصبي والمجنون فكيف بهذه المرتبة الجليلة، ففي رواية لأبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام : قول الله تعالى في كتابه: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ** ﴾[2]. فقال: يا أبا بصير إن الله تعالى قد علم أن في الأمة حكاماً يجورون، أما إنه لم يعن حكام أهل العدل. ولكنه عنى حكام أهل الجور، يا أبا محمد إنه لو كان لك على رجل حق فدعوته إلى حكام أهل العدل، فأبى عليك إلا أن يرافعك إلى حكام أهل الجور ليقضوا له كان ممن حاكم إلى الطاغوت، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ**

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٨.

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[1].

وقد تقدم ما في روايتي أبي خديجة من النهي عن المحاكمة إلى أهل الجور، وسيأتي ما في رواية عمر بن حنظلة من النهي عن ذلك أيضاً.

والعدالة ـ كما ذكرها بعض المحققين من الفقهاء ـ: هي عبارة عن الملكة المانعة ـ غالباً ـ عن الوقوع في المعاصي الكبيرة التي وعد الله سبحانه عليها النار والمراد أنها مانعة اقتضاء، فلا يقدح في وجودها وقوع المعصية نادراً، لغلبة الشهوة أو الغضب، نعم من لوازم وجودها حصول الندم بمجرد سكون الشهوة أو الغضب مع الالتفات إلى وقوع المعصية منه، وإذا حصلت الملكة المذكورة لكن كانت ضعيفة مغلوبة للمزاحم من شهوة أو غضب على نحو يكثر صدور المعاصي، ـ وإن كان يحصل الندم بمجرد سكون المزاحم ـ فمثل هذه الملكة لا تكون عدالة، ولا تترتب عليها أحكامها. وأما إذا صدرت المعصية الصغيرة، فإن التفت العاصي إلى وجوب التوبة ـ ومع ذلك لم يتب ـ كان عاصياً بترك التوبة ولم يكن عادلاً، وإن غفل عن ذلك فلم يندم لم يقدح صدور الصغيرة في بقاء العدالة وترتيب أحكامها، وأما إذا صدرت المعصية الكبيرة فلم يندم ولم يتب غفلة عن صدور المعصية، فقد خرج عن صفة العدالة، وبذلك افترقت المعصية الكبيرة عن الصغيرة.

(السادس): **طهارة المولد**، (لفحوى) ما دل على عدم قبول شهادة ولد الزنى وعدم صحة إمامته.

(السابع): **الذكورة**، فلا يصح قضاء المرأة ولو للنساء، والدليل عليه (الإجماع)، و (الحديث) المروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ولا يفلح قوم وليتهم امرأة».

وروى جابر (رضي الله عنه) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ولا تولى المرأة القضاء ولا تولى الإمارة».

وروى الصدوق ابن بابويه في «من لا يحضره الفقيه»، بإسناده عن حماد بن عمر، وأنس بن محمد عن أبيه عن جعفر بن محمد عن آبائه في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام أنه قال: «يا علي ليس على المرأة جمعة ولا جماعة ـ إلى أن قال ـ ولا تولى القضاء» وفي رواية أخرى: «لا تولى المرأة القضاء ولا تولى الإمارة». (مضافا)

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٠.

إلى التقيد بالرجل في روايتي أبي خديجة المتقدمتين، و (الانصراف) في سائر أخبار الإذن عن قضاء المرأة.

(**الثامن**): **العلم بأحكام القضاء**، (لما تقدم) في روايتي أبي خديجة من قوله عليه السلام - في الرواية الأولى -: «انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه حكماً بينكم» الخ، وقوله عليه السلام - في الرواية الثانية - «اجعلوا بينكم رجلاً ممن عرف حلالنا وحرامنا» الخ، ولما في موثقة عمر بن حنظلة الآتية، (مضافاً) إلى ما رواه البرقي عن أبيه رفعه إلى الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «القضاة أربعة: ثلاثة في النار وواحد في الجنة، رجل قضى بجور - وهو يعلم - فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة».

(**التاسع**): **الحرية**، عند جماعة من الفقهاء بل نسب إلى الأكثر، ولا دليل على اعتبارها إلا (دعوى) كون المملوك مولى عليه، و (قصوره) عن هذا المنصب و (كون) أوقاته مستغرقة في خدمة مولاه، و (دعوى) دلالة قوله تعالى: ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾[1] ويؤيد ذلك عدم نصب الأئمة عليهم السلام أحداً من عبيدهم أو عبيد غيرهم على منصب القضاء ولكن في ذلك كله تأملاً، والأظهر عدم اشتراط الحرية إذا أذن المولى.

(**العاشر**): **الاجتهاد**، فلا ينفذ قضاء غير المجتهد وإن بلغ من العلم والفضل ما بلغ، (للإجماع)، كما عن جماعة من الفقهاء، (ولأن) نفوذ الحكم وترتيب آثاره على خلاف الأصل، والقدر المتيقن هو حكم المجتهد.

(**وأيضاً**) يظهر من الآيات والأخبار، أن منصب القضاء مختص بالنبي والأئمة عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[4] الآية. وقوله عليه السلام: «اتقوا

(١) سورة النحل، الآية ٧٥.
(٢) سورة النساء، الآية ٦٥.
(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.
(٤) سورة النساء، الآية ١٠٥.

الحكومة، فإن الحكومة إنما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين، لنبي أو وصي نبي» وقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لشريح القاضي: «يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي أو وصي نبي أو شقي». فيتوقف جوازه من غيرهم على الإذن منهم عليهم السلام: والأخبار الدالة على الإذن مختصة بالعلماء ورواة الأخبار الظاهرة في القادر على استنباط الحكم منها، كمقولة عمر بن حنظلة: قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا تكون بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان أو إلى القاضي أيحل ذلك؟ فقال عليه السلام: من تحاكم إلى طاغوت ـ أي إلى جائر ـ فحكم له، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً، لأنه أخذ بحكم الطاغوت وقد أمر الله أن يكفر به. قلت كيف يصنعان؟ قال: انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فارضوا به حكماً فإني قد جعلته حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما بحكم الله استخف وعلينا ردّ، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله، قلت: فإن كان كل واحد منهما اختار رجلاً وكلاهما اختلفا في حديثنا؟ قال: الحكم ما حكم به أعدلهما، وأفقههما وأصدقهما في الحديث، وأورعهما، ولا يلتفت إلى ما يحكم به الآخر. قال: فقلت فإنهما عدلان مرضيان عند أصحابنا ليس يتفاضل واحد منهما على صاحبه. قال: فقال: تنظر إلى ما كان من روايتهما في ذلك الذي حكما به، المجمع عليه عند أصحابك فتأخذ به من حكمنا وتترك الشاذ النادر الذي ليس بمشهور عند أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه. الخ»(١).

وكالتوقيع الرفيع الذي رواه الصدوق ابن بابويه في ـ إكمال الدين ـ والشيخ الطوسي في كتاب ـ الغيبة ـ والطبرسي في ـ الاحتجاج ـ والكشي في ـ الرجال ـ بسند صحيح عالٍ عن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي، فورد التوقيع بخط مولانا الصاحب عليه السلام: أما ما سألت عنه أرشدك الله ووفقك ـ إلى أن قال: ـ «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم».

وكالخبر الذي رواه الحراني في كتابه ـ تحف العقول ـ قال عليه السلام: «ومجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه» وخبر أبي خديجة الآخر المتقدم «انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه حكماً بينكم، فإني قد

---

(١) الطبرسي في الاحتجاج ص ٣٥٥ طـ الأعلمي.

جعلته قاضياً فتحاكموا إليه».

وخبر أبي خديجة الآخر المتقدم أيضاً: «اجعلوا بينكم رجلاً ممن قد عرف حلالنا وحرامنا، فإني قد جعلته قاضياً» والخبر المرسل: «اللهم ارحم خلفائي، قيل يا رسول الله من خلفاؤك؟ قال ﷺ: الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي».

والخبر المروي في الفقه الرضوي: «منزلة الفقيه في هذا الوقت كمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل» إلى غير ذلك من الروايات.

ومن المعلوم أن العامي لا يصدق عليه اسم العالم ولا الراوي، ولا يصلح أن يكون خليفة لرسول الله ﷺ ولا أن يكون بيده مجاري الأمور، ولا أن يكون بمنزلة الأنبياء، فمقتضى هذه الأخبار المذكورة عدم جواز تصدي غير المجتهد للحكم والمرافعة، من غير فرق بين أن يكون من أهل العلم ـ مع عدم بلوغه حد الاجتهاد ويحكم بمقتضى ظاهر الأخبار وكلمات الفقهاء ـ، أو كان مقلداً لمجتهد جامع للشرائط ويحكم بمقتضى فتوى ذلك المجتهد بعد اطلاعه على جميع ما يتعلق بتلك الواقعة بالتقليد.

ثم إنه قد ظهر مما ذكرناه لك أن المقلد (بكسر اللام) لا أهلية له للتصدي للمرافعة، وإن أذن له مجتهد ونصبه قاضياً، فإن نصبه له لا ينفعه في أهليته.

والحاصل أنه لا فرق في عدم جواز قضاء غير المجتهد، بين أن يكون من أهل العلم ـ ولم يكن بالتقليد من مجتهد ـ أو يكون بفتوى مقلده (بفتح اللام) ـ وبين أن ينصبه المجتهد للقضاء، أولاً، وبين أن يكون المترافعان رفعا أمرهما إلى المجتهد في خصوص واقعة وأرجعها إلى مقلده(بكسر اللام) العادل العالم بفتاواه، وغيره.

وأما المجتهد المنجزي ـ بناءً على إمكانه ـ فالأحوط عدم نفوذ قضائه خصوصاً مع وجود غيره، وإن كان لا يبعد جوازه إذا كان مجتهداً في أحكام القضاء، (لخبر) أبي خديجة المتقدم.

ثم إنه، لا يجوز الترافع إلى قضاة الجور اختياراً، ولا يحل ما أخذه بحكمهم ـ إذا لم يعلم بكونه محقاً ـ إلا من طرف حكمهم، وأما إذا علم بكونه محقاً ـ واقعا ـ فيحتمل حليته (ويحتمل) الفرق بين العين والدين، حيث إن الدين كلي في الذمة ويحتاج في صيرورة المأخوذ ملكاً له إلى تشخيص المديون بخلاف العين. وظاهر مقولة عمر بن حنظلة المتقدمة حرمته مطلقاً ـ عيناً كان أم ديناً ـ (لقوله) عليه السلام: «من

تحاكم إلى طاغوت (أي إلى جائر) فحكم له فإنما يأخذ سحتاً ـ وإن كان حقه ثابتاً ـ لأنه أخذ بحكم الطاغوت ـ وقد أمر الله أن يكفر به» لكنه مشكل خصوصاً في العين.

ثم إنه إذا توقف استنقاذ حقه المعلوم ـ واقعاً ـ على الترافع إلى غير الأهل من قضاة الجور، أو غيرهم، إما لعدم رضى الطرف المقابل إلا بالترافع إليهم، أو لعدم وجود الحاكم الشرعي، أو لعدم إمكان إثبات الحق عنده، أو نحو ذلك فالظاهر جوازه وحلّية ما يأخذه، لأن الأخبار المانعة منصرفة عن هذه الصورة، بل ظاهرها صورة إمكان الرجوع إلى الأهل للقضاء.

ما يجب أن يسير عليه القاضي

يجب على القاضي أن يسير السير الذي يرضي الله ورسوله ﷺ، فيأخذ بآداب الشرع الشريف فيتوقى ما يشينه في دينه ومروءته وعقله، فإنه أهل لأن ينظر إليه ويقتدى به، فيتقي الله في جميع أعماله، ويقضي بالحق، ولا يقضي لهوى يضله، ولا لرغبة تغيره، ولا لرهبة تزجره بل يؤثر طاعة ربه، ويعمل لمعاده، طمعاً في جزيل ثوابه، وهرباً من أليم عذابه، فيتبع الحكمة وفصل الخطاب، ولا ينبغي أن يكون فظاً غليظاً، جباراً عنيداً، بل يكون شديداً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، ومتى رفعت إليه دعوى يلزمه أن يسوي بين الخصمين في الجلوس والإقبال عليهما ولا يسار إليهما، ولا يضحك في وجهه ولا يلقنه حجته، ولا يذهب إلى ضيافته، ولا يقول لأحدهما كلاماً خفياً، ولا بلسان لا يفهمه الآخر ولا يلقن الشاهد شهادته، لقوله عليه السلام: «إذا ابتلي أحدكم بالقضاء فليسوّ بينهم في المجلس والإشارة والنظر» ولأنه إذا قدم أحدهما يجترىء على خصمه فتفتر همة صاحبه، فربما يؤدي ذلك إلى ترك حقه، . . . ولا فرق في ذلك بين الأب والابن، وبين الخليفة والرعية، وبين الدنيء والشريف وبين المسلم والذمي.

(وبالجملة)، فالذي يلزم القاضي هو التخلي عن كل ما يشينه، والتحلي بجميع صفات الكمال، لأنه لا يسعه ما يسع غيره، فالعيون إليه مصروفة، وتقوى الخاصة على الاقتداء به موقوفة. . .».

قال علاء الدين الطرابلسي في (معين الحكام): اعلم أنه يجب على من ولي القضاء أن يعالج نفسه على آداب الشرع، وحفظ المروءة، وعلو الهمة، ويتوقى ما يشينه في دينه ومروءته وعقله، أو يحطه في منصبه وهمته، فإنه أهل لأن ينظر إليه

ويقتدى به، وليس يسعه في ذلك ما يسع غيره، ولا ينبغي له ـ بعد الحصول في هذا المنصب سواء وصل إليه برغبته فيه، أم امتحن به وعرض عليه ـ، أن يزهد في طلب الحظ الأخلص والسنن الأصلح.

وقال بعضهم: «ومن حقه أن يكون غير متكبر عن مشورة من معه من أهل العلم، ورعاً ذكياً فطناً، غير عجول، نزهاً عما في أيدي الناس، عاقلاً، مرضي الأحوال، موثوقاً به في دينه غير مخدوع، وقوراً مهيباً، عبوساً من غير غضب، متواضعاً من غير ضعف، كثير التحرز من الحيل، ولا ينبغي أن يكون فظاً غليظاً جباراً. . .».

وقد كتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر: «فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم».

انتهى ما اقتطفناه من كتاب (دليل القضاء الشرعي).

ومن هذا المعين معين النبوة والإمامة ارتشف الإمام السجاد عليه السلام مقاله الوضاء، وندب إليه وحض عليه بقوله: «وأمهل المهلة، وأبين البيان، وألطف اللطف». هناك يكون القضاء العادل، هناك يكون القول الفصل، بإعطاء كل من الجانبين (المدعي، والمدعى عليه) حقه في الأمر وحريته في عرض المسألة.

إذا تنازع طرفان في قضية، وطرق سمعك ما أدلى به واحد منهما من الأدلة، فإنك قد تندفع بسرعة لإصدار حكمك عليه، وقد اتفق مثل ذلك كثيراً ولكنه كان على الأكثر حليفاً للندامة، إذ قد تحيف عليه في مثل هذا الحكم المستعجل. والواقع، أن العدل يفرض عليك سماع الدعوى والدفاع معاً، وأنت هادىء البال، متجرد عن التحيز، باحث عن الصواب، متأنّ في أفعالك، خاضع للنظم الصحيحة مقتصد في عقيدتك، بدون إفراط أو تفريط، وعليك أن ترى طرفي الدعوى بمستوى واحد إلى حين صدور الحكم، وأن تفسح مجال الدفاع، وأن لا تضار أحداً في استعجال، وأن تعطيه المجال المعقول للتروي ثم النظر في صحة وفساد كلا القولين بالنسبة للنظام أو القانون العدل.

وأيضاً لا يبيح الإمام عليه السلام للمدعي أن يكون بموقف المدعى عليه، إن كان يعتقد ببطلان الدعوى وحقيتها للخصم، فالدعوى من أساسها وأصلها باطلة، بل يفرض عليه أن لا يحسب نفسه مدعياً، فليس هناك ادعاء في الواقع، وإنما يجب أن

يكون خصماً على نفسه وحاكماً وشاهداً عليها.

وإذا كان المدعى عليه كاذباً لا يريد أن يعترف بالواقع وحقيقة الأمر، بل يريد أن يداجي ويداهن، فالإمام عليه السلام يلزم خصمه (أي المدعي) أن لا يقابله بالمثل، بل يقابله بالملاينة والرفق ويقابله بأن يناشده بدينه الذي يدين به، ويذكره بالله الذي يعبده ويخلص له، دون اللجوء إلى أساليب الغلظة والفظاظة، فليست الأمور الراهنة تحل بمثل هذه الأساليب إلا في القليل النادر.

تاريخ القضاء في الإسلام

وتاريخ القضاء في الإسلام مثله كمثل تاريخ التشريع، يبتدىء من هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى يثرب، لأن التشريع المكي كان بمثابة سن الدستور الأساسي للدولة، ولا تأتي القوانين عادة في الدولة إلا بعد توطيد أركانها واستقرار جهازها الحكومي. وظل القضاء في المدينة (عاصمة الدولة الإسلامية) الناشئة بسيطاً ساذجاً لم يفرق بينه وبين قوى الدولة الأُخرى، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن شارعاً وحاكماً فحسب، بل كان قاضياً فوق ذلك أيضاً وإليه مرد الأمر كله. وقد انعدمت الخصومات في هذا العهد بين الناس أو كادت، فلا تجد أحداً يجترح إثماً ويرمي به بريئاً. ولا تجد مدرهاً يأكل أموال الناس بالباطل ليدلي بها إلى الحكام، أو فريقاً يأكل من أموال الآخرين ظلماً وزوراً، لأن تعاليم الإسلام الحنيف كانت من المنعة والقوة بحيث أصبحت ملء القلوب والأسماع والأبصار، حتى إذا حاد أحدهم عن سبيل الحق، جاء الرسول يسأله إقامة الحد ويلتمس منه العفو والغفران.

ولما تعدى الإسلام الحرمين الشريفين ورفعت رايته على بلاد اليمن بعث إليهم الرسول أمير المؤمنين علياً عليه السلام عاملاً وقاضياً. ثم بعث معاذ بن جبل.

مصدر قضاء الرسول

وكان مصدر قضاء الرسول: هو القرآن الكريم وحده، وكان إذا شجر خلاف بين المسلمين سألوا الرسول فيجيبهم بآية من كتاب الله، أو بما يوحيه إليه الحق، وتوجبه العدالة من أعمال وأقوال. فإن أدت تلكم الأعمال والأقوال إلى التباس وارتباك، أرشده الله إلى الصواب بآية ينزلها عليه. ولقد أوسع شرع الجاهلية تحويراً وتعديلاً ونقضاً، حتى إذا جاءه بعض المسلمين يريدون أن يتحاكموا إلى الجبت والطاغوت،

وقد نهوا عنه نعى إليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١).

نوادر القضاة

قرأت في المجلد الرابع من شرح النهج (لابن أبي الحديد):

«أُتي ابن شبرمة بقوم يشهدون على قراح نخل، فشهدوا وكانوا عدولاً فامتحنهم فقال: كم في القراح من نخلة؟ قالوا: لا نعلم، فرد شهادتهم. فقال له أحدهم: أنت أيها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، فأعلمنا كم فيه من أسطوانة؟ فسكت وأجازهم.

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة، يتلقى الخيزران وقد أقبلت تريد الحج، وقد كان استقضي وهو كاره، فأتى شاهي فأقام بها ثلاثاً فلم توافِ فخف زاده، وما كان معه فجعل يبله بالماء ويأكله بالملح. فقال العلاء بن المنهال الغنوي:

فإن كان الذي قد قلت حقاً ... بأن قد أكرهوك على القضاء
فما لك موضعاً في كل يوم ... تلقى من يحج من النساء
مقيماً في قرى شاهي ثلاثاً ... بلا زاد سوى كسر وماء

وتقدمت كلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث: وكانت جميلة، وأخوها الوليد بن سريع، إلى عبد الملك بن عمير، وهو قاضٍ بالكوفة. فقضى لها على أخيها. فقال هذيل الأشجعي:

أتاه وليد بالشهود يسوقهم ... على ما ادعى من صامت المال والخول
وجاء إليه كلثم وكلامها ... شفاء من الداء المخامر والخبل
فأدلى وليد عند ذاك بحقه ... وكان وليد ذا مراء وذا جدل
فدلهت القبطي حتى قضى لها ... بغير قضاء الله في محكم الطول
فلو كان من في القصر يعلم علمه ... لما استعمل القبطي فينا على عمل
له حين يقضي للنساء تخاوص ... وكان وما فيه التخاوص والحول
إذا ذات دل كلمته لحاجة ... فهم بأن يقضي تنحنح أو سعل
وبرق عينيه ولاك لسانه ... يرى كل شيء ما خلا وصلها جلل

(١) سورة المائدة، الآية ٥٠.

وكان عبد الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعي، والله لربما جاءتني السعلة والنحنحة، وأنا في المتوضأ فأردهما لما شاع من شعره.

شهد رجل عند سوّار القاضي، فقال: ما صناعتك؟ فقال: مؤدب. قال: أنا لا أُجيز شهادتك، قال: ولم؟ قال: لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجراً. قال: وأنت أيضا تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً. قال: إنهم أكرهوني.

قال: نعم أكرهوك على القضاء، فهل أكرهوك على أخذ الأجر؟ قال: هلم شهادتك.

ودخل أبو دلامة ليشهد عند ابن أبي ليلى، فقال حين جلس بين يديه:

إذا الناس غطوني تغطيت عنهم ... وإن بحثوا عني ففيهم مباحث
وإن حفروا بئري حفرت بئارهم ... ليعلم ما تخفيه، تلك البثابث

فقال: بل نغطيك يا أبا دلامة ولا نبحثك، وصرفه راضياً وأعطى الشهود عليه من عنده قيمة ذلك الشيء.

كان عامر بن الظرب العدواني حاكم العرب وقاضيها، فنزل به قوم يستفتونه في الخنثى وميراثه فلم يدر ما يقضي فيه، وكانت له جارية اسمها خصيلة، ربما لامها في الإبطاء عن الرعي وفي الشيء يجده عليها، فقال لها يا خصيلة: أسرع هؤلاء القوم في غنمي وأطالوا المكث. قالت: وما يكبر عليك من ذلك، اتبع مباله وخلاك ذم. فقال لها:

أمسي خصيل بعدها أو روحي

ودخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام، فقدم خصماً إلى باب القاضي في أيام عبد الملك، فقال القاضي: أما تستحي تخاصم وأنت غلام شيخاً كبيراً؟ فقال: الحق أكبر منه. فقال: اسكت ويحك. قال: فمن ينطق بحجتي إذاً؟ قال: ما أظنك تقول اليوم حقاً حتى تقوم، فقال: لا إله إلا الله. فقام القاضي ودخل على عبد الملك وأخبره. فقال: اقض حاجته وأخرجه من الشام كي لا يفسد علينا الناس.

دعا رجل لسليمان الشاذكوني فقال: أرانيك الله يا أبا أيوب على قضاء أصبهان. قال: ويحك إن كان ولا بد، فعلى خراجها، فإن أخذ أموال الأغنياء أسهل من أخذ أموال الأيتام.

ترافعت جميلة بنت عيسى بن جراد، وكانت جميلة كاسمها، مع خصم لها إلى

الشعبي وهو قاضي عبد الملك، فقضى لها. فقال هذيل الأشجعي:

فتـــن الشعبـــي لمـــا رفـــع الطـــرف إليهـــا
فتنتـــه بثنـــايـــاهـــا وقـــوســـي حـــاجبيهـــا
ومشـــت مشيـــاً رويـــداً ثـــم هـــزت منكبيهـــا
قضـــى جـــوراً علـــى الخصـــم ولـــم يقـــض عليهـــا

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطاً. قال ابن أبي ليلى: ثم انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء، وقد شاعت الأبيات وتناشدها الناس ونحن معه، فمررنا بخادم تغسل الثياب وتقول: (فتن الشعبي لما) ولا تحفظ تتمة البيت، فوقف عليها ولقنها، وقال: (رفع الطرف إليها). ثم ضحك وقال: أبعده الله والله ما قضيت لها إلا بالحق.

جاءت امرأة إلى قاضٍ، فقالت: مات بعلي وترك أبوين وابناً وبني عم فقال القاضي: لأبويه الثكل، ولابنه اليتم، ولك اللائمة، ولبني عمه الذلة، واحملي المال إلينا إلى أن ترتفع الخصوم.

لقي سفيان الثوري شريكاً بعد ما استقضي، فقال له: يا أبا عبد الله بعد الإسلام والفقه والصلاح تلي القضاء، يا أبا عبد الله فهل للناس بد من قاضٍ؟ قال: ولا بد يا أبا عبد الله للناس من شرطي».

قرأت في معادن الجواهر تأليف (السيد محسن الأمين العاملي):

«دخل عدي بن أرطأة على شريح القاضي، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ فقال: بينك وبين الحائط. قال: استمع مني. قال: قل أسمع. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: من مكان سحيق. قال: وقد تزوجت عندكم. قال: بالرفاء والبنين. قال: وأردت أن أرحلها. قال: الرجل أحق بأهله. قال: وشرطت لها دارها. قال: الشرط أملك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

قال المأمون لقاضي القضاة يحيى بن أكثم، وكان يرمى بفعل قوم لوط: أخبرني من الذي يقول:

قـــاض يـــرى الحـــد فـــي الـــزنـــاء ولا يـــرى علـــى مـــن يلـــوط مـــن بـــاس

قال: يقوله يا أمير المؤمنين الذي يقول:

لا أحسب الجور ينقضي وعلى الأمة والٍ من آل عباس

قال: ومن يقوله؟ قال: أحمد بن أبي نعيم. قال: ينفى إلى السند، وإنما مزحنا معك.

قال الثعالبي في اليتيمة، في ترجمة القاضي التنوخي، وكان يتقلد قضاء البصرة والأهواز ما لفظه: ويحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده، في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة. وهم: ابن أبي قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل منهم كأس من ذهب، من ألف مثقال إلى ما دونها، مملوءاً شراباً قطر بلياً أو عكبرياً، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثرها، ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور، ويقولون كلما كثر شربهم هرهر، وإياهم عنى السري الرفاء بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثاً أنامل مثل حمرة العنم

(أقول): فإذا كانت هذه حال قضاة المسلمين فعلى الإسلام السلام.

ذكر نصر الهوريني في ترجمة القاضي ابن خلكان: أنه سأل بعض أصحابه عما يقوله أهل دمشق فيه، فاستعفاه فألحّ عليه، فقال: يقولون إنك تكذب في نسبك، (وكان ينتسب إلى البرامكة) وتأكل الحشيشة، وتحب الصبيان. فقال: أما النسب والكذب فيه، فإذا كان لا بد منه، كنت أنتسب إلى العباس أو إلى علي بن أبي طالب، أو إلى واحد من الصحابة، وأما النسب إلى قوم لم يبق لهم بقية، وأصلهم قوم مجوس فما منه فائدة، وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم، وإذا كان ولا بد، فكنت أشرب الخمر لأنها ألذ، وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك عن هذه المسألة. (أقول): تأخير جوابها لأنه لا جواب له عنها.

عن ابن الأعرابي، قال: خاصم أبو دلامة رجلاً إلى عافية بن زيد القاضي، وكان

المهدي ولاه قضاء بغداد، فقال أبو دلامة:

لقد خاصمتني غواة الرجال وخاصمتهم سنة وافيه
فما أدحض الله لي حجة وما خيب الله لي قافيه
فمن كنت من جوره خائفاً فلست أخافك يا عافيه

فقال له عافية: لأشكونك لأمير المؤمنين، قال: لم تشكوني؟ قال: لأنك هجوتني، قال: لئن شكوتني إليه ليعزلنك. قال: لماذا؟ قال: لأنك لا تعرف الهجو من المدح.

قال عبد الرحمن بن مسهر: وولآني القاضي أبو يوسف القضاء (بجبل)، وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة، فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني وتفرقوا، فلما يئست منهم سرحت لحيتي وخرجت، فوقفت له فوافى وأبو يوسف في الحراقة، فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع، وجعلت أُثني على نفسي، فرآني أبو يوسف وطأطأ رأسه وضحك فقال له هارون: مم تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي. فضحك هارون حتى فحص برجليه، وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله. فعزلني.

عن علي بن هشام قال: كان للحجاج قاضٍ بالبصرة من أهل الشام، يقال له أبو حمير، فحضرت الجمعة فمضى يريدها، فلقيه رجل من العراق فقال: أين تذهب؟ قال: إلى الجمعة. قال: أما بلغك أن الأمير قد أخر الجمعة اليوم. فرجع. فلما كان الغد قال له الحجاج: أين كنت يا أبا حمير لم تحضر معنا الجمعة؟ قال: أخبرني بعض أهل العراق أن الأمير أخّر الجمعة، فضحك الحجاج. وقال: أما علمت أن الجمعة لا تؤخر؟

تقدم رجل إلى أبي العطوف (قاضي حران) فقال: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكاً لي فخذ لي بحقي. فقال القاضي: عليكما بصاحب الشرطة.

سأل المأمون رجلاً من أهل حمص عن قضاتهم؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن قاضينا لا يفهم وإذا فهم وهم. قال: كيف هذا؟ قال: ادعى عنده رجل على آخر أربعة وعشرين درهماً، فأقر له الآخر، فقال: أعطه. قال: أصلح الله القاضي لي حمار أكتسب عليه كل يوم أربعة دراهم أُنفق على الحمار درهماً وعلي درهماً وأدفع له درهمين، فإذا اجتمع ماله غاب عني فأنفقها، فليحبسه القاضي اثني عشر يوماً حتى

أجمعها له. فحبس صاحب الحق حتى جمعها له، فضحك المأمون وعزله.

كان في (تاهرت) قاضٍ من أهلها، فجنى رجل جناية ليس لها في كتاب الله حد منصوص ولا في السنة، فأحضر الفقهاء وقال: ما ترون؟ فقالوا: الأمر لك. قال: فإن رأيت أن أضرب المصحف بعضه ببعض ثلاث مرات، ثم أفتحه، فما خرج من شيء عملت به. قالوا: وفقت، ففعل بالمصحف ما ذكر، ثم فتح، فخرج قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[1] فقطع أنف الرجل وخلى سبيله.

كان قاضٍ في البادية، يسمى الشيخ زريج (زريق) فمات أعرابي وترك بنتين وثلاث جاموسات، فأرادتا القسمة، فجعلتا جاموستين سهماً وجاموسة سهماً فكل من أخذت الجاموسة الواحدة ترى سهمها أقل، فترافعا إلى الشيخ زريج ليقسم بينهما، فقال جاموسة لفلانة، وجاموسة لأختها، وجاموسة للشيخ زريج، فرضيتا بذلك.

تقدم رجلان إلى أبي ضمضم القاضي، فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً فأنكر المدعى عليه، فقال للمدعي: ألك بينة؟ قال: نعم فأتى بشاهدين، فقال المدعى عليه: سلهما ما صناعتهما؟ فإذا أحدهما نباذ والآخر قواد، فقال القاضي: تريد على طنبور أعدل من هذين، قم فأعطه طنبوره.

ترافعت المرأة مع زوجها إلى الشعبي فقضى عليها، فجعلت تبكي فرق لها بعض الحاضرين، وسأل الشعبي أن يعيد النظر في أمرها فأبى، فقال: أما تراها تبكي. قال: إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون.

ادعى رجل على آخر مالاً فجحده، فترافعا إلى القاضي، فقال: ألك شهود؟ فقال: نعم، وأتى بشاهدين معروفين بالصلاح، فشهدا له، فأراد أن يحكم على خصمه فجزع جزعاً شديداً وضج وبكى، وأنكر أن يكون دفع إليه شيئاً، فعلم القاضي من حاله أنه بريء، وتحير في وجه شهادة الشهود، مع علمه بصلاحهما وعدم احتمال كذبهما، فتوقف عن الحكم، وجعل يفكر في ذلك، ثم قال لهما: هل دفع له هذا المال أمامكما؟ قالا: لا وإنما أحضرنا وقال: اشهدوا أن لي عند فلان كذا، ولم يكن غريمه حاضراً، فشهدنا، فكبّر، وعلم أنهما مغفلان وإن كانا صالحين.

ولذلك قيل: إنا لنرد شهادة من نرجو شفاعته.

ولي رجل قضاء الأهواز، فأبطأت عليه أرزاقه، وحضر عيد الأضحى وليس عنده

---

(١) سورة القلم، الآية ١٦.

ما يضحي به، فأخبر زوجته فقالت: عندنا ديك عظيم سمين، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه، فبلغ الخبر جيرانه، فأهدوا له ثلاثين كبشاً، فقال لزوجته: احتفظي بديكنا، فلهو أكرم على الله من إسحاق بن إبراهيم، إنه فدي بكبش واحد، وديكنا فدي بثلاثين كبشاً.

تنازع رجل مع زوجته، وكانت تخبز وبين يديها بقية دقيق، فوضعته في صرة وجعلتها تحت حزامها، وذهبا إلى القاضي، فلما رأى الصرة ظنها دراهم جاءت بها معها لتعطيه إياها، فجعل القاضي كلما جاء الزوج بحجة أبطلها، وكلما جاءت الزوجة بحجة أيدها، حتى حكم لها عليه، ثم خرجا فلما رأى أنها لم تعطه شيئاً، أرسل وراءها وأشار أنه يريد الصرة، فأخرجتها فإذا فيها دقيق، فقالت: أأخبزه لك أو تأكله دقيقاً؟ فقال: بل انثريه على لحية من يحكم قبل أن يقبض.

أوصى رجل بالشام أن ينفق عنه خمسمائة قرش لمن لا يخاف الله، فلما مات استفتى ولده في ذلك، فقيل له: ادفعها للصوص، فذهب إلى مكان يأوي إليه اللصوص في البرية ومعه المال فما شعر اللصوص إلا وهو معهم فذعروا منه، فقال لهم: لا تخافوا وخذوا هذا المال، فعجبوا من ذلك وسألوه! فأخبرهم أن أباه أوصى به لمن لا يخاف الله، فأبوا أن يأخذوه، وقالوا: نحن نخاف الله، وإذا خرجنا من بيوتنا نطلب من الله الستر، ولا نرضى لأنفسنا أن نكون ممن لا يخاف الله، فرجع متحيراً فأُشير عليه أن يسأل القاضي ويأخذ بما يقوله، فسأله فقال: إن في دار المحكمة تراباً حصل من ترميمها فاستأجر على نقله بذلك المال تبرأ ذمتك، فاستأجر عليه فلما تم نقله وأراد الانصراف، قال له القاضي: إلى أين؟ قال: إلى منزلي. قال: وأين ثمن التراب؟ وألزمه بدفع ثمنه فعلم حينئذ أن المال صار إلى من لا يخاف الله.

كان في بغداد قاض، وفي بعض الأيام لم يكن عنده ما ينفق، فقال لخادمه: اذهب فانظر هل تجد أحداً له دعوى ولو ميتة، أو دين على أحد ولو هالكاً، أو شيء يتشبث به فائتني به، فذهب الخادم فلم يجد أحداً، فقال: اذهب وائتني بأول من تراه أياً كان، فذهب فرأى رجلاً فقال: أجب القاضي. فقال: ليس لي معه شغل، فقال: لا بد من ذهابك إليه. فجاء فقال له القاضي: هل لك دعوى على أحد؟ قال: لا. قال: هل عليك دعوى لأحد؟ قال: لا. قال: هل لك دين على أحد حتى نحصله لك؟ قال: لا. قال: هل عليك دين لأحد؟ قال: لا. قال: هل ورثت ميراثاً يحتاج إلى قسمة لنقسمه لك؟ قال: لا. قال: هل أنت وصي لأحد حتى نثبت لك وصايتك؟ قال: لا. فلما

أعياه، قال لكاتبه: اكتب له إعلاماً شرعياً بأنه ليس مدعياً ولا مدعى عليه. فقال: خذ هذا الإعلام فأخذه وألزمه بدفع رسمه، فدفعه فأعطاه للخادم وقال: اذهب إلى السوق واشتر به لوازم البيت.

ترافع خصمان إلى قاضٍ لا يقرأ ولا يكتب، فحكم لأحدهما على الآخر فطلب المحكوم له أن يكتب له صورة الحكم، فخجل أن يقول إنه أمي، وأخذ القلم وخط خطوطاً مختلفة في القرطاس ليوهم الخصمين أنه يكتب، وكانا أميين كقاضيهما وأعطاه للمحكوم له، وبعد سنة تنازعا فترافعا إليه فحكم للمحكوم عليه أولاً، وكان قد نسي الحكم الأول، فقال صاحبه: قد ترافعنا إليك في العام الماضي وحكمت لي وأراه الورقة فتأملها ملياً، ثم قال: ذلك حكم العام الماضي وهذا حكم اليوم.

وفي كتاب (المستطرف):

وتقدمت امرأة إلى قاضٍ، فقال لها: جاء معك شهودك؟ فسكتت، فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك، كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك.

وفي كشكول الشيخ يوسف البحراني:

إن إياس بن معاوية عندما كان قاضياً: إن رجلاً أودع عند أمينه مالاً وخرج إلى الحجاز، فلما رجع إليه جحده، فأخبر إياس القاضي، فقال له إياس: انصرف إلى يومين، فمضى الرجل، ودعا إياس أمينه فقال: قد حضر عندنا مال كثير وأُريد أن أُسلمه إليك فحصن منزلك. قال: نعم، وقال له: أحضر من يحمل المال. فرجع الرجل إلى إياس فقال له: انطلق إلى صاحبك فإن أعطاك فذاك، وإن جحد فقل: إني أُخبر القاضي بالقصة، فأتى الرجل صاحبه فقال: أعطني الوديعة أو أشكوك إلى القاضي، فدفع إليه المال ورجع الرجل وأخبر إياساً، وجاء الأمين ليأخذ المال الموعود فزبره وقال: لا تقربني بعد هذا يا خائن.

قرأت في كتاب (أخبار القضاة): أن كعب بن سور كان جالساً عند عمر بن الخطاب، فجاءت امرأة، فقالت: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي إنه ليبيت ليله قائماً، ويظل نهاره صائماً في اليوم الحار ما يفطر. فاستغفر لها، وأثنى عليها، وقال: مثلك أثنى الخير وقاله، واستحيت المرأة، فقامت راجعة، فقال كعب:

يا أمير المؤمنين، هلا أعديت المرأة على زوجها، إذ جاءتك تستعديك؟ قال: أو ذاك أرادت؟ قال: نعم، فردت، فقال: لا بأس بالحق أن تقوليه إن هذا زعم أنك جئت تشتكين زوجك أنه يجتنب فراشك، قالت: أجل إني امرأة شابة، وإني أتتبع ما يتتبع النساء، فأرسل إلى زوجها فجاءه، فقال لكعب: اقض بينهما، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهمه، فقال كعب: أمير المؤمنين أحق أن يقضي بينهما، فقال: عزمت عليك لتقضين بينهما. قال: فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن، فأقضي له بثلاثة أيام ولياليهن، يتعبد فيهن، ولها يوم وليلة. فقال عمر: والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر، اذهب فأنت قاضٍ على أهل البصرة، ويزيد بعضهم أن المرأة التي أتت عمر بن الخطاب تثني على زوجها، فقال له كعب إنها تشكوه. وقال عمر: اقضِ بينهما: تكلمت المرأة فقالت:

يا أيها القاضي الحكيم رشده	ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهدة في مضجعي تعبده	نهاره وليله ما يرقده
ولست في أمر النساء أحمده	فاقض القضا يا كعب لا تردده

فقال الزوج:

إني امرؤ أذهلني ما قد نزل	في سورة النور وفي السبع الطول
زهدني في فرشها وفي الحجل	وفي كتاب الله تخويف جلل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

فقال كعب:

إن أحق القاضيين من عقل	ثم قضى بالحق جهداً وفصل
إن لها حقاً عليك يا بعل	نصيبها من أربع لمن عدل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

في كتاب (جمع الجواهر في الملح والنوادر). قال أزهر: استعدت امرأة على زوجها عند ثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك، وهو قاضٍ، فادعت مهرها ألف درهم، فقال: ألك بينة؟ قالت: لا، قال: أفأُحلفه لك؟ قالت: إنه فاجر يحلف، ولكن ابعث إلى إسحاق بن سويد الفقيه فسله أن يحلف لي عنه. قال فأرسل إلى إسحاق بن

سويد فلما حضر، قال له: احلف لهذه المرأة ما لها على زوجها ألف درهم، قال إسحاق: ما أنا وهذا! قال: فيبطل حق هذه المرأة، لتحلفن لها أو لأحبسنك، فلم يحلف فحبسه، فأتاه ابن سيرين فقال: لا ألومك على حبسك إسحاق، ولكن لم وليت القضاء؟ قال: أكرمني عليه السلطان. قال: كنت تعلمه أنك لا تحسنه. قال: كنت أنا أكذب.

وكان نصر بن مقبل بن الوزير على الرقة عاملاً لهارون الرشيد، فأخذ بعض أصحابه رجلاً ينكح شاة، وأجمعوا الذهاب به إلى نصر، وكان الرجل ظريفاً فقال: يا قوم، إنها والله ملك يميني. فضحكوا منه وخلوا سبيله، وذهبوا بالشاة إلى نصر، فأمر أن تضرب الحد، فإن ماتت تصلب. قالوا: إنها بهيمة قال: وإن كانت بهيمة، فإن الحدود لا تعطل، وإن عطلتها فبئس الوالي أنا. فانتهى حديثه إلى الرشيد ولم يكن رآه، وكان نبيل القد، حسن المنظر جليل القدر، فدعا به فوقف بين يديه، فقال: من أنت؟ قال: مولى لبني الكلب يا أمير المؤمنين، فضحك ثم قال: كيف بصرك في الحكم؟ قال: البهائم يا أمير المؤمنين والناس عندي سواء، ولو وجب الحكم على بهيمة وكانت أمي أو أختي لحددتها، ولم تأخذني في الله لومة لائم، فأمر هارون ألا يستعمل.

وكان مقاتل بن حسان على قضاء البصرة، فسأله رجل عن مسألة. فقال: لا أعرف الجواب، فقال: أنت قاض ولا تحسن المسألة؟ قال: نعم! لأن الثور أعظم من الحمار ولا يحسن أن يركض ركض الحمار. قال: أيها القاضي فهذا مثلك؟ قال: بل هذا مثلي ومثلك. قال: فأيهما أنت؟ قال: أنبلهما وأعظمهما ـ يعني الثور.

وفي نهاية الأرب في فنون الأدب:

وأحضر رجل امرأته إلى بعض قضاة البصرة، وكانت حسنة المنتقب، قبيحة المسفر، فمال القاضي لها على زوجها وقال: يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء إليها، ففطن الرجل لميله إليها، فقال: أصلح الله القاضي، قد شككت في أنها امرأتي فمرها تسفر عن وجهها، فوقع ذلك بوفاق من القاضي، فقال لها: أسفري رحمك الله، فسفرت عن وجه قبيح، فقال القاضي لما نظر إلى قبح وجهها: قومي عليك لعنة الله، كلام مظلوم، ووجه ظالم.

وقال رجل لإياس: هل ترى عليَّ من بأس إن أكلت تمراً؟ قال: لا، قال: فهل ترى علي من بأس إن أكلت معه كيسوماً؟ قال: لا؛ قال: فإن شربت عليهما ماء؟ قال: جائز، قال: فلم تحرم السكر وإنما هو ما ذكرت لك؟ قال له إياس: لو صببت عليك

ماء هل كان يضرك؟ قال: لا، قال: فلو نثرت عليك تراباً هل كان يضرك قال: لا، قال: فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته، وجعلت منه لبنة عظيمة، فضربت بها رأسك هل كان يضرك؟ قال: كنت تقتلني. قال: فهذا مثل ذاك.

دعا الرشيد أبا يوسف القاضي. فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح. فقال: عجلوها له، فقيل: إن الخازن في بيته، والأبواب مغلقة، فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فلما دعيت فتحت، فقال له الرشيد: بلغني أنك لا ترى لبس السواد. فقال: يا أمير المؤمنين ولم؟ وليس في بدني شيء أعز منه. قال: وما هو؟ قال: السواد الذي في عيني.

وسأل الرشيد الأوزاعي عن لبس السواد فقال: لا أحرمه، ولكني أكرهه قال: ولم؟ قال: لأنه لا تجلى فيه عروس، ولا يلبي فيه محرم، ولا يكفن فيه ميت. فالتفت الرشيد إلى أبي يوسف، وقال: ما تقول أنت في السواد؟ قال: يا أمير المؤمنين، النور في السواد. فاستحسن الرشيد ذلك، ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين، قال: وما هي؟ قال: لم يكتب كتاب الله إلا به. فاهتز الرشيد لذلك.

واستفتي بعض القضاة، وقد نسبت إلى القاضي أبي بكر بن قريعة، فقيل له: ما يقول سيدنا القاضي أيده الله في رجل باع حجراً (الحجر: الأنثى من الخيل) من رجل فحين رفع ذنبها ليقلبها، خرجت منها ريح مصوتة اتصلت بحصاة ففقأت عين المشتري، أفتنا في الدية والرد يرحمك الله. فأجاب: لم تجر العادة بمثل هذه البدائع، بين مشتر وبائع، فلذلك لم يثبت في كتب الفقهاء ولم يستعمل في فتوى العلماء، لكن هذا وما شاكله يجري مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه ـ وبالله العصمة من الزلل والخطل ـ إن دية ما جنته الحجر ملغى في الهدر عملاً بقول النبي ﷺ: «جرح العجماء جبار» لا سيما والمشتري عند كشفه لعورتها استثار كامن سورتها، وعلى البائع لها ارتجاعها، ورد ما قبض من ثمنها، لأنه دلس حجراً مضيقها منجنيقها وإذا كانت السهام طائشة، فهي من العيوب الفاحشة، وكيف يمتنع ردّها، وأغراضها نواظر الحدق، وقلما يستظهر المقلبون الخيل بالدرق.

ما قيل في القضاة من الشعر

في كتاب المستطرف: عن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال:

أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً فكتبنا إلى أبي بكر فكتب إلينا لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير وكاتباه — وقاضي الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل — لقاضي الأرض من قاضي السماء

وفيه:

أبكي وأندب ملة الإسلام — إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة — وأراك بعض حوادث الأيام

وفيه إن المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام قاضي منى، وقاضي كسكر، وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصابي:

يا رب علج أعلج — مثل البعير الأهوج
رأيته مطلعاً — من خلف باب مرتج
وخلفه عذيبة — تذهب طوراً وتجي
فقلت من هذا ترى — فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأساً كدبه — ولحية كالمذبه
فقلت من أنت فقال — فقال قاضي شلبه

وفي المجلد الرابع من شرح ابن أبي الحديد؛ (لنهج البلاغة):

يا أهل بغداد قد قامت قيامتكم — مذ صار قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حيّاً له الحجاج ما سلمت — صحيحة يده من وسم حجاج

وفي كتاب (معادن الجواهر):

لبعضهم أورده في الريحانة:

وقاض لنا حكمه ما مضى — وأحكام زوجته ماضيه
فيا ليته لم يكن قاضياً — ويا ليتها كانت القاضيه

وللصاحب بن عباد في قاض، أورده في اليتيمة:

لنا قاضٍ له راس — من الخفة مملوء

وفي أسفله داء بعيد منكم السوء

وأورد له أيضاً:

إن قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن العيد أموال اليتامى

وأورد له أيضاً:

يا قاضياً بات أعمى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في عيد

وفي ثمرات الأوراق للحمويني:

إن قاضياً اسمه تاج الدين، وله غلامان يعلوانه أحدهما اسمه ياقوت والثاني جوهر، فقال بعضهم فيه:

قلت لتاج الدين في خلوة وقد علاه عبده الأكبر
التاج يعلو فوقه غيره قال نعم ياقوت أو جوهر

ونقل لي الأخ فضيلة الشيخ إسماعيل الشيخ محمد صالح الجزائري، أن أباه الشيخ محمد صالح (رحمه الله) كتب إلى ولده الشيخ نور الدين بيتين من الشعر:

أنور الدين إن تطلب علوماً تفقه فالفقيه له مزيه
ولا تك قاضياً ما دمت حياً فإن به كما يروى قضيه

قرأت في كتاب (أخبار القضاة):

قال أبو هفان: جاء أعرابي من بني تميم إلى يحيى بن أكثم فمدحه فحرمه فقال:

قل لابن أكثم يحيى خبت من رجل يرى إلى أقبح الأفعال منسوبا
فسقاً وبخلاً وأخلاقاً مذممة إن كنت في الجنب ركاباً ومركوبا
لا تفخرن فلولا عظم ما اجترحت أيدي البرية ما أصبحت محجوبا
إني لراج سريعاً أن أراك به في الدين والمال محزوناً ومسلوبا

فما مضى عليه شهر حتى أوقع به المتوكل.

وفيه أيضاً:

وأنشدنا أحمد بن أبي خيثمة لموسى شهوات، يهجو سعد بن إبراهيم:

قل لسعد وجه العجوز لقد كنت لما أتيت سعداً مخيلا

إن تكــن ظــالمــاً جهــولاً فقــد كــا ... ن أبــوك الأدنــى ظلــومــاً جهــولا

وقال موسى يهجوه:

لعــن الله والعبــاد ثطيــط الــوجــه ... لا يــرتجــى قبيــح الجــواري
يتقـــي النـــاس فحشـــه وأذاه ... مثــل مــا يتقــون بــول الحمــار
لا يغــرنــك سجــدة بيــن عينيــه ... حــذاراً منهــا ومنهــا حــذار
إنهــا سجــدة بهــا يخــدع النــاس ... عليهــا مــن سجــدة بــالــدبــار

وقال موسى أيضاً يهجوه، أنشدنيها عبدالله بن الحسين، عن النميري:

هــلال بــن يحيــى غــرة لا خفــاء بهــا ... على الناس في عسر الزمان وفي اليسر
وسعــد بــن إبــراهيــم ظفــر مــوســخ ... متى يستريــح النــاس مــن وسـخ الظفـر

وفيه أيضاً:

روي لنا أن الملك العزيز كتب إلى القاضي أبي الطيب الطبري:

يــا أيهــا العــالــم مــاذا تــرى ... فــي عــاشــق ذاب مــن الــوجــد
مــن حــب ظبــي أهيــف أغيــد ... سهــل المحيــا حســن القــد
فهــل تــرى تقبيلــه جــائــزاً ... فــي النحــر والعينيــن والخــد
مــن غيــر مــا فحــش ولا ريبــة ... بــل بعنــاق جــائــز الحــد
إن أنــت لــم تفــتِ فــإنــي إذاً ... أصيــح مــن وجــدي وأستعــدي

فأجابه:

يــا أيهــا الســائــل إنــي رأى ... تقبيلــك العيــن مــع الخــد
يفضــي إلــى مــا بعــده فــاجتنب ... تقبيلــه بــالجــد والجهــد
فــإن مــن يــرتــع فــي روضــة ... لا بــد أن يجنــي مــن الــورد
وإن مــن تحسبــه نــاسكــاً ... يغلــب عنــد الأنــس بــالمــرد
فــاستعمــل العفــة واعــص الهــوى ... يسلــم لــك الــديــن مــع الــود
تغنيــك عنــه كــاعــب نــاهــد ... تضمــه بــالملــك وبــالعقــد
تبلــغ منهــا كــل مــا تشتهــي ... مــن غيــر مــا فحــش ولا رد
هــذا جــوابــي لقتيــل الهــوى ... فــلا تكــن فــي الحــق تستعــدي

في الجزء الرابع ص ٤٠٣ من يتيمة الدهر للثعالبي:

أبو جعفر البحاث، محمد بن الحسين بن سليمان من (زوزن) إحدى كور

(نيسابور) مشهور بالأدب والعلم، وكان له محل من الشعر وتصرف في القضاء ببلاد خراسان وأنشد قول ابن المنجم:

فــلا تجعلنــي للقضــاة فــريســة فــإن قضــاة العــالميــن لصــوص
مجــالسهــم فينــا مجــالــس شــرطــة وأيــديهــم دون الشصــوص شصــوص

فقال مجيزاً لهما:

ســوى عصبــة منهــم تخــص بعفــة ولله فــي حكــم العمــوم خصــوص
خصـــوصهـــم زان البـــلاد وإنمـــا يــزيــن خــواتيــم الملــوك فصــوص

لعبد الباقي العمري:

وقــاضٍ بجــور مــا لــه مــن مضــارع على أنه في العسف أقطع من ماضي
يقــولــون يقضــي قلــت لكــن ببــاطــل وقــالــوا يقــص الحــق قلــت بمقــراض



حَقُّ المُسْتَشِيرِ

قَولُهُ عليه السلام :

«أَمَّا حَقُّ المُسْتَشِيرِ إِنْ عَلِمْتَ لَهُ رَأْياً حَسَناً أَشَرْتَ عَلَيهِ بِمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ لَو كُنْتَ مَكَانَهُ عَمِلْتَ بِهِ، وَلْيَكُنْ ذَلِكَ مِنْكَ فِي رَحْمَةٍ وَلِينٍ، فَإِنَّ اللِّينَ يُؤْنِسُ الوَحْشَةَ، وَإِنَّ الغِلْظَةَ تُوحِشُ مَوْضِعَ الأُنْسِ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْكَ لَهُ رَأْيٌ وَعَرَفْتَ لَهُ مَنْ تَثِقُ بِرَأيِهِ وَتَرضَى بِهِ لِنَفْسِكَ دَلَلْتَهُ عَلَيهِ وَأَرشَدْتَهُ إِليْهِ فَكُنْتَ لَمْ تَأْلُهُ خَيْراً، وَلَمْ تَدَّخِرْهُ نُصْحاً، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ».







إن الحياة تقضي على الناس بالمشاورة، لأن الفرد الواحد ينظر إلى الدنيا بعينين، والمستشير ينظر إليها بعيون كثيرة، فإذا خفي عليه جانب من جوانبها وضح ذلك الجانب للمستشار، على أن الإنسان لا يخلو أحياناً من ارتباك فكر واضطراب نفس، وقلق خاطر، وتفاجئه أحياناً حوادث وهو في هم يزعجه وألم يمضه، وشغل يأخذ من انتباهه وشعوره.

ومن المعروف عند الشعوب عامة، أن الاستبداد في الرأي والتدبير باب للخطأ وعرضة للغلط، ومظنة التقصير، لأن العقول لا تحيط بكل شيء، ولا تضمن النجاح في كل فكر، ولذلك أخذت الشعوب بالشورى في الرأي بالسياسة وكان لها مجالس لمبادلة الآراء ومناقشة الاقتراحات.

لهذا النقص الواضح في الاستبداد كان الإسلام يدعو إلى الشورى، وكان أهل البيت (عليهم السلام) يدعون إلى المشاورة ومبادلة الرأي.

ولكن المشاورة لا ينبغي أن تكون مجازفة تطلع كل إنسان على سرك، وتكشف مضمراتك لكل أحد، كما أن المشاورة لا ينبغي أن تطلبها ممن ليس هو أهلاً لها، وليس له مواهب ولا ملكات ترشحه لأن يكون مستشاراً مؤتمناً.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن المشورة لا تكون إلا بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير أكثر من منفعتها له فأولها: أن يكون الذي تشاوره عاقلاً. والثانية: أن يكون حراً متديناً. والثالثة: صديقاً مؤاخياً. والرابعة: أن تطلعه على سرك، فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يسر ذلك ويكتمه. فإنه إذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته، وإن كان حراً متديناً أجهد نفسه في النصيحة لك، وإذا كان صديقاً مؤاخياً كتم سرك إذا أطلعته عليه، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به تمت المشورة وكملت النصيحة. فإذا تكاملت هذه الأوصاف، واجتمعت هذه الشروط فالاستشارة لا معدى عنها ولا معرة فيها لمن يحاول نجاح الأمور والظفر بالفوز.

أجل، فليس كل فرد صالحاً لهذه المهمة، وإنما الرأي الحصيف مختمر عند من خبروا الحياة وبلوها، وعرفوا خيرها وميزوا شرها.

وإذا استشارك شخص فسر على ضوء قول الإمام السجاد عليه السلام: بأن تعلم أن قد أولاك ثقته واطمئنانه إلى حسن رأيك، فاجهد أن تعطيه الرأي السديد، والذي تستطيع أن تعمل به لو كنت مكانه. ويجب أن تبدي رأيك واضحاً من غير غموض، برفق ولين من غير عنف وغلظة، فلست بمكره لمستشيرك على أن يعمل ما ترى، وإنما الذي دفعه إلى استشارتك ظنه أنك تملك رأياً حسناً وتجربة في الحياة وخبرة، أما إذا لم تجد عندك رأياً، فليس بأقل من أن ترشده إلى شخص تثق به ويثق بك ذو الرأي من الناس، فتكون قد قمت بحقه، وأديت ما عليك من الواجب.

ومن أروع ما جاء في حكم الإمام الحسن عليه السلام في الشورى قوله:

«الرجال ثلاثة: رجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فالرجل الذي هو رجل، من كان ذا عقل واستشار ذوي العقول، والذي هو نصف رجل، من كان ذا عقل واستبد بعقله، والذي هو لا رجل: من لم يكن ذا عقل ولم يستشر ذوي العقول».

فالمشورة إذن هي عنوان كمال الإنسان، وكرامته، وعصمته من التهافت وهي الوقاية الأولى للرجل الكبير من الخطأ باللسان والخطل في الجنان، وكم تهافتت الملوك وتهاوت الأرؤس، من سوء ما يستبدون بعقولهم، أو من سوء ما يختارون من مستشاريهم.

والله سبحانه، وإن لم يكن رسوله مفتقراً بمشاورة من هو دونه من أصحابه، ولا إلى حاجة منه إلى رأيهم، ولكن ليعلم ما في المشاورة من بركة. وقيل: أمره بذلك تألفاً لهم وتطييباً لنفوسهم. وقيل: ليستن بذلك المسلمون. فهو في غير حاجة إلى عقولهم ما دام رسولاً يوحى إليه ما يسدد فكره ويغنيه عن فكر غيره، وإنما يريد بذلك تعليمنا أن الإنسان ناقص ما استقل عن أخيه الإنسان، فإذا شاركه في الرأي كان كاملاً، يعلمنا كيف نحيا، وأن الحياة فينا إنما تقوم على التضامن والتكافل والتعاون في كل شيء من أشياء هذه الحياة.

ومن المعلوم أن لكل نبي مستشاراً، ولكل ملك مستشار، ولكل وزير كذلك مستشار يفضون إليهم بما يرون من تدبير الرعية وحماية الملك.

وفي الأخبار: «أن لكل نبي أوصياء يتعاقبون على تعزيز شريعته». والوصي

الأول هو مستشاره، ثم يأتي بعد ذلك توارثهم هذا التشاور واحداً بعد واحد.

فالذي يصلنا من التاريخ المجهول على لسان الوحي: أن سليمان النبي كان له مستشار حكيم هو الذي أجابه حين طلب منهم أن ينقلوا إليه عرش ملكة سبأ من اليمن إلى البيت المقدس حيث كان سليمان، كما عبر الله عن ذلك بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(١) هذا مستشار سليمان، وتسميه قصص الأنبياء (آصف بن برخيا).

والنبي موسى بن عمران عليه السلام كان له مستشار هو أخوه هارون، إذ ناجى موسى ربه يسأله وزيراً من أهله يشركه في أمره ويشد به أزره.

وعيسى عليه السلام كان له مستشارون هم حواريوه، إذ شاورهم في أمره وسألهم نصرته على أعدائه.

وهكذا نصل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان يستشير أصحابه حين أمره الله تعالى بذلك في قوله عز من قائل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(٢).

وقد جمع أصحابه بعد يوم الأحزاب يستشيرهم في ماذا يصنع باليهود الذين خانوه ونكثوا عهده معهم، وقد أخرجهم من معاقلهم، فلما مثلوا بين يديه قال: أين السعود؟؟ فجاءه سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن أبي وقاص، واستشارهم في الناكثين. فقالوا: نقتل رجالهم ونستحيي نساءهم وذراريهم. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد حكمتم بحكم الله فيهم».

ومنها لما نزل ببدر بأدنى ماء هناك، قال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا متقدم ولا متأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل الرأي والحرب والمكيدة. فقال الحباب: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى منزل من القوم، فتنزل على مائه، ثم تغير ما وراءه من القلب والآبار، وتعمل لك حوضاً فتملأه ماء، ثم تقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ولقد أشرت بالرأي. فنهض صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه وسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، وعمل ما أشار به الحباب بن المنذر.

---

(١) سورة النمل، الآية ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

ولقد كان الإمام علي عليه السلام مستشاره الأول إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب».

وفي هذا دليل على أنه كان يشارك وصيه في أمره ويفضي إليه بسره. ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أقضاكم علي» فكان علي أثبت الخلفاء الراشدين على ولايته للرسول، وأحفظهم لعهده، وأوفاهم لرسالته من بعده، وقول الخليفة الثاني في حقه: «لولا علي لهلك عمر، وقوله: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن».

والمشورة التي يأمر الله بها رسوله ليعلم بها عباده، قاصرة على ذوي العقول والإيمان، لأن العاقل لا يخطىء والمؤمن لا يغش، ومن استشار ذوي العقول شاركهم في عقولهم، فإن العقل إلى العقل إلهام رباني، وقد قيل في الكلام المأثور (الذود إلى الذود إبل) يشير إلى أن ضم الفرد إلى الفرد يشكل جماعة، والجماعة أقوى من الفرد في تعزيز الحياة، فإذا أردت أن تقدم على أمر وأنت قدوة لغيرك، كان عليك أن تتصرف بأكثر من عقل، لأن أمر القائد ليس مفروضاً على فرد، وإنما هو فرض على جماعة قد تكون شعباً أو أمة.

لهذا كانت الشورى من لوازم السيادة، وكان مستشار الملك أو القائد شريكاً له في سيادته بما ينصح ويعظ، وبما يسدي إلى السيد من رأي حصيف يستعين به على رعاية شعبه وتوجيه أمته، هكذا يفهم الحريص على الإنسانية من قوله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(١) ونعت عباده المؤمنين بقوله عز من قائل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾(٢).

واستشار أمير المؤمنين علي عليه السلام أصحابه عندما أراد المسير إلى حرب معاوية: قال ابن أبي الحديد في المجلد الأول من شرح النهج من الطبعة الأولى: «لما أراد علي عليه السلام المسير إلى الشام دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار، فجمعهم ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعد، فإنكم ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحق، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم:

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد، يا أمير

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨.

المؤمنين فأنا بالقوم جد خبير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء وهم مقاتلوك ومجادلوك، لا يبغون جهداً مشاحة على الدنيا، وضناً بما في أيديهم منها ليس لهم إربة غيرها، إلا ما يخدعون به الجهال من طلب دم ابن عفان، كذبوا ليسوا لدمه ينفرون ولكن الدنيا يطلبون، انهض بنا إليهم فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وإن أبوا إلا الشقاق فذاك ظني بهم، والله ما أراهم يبايعون وقد بقي فيهم أحد ممن يطاع إذا نهى، ولا يسمع إذا أمر.

وقام عمار بن ياسر (ره) فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أمير المؤمنين إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى حظهم ورشدهم، فإن قبلوا سعدوا وإن أبوا إلا حربنا، فوالله إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وكرامة منه.

وقام قيس بن سعد بن عبادة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرج، فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم، لإدهانهم في دين الله واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه وضربوه وحرموه وسيروه، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ونحن لهم فيما يزعمون قطين.

ثم قام سهل بن حنيف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت، ورأينا رأيك ونحن يمينك، وقد رأينا أن تقوم في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل، فإنهم أهل البلد وهم الناس، فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب، فأما نحن فليس عليك خلاف منا، ومتى دعوتنا أجبناك ومتى أمرتنا أطعناك.

وقام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين، إن جميع من ترى من الناس شيعتك، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ولا يحبون البقاء بعدك، فإن شئت فسر بنا إلى عدوك فوالله ما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه، وإنا لعلى بينة من ربنا، وإن أنفسنا لن تموت حتى يأتي أجلها، وكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس وباعوا خلاقهم بعرض من الدنيا يسير.

وقام عدي بن حاتم الطائي بين يدي علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، ما قلت إلا بعلم ولا دعوت إلا إلى حق ولا أمرت إلا برشد، ولكن إذا

رأيت أن تستأني هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيهم كتبك وتقدم عليهم رسلك فعلت، فإن يقبلوا يصيبوا رشدهم والعافية أوسع لنا ولهم، وإن يتمادوا في الشقاق ولا ينزعوا عن الغي نسير إليهم، وقد قدمنا إليهم بالعذر ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فوالله لهم من الحق أبعد وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لما دعوناهم إلى الحق فتركوه، ناوخناهم براكاء القتال حتى بلغنا منهم ما نحب، وبلغ الله منهم رضاه فيما يرى.

وقام زيد بن حصين الطائي، وكان من أصحاب البرانس المجتهدين، فقال: الحمد لله حتى يرضى ولا إله إلا الله ربنا، أما بعد، فوالله إن كنا في شك من قتال من خالفنا، لا تصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم، ما الأعمال إلا في تباب، ولا السعي إلا في ضلال، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1]، إننا والله ما ارتبنا طرفه عين فيمن يتبعونه، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم القليل من الإسلام حظهم، أعوان الظلمة وأصحاب الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان.

وقام يزيد بن قيس الأرحبي، فقال: يا أمير المؤمنين نحن أولو جهاز وعدة، وأكثر الناس أهل قوة، ومن ليس به ضعف ولا علة، فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم، ولا من إذا أمكنته الفرص أجّلها واستشار فيها، ولا من يؤخر عمل الحرب اليوم لغد وبعد غد.

وقام زياد بن النضر وقال: لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين وقال ما يعرف، فتوكل على الله وثق به واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً، فإن يرد الله بهم خيراً لا يتركون رغبة عنك إلى من ليس له مثل سابقتك وقدمك، وإلا ينيبوا ويقبلوا وأبوا إلا حربنا تجد حربهم علينا هيناً، ونرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس.

وقام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، فقال: يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا الله يريدون، ولله يعملون ما خالفونا، ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحباً للأثرة وضناً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحن في نفوسهم وعداوة يجدونها في صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة

---

(١) سورة الضحى، الآية ١١.

قتلت فيها آباءهم وأعوانهم. ثم التفت إلى الناس فقال: كيف يبايع معاوية علياً، وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة في موقف واحد؟ والله ما أظنهم يفعلون ولن يستقيموا لكم دون أن تقصف فيهم قنا المران، وتقطع على هامهم السيوف وتنثر حواجبهم بعمد الحديد وتكون أمور جمة بين الفريقين.

وقال عمرو بن الحمق: والله يا أمير المؤمنين، إني ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان ترفع ذكري به، ولكنني أحببتك بخصال خمس: إنك ابن عم رسول الله ﷺ ووصيه، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ، وأسبق الناس إلى الإسلام، وأعظم المهاجرين سهماً في الجهاد، فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي حتى يأتي علي يومي في أمر أُقوي به وليك، وأُهين عدوك، ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق علي من حقك، فقال علي عليه السلام: اللهم نور قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم، ليت في جندي مائة مثلك.

وقام حجر بن عدي فقال: يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها ونتنجها، قد ضارستنا وضارسناها، ولنا أعوان وعشيرة ذات عدد ورأي مجرب وبأس محمود، وأزمّتنا منقادة لك بالسمع والطاعة، فإن شرقت شرقنا، وإن غربت غربنا، وما أمرتنا به من أمر فعلنا. فقال علي عليه السلام: أكلّ قومك يرى مثل رأيك؟ قال: ما رأيت منهم إلا حسناً، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة. فقال له علي عليه السلام: خيراً. فعند ذلك عزم عليه السلام على المسير وكتب إلى الأمصار يدعوهم للجهاد.

وشاور عمر بن الخطاب أمير المؤمنين علياً عليه السلام، في خروجه إلى غزو الروم بنفسه. فأشار عليه أمير المؤمنين بعدم الخروج فأخذ برأيه والتزم به.

أدرك عمر ما لعلي من أثر بليغ في الشريعة والسنة، ومن قضاء حكيم، ورأي صحيح ومشورة محترمة، فاندفع إليه مسترشداً، ووضع بين يديه أمهات المسائل يلتمس حلها ويوقي عمر أمرها.

ذكر ابن أبي الحديد، في المجلد الثاني من شرح النهج ص ٣٨٩ من الطبعة الأولى:

إن علياً عليه السلام قال له: «وقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة، وستر

العورة، والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون، حي لا يموت إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأُخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين».

وأشار عليه السلام عليه أن لا يشخص بنفسه حذراً أن يصاب فيذهب المسلمون كلهم لذهاب الرأس، بل يبعث أميراً من جانبه على الناس ويقيم هو بالمدينة، فإن هزموا كان مرجعهم إليه.

واستشاره أيضاً في الشخوص لقتال الفرس بنفسه. قال ابن أبي الحديد في المجلد المذكور ص ٤٢٤ أشار عليه علي عليه السلام، أن لا يخرج بنفسه، وقال له: «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع، ونحن على موعود من الله، والله منجز وعده وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالإجتماع، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة».

واستشاره أيضاً في تعيين التاريخ الإسلامي، فأشار عليه أمير المؤمنين عليه السلام، أن يكون من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعمل به.

قال ابن جرير الطبري في تاريخه ج٢ ص ٢٥٣ الطبعة الأولى الحسينية ما نصه: «حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: حدثنا الدراوردي عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع، قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم فقال: من أي يوم نكتب؟ فقال

علي عليه السلام: من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله، وترك أرض الشرك ففعله عمر.

وذكر المتقي في كنز العمال ج٥ ص ٢٤٤، ما ذكره الطبري في تاريخه من رجوع عمر إلى أمير المؤمنين عليه السلام في تعيين التاريخ الهجري.

وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٩٤ ما نصه: وأخرج البخاري عن ابن المسيب قال: أول من كتب التاريخ عمر بن الخطاب لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علي.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية ج٧ ص ٧٣، ما نصه: وفي ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة ست عشرة ـ كتب عمر بن الخطاب التاريخ وهو أول من كتبه، ثم قال ابن كثير: قلت: قد ذكرنا سببه في سيرة عمر، وذلك أنه رفع إلى عمر صك مكتوب لرجل على آخر بدين يحل عليه في شعبان فقال: أي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون منه حلول ديونهم، فيقال: إنهم أراد بعضهم أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك أرّخوا من تاريخ ولاية الذي بعده فكرهوا ذلك، ومنهم من قال: أرّخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك ولطوله أيضاً، وقال قائلون: أرّخوا من مولد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال آخرون: من مبعثه عليه السلام وأشار علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرون أن يؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة، لظهوره لكل أحد، فإنه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر والصحابة فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله عليه السلام، وأرّخوا من أول تلك السنة من محرمها».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار».

وقيل له صلى الله عليه وآله: «ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوي الرأي واتباعهم».

وقال: «ما شقي عبد قط بمشورة، ولا سعد باستغناء رأي».

وفي كتاب (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة).

قال: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، ولم يكن أمركم شورى بينكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

وقال: «المستشار مؤتمن، والمستشير معان».

وقال: «لا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير».

وقال: «الحزم أن تستشير ذا الرأي وتطيع أمره».

وقال: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا».

وقال: «إذا أشار عليك العاقل الناصح فاقبل، وإياك والخلاف عليه فإن فيه الهلاك».

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها».

وقال: «استشر أعداءك تعرف من رأيهم مقدار عداوتهم ومواضع مقاصدهم».

وقال: «لا ظهير كالمشاورة».

وقال: «ولا مظاهرة أوثق من المشاورة».

وقال: «والاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه».

وقال: «ما عطب امرؤ استشار».

وقال: «من لم يستشر يندم».

وقال: «لا رأي لمن انفرد برأيه».

وقال: «من شاور ذوي الألباب دل على الرشاد».

وفي كتاب (محاسن البرقي) عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «في التوراة أربعة أسطر: من لا يستشر يندم، والفقر الموت الأكبر، كما تدين تدان، ومن ملك استأثر».

وفي كتاب (أخلاق آل محمد):

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به، أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع؟ ثم قال عليه السلام: أما إنه إذا فعل ذلك لم يخذله الله، بل يرفعه الله، ورماه بخير الأمور، وأقربها إلى الله».

وقال: «استشر العاقل من الرجال الورع، فإنه لا يأمر إلا بخير، وإياك والخلاف فإن مخالفة الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا».

وفي كتاب (نهج السعادة) قال عليه السلام: «المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل».

وقال: «لن يهلك امرؤ عن مشورة».

وقال الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من استشار لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً».

وقال لقمان الحكيم في مواعظه لابنه: «يا بني، شاور الكبير، ولا تستحيِ من مشاورة الصغير».

وقال: «يا بني، اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله، فقال ابنه: كيف أجعل عقل غيري لي؟ قال: تشاوره في أمرك».

ومن بديع ما قالوه في المشورة

خاطر من استبد برأيه. المشورة راحة لك تعب على غيرك. المستشير على طرف النجاح. الاستشارة من عزم الأمور. المشورة لقاح العقول ورائد الصواب. وقال بعض البلغاء: إذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بعاقل، وقالوا: مادة العقل من العقول كمادة النهر من السيول. ومن كلامهم: ينبغي للعاقل أن يجمع إلى عقله عقل العقلاء، وإلى رأيه رأي الحكماء. ومن أمثال العرب: أول الحزم المشورة. وقال بعضهم: الرجال ثلاثة: رجل ينظر في الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها، ورجل متواكل لا يتأمل، فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأي وقبل قولهم، ورجل حائر بائر، لا يأتم راشداً ولا يطيع مرشداً. سئل بعض الحكماء: أي الأمور أشد تأييداً للعقل، وأيها أشد إضراراً به؟ فقال: أشدها تأييداً له ثلاثة أشياء: مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبت، وأشدها إضراراً به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون والعجلة.

وأشار حكيم على حكيم برأي فقال: لقد قلت بما يقول الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره، وسهله بوعره، ويحرك الاشفاق منه ما هو ساكن من غيره، وقد وعيت النصح وقبلته إذ كان مصدره عند من لا يشك في مودته، وصفاء غيبه، ونصح حبيبه، وما زلت تحمد الله إلى الخير طريقاً واضحاً، ومناراً بيناً.

وقال أوشنهج في وصاياه للملوك وولده: أربع خصال ضعة في الملوك والأشراف: التعظم، ومجالسة الأحداث والنساء ومشاورتهن، وترك ما يحتاج إليه من الأمور فيما يعمله بيده ويحضره بنفسه، لا يكون الملك ملكاً حتى يأكل من غرسه، ويلبس من طرازه، وينكح من تلاده، ويركب من نتاجه، وإحكام هذه الأمور بالتدبير، والتدبير بالمشورة، والمشورة بالوزراء الناصحين المستحقين لرتبهم. وقيل: إذا

استشرت إنساناً صار عقله لك. وقال أعرابي: ما غبنت قط حتى يغبن قومي. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أُشاورهم.

وفي آداب ابن المقفع: لا يقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال، ظهر منك للناس حاجتك إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنك لا تريد الرأي للفخر، ولكن للانتفاع به ولو أنك أردته للذكر، لكان أحسن الذكر عند العقلاء أن يقال: إنه لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه.

وفي المجلد الخامس (من نهاية الأرب في فنون الأدب) قال بشار:

إذا بلـغ الـرأي المشـورة فـاستعـن ... بـرأي نصيـح أو نصيحـة حـازم
ولا تحسـب الشـورى عليـك غضـاضـة ... فـإن الخـوافـي رافـدات القـوادم

قال الأصمعي: قلت لبشار: إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة، فقال: يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته، وخطأ يشارك في مكروهه فقلت: أنت والله في قولك أشعر منك في شعرك.

وقال بزرجمهر: أفره ما يكون من الدواب لا غنى به عن السوط، وأعقل ما يكون من النساء لا غنى بها عن الزواج، وأدهى ما يكون من الرجال لا غنى به عن المشورة.

وفي كتاب أبرويز إلى ابنه شيرويه وهو في حبسه: «عليك بالمشاورة، فإنك واجد في الرجال من ينضج لك الكي، ويحسم عنك الداء، ويخرج لك المستكن، ولا يدع لك في عدوك فرصة إلا انتهزها، ولا لعدوك فيك فرصة إلا حصنها، ولا يمنعك شدة رأيك في ظنك، ولا علو مكانك في نفسك من أن تجمع إلى رأيك رأي غيرك، فإن أحمدت اجتنيت وإن ذممت نقيت، فإن في ذلك خصالاً: منها أنه إن وافق رأيك ازداد رأيك شدة عندك، وإن خالف رأيك عرضته على نظرك، فإن رأيته معتلياً لما رأيت قبلت، وإن رأيته متضعاً عنه استغنيت، ومنها أنه يجدد لك النصيحة من شاورت وإن أخطأ، ويمحض لك مودته وإن قصّر».

قرأت في كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة: «إن ملكاً استشار وزراء له، فقال أحدهم: الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الأنهار، وينال بالحزم والرأي ما لا يناله بالقوة والجنود، وللأسرار منازل: منها ما يدخل الرهط فيه، ومنها ما يستعان فيه بقوم، ومنها ما يستغنى فيه بواحد. وفي تحصين السر، الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل. والمستشير وإن كان أفضل رأياً من المشير، فإنه يزداد

برأيه رأياً كما تزداد النار بالسليط ضوءاً. وإذا كان الملك محصناً لسره بعيداً من أن يعرف ما في نفسه متخيراً للوزراء، مهيباً في أنفس العامة، كافياً بحسن البلاء، لا يخافه البريء ولا يأمنه المريب، مقدراً لما يفيد وينفق، كان خليقاً لبقاء ملكه. ولا يصلح لسرنا هذا، إلا لسانان وأربع آذان. ثم خلا به».

وفي تفسير (مجمع البيان) للطبرسي: أن بلقيس (ملكة سبأ) استشارت أشراف قومها لما وقفت على كتاب سليمان، فقالت لهم بعد أن جمعتهم: أشيروا علي بالصواب، ما كنت قاطعة أمراً إلاّ بحضرتكم ومشورتكم. فقالوا: الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين (أي ما الذي تأمريننا به لنمتثله، فإن أمرت بالصلح صالحنا، وإن أمرت بالقتال قاتلنا). قالت: إني مرسلة إليه بهدية أُصانعه بذلك عن ملكي، فناظرة بم يرجع المرسلون، بقبول أم رد. وإنما فعلت ذلك لأنها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها، أن يتبين لها بذلك أنه ملك أو نبي فإن قبل الهدية تبين أنه ملك وعندها ما يرضيه، وإن ردها تبين أنه نبي.

فعمدت إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب، وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع. وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت إليه كتاباً بنسخة الهدية قالت فيها: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن. وقالت للرسول: انظر إليه إن دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب، فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره فأنا أعز منه، وإن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنه نبي مرسل. فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر، فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى بضع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ففعلوا، ثم قال للجن: علي بأولادكم فاجتمع خلق

كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس والجن فاصطفوا فراسخ وأمر الوحش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا، فلما وقفوا بين يدي سليمان نظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق وقال ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملكة، فنظر فيه وقال: أين الحقة فأُتي بها وحركها وجاءه جبرائيل عليه السلام فأخبره بما في الحقة فقال: إن فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجة الثقب. فقال الرسول: صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة. فأرسل سليمان إلى الأرضة فجاءت فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، ثم قال من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، ثم ميز بين الجواري والغلمان، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأُخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء صباً والغلام يحدر الماء على يده حدراً فميز بينهما بذلك. وقيل: إنها أنفذت مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك حمير، وقالت: أُريد أن تعرفني رأسها من أسفلها. وبقدح ماء وقالت: تملأها ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء. فأرسل سليمان العصا إلى الهواء وقال أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أسفلها، وأمر الخيل فأُجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، وقال: ليس هذا من ماء الأرض ولا من ماء السماء.

قال سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾[1] أي ما أعطاني الله من الملك والنبوة والحكمة خير مما أعطاكم من الدنيا وأموالهم ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[2] ثم قال للرسول: ارجع إليهم بما جئت من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾[3].

وفي كتاب للهند: «من التمس من الإخوان الرخصة عند المشورة، ومن الأطباء

---

(١) سورة النمل، الآية ٣٦.
(٢) سورة النمل، الآية ٣٦.
(٣) سورة النمل، الآية ٣٧.

عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، أخطأ الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر».

وقال عمر بن الخطاب: «الرأي الفرد كالخيط السخيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض».

وكان يقال: من أُعطي أربعاً لم يمنع أربعاً: من أُعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أُعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أُعطي المشورة لم يمنع الصواب، ومن أُعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة.

وسئل بعض العلماء: ما بال العاقل ذي اللب لا تصيب مشورته على نفسه، وتقصر عن إصابة الصواب وإدراك المطلوب، ومشورة غيره له تظفره بذلك؟ فقال: إن مشورة الإنسان لنفسه ممزوجة بالهوى، ومشورة غيره له سالمة من ذلك، ولا إصابة مع الهوى.

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

إذا عنّ أمر فاستشر فيه صاحباً ... وإن كنت ذا رأي تشير على الصحب
فإني رأيت العين تجهل نفسها ... وتدرك ما قد حل في موضع الشهب

وقال الأرجاني:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما نأى ودنا ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وله أيضاً:

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر ... فالحق لا يخفى على الاثنين
فالمرء مرآة تريه وجهه ... ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر:

الرأي كالليل مسود جوانبه ... والليل لا ينجلي إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال آخر:

شاور صديقك في الخفي المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه ... في قوله شاورهم وتوكل

وقال آخر:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصه
ونص الحديث إلى أهله ... فإن الوثيقة في نصه
إذا المرء أضمر خوف الإله ... تبين ذلك في شخصه

وقال آخر:

تأن وشاور فإن الأمور ... منها مضيء ومستغمض
فرأيان أفضل من واحد ... ورأي الثلاثة لا ينقض

ولما أراد نوح ابن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته، استشار جاراً له مجوسياً، فقال: سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتيني! قال: لا بد أن تشير علي. قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي. وحكي أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي، قال: ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه، وضاقت علي الأرض، ولم أهتدِ إلى ما أصنع. فشاورت من أثق به من ذوي المودة والرأي، فأشار علي بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق. فقلت له: تمنعني المشقة وبعد الشقة، وتيه المهلب. ثم إني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول. فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها. فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه، وقلت له: أصلح الله الأمير، إني قطعت إليك الدهناء وضربت أكباد الإبل من يثرب، فإنه أشار عليَّ بعض ذوي الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي. فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة؟ فقلت: لا ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك.

فقال المهلب لحاجبه: اذهب به ادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة. فأخذني معه فوجد في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها إلي، فلما رأيت ذلك، لم أملك نفسي فرحاً وسروراً. ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعاً، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة. فقال: الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جني مشورتك، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا. قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته، أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا من على الجود صاغ الله راحته فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبة فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدلت إلى المدينة فقضيت ديني ووسعت على أهلي وجازيت المشير علي، وعاهدت الله تعالى، أن لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وقلما رغب أحد في المشورة وعمل بها إلا غنم، ولا زهد فيها وأعرض عن قبولها إلا ندم.

وصفوة القول، من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ما عناه، فقبل المشورة منهم، واقتدى بآرائهم فيها ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها، قل أن يخفق في مسعاه: ويفوت مطلبه، فإن أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم.

حكي عن منصور الدوانيقي: أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تتحملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك، فحبسه عنده، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي ـ وكان والياً على الكوفة ـ ما أفسد عقيدته فيه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك؛ وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقلّ أمنه، وتزايد خوفه، فأدته فكرته إلى أمر دبره، وكتمه عن جميع حاشيته، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى وقال له: يا بن العم، إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي؟ فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه. فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سراً. وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه فيكون قد استراح من الاثنين. قال عيسى: فلما أخذت عمي وفكرت في قتله رأيت من الصواب أن أُشاور في ذلك من له رأي عسى أن أُصيب الصواب، فأحضرت يونس بن قرة، وكان لي حسن ظن في رأيه، فقصصت عليه القصة، وقلت له: ما رأيك في ذلك وما تشير به؟ فقال: أيها الأمير، احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره على كل أحد من عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته،

وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أُمرت به وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك، وأخذك بقتله قال عيسى: فقبلت مشورة يونس، وعملت بها، وأظهرت لأمير المؤمنين أني نفذت أمره.

ثم قدم المنصور من حجه، وقد استقر في نفسه أني قتلت عمه عبد الله، فدس إلى عمومته (إخوة عبدالله) وحثهم على أن يسألوه في عبدالله، فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم، ثم أمر إحضار عيسى بن موسى فأُحضر لوقته، فقال: يا عيسى، كنت دفعت إليك عمي قبل خروجي إلى الحج ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال المنصور: قد سألني فيه عمومتك، وقد رأيت الصفح عنه، فائتنا به الساعة قال عيسى: ألم تأمرني يا أمير المؤمنين بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم آمرك بذلك، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من يتولى ذلك. ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقرّ بقتل أخيكم، مدعياً أني أمرته بقتله، وقد كذب علي قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به. فقال: شأنكم به. فأخذوني، واجتمع الناس علي، فقام واحد من عمومتي، وسل سيفه ليضربني به، فقلت: يا عم، أفاعل أنت؟ قال: إي والله، كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي؟ فقلت لهم: لا تعجلوا وردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إنما أردت قتلي بقتله، وهذا عمك باقٍ حي، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته إليهم الساعة، فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره قد أصابت إعصاراً، وأن انفراده بتدبيره قارف خساراً، ثم رفع رأسه وقال: ائتنا به، فمضى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور، قال لعمومته: اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً.

قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته. فسلمت روحي وزالت كربتي، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس، وقبول مشورته والعمل بها.

شروط الاستشارة:

ويشترط في الاستشارة شرائط أربعة، وهي: النصح، والشفقة، والعقل والتجربة، وذلك لقول أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في بعض خطبه: «أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة».

وهذه القيود الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله.

وقد نظم بعض الأدباء بعضاً منها، فقال:

خصائص من تشاوره ثلاث فخذ منها جميعاً بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل ومعرفة بحالك في الحقيقه

أما كونه ناصحاً فلأن الناصح يصدق الفكر، ويمحض الرأي.

وأما كونه شفيقاً فلأن الشفقة تحمل على النصح، فتحمل على حسن التروي في الأمر، وإيقاع الرأي من تثبت واجتهاد، والباعث على هذين إما الدين أو محبة المستشير.

وأما كونه عالماً ففائدته إصابته بعمله وجه المصلحة في الأمر، فإن الجاهل في الأمر أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه.

قال رسول الله ﷺ: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا».

وأما كونه مجرباً، فلأنه لا يتم رأي العالم ما لم تنضم إليه التجربة، وذلك أنه وإن علم وجه المصلحة في الأمر فقد يشتمل على بعض وجوه المفاسد، ولا يطلع عليها إلا بالتجربة مرة بعد أُخرى.

وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه.




حَقُّ المُشِيرِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَـقُّ المُشِيـرِ عَليْـكَ أَنْ لاَ تَتَّهِمَـهُ فِيمَـا لاَ يُوافِقُكَ مِنْ رَأْيِهِ إِذَا أَشَارَ عَليْكَ، فَإِنَّما هِيَ الآرَاءُ وَتَصَرُّفُ النَّاسِ فِيهَا وَاخْتِلافُهُمْ، فَكُنْ عَليْهِ فِي رَأْيِهِ بِالخَيارِ إِذَا اتَّهَمْتَ رَأْيَهُ، فَأَمّا تُهْمَتُهُ فَلا تَجُوزُ لَكَ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ المُشَاوَرَةَ، وَلاَ تَدَعْ شُكْرَهُ عَلَى مَا بَدَا لَكَ مِنْ إِشْخَاصِ رَأْيِهِ وَحُسْنِ وَجْهِ مَشورَتِهِ، فَإِذَا وَافَقَكَ حَمَدْتَ اللهَ وَقَبِلْتَ ذَلِكَ مِنْ أَخِيكَ بِالشُكْرِ وَالإرصَادِ بِالمُكَافَأَةِ فِي مِثْلِهَا إِنْ فَزِعَ إِلَيْكَ، وَلاَ قُوّةَ إِلاّ بِاللهِ».

***




هذه لفتة من لفتات الإمام السجاد عليه السلام التي تتجلى فيها الإنسانية بتمامها وكمالها.

كلمات خطها يراع الإمام فأفضت بما لم تفض به طوال الكتب، وهذا ما تبنته أحدث الدساتير العالمية في عصرنا هذا.

كل ما أُثر عنه عليه السلام، إنما هو مأثور خالد في الكتاب والسنة، حيث إن الإنسان بطبعه وبتطور معارفه ينظر ليومه غير ما ينظر لأمسه، ولو بسطنا آراء الفلاسفة في شتى العصور لرفعنا وعظمنا منهم من أمكننا هضم آرائه، ولا يتأتى الخلود لإنسان إذا لم يسبقه إليه خلود في آرائه ومعتقداته، ولو تناولنا آراء الإمام السجاد عليه السلام (في الفصول التي مرت والتي سوف تمر) تدقيقاً وتحقيقاً، لرأيناها كليات لازمة للبشرية قاطبة في أي زمان وأي مكان، لأنها ماثلة بالحق المطلق من حيث هو خير مطلق، لا يحده وطن ولا قومية ولا لغة ولا عقيدة ولا سياسة.

نراه في جل فصوله، يتعمق في التوجيه حتى يرتفع بالإنسان إلى روحانية لائقة في عالم واقعي، تنبعث عنها أواصر اجتماعية مبنية على الحب والتسامح.

ومن حكمياته وشمول وصاياه التي يحملها بقلب طاهر مشبع بحب الإنسانية والعمل لأجلها: ما حواه هذا الفصل من حق المشير وهو قوله: «وحق المشير عليك أن لا تتهمه فيما يوافقك من رأيه إذا أشار عليك، فإنما هي الآراء وتصرف الناس فيها. . .».

هذه أسس الحياة حيث المجتمع الكامل في أوفى معنى وأقصر تعبير.

المشير حينما يمحض الرأي يرى المستشير كفؤاً، لذلك يوليه أهميته واعتناءه، فما على المستشير إلا أن يأخذ برأيه ويقبل نصحه، دون أن يتهمه في شيء، فإن كان الصواب في رأيه أخذ به وإلا تركه من غير مذمة أو انتقاص فراراً من مقابلة الإحسان بالإساءة، والمعروف بالمنكر.

فالرجل الذي يشير عليك لم يأخذ العمل برأيه، وإنما صور رأيه في الموضوع ووضعه أمامك، فإن شئت أخذت به، وإلا فأنت غير ملوم على تركه، فإنه ليس ما يشير به أكثر من رأي يمكن أن يصيب ويمكن أن يخطىء، وما أنت تجاهه إلا بالخيار من أمرك ولست بمكره على العمل به.

وعلى هذا، فالمشير ذو فضل عليك مهما كان رأيه، لأنه قدم لك ما عنده عن حسن نية وإخلاص، فيجب أن تشكره على ما قدم لك من حسن الرأي، وتقوم بما له عليك من حق، فإن اتفقتما في الرأي حمدت الله وتقبلت رأيه بالشكر وأخذت على نفسك المكافأة له مهما استطعت، وإن لم يوافقك في الرأي، وكان أصح منك رأياً فيصيبك منه خير ما ترجو وتأمل.

كتب بعض الكتاب: «اعلم أن الناصح لك المشفق عليك من طالع لك ما وراء العواقب برؤيته ونظره، ومثّل لك الأحوال المخوفة عليك، وخلط لك الوعر بالسهل من كلامه ومشورته، ليكون خوفك كفؤاً لرجائك وشكرك إزاء النعمة عليك، وأن الغاش لك الحاطب عليك من مدَّ لك في الاغترار، ووطأ لك مهاد الظلم، وجرى معك في عنانك منقاداً لهواك».

استشار زياد بن عبيد الحارثي عبيد الله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يوليه القضاء، فأشار عليه به، فبعث إلى أبي بكر فامتنع عليه، فبعث زياد إلى عبيد الله يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله: أنشدك بالله، أترى لي أن ألي القضاء؟ قال: اللهم لا. قال زياد: سبحان الله! استشرتك فأشرت علي به ثم أسمعك تنهاه! قال: أيها الأمير استشرتني فاجتهدت لك رأيي ونصحتك، واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته.

كان نصر بن مالك على شرط أبي مسلم، فلما جاءه إذن أبي جعفر في القدوم عليه استشاره فنهاه عن ذلك وقال: لا آمنه عليك، قال له أبو جعفر لما صار إليه: استشارك أبو مسلم في القدوم علي فنهيته؟ قال: نعم، قال: وكيف ذاك؟ قال: سمعت أخاك إبراهيم الإمام يحدث عن أبيه محمد بن علي قال: «لا يزال الرجل يزاد في رأيه ما نصح لمن استشاره» وكنت له كذلك، وأنا اليوم لك كما كنت له.

ويجدر بنا أن نشير في المقام إلى أن المشورة ليست مقصورة بين الأصدقاء والإخوان فيما يجري بينهم من تبادل الأمور، وإنما المشورة وضعت كذلك تمهيداً

وأساساً لنظام حكم عادل منصف، أي أنها أساس من أسس النظام الإسلامي، كما أنها أساس من أسس النظام في كل الأنظمة الديمقراطية، فما المجالس النيابية التي تعقد بين حين وحين إلا من أجل التشاور في مهام الأمور، وما المجالس العليا الوزارية إلا من أجل النظر في مصالح الشعوب وأسباب رفاهيتها.

فما ندب إليه الإمام عليه السلام وما استعرضه في مطلع هذا الدرس حسنة من حسنات النظام الديمقراطي الصحيح، والنظام الديمقراطي الصحيح حسنة من حسنات النظام الإسلامي الأكمل.

ومن الجدارة بمن أُنزل منزلة المستشار، وأُحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب، أن يؤدي حق هذه النعمة بإخلاص السريرة، ويكافىء على الاستسلام ببذل النصح، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه». وربما أبطرته المشاورة فأُعجب برأيه فاحذره في المشاورة، فليس للمعجب رأي صحيح ولا روية سليمة، وربما شح في الرأي لعداوة أو حسد أو مكر، فاحذر العدو ولا تثق بحسود، ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأياً إذا استرشد ولا يخون وقد ائتمن. فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المستشير معان والمستشار مؤتمن».

قال سليمان بن دريد:

وأجب أخاك إذا استشارك ناصحاً   وعلى أخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغي أن يشير قبل أن يستشار، إلا فيما مست الحاجة واقتضت الضرورة ولا أن يتبرع بالرأي إلا فيما لزم، فإنه لا ينفك من أن يكون رأياً متهماً، وفي أي هذين كان وصمة، وإنما يكون الرأي مقبولاً إذا كان عن رغبة وطلب، أو كان لباعث وسبب.

قال لقمان لابنه: «يا بني، إذا استشهدت فاشهد، وإذا استعنت فأعن، وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر».

قال بيهس الكلابي:

من الناس من إن يستشرك فتجتهد   له الرأي يستغششك ما لا تبايعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله   فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

وبالتالي على المشير أن يكون ناصحاً، على الأخص إذا عرف وجه الصواب وسبل السداد، ولم يعلن نصيحته ولم يوقف أخاه على الرأي السديد عد خائناً ومتهاوناً

في الحقوق التي فرضها الإسلام من التعاون والتناصح، وعدّ تهاونه عند ذاك مثلبة ومنقصة يذم عليها ويتحمل تبعاتها وتلصق به شناعتها.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أخبرني أبي عن آبائه عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: من استشاره أخوه المؤمن فلم يمنحه النصيحة سلبه الله لبه».

وقال الصادق عليه السلام: «أيما مؤمن مشى في حاجة أخيه ولم يناصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله وكان الله خصمه».

وقال: «أيما رجل من أصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة، فلم يبالغ فيها بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

ويقول: «عليكم بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه».

وإذا كانت النصيحة أمراً لازماً، فالمشاورة ينبغي أن تكون من الأخلاق التي يدعو إليها الإسلام، ويرغب أهل البيت أتباعهم ومحبيهم وعامة المسلمين فيها.

لذلك قالوا: إذا عزم المرء على المشورة، ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال: إحداهن عقل كامل مع تجربة سالفة، فإنه بكثرة التجارب تصح الرؤية.

فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا».

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: «احذر مشورة الجاهل، وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً، فإنه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل».

وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال: نحن ألف وفينا حازم ونحن نطيعه، فكأنا ألف حازم.

وفي منثور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل، والعقل يحتاج إلى التجارب ولذلك قيل: الأيام تهتك لك عن الأستار الكامنة. وقال بعض الحكماء: التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة. وقال بعضهم: من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول.

والخصلة الثانية: أن يكون ذا دين وتقى، فإن ذلك عماد كل صلاح، وباب كل نجاح، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أراد أمراً فشاور فيه امرأً مسلماً، وفقه الله لأرشد أموره».

والخصلة الثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي، قال بعض الحكماء: لا تشاور إلا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود، وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى الأفن، وعزمهن إلى الوهن. وقال بعض الأدباء: مشورة المشفق الحازم ظفر، ومشورة غير الحازم خطر.

قال بعض الشعراء:

اصف ضميراً لمن تعاشره ... واسكن إلى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته ... بما يؤدي إليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد أحداً ... تصح منهم له سرائره
أوشك أن لا يدوم وصل أخ ... في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة: أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم، لا يسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر.

وكان كسرى إذا دهمه أمر، بعث إلى مرازبته فاستشارهم، فإن قصروا في الرأي ضرب قهارمته وقال: أبطأتم بأرزاقهم فأخطأوا في آرائهم.

قال صالح بن عبد القدوس:

ولا مشير كذي نصح ومقدرة ... في مشكل الأمر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة: أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاد، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد.

قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

وقد تحكم الأيام من كان جاهلاً ... ويردي الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحمد في الأمر الفتى وهو مخطىء ... ويعذل في الإحسان وهو مصيب

فإذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل، كان أهلاً للمشورة ومعدناً للرأي، فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رؤيتك، فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب، لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة.

وقد جاء عن النبي ﷺ، أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة، فإذا أراد الله بعبد هلكة كان

أول ما يهلكه رأيه».

من استبد برأيه وأعرض عن رأي المشير فهلك:

من ذلك ما رواه المؤرخون، أن من تقدم من ملوك اليونان كان يخشى على جزيرة الأندلس من البربر، فاتفقوا وعملوا الطلاسم في وقت اختاروا إرصادها وأودعوها في تابوت من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطلة وركبوا على ذلك البيت باباً وأقفلوه قفلاً، فكان كل من ملك منهم بعد صاحبه زاد على ذلك البيت قفلاً تأكيداً لحفظه، إلى أن جاء وقت انقراض دولتهم ودخول العرب والبربر إلى جزيرة الأندلس، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً منهم، فلما قام السابع والعشرون منهم وهو (لذريق) خطر بباله أن يفتح ذلك ويرى ما فيه، استشار وزراءه وأهل الرأي من دولته وقال لهم: إنه قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء، وأُريد أن أفتحه لأنظر ما فيه، فإنه لا يعمل عبثاً، فقالوا: أيها الملك صدقت، إن هذا لم يعمل عبثاً ولا أُقفل سدى، بل المصلحة أن تلقي عليه قفلاً وتتركه، كما قد فعل من تقدمك من الملوك، لأن آباءك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم. فقال: إن نفسي تنازعني على فتحه فلا بد منه، فقالوا له: إن كنت تظن فيه مالاً فقدره، ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا تحدث علينا بفتحه حدثاً لا تعرف عاقبته، فإنا نخشى عليك ذهاب الملك، فأصرَّ على ذلك، وكان رجلاً مهاباً فلم يقدروا على مهاجرته، فأمر بفتح الأقفال وكان على كل قفل مفتاحه، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر، مكتوب عليها هذه مائدة سليمان بن داود عليه السلام، ورأى في البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق عليه، فلما فتحه لم يجد فيه سوى رق، ورأى في جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب، معممون على ذوائب جعد، ومن تحتهم الخيل العربية وبأيديهم القسي العربية وهم مقلدون بالسيوف المحلاة معتقلون بالرماح، فأمر بتفتيش ذلك الرق فإذا مكتوب فيه: من فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلين بالحكمة، دخل الذين صورهم في التابوت إلى جزيرة الأندلس وذهب ملك اليونان من أيديهم ودرست حكمتهم، فهذا هو بيت الحكمة، فلما سمع (لذريق) ما في الرق، ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولتهم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق، وقد جهزه الوليد بن عبد الملك، وكان النصر للمسلمين، وانهزم اليونانيون حتى لم تقف هزيمتهم على موضع، بل كانوا يسلمون البلدان بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً، فأُسقط

عند ذلك في يدي (لذريق) وتيقن أن هذه البلية ما دهمته إلا من ترك المشورة وعدم الأخذ بها.

ومنهم عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري:

قال الطبري في التاريخ: لما كان من أمر الحسين ما كان، دعا عبيد الله بن زياد عمر بن سعد فقال: سر إلى الحسين فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك. فقال عمر بن سعد: إن رأيت أن تعفيني فافعل، فقال له عبيد الله: نعم على أن ترد لنا عهدنا، قال: فلما قال له ذلك، قال له عمر بن سعد: أمهلني اليوم حتى أنظر. قال: فمضى عمر يستشير نصحاءه فلم يكن يستشير أحداً إلا نهاه. قال وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة (وهو ابن أخته) فقال: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين، فتأثم بربك وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين، فقال له عمر: أفعل إن شاء الله. وعن عمار بن عبد الله الجهني عن أبيه قال: دخلت على عمر بن سعد وقد أمر بالمسير إلى الحسين، فقال لي: إن الأمير أمرني بالمسير إلى الحسين فأبيت ذلك عليه. فقلت له: أصاب الله بك مراشدك، أجِّل فلا تفعل ولا تسر إليه، قال: فخرجت من عنده، فأتاني آتٍ، وقال: هذا عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين، قال: فأتيت فإذا هو جالس، فلما رآني أعرض عني بوجهه، فعرفت أنه قد عزم على المسير إليه فخرجت من عنده.

وذكر فخر الدين الطريحي في (المنتخب) والفاضل المجلسي في (البحار) ما لفظه: ثم إن ابن زياد نادى في عسكره: معاشر الناس، من يأتيني برأس الحسين وله الجائزة العظمى وأُعطيه ولاية الرَّي سبع سنين؟ فقام إليه عمر بن سعد، وقال: أصلح الله الأمير، أنا أمضي إليه وأمنعه من شرب الماء وآتي برأسه، ثم مضى من وقته وساعته ودخل منزله فدخل عليه أولاد المهاجرين والأنصار وقالوا: يا بن سعد، تخرج إلى حرب الحسين وأبوك سادس الإسلام[١] فقال: لست أفعل ذلك، ثم جعل يفكر في ملك الرّي وقتل الحسين، فأضله الشيطان وأعمى قلبه واختار قتل الحسين عليه السلام.

ولفظ المجلسي (ره): لما جمع ابن زياد قومه لحرب الحسين، كانوا سبعين ألف فارس، فقال ابن زياد: أيكم يتولى قتل الحسين وله ولاية أي بلد شاء؟ فلم يجبه أحد

(١) هذا مشهور وهو غير صحيح، وكثيراً ما يشتهر شيء وهو خلاف الواقع، سادس الإسلام هو خباب بن الأرت لا سعد بن أبي وقاص.

منهم، فاستدعى بعمر بن سعد (لعنه الله)، وقال: يا عمر، أُريد أن تتولى حرب الحسين بنفسك، فقال له: اعفني من ذلك. فقال ابن زياد: قد أعفيتك، فاردد علينا عهدنا الذي كتبنا لك بولاية الرَّي، فقال عمر: أمهلني الليلة، فقال: قد أمهلتك، فانصرف عمر بن سعد إلى منزله، وجعل يستشير قومه وإخوانه ومن يثق به من أصحابه فلم يشر عليه أحد بذلك، وكان عند عمر بن سعد رجل من أهل الخير، يقال له: كامل (وكان كاملاً كاسمه) ذا رأي وعقل، ودين كامل، وكان صديقاً لأبيه من قبله فقال له: يا عمر، ما لي أراك بهيئة وحركة، فما الذي أنت عازم عليه؟ فقال عمر: إني قد وليت أمر هذا الجيش في حرب الحسين، وإنما قتله عندي وأهل بيته كأكلة آكل أو كشربة ماء، وإذا قتلته خرجت إلى ملك الرَّي. فقال له كامل: أفّ لك يا عمر بن سعد، تريد أن تقتل الحسين ابن بنت رسول الله، أفّ لك ولدينك، أسفهت الحق وضللت عن الهدى، أما تعلم إلى حرب من تخرج؟ ولمن تقاتل؟ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، والله لو أُعطيت الدنيا بما فيها على قتل رجل واحد من أُمة محمد ﷺ، لما فعلت، فكيف تريد تقتل الحسين ابن بنت رسول الله؟ وما الذي تقول غداً لرسول الله إذا وردت عليه وقد قتلت ولده وقرة عينه وثمرة فؤاده وابن سيدة نساء العالمين وابن سيد الوصيين؟ وهو سيد شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين وإنه في زماننا هذا بمنزلة جده في زمانه، وطاعته علينا كطاعته، وإنه باب الجنة والنار فاختر لنفسك ما أنت مختار، فإني أشهد بالله لئن حاربته وقتلته أو أعنت عليه أو على قتله، لا تلبث بعده في الدنيا إلا قليلاً. فقال له عمر: فبالموت تخوفني، وإني إذا فرغت من قتله أكون أميراً على سبعين ألف وأتولى ملك الري؟ فلم يلتفت ابن سعد إلى ما أشار عليه وخرج إلى أن قتل الحسين عليه السلام، فلم يلبث بعد ذلك إلا برهة قليلة من الزمن فلم يحظ بملك الري، وإذا برأسه يجر بالحبل في سكك الكوفة، والأطفال خلفه يرمونه بالحجارة ويقولون هذا رأس عمر بن سعد قاتل الحسين بن علي.

ومنهم محمد الأمين

حكى المؤرخون: أنه لما قصده عبد الله بن طاهر بعساكر المأمون وحصره ببغداد واشتد عليه الأمر، وضاق بين يديه المسلك للنجاة، قال: من استشار ذا رأي ومعرفة وخالفه، وقع فيما يكره وندم على التفريط، فإني قد أحضرت الشيخ أبا الحسن الغطيفي، وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها. فحادثته في أخي المأمون

وما الذي أعتمده حتى يقع في يدي، وأطلعته على الحقيقة، واستشرته في كيفية العمل في ذلك. فقال: إن استعجلت لم تنتفع برأي ولا فعل، وإن تمهلت وقبلت مشورتي تمكنت من أخيك وبلغت ما تأمل، وذلك أنك تدعو المترددين على خراسان وتجلس لهم مجلساً عاماً، وتقول لهم: إن أخي كتب إلي يمدحكم، ويظهر حسن انقيادكم وجميل طاعتكم، ثم تقول لهم: قد أطلقت عنكم الخراج سنة، وأخوك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال وليس له في رد قولك حيلة، وسيناله من ذلك خلل عظيم، ثم ينتقض عليه أكبر أمره، ثم تفعل في السنة المقبلة مثل ذلك، وتسقط عنهم خراج سنتين، فإن لم يؤت بأخيك في السنة الثالثة في وثاق فاضرب عنقي. فخالفته وعجلت إلى خلع المأمون وعقد الأمر لابني، فوقع ما وقع.

ومنهم عمرو بن العاص:

فإنه استشار عبده وردان على أن يلتحق بمعاوية، فأشار عليه بالعدم فخالفه، فندم وخسر الخسران المبين في الدنيا والآخرة، قال ابن عبد ربه في (الجزء الثالث) من العقد الفريد تحت عنوان خبر (عمرو بن العاص مع معاوية): «لما علم معاوية أن الأمر لن يتم له إن لم يبايعه عمرو، فقال له: يا عمرو اتبعني. قال: لماذا؟ للآخرة فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا، فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها. قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها فكتب له مصر وكورها. وكتب في آخر الكتاب وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: واكتب أن السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. فكتب، ووالله ما يجد بداً من كتابتها. ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر وعمرو يقول له: إنما أُبايعك بها ديني. فقال عتبة ائتمن الرجل بدينه، فإنه صاحب من أصحاب محمد. وكتب عمرو إلى معاوية:

معاوي لا أُعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنع
فإن تعطني مصراً فأربح صفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع»

قال ابن أبي الحديد في المجلد الأول من (شرح النهج) ص ١٣٥ من الطبعة الأولى: «لما نزل علي عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة كتب إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، فقرأه فاغتم بما فيه وذهبت به أفكاره كل مذهب، فاستشار أخاه عتبة بن أبي

سفيان، فقال له: استعن بعمرو بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً، إلا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية: أما بعد، فإن كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أُذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها إن شاء الله، فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن رسول الله ﷺ قبض وهو عنك راضٍ والخليفتان بعده، وقتل عثمان وأنت عنده غائب، فقر في منزلك فلست مجعولاً خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة، أوشك أن تهلك فتشقى فيها. وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل تصاغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديها طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أمية. فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني. وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر فلما جنه الليل رفع صوته وأهله يسمعون فقال:

تطاول ليلي بالهموم الطوارق ... وخوف التي تجلو وجوه العواتق
وإن ابن هند سالني أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من علي بخطة ... أمرت عليه العيش ذات مضائق
فإن نال مني ما يؤمل رده ... وإن لم ينله ذل ذل المطابق
فوالله ما أدري وما كنت هكذا ... أكون ومهما قادني فهو سائقي
أُخادعه إن الخداع دنية ... أم أُعطيه من نفسي نصيحة وامق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد الله قولاً تعلقت ... به النفس إن لم تقتطعني عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد ... وإني لصلب العود عند الحقائق

فقال عبد الله: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وردان وكان داهياً مارداً، فقال: ارحل يا وردان، ثم قال: احطط يا وردان، ثم قال: ارحل يا وردان، احطط يا وردان. فقال له وردان: خلطت أبا عبد الله أما إنك إن شئت أنبأتك بما في قلبك. قال: هات ويحك. قال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت علي معه الآخرة في غير دنيا، وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة، وليس في الدنيا عوض من

الآخرة وأنت واقف بينهما. قال: قاتلك الله ما أخطأت ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. قال: الآن لما شهرت العرب سيري إلى معاوية؟ فارتحل وهو يقول:

يا قاتل الله وردانا وفطنته ... أبدى لعمرك ما في النفس وردان

لما تعرضت الدنيا عرضت لها ... بحرص نفسي وفي الأطباع أذهان

نفس تعف وأُخرى الحرص يغلبها ... والمرء يأكل تبناً وهو غرثان

أما علي فدين ليس يشركه ... دنيا وذاك له دنيا وسلطان

فاخترت من طمعي دنيا على بصر ... وما معي بالذي أختار برهان

إني لأعرف ما فيها وأبصره ... وفيّ أيضاً لما أهواه ألوان

لكن نفسي تحب العيش في شرف ... وليس يرضى بذل العيش إنسان

فسار حتى قدم على معاوية وعرف حاجة معاوية إليه فباعده من نفسه وكايد كل منهما صاحبه، فقال له معاوية يوم دخل عليه: أبا عبد الله، طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار، ليس فيها ورد ولا صدر. قال: وما ذاك؟ قال: منها أن محمد بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين. ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام. ومنها: أن علياً نزل الكوفة وتهيأ للمسير إلينا. فقال عمرو: ليس كل ما ذكرت عظيماً، أما ابن أبي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج من أشباهه، أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به، وإن قاتل لم يضرك. وأما قيصر فاهد له الوصائف وآنية الذهب والفضة وسله الموادعة، فإنه إليها سريع. وأما علي فلا والله يا معاوية ما يسوي العربي بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش، وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه.

وفي رواية قال معاوية لعمرو: يا أبا عبد الله إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل، الذي عصى الله، وشق عصا المسلمين، وقتل الخليفة، وأظهر الفتنة، وفرق الجماعة، وقطع الرحم. فقال عمرو: من هو؟ قال: علي. قال: والله يا معاوية، ما أنت وعلي حملي بعير، ليس لك هجرته ولا سابقته، ولا صحبته ولا جهاده، ولا فقهه ولا علمه، ووالله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً، فما تجعل لي إن شايعتك على حربه؟ وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر. قال: حكمك. فقال: مصر طعمة. فتلكأ عليه معاوية، ثم قال: يا أبا عبد

الله، إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. قال عمرو: دعني عنك فقال معاوية: إني لو شئت أن أُمنيك وأخدعك لفعلت. قال عمرو: لا لعمر الله ما مثلي يخدع، لأنا أكيس من ذلك. قال معاوية: ادن مني أُسارك، فدنا منه عمرو ليساره، فعض معاوية أذنه وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحداً ليس غيري وغيرك؟ فأنشأ عمرو يقول:

معاوي لا أُعطيك ديني ولم أنل ... به منك فانظرن كيف تصنع
وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنع
ولكنني أُغضي الجفون وإنني ... لأخدع نفسي والمخادع يخدع
وأُعطيك أمراً فيه للملك قوة ... وأُلفى به إن زلت النعل أُصرع
وتمنعني مصراً وليست برغبة ... وإني بذا الممنوع قدماً لمولع

وكانت مصر في نفس عمرو بن العاص، لأنه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر، فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه، وهذا معنى قوله: (وإني بذا الممنوع قدماً لمولع). فقال له معاوية: أبا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العزاق؟ قال: بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق. وحضر عتبة بن أبي سفيان فقال لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر؟ إن هي صفت لك، ليتك لا تغلب على الشام. فقال معاوية: يا عتبة بت عندنا الليلة، فلما جن الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال:

أيها المانع سيفاً لم يهز ... إنما ملت على خز وقز
إنما أنت خروف مائل ... بين ضرعين وصوف لم يجز
أعط عمراً إن عمراً تارك ... دينه اليوم لدنيا لم تحز
يا لك الخير فخذ من دره ... شخبه الأولى وأبعد ما غرز
واسحب الذيل وبادر قوتها ... وانتهزها إن عمراً ينتهز
أعطه مصراً وزده مثلها ... إنما مصر لمن عز فبز
واترك الحرص عليها ضلة ... واشبب النار لمغرور يكز
إن مصراً لعلي أو لنا ... تغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عتبة أرسل إلى عمرو فأعطاه مصراً.

وندم عمرو على ذلك عند موته أشد الندم وباء بالخسران، لأنه لم يعمر بعد ذلك

إلا ثلاث سنين فخسر مصر، وخسر معها الآخرة.

قال اليعقوبي في تاريخه ج٣ ص ١٩٨، لما حضرت عمراً الوفاة قال لابنه: لود أبوك أنه كان مات في غزوة ذات السلاسل، إني قد دخلت في أمور لا أدري ما حجتي عند الله فيها. ثم نظر إلى ماله فرأى كثرته فقال: يا ليته كان بعراً، يا ليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة، أصلحت لمعاوية دنياه وأفسد ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عمي علي رشدي حتى حضرني أجلي، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي».

فمن ترك المشورة وعدل عنها لم يظفر بحاجته، وصار هدفاً لسهام اللائمين ومضغة في أفواه العاذلين.

* * *

فإن قلت قد ذكرت في حب المشورة وحسنها، والأقوال الواردة في مدحها ونجاح من تمسك بها، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء؟ قلت: نعم هناك أقوال وآراء أخر تخالف هذه النظرية، وتعتبر المشورة ضعفاً في الرأي ونقصاً في التفكير.

قال بعض أهل العلم: لو لم يكن في المشورة إلا الاستحقار من صاحبها لك وظهور فقرك إليه، لوجب اطراح ما تفيده المشورة وإلقاء ما يكسبه الإنسان، وما استشرت أحداً قط إلا كبر عندي وتصاغرت له، ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فإياك والمشورة وإن ضاقت بك المذاهب واختلفت عليك المسالك، وأداك الاستيهام إلى الخطأ الفادح، فإن صاحبها أبداً مستذل مستضعف، وعليك بالاستبداد فإن صاحبه أبدا جليل في العيون مهيب في الصدور، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن العقول، فإذا افتقرت إليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع شأنك، وفسد تدبيرك، واستحقرك الصغير، واستخف بك الكبير، وعرفت بالحاجة إليهم.

كان عبد الله بن طاهر يذهب إلى هذا المذهب ويقول: ما حك جلدك مثل ظفرك، ولأن أُخطىء مع الاستبداد ألف خطأ أحب إلي من أن أستشير وأُرى بعين النقص والحاجة.

وكان يقال: الاستشارة إذاعة السر ومخاطرة بالأمر الذي ترومه بالمشاورة، فرب مستشار أذاع عنك ما كان فيه فساد تدبيرك. وقد قيل: نعم المستشار العلم، ونعم الوزير العقل. وممن اقتصر على رأيه دون المشاورة أبو جعفر المنصور: فإنه لما حدث

من أمر إبراهيم ومحمد ابني عبدالله بن الحسن ما حدث، أمسك المنصور عن المشاورة واستبد برأيه، وأقبل على السهر والخلوة، ولم يذكر أمرهما لأحد من أهله وخاصته، وكان تحته مصلى قد تفزر لحمته وسداه وكان جلوسه ومبيته عليه فلم يغيره، وعليه جبة خز دكناء قد درن جيبها، فلم يغيرها حتى ظفر. وكان يقول في تلك الحال: وإياك والمشورة، فإن عثرتها لا تستقال، وزلتها لا تستدرك، فكم قد رأيت من نصيح عاد نصحه غشاً.

ومنهم الرشيد: فإنه حكي عنه أنه بعث ذات ليلة إلى جعفر بن يحيى، إني قد سهرت فوجه إليّ بعض سمارك. فوجه إليه بسمير له كوفي، فسامره ليلته، فلما رجع سأله جعفر عن خبره، فقال: سامرته ليلتي كلها، فأنشدته فما رأيته استحلى إلا بيتين من شعر أنشدتهما إياه، فإنه أُولع بهما وما زال يأمرني بتكريرهما عليه حتى حفظهما. فقال جعفر: وما هما؟ قال:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

فقال له جعفر: أهلكتني والله وأهلكت نفسك. قال: وكيف ذاك؟ قال: إنه كان يرى أن لا غنى به عني وعن مشورتي ولم يكرر البيتين إلا وقد عزم على ترك مشاورتي والاستبداد بالرأي. فقتله بعد حول.

قال الشاعرفي مثله:

بديهته وفكرته سواء ... إذا ما نابه الخطب الكبير
وأحزم ما يكون الدهر رأياً ... إذا عمي المشاور والمشير
وصدر فيه للهمم اتساع ... إذا ضاقت بما فيها الصدور

ومنهم الشعبي: فإنه خرج مع ابن الأشعث، فقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، وكان صديقاً له. فقال له: أَشِرْ عليّ. فقال: لا أدري بما أُشير، ولكن اعتذر بما قدرت عليه. . وأشار عليه بذلك جميع أصحابه. قال الشعبي: فلما دخلت، خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا. فسلمت عليه بالإمرة ثم قلت: أصلح الله الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وايم الله لا أقول في مقامي هذا إلا الحق، قد جهدنا وحرصنا فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وإن عفوت

فبحلمك والحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا، وسيفه يقطر من دمائنا، ويقول: والله ما فعلت وما شهدت، أنت آمن يا شعبي. فقلت: أيها الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. فقال: صدقت، فانصرف فانصرفت.

قال المهلب بن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلا صون السر وتوفير العقل، لوجب التمسك به.

وقال بزرجمهر: أردت نصيحاً أثق به فما وجدت غير فكري، واستضأت بنور الشمس والقمر، فلم أستضىء بشيء أضوأ من قلبي.

وقال علي بن الحسين: الفكرة مرآة تري المؤمن سيئاته فيقلع عنها، وحسناته فيكثر منها، فلا تقع مقرعة التقريع عليه، ولا تنظر عيون العواقب شزراً إليه.

وما زال المنصور يستشير أهل بيته، حتى مدحه ابن هرمة بقوله:

يــزرن أمــراً لا يصلــح القــوم أمــره ... ولا ينتجــي الأدنيــن فيمــا يحــاول

فاستوى جالساً وقال: أصبت والله واستعاده، وما استشار بعدها.

قالوا: وعلى المستبد أن يتروى في رأيه، فكل رأي لم تتمخض به الفكرة ليلة فهو مولود لغير تمام.

قال الشاعر:

إذا كنــت ذا رأي فكــن ذا أنــاءة ... فــإن فســاد الــرأي أن تتعجــلا
ومــا العجــز إلا أن تشــاور عــاجــزاً ... ومــا الحــزم إلا أن تهــم فتفعــلا

ومما مدح به ذو الرأي قول بعض الشعراء:

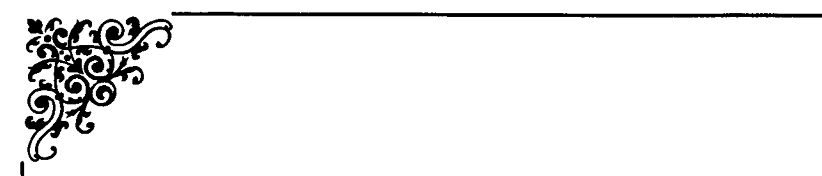
بصيــر بــأعقــاب الأمــور كــأنمــا ... يخــاطبــه مــن كــل أمــر عــواقبــه
وأي مقــر الحــزم منــه وإنمــا ... مــرائــي الأمــور المشكــلات تجــاربــه

وقال البحتري في سليمان بن عبدالله:

كــأن آراءه والحــزم يتبعهــا ... تــريــه كــل خفــي وهــو إعــلان
مــا غــاب عــن عينــه فــالقلــب يكلــؤه ... وإن تنــم عينــه فــالقلــب يقظــان

وقال أيضاً:

كــأنــه وزمــام الــدهــر فــي يــده ... يــرى عــواقــب مــا يــأتــي ومــا يــذر




حَقُّ المُسْتَنْصِحِ

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

وَحَقُّ المُسْتَنْصِحِ أَنْ تُؤَدِّيَ إِليْهِ النَّصِيحَةَ، وَلْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَةَ لَهُ وَالرِّفْقَ بِهِ وَتُكَلِّمَهُ مِنَ الكَلامِ بِمَا يُطِيقُهُ عَقْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَقْلٍ طَبَقَةً مِنَ الكَلامِ يَعْرِفُهُ وَيَجْتَنِبُهُ.

* * *




قد تفنن اللغويون في مفهوم هذه الكلمة (النصيحة):

قال صاحب النهاية: «النصيحة كلمة تعبر عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح له، وليست كلمة تعبر عن هذا المعنى سواها».

وقال الخطابي: «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له».

وقال الطريحي: «النصيحة لفظ حامل لمعانٍ شتى».

وقال صاحب تاج العروس: «النصيحة الإرشاد إلى ما فيه صلاح المنصوح له».

وقال الجرجاني في (التعريفات): «النصح إخلاص العمل عن شوائب الفساد، والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد».

إلى غير ذلك من المفاهيم والتعبيرات.

ومفهوم النصيحة عند رجال الفلسفة: هي تحري الصلاح والخير للمنصوح له، والإخلاص فيه قولاً وعملاً.

وقد مضت سنة الله تعالى بما عرف بالتجارب، أن نفع النصح له شرطان، أو طرفان: هما الفاعل للنصح، والقابل. وإنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد بمفارقة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر.

قال رسول الله عليه السلام: «الدين النصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله، قال: «لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم».

فالنصيحة لله الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، ونصرة الحق فيه، ووصفه بأوصاف الكمال، وتنزيهه عن النقائص، وطاعة أمره واجتناب نهيه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه؛ وغير ذلك مما يجب له. وجميع هذه الأشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد، فهي نصيحة لنفسه وكسب الخير لها.

والنصيحة للرسول ﷺ: تصديقه فيما جاء به، واتباعه فيما أمر به ونهى عنه، وتعظيم حقه، وتوقيره حياً وميتاً، ومعرفة سنته والعمل بها، وإحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة، والتخلق بالأخلاق الطاهرة.

والنصيحة لأئمة المسلمين: إعانتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم بحوائج العباد، ونصحهم في رفق وعدل، وتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم.

والمراد بأئمة المسلمين قادتهم في تنظيم شؤون الدنيا وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس، فتشمل الملوك والأمراء والرؤساء والعلماء.

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم في دنياهم وأُخراهم، وكف الأذى عنهم، وتعليمهم ما جهلوه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، وتوقي ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

وليكن أداء النصيحة بعبارة لينة رقيقة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسلوب يغري بالامتثال، وبطريقة تبعد عن ذهن المستنصح أن الناصح هو أعلى منه فذلك يكون أعمق أثراً وأقوى تركيزاً.

وينبغي أن تكون النصيحة ـ على ما عبر الإمام عليه السلام ـ بعبارة تلائم معقولية المستنصح ولا تسمو عليه، لأن لكل عقل كلاماً، ولكل إنسان منطقاً يفهمه ويتأثر به، فلا يمكن أن تكلم الرجل الرشيد بما تكلم به الشاب النزق، وكذلك العكس، فإن الناس طبقات تتفاوت عقولهم ومداركهم.

إن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم. قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره. وفي منثور الحكم: ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك. قال أبو الدرداء: «إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله تعالى إلى عباده، ويعملون في الأرض نصحاً».

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىءٍ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم».

وقال: «أعظم الناس منزلة يوم القيامة، أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه».

وقال: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب».

وقال: «عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه».

قال ورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم … إني النذير فلا يغرركم أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته … إلا الإله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره … والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك.

وأنشد الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا … تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخفى منافعها … على الرجال ذوي الألباب والهمم

لمعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة إن تعدت … هوى المنصوح عز لها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ … فغالك دون ما أملت غول

ونصح فيروز بن حصين، يزيد بن المهلب، أن لا يضع يده في يد الحجاج، فلم يقبل منه ولم يعمل بنصحه وسار إلى الحجاج فحبسه وحبس أهله. فقال فيروز:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني … فأصبحت مسلوب الإمارة نادما
أمرتك بالحجاج إذا أنت قادر … فنفسك أولى اللوم إن كنت لائما
فما أنا بالباكي عليك صبابة … وما أنا بالداعي لترجع سالما

ويقال: من اصفر وجهه من النصيحة، اسود لونه من الفضيحة. وقال طرفة:

ولا ترفدن النصح من ليس أهله … وكن حين تستغني برأيك غانيا

وإن امرأً يوماً تولى برأيه ... فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وقال أحمد سعيد:

إن كنت ترغب في قبول نصيحتي ... والنصح يقبله اللبيب فينفع

لا تحسدن على تكاثر ماله ... أحداً ولا تغتم فيما يجمع

ليس الحسود يضر إلا نفسه ... وغليله بفؤاده لا ينقع

لكنها الدنيا ومن عاداتها ... هذا يحط بها وآخر يرفع

لا تطمعن بها فتلك دنيئة ... ومن الغرور المحض أنك تطمع

والتف في برد القناعة صابراً ... إن الغني برزقه من يقنع

كم معشر سكنوا القصور أنيقة ... وتفكهوا بمعاشهم وتوسعوا

فإذا هم أجسامهم تحت الثرى ... وإذا قصورهم الأنيقة بلقع

ما يجب أن يكون في النصيحة:

بيد أن النصيحة لا تجدي إلا باستيفائها شروطها من الصدق والإخلاص واللين في القول والمحبة، والتجرد عن شوائب الخشونة والبذاءة في اللسان بالسباب والشتم مما تنفر منه الطباع السليمة.

وعلى المنصوح له، أن يكون ممن راض نفسه على الاستماع والقبول لكلمة الحق من غير مشاحة ولا تعصب، فتوجد إذ ذاك القابلية التامة لما بعد ذلك من التخلف بالأخلاق الحميدة والتحلي بحلي الآداب الصحيحة، وإلا فما دام العناد في قبول كلمة الحق مستولياً على القلب بجنود التعصب، فمن المحال أن يرجى لدائه شفاء، ولا لاندمال جرحه دواء، ومهما بلغت الأنفس من الكمال شأواً كبيراً وحصلت من السعادة على درجة عظيمة، فهي في حاجة إلى النصح والإرشاد، وما ألطف ما قال بعض الأخيار في هذا الموضوع:

الدعوة إلى الهدى بنور الله ورسوله من أهم الأعمال وأكبر الوظائف الدينية، وتعليم الدين وبث أصله في نفوس أهله فريضة لا يصح تركها والتقاعس عن أدائها بوجه من الوجوه، ولا مجال للنزاع في أن أحكم الوسائل وأقوم السبل لتربية الشعوب وترقية الأمم، هو قيام كبار الأخيار وقادة الأفكار بدعوتها للبحث في أسرار الشرائع، وفي مذاهب الحياة والنظر في طبائع الكون وسنن العمران، وإنه ينبغي على من يأنس من نفسه القدرة على أداء هذا الواجب الملي وبث روح اليقظة بين أفراد تلك الأمة أن يسعى

لخير قومه، سالكاً سبيل الجرأة والإقدام والثبات، فلا يسأم من تكرار الدعوة وموالاة الإرشاد إلى ما يتوسم البلوغ بسببه إلى الغاية المبتغاة من التقدم ومناهج الترقي، فقد قالوا: «إن مقاليد القلوب بأيدي الخطباء، وأزمة النفوس بأيدي الكتاب» وقال الصاحب بن عباد: «إذا تكرر الكلام على السمع تقرر في القلب».

وناهيك بالخطابة والكتابة، اللتين يعدان من أهم دعائم العمران التي قام عليها بناء المجتمع الإنساني، فإنك لا تجد جماعة تألفت أو دولة قامت أو ديناً انتشر أو شرعاً تقرر، إلا على إحدى هاتين الدعامتين وعليهما معاً، فهما الأداة المؤثرة في النفوس للاقتناع بالغرض الذي تحاول جذبها إليه بمؤثرات الترغيب والترهيب، والزجر والحض والوعد والوعيد ونحو ذلك.

وهكذا كان حال السلف من أئمتنا ومرشدينا، ممن أُوتوا سحر البيان وفصل الخطاب، وبذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

الجهر بإسداء النصح:

يتجلى ذلك فيما روي أن المنصور الدوانيقي كان يطوف ليلاً بالبيت، إذ سمع قائلاً يقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فترك المنصور الطواف وجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن، ثم أقبل مع الرسول، فسلم على المنصور بالخلافة، فقال له المنصور: ما الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله، لقد حشوت مسامعي ما أرمضني. قال: يا أمير المؤمنين، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا أُجادل عن نفسي. قال له المنصور: أنت آمن على نفسك فقل. فقال إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البغي والفساد، أنت. قال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك؟ إن الله تعالى استرعاك على المسلمين وأموالهم فغفلت عن أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، وأمرتهم ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان نفراً سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم الملهوف، ولا الجائع والفقير، ولا العاري والضعيف، ولا أحد ممن له في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت أن لا يحجبوا عنك، تجبي الأموال فلا تعطيها، وتجمعها ولا تقسمها، قالوا: هذا رجل خان الله، فما لنا لا نخونه، وقد سخر لنا نفسه؟ فاتفقوا على ألا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم، إلا بغّضوه عندك وبغوه الغوائل حتى تسقط منزلته، ويصغر قدره، فلما اشتهر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك، لينالوا به ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك، وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك، وقد نهيت عن ذلك، ووقفت رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المظلوم إلى الرجل وبلغ بطانتك، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع إليك مظلمته، فيجيبهم خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه ولا يقبل عليه، وإذا جهد وأُخرج، وخرجت أنت، وصرخ بين يديك يضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر ولا تنكر، فما بقاء الإسلام على هذا؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين أيام شبيبتي أُسافر إلى الصين، فقدمتها مرة وقد أُصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاءً شديداً فحثه جلساؤه على الصبر، وقالوا له علام تبكي، وقد عهدناك صبوراً تتحمل الشدائد ولا تكترث بالنوائب، ولا توهنك المصائب؟ فقال: لست أبكي للبلية النازلة ولكن أبكي للمظلوم يصرخ بالباب، فلا أسمع صوته وأنينه، ومع هذا فلئن ذهب سمعي، فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن يلبس كل مظلوم ثوباً أحمر، ثم صار يركب الفيل طرفي النهار يدور في الشوارع عله يرى مظلوماً، فأنصف رعيته وحكم بينهم بالعدل، وعاش محبوباً، ومات محبوباً فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على شح نفسه، وأنت مؤمن بالله واليوم الآخر، من أهل بيت رسول الله، فلا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك.

فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه، وما له على الأرض مال، وما من مال يومئذ إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي، بل الله يعطي

من يشاء ما يشاء. وإن قلت إنما أجمع المال لتدعيم الملك وتقوية السلطان، فقد أراك الله عبراً في بني أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والكراع والسلاح حين أراد الله بهم ما أراد.

وإن قلت: إنما أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها، فوالله، ما فوق ما أنت فيه منزلة إلا منزلة لا تنال، إلا بخلاف ما أنت عليه!! يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل أو الصلب؟ قال: لا. قال: فإن الملك الذي أعطاك ما أعطاك، وخولك ما خولك من ملك الدنيا، لا يعاقب من عصاه بالقتل، بل بالخلود في العذاب الأليم، وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك، وعملته جوارحك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، فانظر يا أمير المؤمنين، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب على ما خولك؟ فبكى المنصور بكاءً عالياً، وقال: ليتني لم أُخلق، ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال: إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم، ويرضون بقولهم، فاتخذهم بطانة لك يرشدوك، واستعن بآرائهم وأقوالهم يسددوك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني. قال: خافوا منك أن تحملهم على طريقك فلم يرضوا بها، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانظر في أمور الناس، وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والأموال مما حل وطاب، واقسم ذلك بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن لك أنك إذا فعلت ذلك أن يأتوك ويساعدوك على إصلاح هذه الأمة. فبينما هو كذلك وإذا بالمؤذنين، فنادوا بالأذان فقام فصلى، فلما فرغ من صلاته طلب الرجل فلم يوجد.

قرأت في كتاب للهند: أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم، فقال له: أيها الملك نصيحتك واجبة في الحقير والصغير، بله الجليل الخطير، ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمالك ما يسوء موقعه من الأسماع والقلوب في جنب صلاح العاقبة وتلافي الحادث قبل تفاقمه، لكان خرقاً مني أن أقول، وإن كنا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك وأنفسنا معلقة بنفسك لم أجد بداً من أداء الحق إليك، وإن أنت لم تسألني أو خفت أن لا تقبل مني، فإنه يقال: من كتم السلطان نصحه، والأطباء مرضه، والإخوان بثه، فقد خان نفسه.

جاء في كتاب فرائد الغوالي تأليف العلامة (الشيخ محسن الجواهري):

أورد أبو الفرج حكاية عن خالد بن صفوان الأهتم، قال: أوفدني يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك، في وفد أهل العراق، قال: فقدمت عليه وقد خرج بقرابته

وحشمه وحاشيته وجلسائه، فنزل في أرض قاع، منيف أفيح، في عام قد بكر وسميه، وتتابع وليه، وأخذت الأرض فيه زينتها، على اختلاف من ألوان نبتها، من نور ربيع مونق، فهو في أحسن منظر ومخبر ومستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، وقد ضرب له سرادق من حبرة كان يوسف بن عمر صنعه له باليمن فيه فسطاط، فيه أربعة أفرشة من خز أحمر مثلها مرافقها، وعليه دراعة من خز أحمر مثلها عمامتها، وقد أخذ الناس مجالسهم.

قال: فأخرجت رأسي من ناحية السماط، فنظر إلي شبه المستنطق لي، فقلت: أتم الله عليك ـ يا أمير المؤمنين ـ نعمه، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشداً، وعاقبة ما يؤول إليه حمداً، وأخلصه لك بالتقى، وكثره لك بالنماء، ولا كدر عليك منه ما صفا، ولا خالط سروره بالردى، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستراحاً، إليك يقصدون في مظالمهم، ويفزعون في أمورهم، وما أجد شيئاً ـ يا أمير المؤمنين ـ هو أبلغ في قضاء حقك وتوقير مجلسك، وما منّ الله عزَّ وجلّ علي به من مجالستك، من أن أذكرك نعم الله عليك، وأُنبهك لشكرها، وما أجد في ذلك شيئاً هو أبلغ من حديث من سلف قبلك من الملوك فإن أذن أمير المؤمنين أخبرته به. قال فاستوى جالساً، وكان متكئاً، وقال: هات يا بن الأهتم، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إن ملكاً من الملوك قبلك خرج في عام مثل عامك هذا إلى الخورنق والسدير في عام قد بكر وسميه، وتتابع وليه وأخذت الأرض فيه زينتها على اختلاف ألوان نبتها، في ربيع مونق، فهو في أبهج منظر، وأحسن مخبر، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، وقد كان أُعطي فتاء السن مع الكثرة والغلبة والقهر، فأبعد النظر، ثم قال لجلسائه: لمن مثل هذا؟ وهل رأيتم مثل ما أنا فيه؟ وهل أعطي أحد مثل ما أُعطيت؟ قال: وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجة، والمضي على أدب الحق ومنهاجه ولم تخل الأرض من قائم لله عزَّ وجلّ بحجة في عباده ـ فقال: أيها الملك إنك سألت عن أمر، أفتأذن لي في الجواب عنه، قال: نعم، قال آرأيت هذا الذي أنت فيه، أشيء لم تزل فيه، أم شيء صار إليك ميراثاً وهو زائل عنك، وصائر إلى غيرك كما صار إليك؟ قال: كذلك هو، قال: فلا أراك أُعجبت إلا بشيء يسير، تكون فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً، وتكون غداً بحسابه مرتهناً، قال: ويحك فأين المهرب وأين المطلب؟ قال: إما أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله ربك على ما ساءك وسرك، وأمضك وأرمضك، وإما أن تضع تاجك، وتخلع أطمارك، وتلبس أمساحك، وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا كان السحر فاقرع عليَّ

بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه كنت وزيراً لا تعصى، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد كنت رفيقاً لا تخالف، قال: فقرع عليه بابه عند السحر، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطماره، ولبس أمساحه، وتهيأ للسياحة. فلزما ـ والله ـ الجبل حتى أتاهما الأجل. فهو حيث يقول عدي بن زيد أخو بني تميم:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من ... الأيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم ... لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ ... دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً ... فللطير في ذراه وكور
لم يهبهم ريب المنون فباد ... الملك عنهم فبابهم مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ ... أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك ... والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة ... حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمة ... وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور

قال: فبكى هشام حتى اخضلت لحيته، وبلت عمامته، وأمر بنزع أبنيته، وانتقال قرابته وأهله وحاشيته من جلسائه ولزم قصره، فأقبلت الموالي والحشم على خالد بن صفوان، فقالوا له: ما أردت إلى أمير المؤمنين؟ أفسدت عليه لذته ونغصت عليه مأدبته، فقال: إليكم عني، فإني عاهدت الله عزَّ وجلّ أن لا أخلو بملك إلا ذكرته الله عزَّ وجلّ.

معاتبة من لم يقبل النصح:

من لم يقبل نصح أصحابه وإن حزنوه، عاد ضرره عليه، كالمريض الذي يترك ما يصف له الطبيب، ويعمد لما يشتهيه فيهلك.

قال الله تعالى حكاية عن صالح النبي عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[(١)].

وفي كتاب الأمالي (لأبي إسماعيل القالي)، قال: أخبرنا عبد الرحمن عن عمه، قال: سمعت أعرابياً يقول لأخ له: اعلم أن الناصح لك المشفق عليك من طالع لك من وراء العواقب برويته ونظره، ومثل لك الأحوال المخوفة عليك، وخلط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته، ليكون خوفك كفاء رجائك وشكرك إزاء النعمة عليك، وأن الغاش لك والحاطب عليك من مدّ لك في الاغترار ووطّأ لك مهاد الظلم تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك.

وفي كتاب (عصر سلاطين المماليك) تأليف محمود رزد سليم، كان أبو الحسين الجزار المصري يقول في النصيحة، بألا يقطع المرء عادة بر جرى عليها، وألا يمسك يده عمن اعتاد منه بذل المعاونة، عقاباً له على جريرة ارتكبها، أو خلف اقترفه، وينبغي ألا يعاقب المرء بقطع رزقه، فهذا أدعى إلى إثارة حقده وكراهيته، وينبغي أن يحرص الإنسان على بذل العفو للمسيء، فذلك أدعى إلى استبقائه...

ويقول في شعره مستدلاً لقوله ويضرب المثل له:

لا تقطعــــن عــــادة بــــر ولا	تجعــل عقــاب المــرء فــي رزقــه
واحــرص علــى العفــو فــإن الــذي	تــرجــوه عفــو الله عــن خلقــه
وإن بــدت مــن صــاحــب زلــة	فــاستــره بــالإغضــاء واستبقــه
فــإن إثــم الإفــك مــن مسطــح	يحــط قــدر النجــم مــن أفقــه
وقــد جــرى منــه الــذي قــد جــرى	وعــوتــب الصــديــق فــي حقــه

وهذا عبد العزيز بن محمد القيسراني المخزومي نزيل القاهرة يتحدث في نصحه: إن كل امرىء يطلب الرزق من غير الله يكون قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل الأماني، لأن الذي يعجز عن رزق نفسه كيف يستطيع أن يرزق غيره ويحقق له أمنيته فيه. يقول:

مــن طلــب الأرزاق مــن عنــد مــن	يطعمــــه الله ويسقيــــه
يكــون قــد ضــل سبيــل الهــدى	وحــاد عــن نيــل أمــانيــه
لأن مــن يعجــز عــن نفســه	يعجــز عــن أرزاق راجيــه

وتحدث تقي الدين السبكي رأس شافعية زمانه في نصحه: بأن دعا إلى العلم

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧٩.

والتزود بالمعرفة والتخلق بمكارم الأخلاق. ورأى أن كمال الفتى بعلمه لا بمنصبه وأن العلم هو علم الشريعة الإسلامية السمحة، وما يتصل بها من بحث وتحقيق وتحرير البراهين وقطع المغالب، ورأى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب، وأنها أسمى من المال وغيره، وأن العالم لا بأس عليه إذا أدبرت عنه الدنيا ومفاتنها، فإنه قد أصاب من مشاربها صفوها. ويقول في هذا المعنى:

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب   ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى   بهم كل سار في الظلام وسارب
ولا فخر إلاَّ إرث شرعة أحمد   ولا فضل إلاَّ باكتساب المناقب
وبحث وتحقيق وإيضاح مشكل   وتحرير برهان وقطع مغالب
وأحكام آيات الكتاب وسنة   أتت عن رسول من لؤي بن غالب
إذا المرء أمسى للعلوم مخالفاً   أضاء له منها جميع الغياهب
وينزاح عنه كل شك وشبهة   وتبدو له الأنوار من كل جانب
هي الرتبة العليا تسامي بأهلها   إلى مستقر فوق متن الكواكب
فدونكها إن كنت للرشد طالباً   تنل خير مرجو الدنا والعواقب
ولا تعدلن بالعلم مالاً ورفعة   وسمر القنا أو مرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبل   فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذي الدنيا وما قدر أهلها   وما اللهو بالأولاد أو بالكواعب
إذا قست ما بين العلوم وبينها   بعقل صحيح صادق الفكر صائب
فما لذة تبقى ولا عيش يقتنى   سوى العلم أعلى من جميع المكاسب

ولما ولي تاج الدين السبكي توقيع الدست بالشام لدى الأمير علاء الدين المارديني نائبها، نصحه أبوه تقي الدين السبكي بعدة نصائح تتصل بهذه الصناعة في مقدمتها: ألا يكتب بكفه شيئاً يخشى أن يراه ماثلاً أمامه يوم القيامة فيحاسب عليه حساباً عسيراً، وألا يتناول من الأموال إلا الحلال الطيب، وأن ينأى بجانبه عن المال الحرام، وأن يكون شعاره تقديم النصح الخالص لصاحب الدست، وأن تكون التقوى رأس ماله في كل ما يأخذ وفي كل ما يدع.

قال تقي الدين السبكي:

أقول لنجلي البر المفدى   مقالاً وثقت منه عراه
وليت كتابة أو دست ملك   رست أحكامه وسمت ذراه

فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه
ولا تأخذ من المعلوم إلا حلالاً طيباً عطراً نراه
ونصحك صاحب الدست اتخذه شعارك فالسعادة ما تراه
ثلاث يا بني بها أوصي فمن يأخذ بها تحمد سراه
وتقوى الله رأس المال فالزم فما للعبد إلا من براه

ويحذر (لاحين بن عبد الله الذهبي) في نصائحه من الدنيا وزخارفها ومتعها وباطلها، ويهون من شأنها ويحقر من أمرها، وينبه الخاطر إلى أن أطيب مأكول فيها مجني من حشرة هي النحلة، وأفخر ملبوس فيها مأخوذ من حشرة هي الدودة، وأولى بالمرء أن يتبع الحق ويعيش لأجله، ويتيقظ إلى أن أيام الدنيا محدودة، وأنفاسه فيها معدودة، ولا خلود فيها، ومن بعدها الحساب. يقول:

ميلوا عن الدنيا ولذاتها فإنها ليست بمحموده
اتبعوا الحق كما ينبغي فإنما الأنفاس معدوده
وأطيب المأكول من نحلة وأفخر الملبوس من دوده

وهذا الشاعر البارع زين الدين بن الوردي يحذر المرء في حكمه ونصائحه ويرسم له مسالك الحياة ويصور له أخلاق الناس وما ينبغي له عمله إزاءها. ويوصيه بأن يكون في غفلة عنهم، لا في يقظة لأعمالهم! وهذا اتجاه غريب ونصيحة تحتاج إلى نظر وتعليل: فلعله يريد ألا يشغل المرء نفسه بأعمال الناس، وألا يتنبه لهم حتى لا يثير ذلك في نفسه حفيظة عليهم أو حقداً لهم، أو يدفعه إلى تدبير أمر لهم، أو يثير في نفسه أي شاغل يشغله بهم وبأعمالهم. وهو يرمي من وراء ذلك إلى أن يكون المرء في شبه عزلة عن الناس حتى يعيش في طمأنينة بال وبلهنية حال.

وهو ينصح ويوصي بحفظ الود واحتمال الإساءة من الصديق وغفرانها له، والإسراع إلى فعل الجميل، فذلك أدعى إلى رده عند المناسبة، وهو يدعو إلى أن يغتنم المرء فرصة الحياة فيبادر إلى تقديم ما ينفعه في الآخرة، فالدنيا مزرعة لها، وليكن تقوى الله إماماً له، وليعلم أن الدنيا مليئة بالمساوىء، ولا مجال إلى ملافاتها إلا بمداراة أهلها ومعاونتهم حتى يسلم من أذاهم، إلى آخر ما ينصح به.

يقول:

واحذر بني الدنيا وكن في غفلة عنهم وجانب كل كلب ضاري

واحفظ لصاحبك القديم مكانه ... لا تترك الود القديم لطاري
وإذا أساء وفيك حمل فاحتمل ... إن احتمالك أعظم الأنصار
سارع إلى فعل الجميل وقلد الأعناق ... حسنى فالزمان عواري
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى ... تغنم فما الدنيا بدار بدار
واعمل لتلك الدار ما هي أهله ... عمل المداري أهل هذي الدار
وتوخ فعل المكرمات تبرعاً ... فالمكرمات حميدة الآثار
لا تأسفن لما مضى واحرص على ... إصلاح ما أبقيت باستكثار
فالمعسرون بنو كلاب عندهم ... واليوم أهل الفضل أهل يسار
جاور إذا جاورت بحراً أو فتى ... فالجار يشرف قدره بالجار
كن عالماً في الناس أو متعلماً ... أو سامعاً فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به ... فالحر مطلع على الأسرار

ولم يترك في قصيدته تلك الفرصة السانحة للدعوة إلى مبدئه ومذهبه الذي اعتنقه أخيراً. وهو الخمول!! وينصح باتباعه، لأن الخمول مع غنى النفس والقناعة، سعادة كاملة وعز شامل، إذ يعصم المرء من رجاء فلان واستعطاف فلان، وفي سعي المرء إلى الشهرة خطر عليه فهو يعرضه للرجاء والإذلال.

وهو يطلب في الأبيات التالية، أن يعجل المرء إلى التوبة والندم إذا ابتلي بزلة وتردى في خطيئة، ويدعوه إلى ألا يظلم الناس حذراً من دعواتهم في الأسحار على الظالم، وينبغي عليه أن يطيل الفكر في عواقب تصرفه حذراً من أن يقف مرة موقف الاعتذار، فهو موقف الضعف على كل حال وليتجه بوجهه إلى الله سبحانه وتعالى، فهو مصدر المعروف دون سواه، وها هي ذي الدنيا قد خلت من الأخلاء الذين يرتجون في الشدة ويقصدون في المحنة، ولم يجد بينهم من يتأبى عن الأوزار والخطايا.

ويردد ابن الوردي النصيحة الخالدة القديمة، وهي الحذر من العدو مرة ومن الصديق مراراً، لأن الصديق أدرى بالسر وأعرف بالثغرة، وأكشف للعيب، إلى آخر ما نصح به. وفي ذلك كله يقول:

ما العيش إلا في الخمول مع الغنى ... وبالاشتهار نهاية الأخطار
واقنع فما كنز القناعة نافذاً ... وكفى بها عزاً لغير ممارِي
واسأل إلهك عصمة وحماية ... فالسيئات قواصف الأعمار
وإن ابتليت بزلة وخطيئة ... فاندم وبادرها بالاستغفار

إيــاك مــن عسـف الأنـام وظلمهـم | واحـذر مـن الـدعـوات فـي الأسحـار
أطـل افتكـارك فـي العـواقـب واجتنـب | أشيـاء محـوجـة إلـى الأعـذار
ودع الـورى وسـل الـذي أعطـاهـم | لا تطلـب المعـروف مـن إنكـار
جمـد النـدى لجمـودة الكبـر ومـا | جمـد النـدى لبـرودة الأشعـار
لـم يبـق خـل للشـدائـد يـرتجـى | فـي نشـر إحسـان وطـي عـوار
مـن أيـن يـوجـد صـاحـب مستحسـن | للخيـر أوزار علـى الأوزار
احـذر عـدوك والمعـانـد مـرة | واحـذر صـديـق الصـدق سبـع مـرار
فـالأصـدقـاء لهـم بسـرك خبـرة | ولهـم بـه سبـب إلـى الإضـرار
واصبـر علـى الحسـاد صبـر مـدبـر | قـد أظهـر الإقبـال فـي الإدبـار
كـم نـال بـالتـدبيـر مـن هـو صـابـر | مـا لـم ينلـه بعسكـر جـرار

قال أبو ساسان:

أمـرتـك أمـراً حـازمـاً فعصيتنـي | فـأصبحـت مسلـوب العبـارة نـادمـا

وقال آخر:

لـو كنـت تقبـل نصحـي غيـر متهـم | مـلأت سمعـك مـن وعـظ وانـذار

وقال العرجي:

عـرضـت نصيحـة منـي ليحيـى | فقـال غششتنـي والنصـح مـر

ضياع النصح لمن لا يقبله:

قال الشاعر:

وما خير نصح قيل لا يتقبل...

وقال الآخر:

إن كـان حمـدي ضـاع فـي نصحكـم | فـإن أجـري ليـس بـالضـائـع

وقيل أخذ رجل ذئباً، فجعل يعظه ويقول: إياك وأخذ أغنام الناس فيعاقبك الله، والذئب يقول: خفف واختصر، فقدامي قطيع من الغنم لئلا يفوتني.

قال الشاعر:

لـددتهـم النصيحـة أي لـد | فمجـوا النصـح ثـم ثنـوا ونـاؤوا

معاتبة من يستنصح الناس ويستغش الناصح:

قال عبدالله بن همام:

ألا رب من تغتشه لك ناصح ومؤتمن بالغيب غير أمين

وله أيضاً:

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب امرأً غير ناصح

يزيد بن الحكم:

تصافح من لاقيته ذا عداوة صفاحاً وحقد بين عينيك منزو

وقال آخر:

والعجز أن تجعل الموتور منتصحا...

وقال آخر:

ألا رب نصح يغلق الباب دونه وغش إلى جنب السرير مقرب

وقال آخر:

نصحت فلم أُفلح وخانوا فأفحلوا فأنزلني نصحي بشر مكان

وصف غاش في نصحه:

قيل: فلان شولة الناصح، وشولة أمة، (كانت ترى أن تنصح مواليها وهي تسعى في إهلاكهم).

قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص: هل غششتني منذ استنصحتك؟ قال: لا، فقال: ولا يوم أشرت علي بمبارزة علي وأنت تعلم من هو؟ فقال: كيف وقد دعاك رجل عظيم الخطر، كنت من مبارزته إلى إحدى الحسنيين، إن قتلته فزت بالملك وازددت شرفاً إلى شرف، وإن قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصديقين. فقال: وهذا أشد من الأول. فقال: أو كنت من جهادك في شك؟ فقال: دعني من هذا.

قال النابغة:

يخبركم أنه ناصح وفي نصحه ذنب العقرب

الموسوي:

يروم نصحي أقوام رأوا كيدي والعجز أن تجعل الموتور منتصحا




حقُّ النَاصِحِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ النَاصِحِ أَنْ تَلِينَ لَهُ جَنَاحَكَ، وَتُصْغِي إِليْهِ بِسَمْعِكَ، فَإِنْ أَتَى بِالصَوابِ حَمَدْتَ اللهَ عزَّ وجلّ، وَإِنْ لَمْ يُوَفَّقْ رَحِمْتَهُ وَلَمْ تَتَّهِمْهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ أَخْطَأَ، وَلَمْ تُؤاخِذْهُ بِذَلِكَ إِلاَّ أَنْ يَكونَ مُسْتَحِقاً لِلتُّهْمَةِ، فَلاَ تَعْبَأْ بِشيءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى حَالٍ، وَلاَ قُوّةَ إلاَّ بِاللهِ».

***




نحن الآن في الجولة الثانية بعد الجولة الأولى في ساحة النصح وينبوعه.

جولة مباشرة للوجدان الإنساني، لعل ينتفض ضميره، ولعل يرتعش وجدانه، فيتأثر بهذه اللمسة التي فيها معنى الإنسانية والتكريم العلوي لهذا المخلوق.

ولا بد هنا من فقرة تفسح لنا المجال للتحدث عن الموضوع: من تأمل مقاصد الأوامر والنواهي الدينية، وتغلغل في أسرارها، عرف أنها ترمي إلى غرض واحد، هو طهارة النفس وكمالها الإنساني الذي تسعد به في الدنيا والآخرة.

انظر قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[1]. تجد أن فلاح الإنسان منوط بسلامة عقيدته، وصلاح أعماله ومتانة أخلاقه.

قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق» فقد جعل مكارم الأخلاق الغاية من بعثته الشريفة. وأثار الاهتمام بالأخلاق بقوله: «أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن».

وقال الحكماء: «إن اعتدال الأخلاق في الإنسان قد يكون السبب وحده في سعادته».

من البديهي أنه كلما انتشرت الأمراض، اشتدت الحاجة إلى علم الطب لمقاومتها، وإنقاذ الناس من فتكها، وكذلك كلما انتشرت المفاسد، ازدادت الحاجة إلى علم الأخلاق، ومضاعفة العناية بتهذيب النفوس وصقلها، فهو طبها وواصف أدوائها.

ولئن كان الإنسان في حاجة إلى العلوم، فهو إلى الأخلاق أحوج لأن ما يصيبه من الظلم وما يفشو بين أفراده من الإجرام، منشؤه نقص الأخلاق أكثر من أن يكون

---

(١) سورة العصر الآيات ١ ـ ٣.

منشؤه نقص العلم، فإن العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء. أما علم الأخلاق فظهير الفضيلة وخصيم الرذيلة.

الفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلي بالواجب. ولا يكون المرء فاضلاً لمجرد أنه يعلم ما يجب عمله، بل الفضل في أن يعمل ما يجب عمله ويترك ما يجب تركه، فكأين من عالم موسر يمر بذي الحاجة فيعرض عنه مع علمه بفضل مساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف. وكم من جاهل سليم القلب تحمله سلامة قلبه على قضاء حاجته.

لست أُحاول أن أبخس العلم حقه، ولكني أُريد ألا تتجه رغبتنا إلى محاربة الجهل فقط، فالمتعلم السيىء الخلق أضر من الجاهل.

ولقد كان يسرنا أن تكون الأخلاق شنشنة المتعلمين، ولكن كثيراً ما نرى غير هذا. قال أحد المستشرقين: (إن غير المتعلمين أزكى أخلاقاً من المتعلمين) وليس لهذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح، ولم يتزودوا من الأخلاق الفاضلة، لأن القوى الموهوبة إن لم يأخذ بزمامها قائد الأخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور: فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه، استخدم جاهه في مساعدة الضعفاء وقضاء حاجات المحتاجين، وإذا ساءت أخلاق ذي الجاه توصل به إلى الشر، كذلك من أُعطي المال، إن كان حسن الأخلاق بذله في صنوف الخير، وإن كان شريراً ابتاع به شراً.

والكاتب إذا لم يكن أميناً، كانت معرفته الكتابة وسيلة تمكنه من تزوير العقود والوثائق، وإيقاع الناس في المشاكل. والحداد إذا لم يكن أميناً اشترك مع اللصوص وصنع لهم المفاتيح التي تساعدهم على السرقة. والفتاة المتعلمة إن لم تكن كريمة الأخلاق، فإنها لا تجني من تعلمها سوى الخلاعة، والخروج على الأخلاق والآداب المرعية، وكان ضررها أكبر إذا تولت مهنة التعليم. والمدره إذا لم يكن صادقاً، أضلّ القاضي وضيع الحقوق وساعد على أكل أموال الناس بالباطل.

والناصح إذا لم يكن عاقلاً عفيفاً صدوقاً، ذا حياء وسلامة ذات. وفوق ذلك كله (الدين) قد حنكته الأمور وغذته التجارب، إذا لم يوصف بهذه الصفات، لا يؤخذ بنصحه ولا يعمل برأيه، ولا يترتب الأثر على ما يبديه من النصح، لما ينتج من الضرر الكبير والاختلال في الأمور.

لأنه إن كان عفيفاً، يأنف من الغش حتى لعدوه، وإن كان من أهل الحياء يمنعه حياؤه من نسبة الغش إليه. وإن كان صدوقاً لا يكذب. لعلمه أن الكذوب ممقوت لا

يوصف بالخير.

وإن كان سليم الذات، لا يرى النصح إلا لازماً له، لنقاوة نفسه وفطرته.

والمتدين يرى الواجب الديني، المبالغة في النصح، لكل فرد في أي عمل أو قول يقوم به.

فمن كان موصوفاً بهذه الصفات كان من اللازم أن تلين له جناحك، وتصغي إليه بسمعك، وتعرف حقه وتشكر له نصحه، ولا تتهمه في إبداء النصح، وتوجه القلب والسمع والبصر نحوه لتستفيد من نصحه ورشده. هذا إذا كان مصيباً في الرأي، أما إذا لم يصب الرأي فيعذر، إذ ليس من الناس من يصيب دائماً، وليس في الناس من لا يخطىء أبداً، فالإنسان يصيب مرة ويخطىء أحياناً، فإذا علم خطأه فله العذر ولا يتهم، فقد قدم النصيحة عن إخلاص، راجياً ومؤملاً الصلاح والخير والنفع.

جاء في الأثر الحث على قبول النصيحة، ففي رواية الكليني في أصول الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «يا صالح اتبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش، وستردون جميعاً إلى الله».

وفي محاضرات الراغب الأصبهاني في باب الحث على قبول النصيحة وإن كان مراً (قيل من أحبك نهاك، ومن أبغضك أغراك). وقال بعض الحكماء: (من أوجرك المر لتبرأ أشفق عليك ممن أوجرك الحلو لتسقم). وقيل: (النصيحة أمن الفضيحة).

والأنسب للعاقل إبداء النصيحة وإبرازها صادفت قبولاً أم لا، فإنها إن صادفت قبولاً فقد نال حمداً، وإن لم تصادف قبولاً فقد اكتسب أجراً وعذراً.

وقال الخبز أرزي:

إن كان حمدي ضاع في نصحكم ... فإن أجري ليس بالضائع

وقال أوس:

وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني ... فلم يك عندي غير نصح وإرشاد

رد النصيحة مقرون بالنكبة والحسرة:

قال أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام في بعض خطبه: «أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة وتعقب الندامة».

هذه القيود من صفات الناصح معتبرة، في حسن الرأي ووجوب قبوله. وقد نظم الأدباء بعضاً منها:

قال أحدهم:

خصائص من تشاوره ثلاث فخذ منها جميعاً بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل ومعرفة بحالك في الحقيقه

أما كونه ناصحاً: فلأن الناصح يصدق الفكر ويمحص الرأي، وغير الناصح ربما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرة.

وأما كونه شفيقاً: فلأن الشفقة تحمل على النصح، فتحمل على حسن التروي في الأمر وإيقاع الرأي من ثبت واجتهاد. وفي أمثال العرب: (اسمع ممن لا يجد منك بداً): يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك، كالأبوين، ومن لا يستجلب بنصحك نفعاً إلى نفسه بل إلى نفسك.

يقول الشاعر:

إذا ما عرا خطب ورمت وروده فشاور فكم نجح هدته المشاوره
وأنفع من شاورت من كان ناصحاً شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره

وأما كونه عالماً: ففائدته إصابته، لعلمه وجه المصلحة في الأمر، فإن الجاهل في الأمر أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه.

قال رسول الله ﷺ: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا».

قال عبد الله بن الحسين لابنه محمد: (احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العدو العاقل، فإنه كما يوشك أن يقع بك مكر العاقل، كذلك يوشك أن يورطك شور الجاهل).

وأما كونه مجرباً: فلأنه لا يتم رأي العالم ما لم تنضم إليه التجربة، وذلك أن العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر إلا أن ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد، ولا يطلع عليها إلا بالتجربة مرة ومرة، فالنصيحة من دون تجربة مظنة الخطأ.

وقيل في منثور الحكم: (كل شيء محتاج إلى العقل والعقل محتاج إلى التجارب) أو كما يقال: (إياك ومناصحة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب في

غيره، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه)، وقال لقمان لابنه: «يا بني استنصح من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلا، وتأخذه أنت بالمجان».

وإذا عرفت أن طاعة الناصح الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في أغلب الأحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها، لا جرم كانت معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة.

وقد شهد التاريخ على جماعة تركوا نصيحة الناصح، فأُصيبوا بالعطب الدنيوي والديني:

منهم يزيد بن المهلب الأزدي:

نصحه (فيروز بن حصين) على أن لا يضع يده في يد الحجاج، فلم يقبل منه، فسار إليه فحبسه وحبس أهله، فقال فيروز بن حصين:

أمــرتــك أمــراً حــازمــاً فعصيتنــي ... فــأصبحــت مسلــوب الإمــارة نــادمــا
أمــرتــك بــالحجــاج إذ أنــت قــادر ... فنفســك أولــى اللــوم إن كنــت لائمــا
فمــا أنــا بــالبــاكــي عليــك صبــابــة ... ومــا أنــا بــالــداعــي لتــرجــع ســالمــا

ومنهم عبد الله بن الصمة (فارس هوازن):

قال ابن عبد ربه في (العقد الفريد): أغار عبد الله بن الصمة على غطفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فأطردها، فقال له أخوه دريد: النجاء فقد ظفرت. فأبى عليه وقال: لا أبرح حتى أنتقع نقيعتي. والنقيعة ناقة ينحرها من وسط الإبل، فيصنع منها طعاماً لأصحابه، ويقسم ما أصاب على أصحابه ـ فأقام وعصى أخاه ولم يعبأ بنصحه، فتتبعته فزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللوى، فقتل عبد الله وارتث دريد فبقي قي القتلى، فلما كان في نصف الليل أتاه فارسان فقال أحدهما لصاحبه: إني أرى عينه تبص فانزل فانظر إلى نفسه، فنزل فكشف ثوبه فإذا هي تزمر، فطعنه فخرج دم قد كان احتقن، قال دريد: فأفقت عندها، فلما جاوزوني نهضت قال: فما شعرت إلا وأنا عند عرقوبي جمل امرأة من هوازن، فقالت: من أنت؟ أعوذ بالله من شرك. فقلت: لا بل من أنت ويلك؟ قالت: امرأة من هوازن سيارة. قلت: وأنا من هوازن، وأنا دريد بن الصمة. قال: وكانت في قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة، فضمته وعالجته حتى أفاق، قال

دريد يرثي عبد الله أخاه ويذكر عصيانه له وعصيان قومه:

أعـاذل إن الـرزء فـي مثـل خـالـد ... ولا رزء فيمـا أهلـك المـرء عـن يـد
وقلـت لعـارض وأصحـاب عـارض ... ورهـط بنـي السـوداء والقـوم شهـدي
عـلانيـة ظنـوا بـألفـي مـدجـج ... سـراتهـم فـي السـابـري المسـرد
أمـرتهـم أمـري بمنقطـع اللـوى ... فلـم يستبينـوا النصـح إلا ضحـى الغـد
فلمـا عصـونـي كنـت منهـم وقـد أرى ... غـوايتهـم أو أننـي غيـر مهتـد
ومـا أنـا إلا مـن غـزيـة إن غـوت ... غـويـت وإن تـرشـد غـزيـة أرشـد
فـإن تعقـب الأيـام والـدهـر تعلمـوا ... بنـي غـالـب أنّـا غضـاب لمعبـد
تنـادوا فقـالـوا أردت الخيـل فـارسـاً ... فقلـت أعبـد الله ذلكـم الـردي؟
فـإن يـك عبـد الله خلـى مكـانـه ... فمـا كـان وقـافـاً ولا طـائـش اليـد
ولا بـرمـاً إذا مـا الـريـاح تنـاوحـت ... بـرطـب العضـاه والضـريـع المنضـد
كميـش الإزار خـارج نصـف سـاقـه ... صبـور علـى الضـراء طـلاع أنجـد
قليـل التشكـي للمصـائـب حـافـظ ... عليـم بـأعقـاب الأحـاديـث فـي غـد
وهـون وجـدي أننـي لـم أقـل لـه ... كـذبـت ولـم أبخـل بمـا ملكـت يـدي

واستعرض التاريخ جماعة من أفذاذ الرجال وأعاظمهم في الصدر الأول في الإسلام نصحوا لله ولرسوله وآله أحياء وأمواتاً.

منهم سعد بن الربيع:

قتل يوم أُحد شهيداً، حين فر المسلمون عن رسول الله ﷺ ونادى إبليس في المعركة قتل محمد، فقال سعد: لا خير في الحياة بعد رسول الله ثم حمل على المشركين وجعل يضرب بسيفه في وجوههم قدماً حتى سقط إلى الأرض، ولما تراجع المسلمون قال النبي ﷺ: من له علم بسعد بن الربيع فإني رأيته وقد أُشرعت إليه اثنا عشر رمح. فقال أبي بن كعب: أنا يا رسول الله. فأقبل أبيّ بن كعب وجعل يطوف بين القتلى فوجده وبه رمق، فناداه: يا سعد فما أجابه، فقال: يا سعد إن رسول الله ﷺ بعثني إليك لآتيه بخبرك، فإنه يقول: رأيته وقد أُشرعت إليه اثنا عشر رمح، قال: فانتعش سعد كما ينتعش الفرخ، وقال: أهو حي؟ قلت: إي والله. قال: الحمد لله وصدق رسول الله ﷺ، إني طعنت اثنتي عشرة طعنة أنفذت مقاتلي، أقرىء رسول الله عني السلام، وقل لقومي عني يقول سعد: الله الله على ما عاهدتم عليه رسول الله،

فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى نبيكم شيء وفيكم عين تطرف، ثم مات رحمه الله. فجاء أبّي إلى رسول الله فأخبره. فقال ﷺ: «رحم الله سعداً لقد نصح لله حياً وميتاً».

ومنهم عبد الله بن كعب:

قتل يوم صفين، قال نصر بن مزاحم: جالت خيل لأهل الشام وأهل العراق بصفين فصرع عبد الله بن كعب، فمشى لمصرعه الأسود بن قيس فرآه بآخر رمق فقال: عز علي والله مصرعك، أما والله لو شهدتك لآسيتك ولدافعت عنك، ولو أعرف الذي قتلك لأحببت أن لا يزايلني حتى يلحقني بك أو أقضي عليه. ثم جلس عنده وقال: لو كان جارك لا يأمن بوائقك، وإن كنت من الذاكرين الله كثيراً، أوصني رحمك الله. فقال: يا أخي أوصيك بتقوى الله، وأن تناصح لأمير المؤمنين وتقاتل معه المشركين حتى يظهر الحق أو تلحق بالله، واقرىء أمير المؤمنين عني السلام، وقل له يقول عبد الله: فليقاتل على المعركة حتى يجعلها خلف ظهره، فمن أصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب. ثم مات رحمة الله عليه، فجاء الأسود بن قيس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فأخبره فقال أمير المؤمنين: رحم الله عبد الله لقد جاهد معنا عدونا في الحياة، ونصح لنا عند الممات.

ومنهم مسلم بن عوسجة (ره):

صرع بين يدي الحسين بطف كربلاء.

ومنهم العباس بن علي:

صرع بطف كربلاء بين يدي أخيه الحسين عليه السلام، فقد كانت مناصحته قولية وفعلية، أما القولية فمن أشعاره وأقواله ما يكفي من مناصحته القولية، من ذلك قوله لإخوته: حاموا عن سيدكم وإمامكم الحسين عليه السلام وقوله لهم: تقدموا يا بني أمي، حتى أعلم أنكم قد نصحتم لله ولرسوله.

أما المناصحة الفعلية: فأثرها ظاهر قطعت يمينه وشماله وهو واقف في خطة الحرب، ثابت في ساحة القتال لم يطلب لنفسه ملجأ ولا مأمناً. ولم يعد لأخيه الحسين عليه السلام يحتمي به من الأعداء، حاذر أن يغتم لأجله، فثبت في مركزه بعد قطع يديه، ووقف من غير يدين يذب بهما عن نفسه، فكأنه قطعة جبل صلد لا يتزعزع، أو زبرة حديد لم تتحلحل وإن هيبته تمنع العدو من الاقتراب إليه حتى اغتاله بعضهم

مستتراً بنخلة، ففضخ هامته بعمود الحديد فانجدل صريعاً على وجه الثرى، فهذه من أعظم المناصحة وأجلّها.

وقد مدح بهذه المناصحة، وأثنى عليه الأئمة المعصومون عليهم السلام، قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في زيارته له التي رواها ابن قولويه في كامل الزيارة: «أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل، والسبط المنتجب، والوصي المبلغ، والمظلوم المهتضم...» وفي محل آخر: «أشهد أنك قد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود» وفي محل آخر منها: «أشهد أنك قد نصحت لله ولرسوله ولأخيك» وفي محل آخر: «أشهد أنك قد بالغت في النصيحة، وأديت الأمانة، وجاهدت عدوك وعدو أخيك، فصلوات الله على روحك الطيبة وجزاك الله من أخ خيراً ورحمة الله وبركاته».

قوله عليه السلام: «أديت الأمانة» يحتمل ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الإمامة منصب إلهي، ووظيفة ربانية، قد أخذ عهدها في الميثاق الأول وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية، فكانت هذه الإمامة هي الأمانة كما أشار إليها ابن أبي الحديد الكاتب الحنفي المعتزلي في خطاب أمير المؤمنين علي عليه السلام:

أنت الأمانة لا يقوم بحملها ... خلقاء هابطة وأطلس أرفع

تأبى الجبال الشم عن تقليدها ... وتضج تيهاء وتشفق برقع

وعرضها عبارة عن التعهد والالتزام بواجب طاعة الإمام التي افترضها الله على عامة البشر، فكان هذا العرض على المخلوقات عرض اختبار، لا عرض اختيار، إذ لا خيرة لمخلوق مع إرادة الخالق. وإباء السموات والأرض ومن في معناها ليست إباية امتناع ومعصية، بل إباية عدم تكليف، فحملها الإنسان الذي هو أظهر أفراد الأنواع المكلفة من الحيوانات، لأنه محسوس بخلاف الملك والجن، فإنها أرواح غير مرئية ولهذا جحدها الجاهلون من الفلاسفة، فكان الإنسان ظلوماً بحملها في العهد السابق ومخالفته لها في العهد اللاحق، جهولاً بما ثبت عن الله تعالى في السابق واللاحق، فيقول بخ بخ مرة، ويقول مرة أُخرى وسعوها في قريش تتسع، وكل من قام بطاعة الإمام ونصره فقد أدى الأمانة، وأبو الفضل من أعظم أفراد هذا القسم.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

ثانيها: أن الحسين عليه السلام من العترة التي هي أحد الثقلين، اللذين أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته في التمسك بهما وبحفظهما والاقتداء بهما، وجعلهما أمانة عند أمته، وأبو الفضل العباس عليه السلام في طليعة الأوفياء بتأدية هذه الأمانة وإيصالها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محترمة معظمة، بذل دون حفظها نفسه النفيسة، وجعل يتلقى السلاح بوجهه وصدره ونحره لئلا يصل إلى وديعة رسول الله منه شيء، وضحى إخوته وولده لفداء الحسين عليه السلام.

ثالثها: البيعة للحسين عليه السلام والبيعة أمانة عند المبايع، وأن التزامه بشرائطها تأدية لها، والقتل من أظهر مصاديق الوفاء وأجلى مظاهر التأدية للأمانة، ولهذا كل من أراد الشهادة من أصحاب الحسين عليه السلام يقف أمامه ويستأذن للبراز ويقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، أوفيت يا بن رسول الله ؟ فيقول عليه السلام: نعم أنت أمامي إلى الجنة فاقرىء جدي وأبي وأمي عني السلام، وقل لهم: تركت حسيناً وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين.

ويحتمل في تأدية الأمانة وجه رابع وهو: ما رواه بعض أرباب المقاتل، من أن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أوصى ولده العباس بنصرة أخيه الحسين عليه السلام، فكانت هذه التوصية أمانة عنده من أبيه عليه السلام، فلقد أداها وسقط عنه فرض التكليف بها، وكل هذه الوجوه صالح للحمل عليه، ولا مانع من إرادة الجميع، وإن كان الحمل على الإمامة أظهر لمصير أكثر المفسرين إلى أن المراد بالأمانة هي الإمامة[١].

(١) بطل العلقمي.




حقُّ الكَبِيرِ

قوله عليه السلام :

«وَحَقُّ الكَبِيرِ تَوْقِيرُهُ لِسِنِّهِ، وَإجْلاَلُهُ لِتَقَدُّمِهِ فِي الإِسْلاَمِ قَبْلَكَ، وَتَرْكُ مُقَابَلتِهِ عِنْدَ الخِصَام، وَلاَ تَسْبِقُهُ إِلى طَرِيقٍ، وَلاَ تَتَقَدَّمُهُ، وَلاَ تَسْتَجْهِلُهُ وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ احْتَمَلْتَهُ وَأُكْرَمْتَهُ لِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحُرْمَتِهِ، فَإِنَّمَا هِي حَقُّ السّنِ بِقَدْرِ الإِسْلاَمِ، ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ».

***




هكذا يضع الإمام عليه السلام الأمور في نصابها، ويكشف عن سنن الله في الدنيا والآخرة، ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة راسخة.

هكذا يرسي القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير، ولا تؤثر فيها تطورات الحياة واختلاف النظم وتعدد المذاهب وتنوع البيئات.

فهناك سنن للحياة ثابتة تتحرك الحياة في مجالها، ولكنها لا تخرج عن إطارها. والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة، لا يفطنون لهذا القانون الخالد (الذي رسمه الإمام) عليه السلام والذي يجمع بين الثبات والتغير في صلب الحياة وفي أطوار الحياة، ويحسبون أن التطور والتغير يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها. ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور، وينكرون أن هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر.

فهذا قانون الإمام الخالد الذي لا يمكن لأحد من ذوي النباهة أن يحيد عن ثباته ورسوخه، ونحن نرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره ويرسمه في كل زاوية من زوايا الكون، وفي كل جانب من جوانب الحياة. وأقرب ما بين أيدينا هذا المشهد الذي استطرده في حق الكبير، وكشف فيه واقع الحياة. فذهب قائلاً «وحق الكبير توقيره. . . ».

وهذه ظاهرة ثابتة ليس إلا توقير الكبير لسنه ولقدمه في الإسلام وسبقه في الإيمان، وأن لا يسبق إلى طريق أو يؤم في طريق أو ينسب إليه جهل، وأن يتحمل ما يصدر منه من جهل أو خطأ.

وينبه الإمام عليه السلام أن السن ليست فقط هي المدار في العناية والاحترام إنما تنظر مع الإسلام، فكلما زاد وقوي ورسخ إيمانه، ازداد إجلاله وتوقيره، وكلما قلّ كان الاحترام والإجلال بقدر الإسلام.

مضافاً إلى ما صرحت به الأحاديث، من إجلال الشيخ الكبير وتوقيره، فقد روى

المجلسي (أعلى الله مقامه) في المجلد السادس عشر من (بحار أنواره) عن الرسول الأعظم محمد ﷺ: أنه قال: «من عرف فضل شيخ كبير فوقره لسنه، آمنه الله من فزع يوم القيامة».

وقال ﷺ: «البركة مع أكابركم».

وعن أنس قال: «أوصاني رسول الله ﷺ بخمس خصال، فقال فيها: ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة».

وقال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا».

وفيما أوصى به أمير المؤمنين علي عليه السلام عند وفاته: «وارحم من أهلك الصغير ووقر الكبير».

ونقل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بجّلوا المشايخ، فإن من إجلال الله تبجيل المشايخ».

وقال ﷺ: «من تعظيم الله عزَّ وجلّ إجلال ذي الشيبة المؤمن». وإجلاله توقيره وتعظيمه في جميع الأحوال والأوقات، بالسلام والاحترام والكلام، وحسن المعاشرة والمعاملة والمعاونة والمصادقة والنصرة والمداراة والمحبة، وترك كل ما يؤذيه من المخاصمة، والمناقشة والمماراة وغيرها من الأمور المنافية لتعظيمه. كل ذلك، لكونه أكبر سناً وأضعف بدناً، وأعظم تجربة وأكيس حزماً، وأقدم إسلاماً وأكثر عبادة، وأقرب خروجاً من الدنيا ورجوعاً إلى المولى.

وقال ﷺ: «ما أكرم شاب شيخاً إلا قضى الله له عند من يكرمه».

وقال ﷺ: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته».

وعن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جواد يحب الجود ومعالي الأمور، ويكره سفسافها، وإن من عظم إجلال الله إكرام ثلاثة: ذي الشيبة في الإسلام، والإمام العادل، وحامل القرآن غير الغالي ولا الجافي».

وقال ﷺ: «ثلاثة لا يستخف بهن إلا منافق: إمام مقسط، وذو شيبة في الإسلام، وذو علم».

وقال ﷺ: «إن الله تعالى ينظر في وجه الشيخ المؤمن صباحاً ومساءً، فيقول: يا عبدي كبر سنك ودق عظمك ورق جلدك وقرب أجلك وحان قدومك علي، فاستح مني فأنا أستحي من شيبتك أن أُعذبك بالنار». وقال أردشير لابنه: وقّر المشايخ فهم

مواطن الوقار، ومعادن الآثار، ورواة الأخبار وحفظة الأسرار، إن رأوك في قبيح منعوك، أو جميل أيدوك، وإياك وأغمار الشباب فهم أهل الصبوة إلى الشهوات.

وأوصى يزيد بن المهلب ابنه فقال: ليكن جلساؤك ذوي الأسنان، فالشباب شعبة من الجنون. ومر الحسن بفتيان فقال: شوبوا مجلسكم بشيخ وقيل: من عرف حق من فوقه عرف حقه من دونه.

تأمل حكيم شيبة في رأسه، فقال: مرحباً بزهرة الحنكة وثمرة الهدى ومقدمة العفة ولباس التقوى.

وروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما بدا الشيب بعارضيه قال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا وقار في الدنيا ونور في الآخرة. قال: يا رب زدني وقاراً فابيضت لحيته.

وعيّر حكيم بالشيب، فقال: الشيب نور يورثه تعاقب الليالي والأيام، وحلم يفيده مر الشهور والأعوام. ووقار تلبسه مدة العمر ومضي الدهر. وقال ابن المعتز: عظم الكبير فإنه عرف الله قبلك، وارحم الصغير فإنه أغر بالدنيا منك.

ما قيل في مدح الشيب من الشعر:

قرأت في سفينة البحار تأليف المرحوم (الشيخ عباس القمي): عن إبراهيم بن محمد الحسني قال: بعث المأمون إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام جارية، فلما أُدخلت إليه اشمأزت من الشيب، فلما رأى كراهتها ردها إلى المأمون وكتب إليه بهذه الأبيات:

نعى نفسي إلى نفسي المشيب ... وعند الشيب يتعظ اللبيب
فقد ولى الشباب إلى مداه ... فلست أرى مواضعه تؤوب
سأبكيه وأندبه طويلاً ... وأدعوه إلي عسى يجيب
وهيهات الذي قد فات منه ... تمنيني به النفس الكذوب
أرى البيض الحسان يحدن عني ... وفي هجرانهن لنا نصيب
فإن يكن الشباب مضى حبيباً ... فإن الشيب أيضاً لي حبيب
سأصحبه بتقوى الله حتى ... يفرق بيننا الأجل القريب

وقال دعبل الخزاعي:

أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه ... سمة العفيف وحلية المتحرج
ضيف ألمّ بمفرقي فقريته ... رفض الغواية واقتصاد المنهج

وفي نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف (شهاب الدين النويري):

وقال آخر:

أهلاً وسهلاً بالمشيب ومرحباً ... أهلاً به من وافد ونزيل
أهدى الوقار وزال كل جهالة ... كانت وساق إلي كل جميل
فصحبت في أهل التقى أهل النهى ... ولقيت بالتعظيم والتبجيل
ورأى لي الشبان فضل جلالة ... لما اكتهلت وكنت غير جليل
فإذا رأوني مقبلاً نهضوا معاً ... فعل المقر لهيبة التفضيل
إن قلت كنت مصدقاً في منطقي ... ماضي المقالة حاضر التعديل

وقال علي بن محمد الكوفي:

بكى الشيب ثم بكى عليه ... وكان أعز من فقد الشباب
فقل للشيب لا تبرح حميداً ... إذا نادى شبابك بالذهاب

وقال ابن المعتز:

قد يشيب الفتى وليس عجيباً ... أن يرى النور في القضيب الرطيب

وقال أبو الفتح البستي:

يا شيبتي دومي ولا تترحلي ... وتيقني أني بوصلك مولع
قد كنت أجزع من حلولك مرة ... فالآن من خوف ارتحالك أجزع

وقال آخر:

فأما المشيب فصبح بدا ... وأما الشباب فليل أفل
سقى الله هذا وهذا معاً ... فنعم المولي ونعم البدل

وقال أبو العلاء السروي، شاعر اليتيمة:

حي شيباً أتى لغير رحيل ... وشباباً مضى لغير إياب
أي شيء يكون أحسن من ... عاج مشيب في آبنوس شباب

وقال أبو عوانة الكاتب:

هزئت إذ رأت مشيبي وهل ... غير المصابيح زينة للسماء
وتولت فقلت قولاً بإفصاح ... لها لا بالرمز والإيماء
إنما الشيب في المفارق كالنو ... ر بدا والسواد كالظلماء

لا محيص عن المشيب أو الموت فكن للحوباء أو للنماء
إن عمراً عوضت فيه عن الموت بشيب من أعظم النعماء

وقال أبو عبد الله الأسباطي:

لا يرعك المشيب يا ابنة عبدالله فالشيب زينة ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت في ظلالها الأنوار

وفي المجلد الرابع عشر من (دائرة المعارف) تأليف (الشيخ محمد حسين الأعلمي) الحائري:

قول الشاعر:

الشيب في رأس الفتى حلم به والشيب في رأس الفتاة قبيح
والخال في خد الفتى عيب به والخال في خد الفتاة مليح

وقال آخر:

إن المشيب رداء الحلم والأدب كان الشباب رداء الجهل واللعب

وقال أبو تمام:

ست وعشرون تدعوني فأتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب
ولا يروعك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب

وفي العقد الفريد: دخل (أبو دلف) على المأمون، وعنده جارية، وقد ترك الخضاب (أبو دلف)، فغمز المأمون الجارية، فقالت: شبت أبا دلف، إنا لله وإنا إليه راجعون عليك، فسكت أبو دلف، فقال له المأمون: أجبها أبا دلف، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال:

تهزأت إن رأت شيبي فقلت لها لا تهزئي من يطل عمر به يشب
شيب الرجال لهم زين ومكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتئبي
فينا لكن وإن شيب بدا أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب

وقال محمود بن مناذر:

لا سلام على الشباب ولا حيا الإله الشباب من معهود
قد لبست الجديد من كل شيء فوجدت الشباب شر جديد
صاحب ما يزال يدعو إلى العيب وما من دعا له برشيد

ولنعــم المشيــب والــوازع الشيــب ونعـــم المفـــاد للمستفيـــد

محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، قال الموسوي:

رأت شعــرات فـي عــذاري تبسمـت كما افتر طفل الروض عن خلع الوسمي
فقلـت لهـا مـا الشعـر سـال بعـارضـي ولكنــه نبــت السيــادة والحلــم
يــزيــد بــه وجهــي ضيــاء وبهجــة ومـا تنقـص الظلمـاء مـن بهجـة النجـم

في المحاسن والمساوىء، تأليف البيهقي، لابن المعتز:

رفعــت طــرفهــا إلــيَّ عبــوســاً واستشـارت مـن المـآتـي الـرسيسـا
ورأتنــي أســرح العــاج بــالعــاج فظلــت تستحســن الأبنــوســا
ليــس شيبــي إذا تــأملــت شيبــاً إنمــا الشيــب مــا أشــاب النفــوسا

وفي ديوان خليل مطران:

مـا ذاك فـي الـرأس بشيـب يـرى ذاك ابتسـام مـن مضـيء الحجـى
كـم مـن جهـات القطـب مـن مـوضـع يــرى بــه الفجــر أوان الــدجــى

وفي العقد الفريد، قال مؤلفه:

بــدا وضــح المشيــب علــى عــذاري وهــل ليــل يكــون بــلا نهــار
شــربــت ســواد ذا ببيــاض هــذا فبــدلــت العمــامــة بــالخمــار
وألبسنــي النهــى ثــوبــاً جــديــداً وجــردنــي مــن الثــوب المعــار
ومــا بعــت الهــوى بيعــاً بشــرط ولا استثنيــت فيــه بــالخيــار

وفي معادن الجواهر، لمؤلفه السيد محسن الأمين العاملي:

قال الشريف المرتضى من قصيدة:

يــا هنــد إن أنكــرت لــون ذوائبــي فكمــا عهــدت خــلائقــي وطــرائقــي
ووراء مــا شنــأتــه عينــك خلــة مــا شئــت مــن خلــق يسـرك رائــق
ومعيــري شيــب العــذار ومــا درى أن الشبــاب مطيــة للفــاســق
ويقــول لــو غيــرت منــه لــونــه هيهــات أُبــدل مـؤمنـاً بمنـافــق

وله أيضاً:

والشيــب داء لــربــات الحجــال إذا رأينــه وهــو داء مــا لــه آســي
يــا قــربهــن وشيبــي فــاحــم رجــل وبعــدهــن وشيبــي نــاصــع عــاســي

ماذا يريبك من بيضاء طالعة … جاءت بحلمي وزانت بين جلاسي

وقال السيد محسن الأمين العاملي:

باتت تعيرني بالشيب حين بدا … فقلت هيهات ما بالشيب من عار

ما شاب حلمي ولا عزمي ولا نقصت … أيا ميّ بالشيب لذاتي وأوطاري

وله أيضاً من جملة أبيات:

قالت علاك الشيب قبل أوانه … فأذل صعبك بعد طول شماس

لا حبذا عصر المشيب وحبذا … عصر وأنت من الشبيبة كاسي

فأجبتها لا تجزعي من شيبة … عجلت علي فما بها من باس

فالشيب عنوان الوقار وآية … لرجوح حلم كالأشم الراسي

قالت وقد أبدت تبسم هازىء … ما للوقار وقدي المياس

وجاء في كتاب المستطرف، وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رأت وضحاً في الرأس مني فراعها … فريقان مبيض به وبهيم

تفاريق شيب في السواد لوامع … فيا حسن ليل لاح فيه نجوم

وفي سفينة البحار. قال ابن الرومي:

كفى بسراج الشيب في الرأس هاديا … لمن قد أضلته المنايا لياليا

شذور من كلام العرب في وصف الشيب ومدحه:

افتر عن ناب القارح، وقرع ناجذ الحلم. وارتاض بلجام الدهر، وأدرك عصر الحنكة وأوان المسكة. جمع قوة الشباب إلى وقار المشيب. أسفر صبح المشيب، وعلته أبهة الكبر خرج عن حد الحداثة، وارتفع عن غرة الغرارة. نفض جرة الصبا، وولّى داعية الحجا. لما قام له الشيب مقام النصيح، عدل عن علائق الحداثة بتوبة نصوح. الشيب حلية العقل وشيمة الوقار. الشيب زبدة مخضتها الأيام، وفضة سبكتها التجارب. سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب. عصى شياطين الشباب، وأطاع ملائكة الشيب الشيخ يقول عن عيان، والشاب عن سماع، في الشيب استحكام الوقار وتناهي الجلال، وميسم التجربة، وشاهد الحنكة. صفا فلان على طول العمر، صفاء التبر على شغب الجمر. لقد تناهت به الأيام تهذيباً وتحليماً، وتناهت به السن تجريباً وتحنيكاً. قد وعظه الشيب بوخطه وخطبه.

ما جاء في مدح الشباب والتحسر على فراقه وذم الشيخوخة:

قرأت في زهر الآداب لمؤلفه (أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني).

وقال أحمد بن أبي طاهر:

يــــا مـــن كلفـــت بحبـــه كلفــي بكـــاســـات العقـــار
وحيـــاة مـــا فـــي وجنتيـــك مـــن الشقـــائـــق والبهـــار
وولـــوع ردفـــك بـــالترجـــر ج تحـــت خصـــرك فـــي الإزار
مـــا إن رأيت لحســـن وجهـــك فـــي البـــريـــة مـــن نجـــار
لمـــا رأيـــت الشيـــب مـــن وجهـــي بمـــا يحكـــي الخمـــار
قـــالـــت غبـــار قـــد عـــلاك فقلـــت ذا غيـــر الغبـــار
هـــذا الـــذي نقـــل الملـــوك إلـــى القبـــور مـــن الـــديـــار
قـــالـــت ذهبـــت بحجتـــي عنـــي بحســـن الاعتـــذار
يـــا هـــذه أرأيـــت ليـــلاً مـــذ خلقـــت بـــلا نهـــار

وقال خالد الكاتب:

نظـرت إلـي بعيـن مـن لـم يعـذل لمـا تمكـن طـرفهـا مـن مقتلـي
لمـا رأت شيبـاً ألـم بمفـرقـي صـدت صـدود مفـارق متحمـل
وظللـت أطلـب وصلهـا بتملـق والشيـب يغمـزهـا بـألا تفعلـي

وقال ابن الرومي:

كـان الشبـاب وقلبـي فيـه منغمـس فـي لـذة لسـت أدري مـا دواعيهـا
روح علـى النفس منه كـاد يبـردهـا بـرد النسيـم ولا ينفـك يحييهـا
كـأن نفسـي كـانـت منـه سـارحـة فـي جنـة بـات سـاقـي المـزن يسقيهـا
يمضـي الشبـاب ويبقـى مـن لبـانتـه شجـو علـى النفس لا ينفـك يشجيهـا
مـا كـان أعظـم عنـدي قـدر نعمتـه لنفسـه لا لحلـم كـان يصبيهـا
مـا كـان يـوزن إعجـاب النسـاء بـه والنفـس أوجـب إعجـابـاً بمـا فيهـا

لأبي تمام الطائي:

لعـب الشيـب بـالمفـارق بـل جـد فـأبكـى تمـاضـراً ولعـوبـا
يـا نسيـب الثغـام ذنبـك أبقـى حسنـاتـي عنـد الحسـان ذنـوبـا
لـو رأى الله أن فـي الشيـب فضـلاً جـاورتـه الأبـرار فـي الخلـد شيبـا

وقال أبو الفتح كشاجم:

أخي قم فعاوني على نتف شيبة ... فإني منها في عذاب وفي حرب
إذا ما مضى المنقاش يأتي بما أتت ... وقد أخذت من دونها جارة الجنب
كجان على السلطان يجزى بذنبه ... تعلق بالجيران من شدة الرعب

وفي كتاب (المستطرف):

شيئان لو بكت السماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال آخر:

عريت من الشباب وكنت غصناً ... كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني ... فما نفع البكاء ولا النحيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً ... فأُخبره بما فعل المشيب

وفي العقد الفريد، قال ابن أبي حازم:

ولى الشباب فخلى الدمع ينهمل ... فقد الشباب بفقد الروح متصل
لا تكذبن فما الدنيا بأجمعها ... من الشباب بيوم واحد بدل

وقال جرير:

ولى الشباب حميدة أيامه ... لو كان ذلك يشترى أو يرجع

وقال صريع الغواني:

واهاً لأيام الصبا وزمانه ... لو كان أسعف بالمقام قليلا
سل عيش دهر قد مضت أيامه ... هل يستطيع إلى الرجوع سبيلا

وقال أعرابي:

لله أيام الشباب وعصره ... لم يستعار جديده فيعار
ما كان أقصر ليله ونهاره ... وكذاك أيام السرور قصار

وقال ابن عبد ربه:

قالوا شبابك قد مضت أيامه ... بالعيش قلت وقد مضت أيامي
لله أية نعمة كان الصبا ... لو أنها وصلت بطول دوام
حسر المشيب قناعه عن وجهه ... وصحا العواذل بعد طول ملام

فكـأن ذاك العيـش ظـل غمـامـة ... وكـأن ذاك اللهـو طيـف منـام

وقال أيضاً:

شبـابـي كيـف صـرت إلـى نفـاد ... وبـدلـت البيـاض مـن السـواد
ومـا أبقـى الحـوادث منـك إلا ... كمـا أبقـت مـن القمـر الـدآدي
فـراقـك عـرف الأحـزان قلبـي ... وفـرق بيـن جفنـي والـرقـاد
فيـا لنعيـم عيـش قـد تـولـى ... ويـا لغليـل حـزن مستفـاد
كـأنـي منـك لـم أربـع بـربـع ... ولـم أرتـد بـه أحلـى مـراد
سقـى ذاك الثـرى وبـل الثـريـا ... وغـادى نبتـه صـوب الغـوادي
فكـم لـي مـن غليـل فيـه خـاف ... وكـم لـي مـن عـويـل فيـه بـاد
زمـان كـان فيـه الـرشـد غيـاً ... وكـان الغـي فيـه مـن الـرشـاد
يقبلنـي بـبـدل مـن قبـول ... ويسعـدنـي بـوصـل مـن سعـاد
وأجنبـه فيعطينـي قيـاداً ... ويجنبنـي فـأُعطيـه قيـادي

وفي معادن الجواهر، قال ابن الرومي:

أبيـن ضلـوعـي جمـرة تتـوقـد ... علـى مـا مضـى أم حسـرة تتجـدد
خليلـي مـا بعـد الشبـاب رزيـة ... يجـم لهـا مـاء الشـؤون ويعتـد
فـلا تعجبـا للجلـد يبكـي فـربمـا ... تفطـر عـن عيـن مـن المـاء جلمـد
شبـاب الفتـى مجلـوده وعـزاؤه ... فكيـف وأنـى بعـده يتجلـد
وفقـد الشبـاب المـوت يـوجـد طعمـه ... صـراحاً وطعـم المـوت بـالمـوت يفقـد
رزئـت شبـابـي عـودة بعـد بـدأة ... وهـن الـرزايـا بـاديـات وعـود
سلبـت سـواد العـارضيـن وقبلـه ... بيـاضهمـا المحمـود إذ أنـا أمـرد
وبـدلـت مـن ذاك البيـاض وحسنـه ... بيـاضـاً ذميمـاً لا يـزال يسـود
لشتـان مـا بيـن البيـاضيـن معجـب ... أنيـق ومشنـوء إلـى العيـن أنكـد
وكنـت جـلاء للعيـون مـن القـذى ... فقـد جعلـت تقـذى بشيبـي وتـرمـد
هـي الأعيـن النجـل التـي كنـت تشتكـي ... مـواقعهـا فـي القلـب والـرأس أسـود
فمـا لـك تـأسـى الآن لمـا رأيتهـا ... وقـد جعلـت مـرمـى سـواك تعمـد
تشكـى إذا مـا أقصـدتـك سهـامهـا ... وتـأسـى إذا نكبـن عنـك وتكمـد
كـذلـك تلـك النبـل مـن وقعـت بـه ... ومـن صـرفـت عنـه مـن القـوم مقصـد
إذا عـدلـت عنـا وجـدنـا عـدولهـا ... كمـوقعهـا فـي القلـب بـل هـو أجهـد

كفى حزناً إن الشباب معجل   قصير الليالي والمشيب مخلد

إذا حل جارى المرء شأو حياته   إلى أن يضم المرء والشيب ملحد

أأيام لهوي هل مواضيك عوَّد   وهل لشباب ضل بالأمس منشد

لابن الرومي أيضاً:

عاصي العزاء عن الشباب   فطاوع الدمع الغزير

كيف العزاء عن الشباب   وغصنه الغصن النضير

كيف العزاء عن الشباب   وعيشه العيش الغرير

بان الشباب وكان لي   نعم المجاور والعشير

بان الشباب فلا يد   نحوي ولا عين تشير

ولقد أسرت به القلوب   فقلبي اليوم الأسير

لابن الرومي:

لعمرك ما الحياة لكل حي   إذا فقد الشباب سوى عذاب

سقى عهد الشبيبة كل غيث   أغر مجلجل داني الرباب

يذكرني الشباب جنان عدن   على جنبات أنهار عذاب

فيا أسفا ويا جزعا عليه   ويا حزنا إلى يوم الحساب

أُفجع بالشباب ولا أُعزى   لقد غفل المعزي عن مصابي

وقال الشريف المرتضى من قصيدة:

جزعت لوخطات المشيب وإنما   بلغ الشباب مدى الكمال فنوَّرا

والشيب إن فكرت فيه مورد   لا بد يورده الفتى إن عمرا

يبيض بعد سواده الشعر الذي   إن لم يزره الشيب واراه الثرى

زمن الشبيبة لا عدتك تحية   وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا

فلطالما أضحى ردائي ساحباً   في ظلك الوافي وعودي أخضرا

أيام يرمقني الغزال إذا رنا   شغفاً ويطرقني الخيال إذا سرى

وقال أيضاً:

ألا حبذا زمن الحاجر   وإذ أنا في الورق الناضر

أُجرر ذيل الصبا جامحاً   بلا آمر وبلا زاجر

إلى أن بدا الشيب في مفرقي   فكانت أوائله آخري

وقال أيضاً من قصيدة:

وبيض لواهن المشيب عن الهوى فأنزرن من وصلي وأوسعن من هجري
وألزمنني ذنب المشيب كأنما جنته يداي عامداً لا يد الدهر
لحاكنَّ ربي إنما الشيب فسحة لما فات في شرخ الشبيبة من أمر
سقى الله أيام الشبيبة ريها ورعياً لعصر بان عني من عصر
ليالي لا يعدو جمالي منيتي ولم تردد الحسناء نهيي ولا أمري
وإذ أنا في حب القلوب محكم وأفئدة البيض الكواعب في أسري

وقال أيضاً من قصيدة:

وغرائر أنكرن شيب ذوائبي والبيض مني عندهن السود
يهوى الشباب وإن تقادم عهده ويمل هذا الشيب وهو جديد
لا يبعدن عهد الشباب ومن جوى أدعو له بالقرب وهو بعيد
أيام أرمي باللحاظ وأرتمي وأُصاد في شرك الهوى وأصيد

وجاء في كتاب (منن الرحمن) تأليف (الشيخ جعفر نقدي):

قال المفضل: حضرت الرشيد وقد دخل عليه منصور النميري فأنشده:

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
بان الشباب وفاتتني بلذته صروف دهر وأيام له خدع
ما كنت أُوفي شبابي كنه قيمته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

قال: فتحرك الرشيد وقال: أحسنت والله، لا يهنأ أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب.

وفي محاضرات الأدباء:

ولّى الشباب وولّى العيش والعمر وأقبل المدبران الشيب والكبر

وقال رسبة بن الأبيض:

بان الشباب بكل ما تهوى النفوس وتستطيب
طفىء السراج وكلّت الأضراس وانكسر القضيب

وقال علي بن جبلة:

ولما انقضى عصر الشباب وعهده ذوى ورق الدنيا وأغصانها الهدل

قرأت في المجلد الأول من كتاب النوادر تأليف (أبي مسحل الأعرابي) من أبيات

له يتحسر على أيام الشباب:

ألا ليس من هذا المشيب طبيب — وليس شباب بان عنك يؤوب
لعمري لقد بان الشباب وإنني — عليه لمحزون الفؤاد كئيب
وليس على باكي الشباب ملامة — ولو أنه شقت عليه جيوب
أقول لضيف الشيب لما أناخ بي — جزاؤك مني جفوة وقطوب
حرام عليه أن ينالك عندنا — كرامة بر أو يمسك طيب

شذور من الكلام في وصف الشباب ومدحه:

ما جاء في زهر الآداب:

ذوى غصن شبابه. بدت في رأسه طلائع المشيب. أخذ الشيب بعنان شبابه. غزاه الشيب بجيوشه. طرز الشيب شبابه. أقمر ليل شبابه، ألجمه بلجامه، وقاده بزمامه. علاه غبار وقائع الدهر. بينا هو راقد في ليل الشباب أيقظه صبح المشيب. طوى مراحل الشباب، وأنفق عمره بغير حساب. جاوز من الشباب مراحل، وورد من الشيب مناهل. فل الدهر شبا شبابه، ومحا محاسن روائه. قضى باكورة الشباب، وأنفق نضارة الزمان. أخلق بردة الصبا، ونهاه النهى عن الهوى. طار غراب شبابه. انتهى شبابه، وشاب أترابه. استبدل بالأدهم الأبلق، وبالغراب العقعق. انتهى إلى أشد الكهل، واستعاض من حلك الغراب بقادمة النسر. افترّ عن ناب القارح، وقرع ناجذ الحلم، وارتاض بلجام الدهر، وأدرك عصر الحنكة وأوان المسكة. جمع قوة الشباب إلى وقار المشيب أسفر صبح المشيب، وعلته أبهة الكبر. خرج عن حد الحداثة، وارتفع عن غرة الغرارة. نفض جرة الصبا، وولى داعية الحجا».

ما جاء في ذم الشيب وقبحه:

جاء في معادن الجواهر: قال أبو تمام:

غدا الشيب مختطاً بفودي خطة — طريق الردى منها إلى النفس مهيع
له منظر في العين أبيض ناصع — ولكنه في القلب أسود أسفع

وقال أبو تمام:

شعلة في المفارق استودعتني — في صميم الفؤاد ثكلاً صميما

دقة في الحياة تدعى جلالاً ... مثلما سمي اللديغ سليما

وقال المتنبي في مطلع قصيدة:

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم ... والسيف أحسن فعلاً منه في اللمم
ابعد بعدت بياضاً لا بياض له ... لأنت أسود في عيني من الظلم

وقال الشريف الرضي:

ما لقائي من عدوي ... كلقائي من مشيبي
وبياض هو عند ... البيض من شر ذنوبي

وقال الشريف المرتضى من أبيات:

يقولون لا تجزع من الشيب ضلة ... وأسهمه إياي دونهم تصمي
وإني مذ أضحى عذاري قراره ... أعاد بلا سقم وأجفى بلا جرم
وسيان بعد الشيب عند حبائبي ... وقفن عليه أو وقفن على رسم
وقد كنت ممن يشهد الحرب مرة ... ويرمى بأطراف الرماح كما يرمي
إلى أن علا هذا المشيب مفارقي ... فلم يدعني الأقوام إلا إلى السلم

وقال أيضاً في قصيدة:

لا مرحباً بالشيب أظلم باطني ... لما تجللني وأشرق ظاهري
شعر أبي لي في الحسان إصاخة ... يوم العتاب إلى قبول معاذري
لا ذنب لي قبل المشيب وإنني ... لمؤاخذ من بعده بجرائر

وقال أيضاً من قصيدة:

هل الشيب إلا غصة في الحيازم ... وداء لربات الخدود النواعم
يحدن إذا أبصرنه عن سبيله ... صدود النشاوى عن خبيث المطاعم
تعممته بعد الشبيبة ساخطاً ... فكان بياض الشيب شر عمائمي
وهيبني منه كما هاب عائج ... على الغاب هياب الليوث الضراغم
حنتني منه الحانيات كأنني ... إذا ظلت يوماً قائماً غير قائم

وقال مهيار:

عذلوك في فغيروك سريرة ... ورأيت شيباً فاستحلت عيانا
عذل يرى عدلاً وجور ذوائب ... سموه لي عزاً فجر هوانا
ما غيرت بالشيب لوناً لمتي ... حتى تغير صاحبي ألوانا

بيضاء سودت الصحيفة عنده ... واستعجلته بوصلها الهجرانا
إن يجتنب منها الهشيم مصوحاً ... فبما اجتنى ريعانها ريحانا

وقال السيد محسن الأمين العاملي:

أفبعد ما ابيضَّ القذال وشابا ... ترجو لوصل الغانيات إيابا
هيهات فاتك ما طلبت وقطعت ... بيض الكواعب دونك الأسبابا
كانت وأوجهها إليك بواسم ... فاليوم يصرفن الوجوه غضابا
والشيب ذنب ما له من توبة ... ولربما اعتذر المسيء وتابا
لهفي على عصر الشباب مضى ومن ... لي بالحمامة أن تعود غرابا

وقال السراج الوراق:

وباخل يشنأ الأضياف حل به ... ضيف من الصبغ نزال على سقم
سألته ما الذي يشكو فأنشدني ... (ضيف ألمّ برأسي غير محتشم)

وقال السراج الوراق:

وكنت حبيباً إليّ الغانيات ... فألبسني الشيب بغض الحبيب
وكنت سراجاً بليل الشباب ... فأطفأ نوري نهار المشيب

وقال السراج الوراق:

وقالت يا سراج علاك شيب ... فدع لجديده خلع العذار
فقلت نهار بعد ليل ... فما يدعوك أنت إلى النفار
فقالت قد صدقت وما علمنا ... بأضيع من سراج في نهار

وفي المحاسن والمساوىء، قال ابن المعتز في الشيب:

قالت وقد راعها مشيبي ... كنت ابن عمّ فصرت عمّا
واستهزأت بي فقلت أيضاً ... قد كنت بنتاً فصرت أما
كفي ولا تكثري ملامي ... ولا تزيدي العليل سقما
من شاب أبصرته الغواني ... بعين من قد عمي وصما
لو قيل لي اختر عمىً وشيباً ... أيهما شئت قلت أعمى

ولآخر:

إذا راقهن خدين الشباب ... عطفن كما تعطف الوالده
وإن هن عاين ذا شيبة ... فيا لك من مقل زاهده

فويح الشباب ويح المشيب … عدوّان دارهما واحده

وفي العقد الفريد، قال محمود الوراق:

لا تطلبن أثراً بعين … فالشيب إحدى الميتتين
أبدى مقابح كل شين … ومحاسن كل زين
فإذا رأيت الغانيات … رأين منك غراب بين
وربما نافسن فيك … وكن طوعاً لليدين
أيام عممك الشباب … وأنت سهل العارضين
حتى إذا نزل المشيب … وصرت بين عمامتين
سوداء حالكة وبيضا … ء المناشر كاللجين
مزج الصدود وصالهن … فكن أمراً بين بين
وصبرن ما صبر السوا … د على مصانعة ودين
حتى إذا شمل المشيب … فجاز قطر الحاجبين
فتقين شر تقية … وأخذن منك الأطيبين
فاقنَ الحيا أو سل نفسك … أو فناء الفرقدين
ولئن أصابتك الخطوب … بكل مكروه وشين
فلقد أمنت بأن يصيـ … ـبك ناظر أبداً بعين

وفي محاضرات الأدباء، قول منصور:

من شاب مات وهو حي … يمشي على الأرض وهو هالك
لو كان عمر الفتى حساباً … لكان في شيبه فذالك

شذور من الكلام في ذم الشيب وقبحه:

جاء في زهر الآداب:

الشيب مقدمة الموت والهرم، والمؤذن بالخرف، والقائد للموت. الشيب رسول المنية. الشيب عنوان الفساد. الموت ساحل، والشيب سفينة تقرب من الساحل، السن بابنه وسبطه، قد تضاعفت عقود عمره، وأخذت الأيام من جسمه. وجد مس الكبر ولحقه ضعف الشيخوخة، وأساء إليه أثر السن واعتراض الوهن. هو من ذوي الأسنان العالية، والصحبة للأيام الخالية. هو هم هرم، قد أخذ الزمان من عقله كما أخذ من عمره. ثلمه الدهر ثلم الاناء، وتركه كذي الغارب المنكوب، والسنام المجبوب. رماه

من قوسه الكبر. أُريق ماء شبابه، واستشن أديمه. كسر الزمان جناحه، ونقض مرته. طوى الدهر منه ما نشر، وقيده الكبر. يرسف رسفان المقيد، هو شيخ مجتث الجثة، واهي المنة، مغلول القوة ومفلول الفتوة. ثقلت عليه الحركة واختلفت إليه رسل المنية. ما هو إلا شمس العصر على القصر. أركانه قد وهت ومدته قد تناهت. هل الغاية منزلة، أو بعد الشيب سوى الموت مرحلة؟ ما الذي يرجى ممن كان مثله في تعاجز الخطا، وتخاذل القوى، وتداني المدى والتوجه إلى الدار الأُخرى، أبعد دقة العظم، ورقة الجلد، وضعف الحس، وتخاذل الأعضاء، وتفاوت الاعتدال، والقرب من الزوال. والذي بقي منه ذماء يرقبه المنون بمرصد، وحشاشة هي هامة اليوم أو غد قد خلق عمره، وانطوى عيشه، وبلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع، وأشرف على دار المقام، فلم يبق إلا أنفاس معدودة، وحركات محصورة نضب غدير شبابه.

قيس بن عاصم: الشيب خطام المنية. أكثم بن صيفي: المشيب عنوان الموت. الحجاج بن يوسف: الشيب نذير الآخرة. غيره: الشيب نوم الموت. العتبي: الشيب مجمع الأمراض. العتابي: الشيب نذير المنية. محمود الوراق: الشيب أحد الميتتين. ابن المعتز: الشيب أول مواعد الفناء. غيره: الشيب قناع الموت. الشيب غمام قطره الغموم. الشيب قذى عين الشباب.

* * *

فلنعد الآن إلى صلب الحديث من قول الرسول ﷺ: «إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة».

الشيب: هو تبدل سواد شعر الإنسان بالبياض الناصع. وهذا اللون كاشف عن بلوغ الإنسان الغاية ووصوله النهاية. فدرجة الشيخوخة، آخر خطوة للإنسان المخلوق للفناء فإذا تبدلت الشعرات السود بالبياض، فينبغي لمن لاحت في عارضيه وعلم أنها نذير عمره الفاني، وأنها افتراق روحه عن جسده أن يدأب في الطاعة المقربة له من الجنة، ويتجنب المعصية المشرفة به على النار، وأن يتهيأ بأحسن هيئة ويستعد بأجمل استعداد المسافرين في أسفارهم والراحلين عن أوطانهم، فإن سفره من أعظم الأسفار وخطر رحلته من أهم الأخطار.

ثم الواجب على من لم يبلغ تلك النقطة، ولم يصل بمسراه إلى تلك الخطة، أن يعظم ذا الشيبة ويحترمه أعظم احترام، ويبجّله أحسن تبجيل، وذلك (أي احترام ذي الشيبة) مما ندب إلى حسنه العقل والنقل.

أطبق العقلاء كافة، وذوو الآراء التي تقتبس منها الحقائق المتبعة على تحبيذ احترام ذي الشيبة، وإكرام ذي السن العالي. وناهيك بالكتاب المجيد والسنة النبوية المقدسة، فيما تضمنتا من الإيصاء والتوصية بإكرام ذي الشيب وما تكفلتا من التعطف والتحنن عليه.

جاء في الحديث عنه ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إجلال ذي الشيبة» وقال: «من عرف فضل كبير لسنه ووقر شيبته، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وفي الحديث القدسي: «الشيب نوري وأنا أستحي أن أُعذب نوري بناري». وقال ﷺ: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة يسعى به إلى الجنة، يقول الله تعالى: رحمت عبدي لأنه شاب في الإسلام ولم يشرك بي شيئاً». وعن ابن أبي شيبة قال: نهى رسول الله ﷺ عن نتف الشيب، وقال: هو نور المؤمن. وجاء رجل من هذيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، قد كبر سني، ودق عظمي، وضعفت قوتي، عما تعودته من الصلاة والصيام فقال ﷺ: أعد كلامك علي، فما حولك صخرة ولا مدرة، إلا وبكت رحمة لك، فكيف لا يرحمك الرحمن؟

إن الله تعالى أخّر قلب مدائن قوم لوط إلى وقت السحر، فسأله جبرائيل عن سبب ذلك، فقال تعالى: إن فيهم شيخاً ذا شيبة نائماً على قفاه، فلحرمة شيبته أخرت ذلك حتى ينقلب على وجهه.

وقال ﷺ: «إن الله تعالى ينظر في وجه الشيخ صباحاً ومساءً، فيقول: عبدي كبر سنك، ودق عظمك، ورق جلدك، وقرب أجلك، وحان قدومك علي، فاستحِ مني فأنا أستحي من شيبتك أن أُعذبك في النار، ثم بكى ﷺ فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكي ممن يستحي الله منه، وهو لا يستحي من الله».

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن الله ليكرم أبناء السبعين، ويستحي من أبناء الثمانين، فيأمر بأن تكتب لهم الحسنات وتمحى عنهم السيئات. والعلة في ذلك، أنه إذا بلغ الرجل هذا العمر، تنهدم قواه، وتكثر أمراضه، ويحرم من جميع ملاذ الدنيا».

يحدثنا الطبرسي في مكارم الأخلاق، يقول: كان الناس في بدء الخليقة لا يشيبون، ولم تكن ميزة بين الرجال، فسأل إبراهيم الخليل عليه السلام ربه، فقال: يا رب اجعل لي شيئاً أُعرف به، فجعل له الشيب، فقال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا وقار.

فقال: يا رب زدني وقاراً. فابيضت لحيته.

* * *

كانت اللحية ولا تزال شعار الرجال ومن مميزاتهم، إذ الفطرة حرمت المرأة من هذا الشعر، فتولدت من هذه عادة المحافظة على اللحى وإكرامها بين أكثر الأجيال والشعوب القديمة، شرقية كانت أم غربية، ولم يتفش في الأقوام عادة حلقها بالصورة العامة إلا في هذه القرون الأخيرة. وكانت الأديان، وكذا الأمم المحافظة على آدابها، إنما تحتفظ على إكرام اللحى من الجهة الأدبية، أكثر منها من الجهة الصحية.

وها إنني أُقدم لقراء كتابي هذا، وهو الجزء الثاني من (شرح رسالة الحقوق)، دلائل الجهتين معاً، (أعني جهة الشريعة والطب جميعاً) حسبما يفسح الحال والمجال:

أما الأولى وهي جهة المنع من حلق اللحية في شريعة الإسلام، فالدلائل عليها كثيرة، أوردها العلماء في كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية، فلتطلب من مظانها ولتقتبس من محالها، ونقتصر منها هنا على ثلاث:

أحدها: حديث الإعفاء: ونصه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: احفوا الشوارب، وأعفوا اللحى الخبر. وظاهر أن الأمر في الوجوب، وقد رواه الصدوق (محمد بن بابويه القمي) في جامعه المشهور (من لا يحضره الفقيه)، واعتمد عليه في التحريم أكثر فقهاء المسلمين.

فإن قلت هذا الحديث مرسل مقطوع السند، قلت: قال الشيخ سبط الشهيد الثاني في الدر المنثور: (والإرسال لا يقدح فيه بعد تعهد الصدوق أن لا يروي في الفقيه إلا ما كان حجة بينه وبين ربه). وعن التقي المجلسي قال: إن مراسيل الفقيه كلها مسانيد صحاح. على أن هذا الحديث كاد أن يبلغ من شهرته حد التواتر. وقد روي بألفاظه المتقاربة في صحيح مسلم والبخاري والترمذي والنسائي، ومسند أحمد بن حنبل، وكتب أحاديث المسلمين على اختلاف طوائفهم وطرقهم.

الثاني: حديث المسخ: وهو الذي رواه ثقة المحدثين، محمد بن يعقوب الكليني في صحيحه المشهور (بالجامع الكافي) في باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل من أبواب الأصول، وفيه: إن أمير المؤمنين علياً عليه السلام قال في ضمن حديث طويل: «إن أقواماً من بني إسرائيل حلقوا اللحى وفتلوا الشوارب فمسخوا» الخ.

وقد استبدل به على تحريم حلق اللحية جماعة من الفقهاء: كالمولى محسن

الفيض، والشيخ المجلسي، والشيخ البحراني في الحدائق، وقال الأخير: «الظاهر كما استظهره جملة من الأصحاب هو التحريم، لخبر المسخ، فإنه لا يقع إلا على أمر محرم بالغ في التحريم، وتعويل الفقهاء على هذا الحديث لا يقصر عن تصحيح المحدثين إياه.

الثالث: حديث العارضين: وهو الذي يعتمد عليه ويستكفى به دليلاً على تحريم حلق اللحى في الشريعة، وقد رواه شيخ الفقهاء (محمد بن إدريس الحلي) في أواخر كتابه (السرائر)، عن كتاب الجامع لأحمد بن محمد البزنطي، صاحب مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام، وصاحب أبيه موسى بن جعفر عليه السلام، وعظيم المنزلة عندهما، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الرجل هل يصلح له أن يأخذ من لحيته؟ قال: أما من عارضيه فلا بأس وأما من مقدمها فلا.

وروى هذا الحديث الحميري في قرب الإسناد بسنده الصحيح، عن مولانا موسى الكاظم، ورواه أيضاً علي بن جعفر في كتابه عن أخيه الكاظم، وكما نثق بصدوره، نثق أيضاً بظهوره في المنع عن الحلق، بعد إطلاق قول الإمام عليه السلام: «وأما من مقدمها فلا»، وكون حلق اللحية أظهر مصاديق الأخذ منها، وكون الإطلاق في حال البيان، ظاهر وظاهر النهي التحريم، نعم يخرج من ذلك الأخذ على سبيل التحسين ويبقى باقي الأفراد داخلاً في المنع، سيما الفرد الظاهر من ذلك وهو استئصال شعر الفكين والذقن.

هذا ويتلو ذلك كله عمل المسلمين الكاشف عن الإجماع وثبوت الحرمة في الشريعة، فإنه لا ينبغي الريب في أن المتشرعين من أول الإسلام إلى هذا الزمان يعرف من أمرهم، أن حلق اللحية عندهم من المنكرات في دين الإسلام، لا يرتكبه إلا متبع الهوى والشهوات، ومن لا يقف عند حدود الشريعة، ولا يبالي بنكير أهل الدين، مضافاً إلى أنه لم يعرف قول عالم معتد به بجواز حلق اللحية ونحوه.

وكفى بذلك دليلاً على الحرمة، دليلاً ينادي بتسالم المسلمين في أجيالهم على الحرمة، وأخذهم لها بالتسليم يداً عن يد إلى مصدر الشريعة المطهرة، هذا مضافاً إلى استفادة نقل الإجماع من الشيخ البهائي في رسالته في عقائد الإمامية، من أن جماعة العلماء أرسلوا الفتوى بالتحريم إرسال المسلمات، ولم يشيروا إلى خلاف وشبهة خلاف على ما هو ديدنهم في المسائل الخلافية.

ومن ذلك، ما حكي عن يحيى بن سعد الحلي في جامعه، وفخر المحققين في

الحواشي الفخرية على القواعد، والشهيد الأول في قواعده، والشيخ علي في الدر المنثور، والحر العاملي في بداية الهداية والسيد الداماد في مشارع النجاة والكاشاني في المفاتيح، والشيخ البحراني في الحدائق، والشيخ في كشف الغطاء والشيخ في الجواهر، والمعروفين بالتقليد من زمن الشيخ الأنصاري إلى الآن كما في رسائلهم العملية، بل صرح بعض بأن التحريم متسالم عليه.

وأما الجهة الثانية: وهي البحث عن منافع إبقاء اللحى ومضار حلقها، وهذا باب واسع المجال، نختار منه جملة مما ذهب إليه الأطباء الماهرون:

(أ) سجعان أفندي الماروني في كتاب (تاريخ أمريكا) ما نصه: (وبعضهم يكرهون اللحى، مع أن اعتبارها أولى، فقد قال النطاسي الشهير الدكتور (فيكتور جورج): إن اللحية لها نفع عظيم، فإنها تحفظ الفم وتمنع عنه الرطوبة وتقي الأسنان والغدد اللعابية، ثم قال سجعان وقال غيره: إنهم حلقوا مرة لحى جميع مستخدمي السكك الحديدية في أيام الشتاء، فحصل لأكثرهم وجع ونخر في الأضراس والأسنان وورم في الغدد اللعابية، قال سجعان: ووصف أحد الأطباء لبعض الذين أُصيبوا بالرشح (أعني داء الزكام) أن يطلقوا لحاهم ففعلوا ذلك، وحصلوا على النتيجة المرغوبة.

(ب) ذكر الطبيبان الشهيران الدكتور (يعقوب صروف)، والدكتور (فارس نمر) في مجلة المقتطف الشهيرة ص ٥٣٨ سنة ١٩٠٨ م كلاماً نصه: إن للشعر والشوارب واللحى فائدة كبيرة في منع دقائق الغبار من دخول الأنف والفم، وفي منع الهواء البارد من تبريد الحلق.

وروي أن النوتية (الملاحين) الذين ذهبوا للتفتيش عن الرحالة (فرنكلين) في جهات القطب الشمالي اشتد عليهم البرد القارس، ولكنهم لم يصابوا بمكروه لأن الشعر كان يغطي وجوههم فيدرأ عنها البرد، ثم لما عادوا إلى إنكلترا، حلقوا هذا الشعر، فلم يمض أسبوع حتى مرضوا كلهم.

(ج) ذكرت جريدة العدل العربية التي كانت تصدر في الأستانة بتاريخ سنة ١٩١١م بعدد ١٣٢ ما نصه: تألفت جمعية في إنكلترا لمقاومة استعمال الموسى، ومن مبادىء هذه الجمعية، السعي في حمل الناس على إرسال لحاهم، بحجة أن الموسى تكون سبباً من أسباب نقل العدوى والأمراض المعدية. وقد طبعت هذه الجمعية منشوراً وزعته على كبار الإنكليز وأعيانهم، دعتهم فيه لتأييدها بإرسال لحاهم حتى

يتشبه بهم الشعب، وقد وضعت في المنشور صورتين واحدة تمثل رجلاً حليق الذقن، والأُخرى تمثل رجلاً ذا لحية، وجمعت كل المحاسن في الوجه الثاني، كما ملأت الوجه الأول بالقبائح.

هذا بعض ما نشرته المطبوعات عن آراء أطباء الإفرنج وكبار الغربيين.

وأما التوجه إلى كلمات أطبائنا وضبط التجارب الشرقية، ونقل كلمات عظمائهم حول المسألة، فلا يسعه كتابنا هذا، وهو الجزء الثاني من شرح (رسالة الحقوق)، بل يستدعي إفراد كتاب في الموضوع.

ومن الواضح لدى التأمل في المقام، أن وجود الشعر حول الفكين والعارضين يحفظ شطراً كبيراً من الحرارة والأبخرة، لمنافعها ومحافظة قواها لأداء وظائفها حال المضغ والابتلاع، وتقوي أدوات الحلق والغدد اللعابية، وتحسين الكلام وتسويغ الطعام ومنع الأعراض الزكامية والأمراض الرشحية، ورفع التشنج ومنع نخر الأسنان، وتقوية اللسان وغير ذلك. وربما وجد المتتبع في كتب أعلام الفقه وأركان الطب، ما ينير الفكر ويوضح الأمر أكثر من هذا القدر، سيما في آثار الأواخر، إذ القدماء والصدور، قلما اهتم منهم أحد بالتعرض لهذا الأمر أو الاستدلال فيه.

وعليه، كان شأنه عندهم أشهر وأوضح من أن يتساءلوا عنه أو يستدلوا عليه.

* * *

جاء في كتاب (عجائب الخلق) تأليف (جرجي زيدان) ما نصه: «طبيعي في الإنسان أن يرسل لحيته كما يرسل شعر رأسه، بل هي أولى بالإرسال، لأنها تميز الرجل من المرأة، ولكن الأمم القديمة اختلفت في هذا الشأن، فالإسرائيليون كانوا يرسلون لحاهم ويحترمونها، وقد حافظوا عليها في أثناء عبوديتهم بمصر، وهم يفتخرون أنهم خرجوا من وادي النيل ولحاهم معهم.

أما المصريون فلم يكونوا يرسلون لحاهم ولكنهم كانوا يوقرون اللحى، ولذلك كانوا يلبسون لحى مستعارة في الاحتفالات الدينية الكبرى ويصورونها في وجوه آلهتهم الذكور.

والعرب كانوا يرسلون لحاهم مثل سائر الشرقيين، وظلوا على ذلك بعد الإسلام، وتفننوا في أشكال اللحى وضروب إصلاحها وأنواع خضابها، وكانت تعد من شعائر التقى والعلم والوجاهة. فالخلفاء والأمراء والفقهاء والعلماء، كانوا يرسلونها

ويحتفظون بما يقع منها في أثناء التمشيط ويحرقونه حتى لا تمس كرامته، وأول من خالف هذه القاعدة السلطان سليم الفاتح (سنة ١٥١٢ م ـ ١٥٢٠ م) فقص لحيته، وأمر رجاله بذلك، فوقع أمره كالصاعقة على المسلمين، ولا سيما الفقهاء، وفي مقدمتهم قاضي القضاة، فشكا إلى السلطان من هذا الأمر فأجابه مازحاً (قد قصصت لحيتي حتى لا يبقى لوزيري شيء يقودني به)، يشير إلى استبداد الوزراء في ذلك العهد. ولم يطل قص اللحى، فعاد الناس إلى إرسالها.

وكان الأشوريون ومن خلفهم من الفرس، يرسلون لحاهم ويتفننون في تطبيقها وخضابها. وذكروا حروباً انتشبت بين شعوب آسيا بسبب اللحى: منها حرب قامت بين التتار والفرس، وأُخرى بين التتار والصين سفكت فيها دماء غزيرة، وسبب الحرب الأولى أن التتار كانوا يقصون لحاهم فاتهموا الإيرانيين بالكفر، لأنهم لا يقصونها وتخاصموا، ثم تحاربوا. وهكذا يقال في سبب الحرب الأُخرى.

وكان اليونان في أعصرهم الأولى يرسلون لحاهم حتى ظهر الإسكندر، وحمل على العالم، فأمر رجاله بقص لحاهم لئلا يستعين الأعداء في ساحة الوغى بالقبض عليها. وكان لهذه البدعة تأثير في العالم الروماني أيضاً، فاقتدى الرومان باليونان، وأصبح إرسال اللحى عندهم دليل الهمجية، ولذلك سموا الشعوب الجرمانية التي تساقطت عليهم من الشمال (بربر) من (باربا) في اللاتينية اللحية، والباربر صاحب اللحية، لأن أولئك الشعوب كانوا يرسلون لحاهم بلا نظام أو ترتيب فتكسبهم هيئة وحشية.

ومن تاريخ اللحى في التمدن الحديث، أن بطرس الأكبر قيصر الروس وضع ضريبة على اللحى، والظاهر أن الإنكليز سبقوه إلى مثلها وهو قلدهم. فمن دفع الغرامة أذن له بترك لحيته وإلا فانهم يحلقونها له بالقوة، ولم يبق لها مثل هذه القيمة عندهم الآن. وكان الإسبانيون يكرمون اللحى كثيراً، ومن أمثالهم بعد أن بطلت هذه العادة (لما أضعنا لحانا أضعنا أنفسنا)، وكذلك كان البرتغاليون، فإن (جوان كاسترو) لما اقترض ألف بندقية من مدينة جوا، رهن عندهم خصلة من لحيته وقال: (إن ذهب العالم كله لا يساوي هذا الجزء من إكليل بسالتي).

وأما بالنظر إلى الطوائف المسيحية، فالكنيسة الأرثوذكسية تدافع عن اللحى وتعد إرسالها ضرورياً. والكنيسة الكاثوليكية ضد ذلك. لا يمكننا أن نتصور بطريركاً بدون لحية، كما يصعب علينا أن نتصور بابا بلحية، وكان من العادات القديمة، أن من يقصر

شعر رأسه ويطيل شعر لحيته يكرمونه، لأنه يفعل فعل الكهنة، والأوسمة البابوية التي أصدرها البابوات في نابولي من أيام أكلمندوس السابع إلى اسكندر الثاني (أي من سنة ١٥٢٣ ـ ١٦٩١ م) فيها لحية، وكانت لحية أكلمندوس المذكور طويلة وسوداء.

والناس في كل عصر يتفاوتون بطول لحاهم وكثافتها، باختلاف الأمزجة والأعمار والأقاليم. وأطول لحية بلغ إلينا خبرها، لحية رجل فرنساوي اسمه (جول ديمون) ولد في فريلين بالشمال سنة ١٨٥٣، ويقيم الآن في الطريف (فلاندر الغربية بفرنسا) فهو الآن في الثامنة والخمسين من عمره، وطول لحيته ثلاثة أمتار و ٦٥ سنتيمتراً، إذا أرسلها انجرت على الأرض، ولذلك فهو يحبسها في جيب خاص بها».






حقُّ الصّغِيرِ

قوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ الصَّغِيرِ رَحْمَتُهُ فِي تَعْلِيمِهِ، وَالعَفْوُ عَنْهُ والسَّتْرُ عَلَيْهِ، وَالرِفْقُ بِهِ، وَالمَعُونَةُ لَهُ. وَالسَّتْرُ عَلَى جَرَائِرِ حَدَاثَتِهِ فَإِنّهُ سَبَبٌ لِلتَّوْبَةِ، وَالمُدَارَاةُ لَهُ، وَتَرْكُ مُماحَكتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى لِرُشْدِهِ».

* * *




المدخل

تعبير لطيف يلقي ظل الدعة الرقيق، وحركة جناح تميل إلى جانب التجاوب الندي، وترخي ريشه في وداعة واطمئنان، فإذا الجو من حوله عطوفة وحنان.

تلك لمسة للمشاعر، واستعراض صفحة من الواقع، أودع الإمام عليه السلام فيها الشعور بلذة التجاوب التي لا تعدلها لذائذ الأرض كلها.

لذة التجاوب بين الكبير والصغير، بتوقير أحدهما والحنو على الآخر، ليحلّق كل فرد منهما في الآفاق العالية، في الآفاق المشرقة المضيئة، وتهيىء الأسباب العملية التي تعرفها طبيعة كل منهما.

فلمسة الإمام (وعلى ذكره السلام)، نحو الصغير فريضة في الطوق تصاحب الإنسان وتلازمه كسائر الفرائض.

والمهم هو تركيز قوة العقيدة والتربية والخلق والتنظيم، لتمتد روح الصغر وتتصل بالينبوع الدافق الذي لا ينضب.

كذلك أن لا يؤخذ ببعض ما يأتيه من جرائر وعرامة يمكن سدول الحجاب عليها، فاللين وخفض الجناح سبب للاعتدال والرجوع عن الذنب.

ومن الخطأ الظن بأن العنف والشدة يجديان في مضمار التربية، فالتجربة تفند هذا الزعم بقولها: إن الكائن الصغير يشعر بكيان مستقل لذاته كلما تقدم في السن، ويشعر بعزة وكرامة ليس لأحد أن يتعدى حدودها، لذلك ينبغي أن يعطى بعض الحرية والطلاقة لكي يستطيع أن يشق طريقه كما يريد وكما يفكر.

قال الشاعر:

إن مال طفلك للألعاب مشتغلاً بالنقش والحفر والتصوير تزيينا
لا تنهه ربما عادت ملاعبه على الصناعة بالإصلاح تزيينا

وكذلك أن لا يؤخذ بالضعف والقوة إلا في بعض الحالات التي توجب تطبيق

وسائل التأديب، فليس ترك الطفل والغض عنه نهائياً بشيء صحيح، كما أنه لا يؤخذ بالالتزام بكل ما يرتئيه الأبوان، فكلا الأمرين خطأ، إنما الصحيح هو الوسط الذي استعرضه الإمام عليه السلام في هذه الظاهرة.

ومن المعلوم أن الصبي بحاجة إلى تربية بدنية جيدة، وتربية نفسية صحيحة، وتربية ثقافية تعنى بعقله وتفكيره.

قال الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه (السياسات الأهلية) في باب سياسة الرجل ولده: «فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدأ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة. فإن الصبي تتبادر إليه مساوىء الأخلاق... فينبغي لقيم الصبي أن يجنبه مقابح الأفعال، وينكب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، وبالإعراض والإقبال، بالحمد مرة وبالتوبيخ أُخرى ما كان كافياً».

التربية

عبارة عن طريقة يتوصل بها إلى نمو قوى الإنسان الطبيعية والعقلية والأدبية، فينطوي تحتها ظروف التعليم والتهذيب التي من شأنها إنارة العقل وتقويم الطبع وإصلاح العادات والمشارب، وإعداد الإنسان لنفع نفسه وقريبه في مراكزه الاستقبالية، والاعتناء به في الحالة التي يكون فيها قاصراً عن القيام بالاعتناء بنفسه.

ولا يخفى أن الولد يشبه بالغصن الرطب تميل به الأهواء كيفما مالت، ولهذا يجب الاعتناء بتدبيره وتدريبه وتهذيبه وتقويمه. وهو بذلك يختلف عن الحيوانات العجم التي لا تحتاج طبعاً إلا إلى القوت، وبهذه الخلة يقوم فضل الإنسان عليها، فإنه مخلوق أدبي لا يمكن نمو قواه الأدبية إلا بفعل ممتاز عن الفعل الذي يؤثر في بيئته، ولا يمكن التوصل إلى استعمال عقله إلا تدريجياً وببطء، وذلك لا من تلقاء نفسه بل من قوة خارجية، فيفتقر إلى أن يكون له اتصالية عقلية مع أبناء جنسه الذين وصلوا إلى ذلك قبله بنفس الوسائط التي يجب استعمالها نحوه، وتلك الاتصالية لطيفة ونشيطة، وتتبع نمو القوى الطبيعية الذي يكون أيضاً تدريجياً وببطء، وتربية الإنسان هي أعظم الأعمال وأشرفها، لأنها مع دلالتها على عجزه تدل في الوقت نفسه على سموه ونفس ضعفه شاهد يشهد للعظمة والاقتدار. فالتربية والحالة هذه ليست عبارة عن تقويم جسم آلي فقط بل عن تقوية نفس عاقلة أيضاً، ولذلك كانت الأمور التي تقوم بها كثيرة ومختلفة

تفتقر إلى وسائط كثيرة ومختلفة أيضاً، ومرجعها جميعها إلى الإنسان من حيث هو مخلوق أدبي ذو قوى عقلية.

وللتربية مبادىء ونواميس توافق طبيعة الإنسان، إلا أنها لا تقدر من نفسها أن تتيح كل النتائج المطلوبة. والإنسان يحتاج إلى الإنسان من بلوغ الوسائط المكملة له، ولذلك كان فصل التربية عن أحوال الهيئة الاجتماعية، بأن يربى الولد في حالة الاعتزال، كأنه قضي عليه بعيشة متوحدة مغايراً لحقوق الإنسانية، ومع ذلك قد جرى عليه (روسو)، إذ جعل تلميذه يعتزل عن مخالطة الناس ومعاشرتهم، وكذلك جرى كثيرون في تربية الأولاد في القرن الثامن عشر.

ومما تأباه طبيعة الإنسان في هذا العصر الانقياد إلى فكر غيره ورأيه، دون فكره، وبناءً على ذلك قد رأى البعض أن التربية يجب أن تكون مطلقة غير مقيدة بقيد الاعتقاد الخصوصي السابق والإيمان التسليمي والقوانين المقبولة، فصاروا يربونه تربية توافق رأي ومذهب كل منهم، ثم يتركون له حرية لكي يختار بعد ذلك بحكم عقله ما يراه موافقاً لطبيعته الأدبية. على أن الكثيرين قد خطّأوا هذه النظرية، وذهبوا إلى أن من شأن تربية كهذه، أن تزرع في عقول الأولاد أوهاماً فاسدة وتوقعهم في ورطات الضلال وفساد الآداب حتى لا نقول: الدين، وأن مبادىء التربية ونواميسها منحصرة في الدين فقط، وأنه بدون الدين لا يكون للتربية أساس صحيح، ويردون بعبارات قوية على ذلك النوع من التربية. وعلى الذين يذهبون إلى أنه لا يجوز أن يكون للدين سلطة على الولد في تربيته، ولا لخدمته حق في تعاطي تربية الأولاد، بل يجب أن يكون حق تولية ذلك منحصراً في السلطة المدنية.

ولا يخفى ما في الرأيين المتقدمين من التطرف والإخلال في تربية من نقصد أن يكون في مستقبله عضواً مهماً للهيئة الاجتماعية، باعتبار كونها دينية ومدنية ومعشرية، وعلى ما نرى أن الإنسان إذ كان موضوعاً في هذه الحياة للأحوال التي تقتضي مراعاة الأمرين، (أي الدين والسياسة)، كان لا بد من أن يجتمع فيه الطرفان بطريقة معتدلة موافقة من كل وجه للأحوال التي تقتضيها ظروف التربية، ولذلك نرى أن البلدان المتمدنة التي جعلت التربية في المدارس من حقوق الحكومة ورفعتها من يد خدمة الدين، رأت من مقتضيات الحال، أن تكون هيئة تلك المدارس بحيث يستطيع الولد برضى والديه أن يكتسب تربية دينية مع التربية الزمنية، وبذلك يتخلص الولد من التعصب الذي من شأن بعض المدارس الدينية المحضة أن تغرسه في عقله، بحيث

يصير غير قادر على أن يكون عضواً متصفاً بالصفات التي تقتضيها حالته، بالنظر إلى تعلقه مع غيره من أبناء جنسه، ويتخلص من ورطة التهور في الكفر والضلال وفساد الآداب التي يتلقاها في بعض المدارس المدنية المحضة، والتي من شأنها أن تجعله ليس فقط قاصراً عن إيفاء حقوق جنسه، وفي صالح بلاده وطائفته.

ثم إن التربية تبتدىء في العائلة، وهناك لا دخل للسياسة، ولا لأصحاب الآراء الفلسفية، وتكون السلطة فيها للأب والأم، وهذه السلطة ليست مؤسسة على قوة جبرية أو سيادة سياسية، بل على مبادىء المحبة التي تربط الولد بوالديه، فيتعلم بعنايتهما كيف يصير رجلاً، ولا يجب التوهم بأن تركه لحرية الطبيعة كافٍ لصيرورته كذلك، ولا يسلم لمن قال: إن طبيعة الولد غير شريرة، لأن ذلك يكذبه الاختبار، وكل عاقل يعلم أن ولده يحتاج إلى المساعدة في تقويمه والنهوض به عند سقوطه، وهذا هو الأساس الذي تبنى عليه أركان التربية، فإننا نرى أن الوالدين وعلى الخصوص الأم يقاسيان صعوبات كثيرة في تربية أولادهما، ويفتقران إلى التمليق والتأديب، وأحياناً الحيل في ذلك، ومهما كانت أخلاق العائلة مرضية وتصرفاتها مستقيمة، لا تستغني عن مساعدة الدين في هذا الأمر، فبالدين يعرف الولد متى وصل إلى سن معلوم، أن فوق سلطة والديه سلطة أعلى وأسمى، وبذلك يكون للتربية قوة عظمى لتقويم الطبيعة المعوجة ومحاربة الميول الشريرة، والحث على القيام بالواجبات والشعور بتولد الفضائل ونموها داخل قلبه. وهذا ما جعل الأكثرين يذهبون إلى أن الديانة هي المبدأ الأقوى والأسلم للتربية، لأنها تأتي الولد في مهده وتبارك مدخله في ميدان الحياة، ثم تتبعه بعد ذلك خطوة فخطوة، وتشجعه وتدربه وتنير عقله لقبول التعاليم السامية، وتكشف له حقائق لم ينتبه إليها أسمى العقول البشرية. وإن فعل الديانة هذا، يرافق كل الأعمال التي تقوم بها تربية الولد من دون أن يضر بواحد منها، وأن الديانة يجب أن تكون دائماً مرافقة لهذا العمل العظيم الديني والدنيوي معاً، وبذلك يتضح الفرق بين التعليم والتربية، فإن الرجل المتعلم قد لا يكون حسن التربية، والرجل الحسن التربية قد لا يكون متعلماً، وكمال التربية يقوم بمزج العلم بالأدب، فهذا هو العلم المتحد بالفضيلة، وهذا هو تثقيف العقل المقرون بتثقيف الطباع.

فمن الأمور المهمة والضرورية للتربية، استخدام أناس لها يليقون بها. هذا وإن تربية الأولاد في الأخلاق وتعليمهم الفنون والعلوم من الأمور المهمة، وأما تربيتهم في الدين فمن الأمور الضرورية التي يطالب الآباء والمربون إذا أهملوها أي مطالبة. وقد

بحث الناس كثيراً في أمر تفضيل التربية في العائلة، أو في المدرسة، فلو أمكن العائلة التفرغ لها لفضلت التربية فيها، ولهذا يفتقر الأكثرون إلى إرسال أولادهم إلى المدارس لكي يحصلوا فيها تربية مفيدة لهم وموافقة لمذهب والديهم ومشربهم.

ولا يخفى ما بين المدارس الكثيرة من الاختلاف من هذا القبيل، ولذلك طالما تحير الوالدان في انتخاب مدرسة لأولادهم، تحمل عنهم أثقال المسؤولية في هذا الباب، وتكسب أولادهم ما يجعلهم قادرين على القيام بما تقتضيه أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وتكسبهم رضى والديهم، وقبولاً في الهيئة الاجتماعية بحيث يكون من فاز بتربية كهذه، قادراً على القيام بوفاء واجباته في أحواله المختلفة، كأب وزوج وابن وصديق.

ومن شأن المدارس الجيدة أن تربي الأولاد تربية حسنة وتغرس في عقولهم مبادىء جيدة، وتجعل في عاداتهم تثقيفاً وتقوى.

من شأنها أن تجعلهم قادرين عند دخولهم في الهيئة الاجتماعية على دفع ما هناك من الفساد والخلل الأدبي، والأضاليل والأخلاق المغايرة والاجتهاد في إصلاحها، لأن الرذائل والمنكرات والفساد وما شاكل ذلك ليست هي دائماً، كما يظن ناشئة عن طبيعة فاسدة، بل كثيراً ما تنشأ عن سوء تربية، فحيثما أدت التربية إلى اعتبار الأدب والظرف واحترامهما وحبهما، تولدت الفضائل من نفسها، وحيثما أدت إلى ما يخالف ذلك، وعدم المبالاة بارتكاب الشرور والمعاصي، نما الشر وصار معدياً.

والهيئة الاجتماعية تنهض أو تسقط بحسب مبادىء التربية في أفرادها، وبحسب صرامة ناموس التربية وسهولته في تهذيب الأخلاق، وإطلاق عنان الحرية للنفس في اتباع أهوائها، وهكذا الحال في أمر العيال، فإن ما يصادفها من النكبات وسقوطها أدبياً ومادياً، ينشأ غالباً من سوء تربية أولادها، فإذا ربت أولادها في الكسل والرخاء تكون كأنها قد ربتهم لكي يسقطوا، لأن إطلاق العنان في التنعم والترف في التربية من شأنه أن ينزع من النفس أخلاق المروءة والنخوة، فإذا حان وقت كسب المعاش بالشغل والكد، يكون من تربى بنعيم مستمر يظنه خالداً، قد تكون في عيشة البذخ والكسل فلا يكون ذا نشاط وذكاء، بل طالما يخبط خبط عشواء في استهلاك ثروته، فيفضي به الأمر إلى حالة الاملاق والحقارة. وطالما نرى الناس يبذلون مجهودهم في المحافظة على صحة أولادهم، وراحتهم من كل وجه ويهملون تهذيب نفوسهم واستخدام الوسائل التي من شأنها تقويمهم وإكسابهم الراحة في مستقبلهم الأدبي تاركين ذلك لعناية الطبيعة.

وصفوة القول، فإن التربية في كل المراكز، وفي جميع البلدان والأزمان هي الواسطة العامة لتبليغ الإنسان إلى السعادة، ومن شأنها أن تحبب إليه الفضيلة والشغل والاعتدال، وتبعد عنه الأوهام والأباطيل والميول الشريرة والشهوات الخبيثة، وترفع نفسه إلى ما هو جليل وجميل، وتجعل فيه كرم أخلاق، وتبعده عن الحسد والبغضاء والكبرياء، وتزينه بحب الخير والمروءة والحشمة، وتغرس في نفسه حب الصدق والطاعة والمحبة وروح التقوى. وبهذه الواسطة تجعله زينة للهيئة الاجتماعية وفخراً لعائلته ووطنه.

وما تقدم من الكلام، عن التربية ليس خاصاً بالذكور، بل يشمل الإناث أيضاً والأمة بأسرها، وبذلك عمران البلاد وسعادة العباد. وقد استوفينا الموضوع في كتابنا (علي والأسس التربوية) فليراجع.

نشرت مجلة (التضامن الإسلامي) في افتتاحية العدد التاسع من سنتها الثانية، مقالاً بقلم الشيخ محمد باقر الناصري، تحت عنوان (الدين في المدارس) جاء فيه:

«. . . فالمدارس تلتقي مع أغلب المواطنين، إن لم نقل كلهم، فالمواطن إما أن يكون طالباً أو معلماً، وهما في صميم شؤون المدارس، وإما أن يكون أباً أو أماً للطالب، ومعلوم مدى علاقة الأبوين بحياة أبنائهم، وعمق النتيجة في حياتهم في المستقبل القريب والبعيد».

لما كان الدين قائماً ولو شكلياً في البلاد الإسلامية، وكانت البلاد الإسلامية عند تأسيس المدارس الحديثة تنوء بأعباء السيطرة الأجنبية، ويدير شؤون أغلبها المستعمرون الأجانب، والذين يدركون جلياً، أن المدارس الحديثة إذا بنيت ثقافتها على أساس الدين، وتسلح المسلمون بالثقافة الإسلامية الصحيحة فلا مكان بعدها لمستعمر في بلاد الإسلام.

ولما كان المستعمرون وعملاؤهم، لا يملكون الجرأة بمصارحة الأمة في محاربة دينها وتنحيته عن مركزه القيادي في الناحية الثقافية، خوفاً من سخط المسلمين، وعلماً بأن ذلك لا يتم دفعة واحدة، وبشكل مفضوح مما حدا بها للتفكير بجدية وعمق، حيث اهتدت بمكرها وخبثها، وبمشورة عملائها في الداخل، إلى وضع مناهج للتربية والتعليم في شتى مراحل الدراسة والتعليم وميادينها. هادفة زعزعة الأمة عن تراثها، وعن كل ما لها من مثل ومقومات، وخاصة في المناهج الدينية للمدارس. فوضعت

للدين حصصاً ضئيلة تتدرج في مراحل الدراسة بالنقصان، حتى تنعدم في النهاية كما في الكليات والدراسات العالية.

وبالإضافة لضآلة تلك الحصص فقد كانت لا تحمل من الدين إلا اسمه، فالدروس التي تسمى بدروس الدين خليطة من القصص والوقائع التاريخية المشوهة، مضافاً إليها بعض سور من القرآن الكريم، لا يطلب أكثر من حفظها أو معرفة معاني مفرداتها اللغوية. أما جوهر الدين والحلول الإسلامية لمشاكل المجتمع، أما التشريعات الإسلامية في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والأسس التربوية في الإسلام، وبقية الشؤون التي عالجها الإسلام علاجاً سليماً، فلا مكان لكل تلك وغيرها في مناهج الدين في المدارس الحديثة، ولئن ذكرت أو بعضها فتذكر عفواً ومن خواطر المعلمين والأساتذة، أو بالإلحاف من الطلاب في الأسئلة عن بعض نواحي الإسلام، وهذا ما لا يسأل عنه التلميذ إن قصر.

ومما يزيد الأمر سوءاً، إن لم نقل هو ضمن مخطط أعداء الإسلام، تهاون إدارات المدارس في اختيار مدرس الدين حتى بلغ هذا التهاون مبلغاً مخجلاً للمسلمين، فصار درس الدين يعطى للمدرس الكسول أو الذي لا اختصاص له، أما كفاءة ذلك الأستاذ ومدى تمسكه بالدين واندفاعه في نشر الدين، فهذا ما لا يطرق حين توزيع الدروس، وما أكثر من أُنيط به تدريس الدين وهو لا يعرف من الدين موضع قدمه، ولا ترى للدين أثراً في أخلاقه أو سلوكه. فمتى يرجى من الطلاب تمسّك بالدين إذا كان أستاذهم لا يتحرج عن المنكرات وهو بمرأى من طلابه يرى ثملاً يترنح، أو مقامراً محترفاً، أو فاسقاً مستهتراً.

أو لا دينياً تجلت دينيته بانتمائه لأحزاب الكفر والضلال، واعتقاده آراء تصادم الإسلام، وهو لا يزال يحن إلى كفره وضلاله، وإن أخفته القوة.

أمن الإنصاف أن يمكن مثل هذا الخليط الضال من أعداء الإسلام والمسلمين فيناط بهم تربية وتوجيه الناشئة وتعليم معالم دينها؟ أليس هذا هو الضلال المبين والخطر الخطير! وعلى فرض أن لا دين للناس يدفعهم لعدم تمكين مثل هؤلاء فليكن حب أبنائهم يدفعهم لعدم التهاون إلى هذا الحد. ثم أيحق بعد وجود هذا اللون من التخلف عن الثقافة الدينية، والبعد عن مناهج الإسلام وأسسه التربوية، أيحق لنا أن ننتظر من الناشئة التي تنمو على مثل هذه التربية اللادينية، أيحق لنا أن ننتظر صلاح ناشئتنا، وضمان بقائها على دينها، وتمسكها بقيمها، ومثلها؟ كلا، ثم كلا، ونحن

معهم كما قال الشاعر:

ألقـاه فـي اليـم مكتـوفـاً وقـال لـه   إيـاك إيـاك أن تبتـل بـالمـاء

ولكن بقية من أمل وبصيص من نور يوحيان بإمكانية معالجة هذه المشكلة، وإعادة المناهج الدراسية في البلاد الإسلامية إلى نهج الإسلام ووسائله، التي سجلت النجاح والإطراد، يوم كان الإسلام هو الحاكم المحكم، حتى غدت العواصم الإسلامية مهد حضارة الدنيا، ومأوى أفئدة طلاب العلم من شتى أرجاء المعمورة.

فجدير بالمسلمين اليوم أن يبذلوا جهودهم في تنظيم مناهج التعليم، سواء منهم واضعي المناهج الحديثة، أو مؤلفي الكتب الدراسية، أو هيئات التفتيش والإشراف والمراقبة.

وكذلك إدارات المدارس بما تبذله من حسن اختيار المعلمين الأكفاء، من ذوي الدين والخلق، ممن يستطيعون حمل هذه الرسالة المقدسة والمسؤولية الكبرى.

وعدم التسامح مع من لا يعطي الدين حقه من معلمين ومتعلمين، ولا أُبرىء الآباء من المسؤولية، فعليهم حق أبنائهم، وحق أمتهم التي تنتظر من أبنائها قادة الغد ورعاة الأمة، فالأمة مدعوة لإعداد أبنائها خير إعداد، وتربيتهم على الدين والفضيلة ليؤدوا دورهم المرقوب على الوجه الأكمل.

فجدير بالآباء ملاحقة أبنائهم، والتأكد من دروس الدين في مدارسهم، ومشاركة المصلحين في الدعوة لتحسين حالة الدراسة الدينية ومراقبة مدى تطبيق المدارس وإداراتها للمناهج، وعدم إلقاء الحبل على الغارب.

فإغفال الآباء لشؤون أبنائهم بالإضافة إلى أنه تقصير بواجبات الأبوة، هو جريمة بحق البلاد والعباد، وهو تخلف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبالتالي مدعاة للشقاء والمتاعب في الدنيا، وعذاب في الآخرة، وفي الحديث الشريف: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».




حَقُّ السَائِلِ وَالمَسْؤُولِ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ السَائِلِ: إِعْطَاؤُهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ، وَالدُعَاءُ لَهُ فِيمَا نَزَلَ بِهِ، وَالمُعَاوَنَةُ لَهُ عَلَى طَلِبَتِهِ، وَإِنْ شَكَكْتَ فِي صِدْقِهِ وَسَبقَتْ إِلَيْهِ التُّهْمَةُ وَلَمْ تَعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ، لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَيدِ الشّيطَانِ، أَرَادَ أَنْ يَصُدَّكَ عَنْ حَظِّكَ وَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّقَرُّبِ إِلى رَبِّكَ، تَركتَهُ بِسِتْرِهِ وَرَدَدْتَهُ رَداً جَمِيلاً، وَإِنْ غَلبْتَ نَفْسَكَ فِي أَمْرِهِ وَأَعْطَيتَهُ عَلى مَا عَرَضَ فِي نَفْسِكَ مِنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ».

قولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ المَسْؤُولِ: إِنْ أَعطَى فَاقْبَلْ مِنْهُ بالشُّكْرِ وَالمَعْرِفَةِ بِفَضلِهِ، وَإِنْ مَنعَ فَاقْبَلْ عُذْرَهُ، وَأَحْسِنْ بِهِ الظَّنَ، وَاْعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ مَنعَ فَلِمَالِهِ مَنعَ، وَأَنْ لَيْسَ التَثرِيبُ فِي مَالِهِ وَإِنْ كَانَ ظَالِماً، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

* * *




تمهيد

إنه المشهد الكامل المتقابل المناظر، المنسق الجزئيات، المعروض بطريقة معجزة في التناسق والإرادة.

المشهد الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة في القلب الإنساني وكل خاطرة. المصور لمصائر المشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات المحسوسات.

إن هذا التناسق الدقيق الجميل، لا يقف عند هذا المشهد، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد التي رسمها الإمام عليه السلام جميعاً من بدوها إلى مطلع هذا المشهد إلى منتهاه. وفي هذا المشهد صورة عميقة الإيحاء، يرسمها الإمام السجاد عليه السلام، في هذه الجمل القصيرة التي تكاد تكون لمسة ريشة ترسم الملامح والسمات، وتشخص المشاعر والحركات. وما يكاد الإنسان يتم قراءتها، حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها. وهذه هي طريقة الإمام عليه السلام في رسم النماذج الإنسانية، حتى لتكاد تخطر على الورق نابضة حية.

نلمس الإمام في هذا المشهد أنه لا يريد أن السؤال شيء واقعي، وأنه سبيل من سبل العيش وطريق من طرق الحياة. لا ينظر الإمام إلى السؤال بأنه شيء له كيانه المستقل في ضوء الإسلام، كلا لا يقر هذا الطريق وهذا اللون، فإن الشريعة معلنة بتحريم السؤال وذم الاستجداء. يقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «مسألة الناس من الفواحش»، وإنما يفترض الإمام وجود السائل، فيعطيه حقوقاً ويوجب عليه كذلك، فحق السائل أن تعطيه إذا كنت تملك ما تعطيه، وإذا تيسر لك ما تسد به حاجته، ولا أقل من الدعاء له والمعاونة على طلبته، إن لم يكن عندك من المال ما يكفي لتسد حاجته.

هذا إذا كنت معتقداً بصدقه، أما لو شككت بأنه صادق، أو عرفت أنه ليس فقيراً، فما عليك أن تعطيه مما أعطاك الله شيئاً، فإنما هو من كيد الشيطان يريد أن يسلبك مالك

الذي اكتسبته بيمينك، ويريد أن يصدك عن حظك الذي قسم لك، ويحول بينك وبين الانتفاع من هذا المال في التقرب به إلى الله. فإذا عرفت ذلك منه رددته عنك رداً جميلاً، ونصحته مخلصاً، وأرشدته إلى ما يصلح له، وردعته عما اعتاد عليه من السؤال والاستجداء من غير حاجة ومن غير ضرورة.

وأما حق المسؤول فما يعطيه فهو فضل منه وامتنان، يجب أن يشكر ويعرف معروفه، لأنه قد أسدى يداً وعلى اليد الشكران.

وليس من حق السائل أن يستقل ما أُعطي، فليس هذا أدب الشكر، إنما هو نكران الجميل وجهل المعروف، وإذا لم يكن عند المسؤول شي يعطيه أو لا يريد أن يعطي، فليس للسائل أن يذمه ويلومه ويجهل عليه، إذ لم يرتكب المسؤول خطيئة ولم يقترف إثماً، كل ما في الأمر أنه منع ماله وهو مسلط عليه يفعل به ما شاء في حدود الشرع، فليس لأحد عليه أمر ولا نهي في ماله الخالص الذي اكتسبه عن طرقه المشروعة.

***

قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه».

قال صاحبي وهو يتحدث إلي على عادته في الحديث معي: «قال» وحديث آخر هو في معناه: «ما يزال الرجل يسأل الناس، حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم» هذا من جلال نبوته ﷺ، هذه النبوة التي نزل بها على قلبه روح القدس ليرفع الإنسانية من حضيض الهوان إلى ذروات العز.

أذكر أنّا كنا جماعة في منزل وجيه من أهل بلدي، وإذا بشابين شديدي السواعد يدخلان، وعلى رأسيهما شعار النسب إلى رسول الله ﷺ، ولما استقر بهما المجلس أبرزا لي وثيقة تثبت نسبهما، وأنهما يستحقان الخمس، وقد وقّع كثير من الفقهاء على الوثيقة، وهي موجهة إلى المؤمنين. قلت لهما: لقد دخل على رسول الله ﷺ شاب في مثل سنكما يستجديه، فجمع بضعة دراهم واشترى له حبلاً وقال: اذهب واحتطب، ثم التفت إلى أصحابه فقال: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» فهل بلغكما هذا الحديث! ؟ وهل أرضيتما جدكما بهذا الشباب المفتول الساعد مع الاستجداء؟ إن من وقع لكما على هذه الوثيقة، إما أن يكون حظه من الفقه كحظكما من النسب إلى رسول الله ﷺ، وإما أن يكون من محتكري حقوق الله لنفسه.

ويعترض بعض شهود المجلس بأنهما صحيحا النسب وأن كرامة جدهما تقتضي إكرامهما، فزجرته وقلت له: إنك تسيء إلي بأن ترى ولدي يستجدي ولا تهينه، فكيف تقبل الإهانة لرسول الله؟! إن محمداً ﷺ لا يريد الإهانة لمسلم قط إذ يقول: «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه»، فهل يقبل المذلة بالسؤال لأهل بيته، وقد حرم عليهم الصدقات؟ فلو كان فيهما عجز بأن كانا في عمى أو عرج أو مرض أو شيخوخة لبادرنا إلى تلبيتهما، ولكنهما كما ترى متمتعان بأجود مما نتمتع به من صحة.

قال أحدهما: لقد أجريت عملية القرحة، قلت: وماذا في ذلك؟ فاسأل كل هؤلاء وحتى هذا الذي يدافع عنك ـ وهو ابن أخي ـ هل سلم أحدهم من العمليات! ؟ فهل نبيح لهم الاستجداء ونرضى لهم الذل به! ؟ إن هذا ليس من الإسلام في شيء، فاذهبا وامتهنا أية حرفة تغنيكما عن الحرفة التي لم يرض بها الله ولا رسوله لكرامة الإنسان، وبعد انفضاض المجلس واجتماعهم لدي في المساء، أعرب أكثرهم عن صحة ما أفضيت به، وقلت لهم: إذا جاء البلد أحد من هذا القبيل، فأرشدوه إلى المختار، وليقم المختار بواجب البحث عن السائل واستحقاقه، ثم إذا رآه مستحقاً فليعمل على إسعافه بالعدل، فإن في البلد فقراء والأقربون أولى بالمعروف، وعند كل منا أرحام فقراء، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

كم يؤلمني ويؤلم كل مسلم فقه الإسلام واضطلع بعبئه، أن نرى الفقر المدقع يدفع المسلم وحده للاستجداء بشكل فاضح، وبشكل يخجل الناظر إليه وهو يمد يده للسؤال والذلة تغمر وجهه بالتراب، ثم لا نجد غير المسلم يتحمل هذا اللون من الذل، فإذا مر القارىء بأي شارع من أية مدينة، يجد الذل والاستجداء قاصرين على المسلم، ذلك لماذا؟؟ أفليس رسولهم هو الذي شرع لهم العزة والكرامة من وراء العلم؟؟ أوليس محمد هو الذي غضب إذ رأى الشاب المستجدي وأعطاه الحبل ليحتطب ويدع السؤال؟ أهذا هو رسول المسلمين؟ أم رسول اليهود والنصارى الذين وصلوا بفضل علومهم إلى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ينفقونها علينا في سبيل الإنسانية؟؟

أذكر أن طائفة الأرمن التي طردها مصطفى كمال ـ عاهل الترك ـ من بلاده، لأنها تواطأت مع الأجانب أيام حربه معهم، وكان الأرمن يعملون في داخل تركيا على الضرب من الوراء، ولما طردهم أتاتورك تلقتهم الحلفاء من دول الاستعمار (بريطانيا وفرنسا) ووزعوهم على العراق وسوريا ومصر ولبنان، وكنا نراهم في أذل حال من الفتر مطرودين مشردين، وعملوا في أحقر المهن حتى زاحموا الفقراء منا على صبغ

الأحذية وكنس الأزقة وحمل المتاع، ثم لم يمر بهم بضع سنين حتى رأيناهم يأخذون بأوفر المهن عزة وثراء، ذلك لأنهم كانوا أول ما نزلوا بيروت والشام وبغداد أسسوا المدارس المهنية، التي أغنتهم في أقل من ربع قرن عن كل حرفة وضيعة، ونافسوا كبار التجار وأصحاب الشركات والمهن من أهل البلاد.

فما الذي حدا بالأرمن واليهود أن لا يمدوا أيديهم للاستجداء، وأصبح هذا الاستجداء وقفاً علينا نحن أمة محمد، ومحمد هو هذا الذي صرخت كلمته أو كلماته، القائمات على طلب العز والكرامة لنا؟؟ فما هو السر في ذلك يا ترى؟؟ السر هو أن عقولنا لم تفقه الإسلام، وأن قلوبنا لم تستشعر العز القائم عليه، إن فرقان محمد لا يزال إلى اليوم يعلمنا الحياة بأسمى معانيها، ويضع نصب أعيننا وسائل الإشراف عليها، ثم يشق الطريق المفضية بنا إليها، ونحن سادرون في الغي عامة، وقاصرون على السفاسف من تراثنا الزائف خاصة.

ولعلي مررت في هذا السفر، بقول الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، مجيباً سائله عن سبب رقي أهل الكتاب وانحدار المسلمين، فقال: «إن أهل الكتاب تركوا دينهم فترقوا، وتركنا ديننا فهبطنا» ولقد صدق الإمام بما قال، لأن ديننا قائم على الناموس الأعظم الذي يهيمن الله به على استقامة الوجود، فهو إذن حافل بأسباب الرقي، وأما دينهم فلا قانون يضبطه ولا تشريع يهيمن عليه، كنت أرى الأرمني في بيروت، حين يستجدي ـ وهو نادر ـ لا يلبيه أرمني أبداً ثم لا يخاطبه إلا بقوله: (سأشكوك إلى جمعية التعاون الأرمنية التي تضمن لك النجاة من هذا العار).

بينما أرى المسلم عندما يستجديه المسلم يبره بالدرهم أو الدرهمين، أو يدعو له الله بالعون، ثم لا أسمع منه كلمة تأنيب له، وقد يكون السائل أغنى من المسؤول، ولكنه ورث عن مضرب الأمثال (جحا) قوله: (لقد مارست كل مهنة فلم أجد أرفق بي من الاستجداء، لأن الذي أستجديه إن لم يغثني يدعو لي بالغوث)، وما أكثر الأمثال التي تقدمها صحافة اليوم للناس، عن الكنوز التي يملكها السائلون، ولولا أن نشق على القارىء لأوردنا طرفاً منها، فإن فيها الطريف النادر من أسرار هذه المهنة التي مني بها الإسلام في عصر النور.

إن عظمة هذه الكلمة التي يراها القارىء عنوان هذا البحث، أقول: إن عظمتها في نفس محمد لا يدركها إلا من شاعت في نفسه روح محمد ومن نضجت في رأسه فكرة محمد، وإلا من عز في قلبه دين محمد، هذه العظمة تتجلى في قوله عليه السلام:

«والذي نفسي بيده. . . » هذا القسم الذي يشعر قارئه عندما يبدأ الحديث، يشعر برعدة في جسده من جلال ما يقسم به محمد، وجلال ما يقسم عليه، وقد يقال: إن القسم الذي يشوبه مدح لذات القدرة الإلهية، لا يحول دون الاقتصاص من مقسمه إذا كان غير صادق فور إقسامه، وأما القسم المزيج من تعظيم الله والحلف به فلا يعقب الجزاء العاجل لصاحبه إن كان كاذباً، فالأول كقولك: والله المنتقم الجبار، والثاني يتمثل في قولك: والله العلي العظيم.

وقول الرسول ﷺ في قسمه هذا: «والذي نفسي بيده» يشعر بأنه يتحدى من يشك في صدقه وإيمانه بما يقول، وقلما نجده ﷺ بادئاً قسمه بمثل هذه الكلمات، إلا في مواطن الإصرار على تبليغ ما يراه ضرورياً في الدين، وأية ضرورة هي أبلغ أثراً في الدين والتمدين من حمل الأمة على النفور في حياتها من الذل، والإقبال فيه على العز، إن ذل الأمة الإسلامية منذ تنكرت لهذا الحديث الشريف أصبح ديدناً فيها حتى هذا العصر الذي نرى الأمم كلها فيه متخمة من المادة، بينما نرى أمتنا راسبة في حمأة الذل والاستعباد، لا نرى واحداً ولا واحدة ممن يشهد فيها لله بالربوبية، ولمحمد بالنبوة إلا وهو يذرع الشوارع ماداً يديه بالسؤال مستجدياً من يراه من عامة الناس، أو ماداً هاتين اليدين للأجنبي المستعمر وهو يستجدي منه الجاه والمال.

إن عظمة محمد تتمثل في كلمته هذه حتى يومنا هذا، في الذل الذي يغشى وجوه المسلمين، وفي الضعف الذي يسيطر على أعصابهم؛ وفي الهوان الذي يهيمن على كيانهم من أعرق المهن فيهم، وهي الاستجداء باليد من الناس وهدر الكرامة في سبيل العيش الدنيء، إن محمداً كان يعلم أنّا سنؤول إلى ما نحن فيه من وراء الفقر، وما سنؤول إليه من الفقر والبؤس والذل من وراء الجهل، لذلك قال: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، قبل أن يقول: «والذي نفسي بيده لأن يحتطب أحدكم على ظهره، خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»، لأنه أدرك بفطرته القائمة على الحق أن العلم يعصم الأمة من الفقر القائم على الجهل والمفضي بها إلى ذل السؤال آخر الأمر.

هذا السؤال الذي حرمه الله علينا، والذي شدد محمد رسوله النكير على مرتكبه بقوله في صدر هذا البحث.

أقول: إن هذه المهنة المهينة أصبحت في أمة محمد، وفي عصر ازدهار الأمم

بالمال والعلم، أصبحت من المهن الحرة التي تسيطر على نفوس الملايين من أمة الإسلام، وأصبح المسلمون يتفننون فيها، فاسمع ما ترويه بعض الصحف عن بعض من أثرى إلى حد التخمة في الغنى، وهو مقعد كفيف، وليس فيه قعدة ولا كفة، أي إنه سليم البصر وسليم الرجلين، يرى ويمشي كما يرى ويمشي من لا عاهة فيه.

تروي هذه الصحيفة: إن سائلين في الشام ملاًّ كثرة السؤال وقلة الإنتاج، فبدا لأحدهما أن يزور مصر يمارس هذه المهنة، وبقي الثاني في الشام على أن يلحق به إذا كتب له يخبره بنجاح مهمته.

وتمضي الأيام فإذا بالفقير الشامي يتلقى دعوة من زميله في مصر لزيارته، وأن مهمته أفلحت، ويزور هذا ذاك على عنوانه فلم يجد إلا مقعداً عاصباً عينيه على ناصية الشارع فيسأله عن زميله فيجيبه: أنه يعرفه وأنه سيوصله إليه ويركبان معاً إلى قصر ذي حديقة غنّاء ويفتح المقعد باب القصر ويدخله بهو الضيوف، ثم يستأذنه ريثما يأتيه بصديقه، وبعد فترة قصيرة يدخل صديقه مرحباً به وعليه مظاهر النعمة السابقة، ويتبادلان التحية والذكريات، ومن خلال حديثه عرف أنه هو المقعد المعصوب العينين الذي قاده، فقال له: أُحب أن تطلعني على بعض الطرق التي أفلحت بها في مصر، فقال له: تلاقيني غداً في صلاة الجمعة على باب الجامع الأزهر.

ولدى الظهيرة كان صاحبنا الشامي في الجمع المحتشد للصلاة، وإذا بضجة تعلو في المصلين وإذا بأحدهم يصيح بأعلى صوته قائلاً: افتحوا طريقاً للأمانة يؤديها مقعد أعمى للإمام، ويفسح الناس له فإذا هو زميله وفي يده بدرة من المال زحف بها إلى المنبر، وسلمها للإمام وهو يقول: لقد وجدتها مع الفجر حيث أجلس صباح كل يوم للسؤال، وقد جئت بها إليك لتنادي عليها في الناس، ويتحول الإمام من خطاب الجمعة إلى خطاب آخر، ويتحول المصلون من راكعين ساجدين إلى ثناء على حامل الأمانة ومؤديها إلى أهلها، وهو فقير مدقع ويندفعون جميعاً لبره حتى ملأ جيوبه.

وبعد أن صلى الإمام بهم وأوشك الجمع أن ينفض، إذا بصائح آخر ينادي قفوا وأفسحوا الطريق لصاحبة الأمانة، ونظر صاحبنا الشامي فإذا بامرأة تولول وتصخب وتنادي بالويل والثبور، أنها فقدت بدرة فيها مائة دينار من الذهب وأن ملتقطها سلمها للإمام ففتحها الإمام ووجدها كما ادعت فسلمها إياها، وعاد صاحبنا الشامي وهو يسر في نفسه أنه زميلي وأن المرأة زوجته، وأن الصائح بالناس ليفسحوا الطريق هو ابنه،

وأنها لمكيدة ما كنا لنفعلها في الشام، ولا نستطيع فعلها مع قوم لا يؤخذون بالحيل». [١]

* * *

قد وردت مناهٍ كثيرة عن السؤال، وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة، والكاشف للغطاء فيه:

إن السؤال حرام في الأصل، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بد فهو حرام. وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك من ثلاثة أمور محرمة:

الأول: إظهار الشكوى من الله، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عليه وهو عين الشكوى. وكما أن العبد المملوك لو سأل كان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا بضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: إن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، «إن الله أحل للمؤمن كل شيء عدا إذلال نفسه»، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه، فإن فيه عزة، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا بضرورة. وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

الثالث: إنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه، فإن البذل حياء من المسؤول أو رياء حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحى وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومن فهم هذه المحذورات فهم معنى قوله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش، وما أُحل من الفواحش غيرها». إذ كان في استرزاق الناس من الذل والخضوع للمطلوب منه، ومهانة النفس واشتغالها عن التوجه إلى المعبود ما يجب أن يستعاذ بالله منه ويضرع إليه في الوقاية عنه، وفي استعطاء الأشرار ما يستلذ معه ذو المروة طعم العلقم، ويستحلي مذاق الصبر وسم الأرقم.

والروايات والآثار قد تواترت، والأخبار والأشعار قد تطابقت على ذم السؤال

---

(١) دين وتمدين.

وكراهية بذل الوجه في الطلب إلى الناس، خصوصاً ممن لم يكن معروفاً بالمعروف. فمن ذلك، ما رواه ثقة الإسلام في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تبارك وتعالى أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه، أبغض لخلقه المسألة وأحب لنفسه أن يُسأل، وليس شيء أحب إلى الله عزَّ وجلّ من أن يُسأل، فلا يستحي أحدكم أن يسأل الله من فضله ولو شسع نعله».

وروي عنه عليه السلام: «إياكم وسؤال الناس، فإنه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه، وحساب طويل يوم القيامة».

وعن الحسين بن أبي العلا قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «رحم الله عبداً عف وتعفف، وكف عن المسألة، فإنه يتعجل الدنية في الدنيا، ولا يغني الناس عنه شيئاً».

وفي وصية أمير المؤمنين علي (صلوات الله عليه وعلى أبيه) لابنه الحسن عليه السلام: «أكرم نفسك عن كل دنية، وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض مما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، فإنك مدرك قسمك، وآخذ سهمك، فإن اليسير من الله سبحانه أكرم وأعظم من الكثير من خلقه، وإن كان كل منه، وحفظ ما في يديك أحب إليّ من طلب ما في يد غيرك، ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس».

قال بعض السلف: من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرق، فإن قضاها المسؤول استعبده بها، وإن رده عنها رجع حراً، وهما ذليلان: هذا بذل السؤال، وذاك بذل الترك.

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام:

كـدّ كـدّ العبـد إن ... أحببت أن تصبح حرا
واقطع الآمال عن مال ... بني آدم طرا
لا تقل ذا مكسب يزري ... فقصد الناس أزرى
أنت ما استغنيت عن ... غيرك أعلى الناس قدرا

ومن الشعر المنسوب إلى الحسين عليه السلام:

اغن عن المخلوق بالخالق ... تغن عن الكاذب بالصادق
واسترزق الرحمة من فضله ... فليس غير الله من رازق

وأنشد ابن الأعرابي أبا هانيء:

لا تسأل الناس والتمس بكفيك فضل الله والله أوسع
فلو سأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا من كل طالب حاجة أو راغب
فارغب إلى ملك الملوك ولا تكن بادي الضراعة طالباً من طالب

الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله

أحمد بن يوسف الأنباري:

لموت الفتى خير من البخل للفتى وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة فلا تلق إنساناً بوجه ذليل

ولبعضهم:

إذا أظمأتنك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
ولا تخضعن إذا ما افتقرت ولا تسأل الرزق ما عشت حيا
فإن إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا

وحكي أن أبا حاتم حبيب بن الطائي، قصد البصرة منتجعاً، فلما وردها سأل عن شاعرها، فدل على عبد الصمد بن المعذل، فقال له: أنشدني شيئاً من شعرك فأنشده قوله:

لست تنفك طالباً لوصال من حبيب أو طالباً لنوال
أي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فحول راحلته عنها ولم يدخلها.

وقريب من هذا المعنى قول بعضهم في أبي الطيب المتنبي:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

عبد الصمد بن المعذل:

تكلفنـــي إذلال نفســـي لعـــزهـــا ... وهـــان عليهـــا أن أهـــون لتكـــرمـــا
تقـول سـل المعـروف يحيـى بـن أكثـم ... فقلـت سليـه رب يحيـى بـن أكثـم

القاضي عبد العزيز الجرجاني:

يقـولـون لـي فيـك انقبـاض وإنمـا ... رأوا رجـلاً عـن مـورد الـذل أحجمـا
إذا قيـل هـذا مـورد قلـت قـد أرى ... ولكـن نفـس الحـر تحتمـل الظمـا

وأما سؤال من ليس أهلاً للمعروف، ومن هو باللؤم موصوف، فهو أدنى وأمر وأسوأ وأضر. وقد روي أن في زبور داود عليه السلام: «إن كنت تسأل عبادي، فاسأل في معادن الخير ترجع مغبوطاً مسروراً، ولا تسأل معادن الشر ترجع ملوماً محسوراً».

وفي الأثر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «لأن تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق، خير من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر».

ومن كلامهم: «لا شيء أوجع للأحرار من الرجوع إلى الأشرار».

وقيل لأعرابي ما السقم الذي لا يبرأ، والجرح الذي لا يندمل؟ قال: «حاجة الكريم إلى اللئيم».

ومن كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها».

وقوله: «ماء وجهك جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره».

وأوصى بعضهم ابنه فقال: لا تدنس عرضك، ولا تبذلن وجهك بالطلب إلى من إن ردك كان رده عليك عيباً، وإن قضى حاجتك جعلها عليك منّاً، واحتمل الفقر بالتنزه عما في أيدي الناس، والزم القناعة بما قد قسم لك».

وقال رجل لابنه: «إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه».

رأى الأصمعي كنّاساً يكنس كنيفاً وهو ينشد:

وأكُـــرم نفســـي إننـــي إن أهنتهـــا ... وحقـك لـم تكـرم علـى أحـد بعـدي

قال: فقلت له: يا هذا، إنك والله لم تترك من الهوان شيئاً، إلا وقد فعلته بنفسك مع هذه الحرفة. فقال: بلى والله إنني صنتها عما هو أعظم من هذا من الهوان. قلت: وأي شيء هو؟ قال: سؤال مثلك. قال: فانصرفت عنه وأنا أخزى الناس.

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: «إن محمد بن المنكدر كان يقول:

ما كنت أرى أن علي بن الحسين عليه السلام يدع خلفاً أفضل منه، حتى رأيت ابنه محمد بن علي عليه السلام فأردت أن أعظه، فوعظني فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني أبو جعفر بن علي عليه السلام وكان رجلاً بادناً ثقيلاً، وهو متكىء على غلامين أسودين، أو موليين، فقلت في نفسي: سبحان الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أما لأعظنه، فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي ببهر وهو ينصاب عرقاً، فقلت: أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة، على هذه الحالة في طلب الدنيا، أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال، جاءني وأنا في طاعة من طاعة الله عزّ وجلّ، أكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله. فقلت: صدقت يرحمك الله، أردت أن أعظك فوعظتني».

ومما جاء نظماً في هذا المعنى قول عمر بن أحمد الباهلي:

ومن يطلب المعروف من غير أهله	يجد مطلب المعروف غير يسير
إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة	من الذم سار الذم كل مسير

وقال آخر:

وإذا بليت ببذل وجهك سائلاً	فابذله للمتكرم المفضال
إن الجواد إذا حباك بموعد	أعطاكه سلساً بغير مطال
ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله	عوضاً ولو نال المنى بسؤال
وإذا السؤال مع النوال قرنته	رجح السؤال وخف كل نوال

لهذا ومثله قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مسألة الناس من الفواحش، وما أُحل من الفواحش غيرها».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من سأل وعنده ما يغنيه، فإنما يستكثر من جمر جهنم». قالوا: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «ما يغديه أو يعشيه».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من سأل وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة وعظم وجهه يتقعقع ليس عليه لحم». وفي لفظ آخر: «كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه».

وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد.

وبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوم على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة، ثم قال

لهم كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئاً».

وكان يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله». وقال: «ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا».

وقال: «استغنوا عن الناس ولو بشوص من سواك». (أي بغسالته وقيل بما يتفتت منه عند التسوك).

وقال: «استغنوا عن السؤال، وما قل من السؤال فهو خير». قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني».

وجاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحد أحداً، ولو يعلم المعطي ما في العطية ما رد أحد أحداً».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الأيدي ثلاث: يد العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد المعطى أسفل الأيدي، فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم، إن الأرزاق دونها حجب فمن شاء قنى حياءه وأخذ رزقه، ومن شاء هتك الحجاب وأخذ رزقه، والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم عرض الوادي فيحتطب حتى لا يلتقي طرفاه، ثم يدخل به السوق فيبيعه بمد من تمر يأخذ ثلثه، ويتصدق بثلثيه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم حرموه».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم «من فتح على نفسه باب مسألة، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر، لا يسد أدناها شيء».

ومن وصيته صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر (رضوان الله عليه): «يا أبا ذر إياك والسؤال، فإنه ذل حاضر وفقر تتعجله، وفيه حساب طويل يوم القيامة، يا أبا ذر لا تسأل بكفك وإن أتاك شيء فاقبله».

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم علمني عملاً لا يحال بينه وبين الجنة. قال: «لا تغضب، ولا تسأل الناس، وارض للناس ما ترضى لنفسك».

وعنه عن جده عليه السلام قال: «اتخذ الله عزَّ وجلّ إبراهيم عليه السلام خليلاً، لأنه لم يرد أحداً، ولم يسأل أحداً غير الله عزَّ وجلّ».

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «ما من عبد يسأل من غير حاجة فيموت حتى يحوجه الله إليها، ويثبت له بها النار».

وعنه عليه السلام: «من سأل من غير فقر فإنما يأكل الجمر».

وقال: «من سأل وعنده قوت ثلاثة أيام لقي الله يوم يلقاه وليس في وجهه لحم».

في المجلد العاشر من البحار، تأليف (الشيخ المجلسي) عنه عليه السلام قال: «إن رجلاً مر بعثمان بن عفان، وهو قاعد على باب المسجد، فسأله فأمر له بخمسة دراهم، فقال له الرجل: أرشدني. فقال له عثمان: دونك الفتية الذين ترى، وأومأ بيده إلى ناحية من المسجد فيها الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، فمضى الرجل نحوهم حتى سلم عليهم، وسألهم، فقال له الحسن عليه السلام: يا هذا إن المسألة لا تحل إلا في إحدى ثلاث: دم مضجع أو دين مقرح، أو فقر مدقع، ففي أيها تسأل؟ فقال: في وجه واحدة من هذه الثلاث. فأمر له الحسن عليه السلام بخمسين ديناراً، وأمر له الحسين عليه السلام بتسعة وأربعين ديناراً، وأمر له عبد الله بن جعفر بثمانية وأربعين ديناراً فانصرف الرجل فمر بعثمان، فقال له: ما صنعت؟ فقال: مررت بك فسألت، فأمرت لي بما أمرت، ولم تسألني فيما أسأل، وإن صاحب الوفرة لما سألته قال لي: يا هذا فيما تسأل فإن المسألة لا تحل إلا في إحدى ثلاث، فأخبرته بالوجه الذي أسأله من الثلاث فأعطاني خمسين ديناراً، وأعطاني الثاني تسعة وأربعين ديناراً، وأعطاني الثالث ثمانية وأربعين ديناراً. فقال عثمان: ومن لك بمثل هؤلاء الفتية، أولئك فطموا العلم فطماً، وحازوا الحكمة والخير».

ورأى أمير المؤمنين علي عليه السلام رجلاً يسأل بعرفات، فقنعه بالسوط، وقال: «ويلك في مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله».

وقال عبد الله بن عباس: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يشهدون جنازة، ولا يحضرون جمعة، وإذا اجتمع الناس في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما في أيديهم. وقال النعمان بن المنذر: من سأل فوق حقه استحق الحرمان، ومن ألحف في مسألته استحق المطل، والرفق يمن، والخرق شؤم، وخير السخاء ما وافق الحاجة وخير العفو مع المقدرة.

قال حبيب:

ذل السؤال شجى في الحلق معترض ... من دونه شرق من خلفه حرض
ما مال كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهك إن أفسدته عوض

وقال أبو غسان: أخبرني أبو زيد قال: سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يعط شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم لا تُعْلَمُ، أنت الذي لا يعوزك نائل، ولا

يحفيك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل، أسألك صبراً جميلاً وفرجاً، وبصراً بالهدى، وقوة فيما تحب وترضى، فتبادروا إليه يعطونه، فقال: والله لا رزأتكم الليلة شيئاً، ثم خرج وهو يقول:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته ... رجح السؤال وخف كل نوال

وقال مسلم بن الوليد:

سل الناس إني سائل الله وحده ... وصائن عرضي عن فلان وعن فلا

وقال عبيد بن الأبرص:

من سأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب

وقال ابن أبي حازم:

لَطَيٌّ يوم وليلتين ... ولبس ثوبين باليين
أهون من منة لقوم ... أغض منها جفون عيني
إني وإن كنت ذا عيال ... قليل مال كثير دين
لأحمد الله حين صارت ... حوائجي بينه وبيني

وقال ابن عبد ربه:

سؤال الناس مفتاح عتيد ... لباب الفقر فاكلف بالسؤال

وقال سلم الخاسر:

إذا أذن الله في حاجة ... أتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم. وفي هذا المعنى قيل:

لا تسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال ابن دقيق العيد:

وقائلة مات الكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده ... سؤالاً لمخلوق فليس بنابه

إذا مات من يرجى فمقصودنا الذي ... ترجينه باقٍ فلوذي ببابه

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرت لصحبي ما وجدتهمو ... لجأت لله لباني وأغناني
واهاً على بذل وجهي للورى سفهاً ... فلو بذلت إلى مولاي والاني

وقال الشافعي، محمد بن إدريس:

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم ... سوى من غدا والبخل ملء إهابه
فجردت من غمد القناعة صارماً ... قطعت رجائي منهم بذبابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه ... ولا ذا يراني قاعداً عند بابه
غني بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهباً ... ولج عتواً في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالي فإنها ... ستبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً ... يرى النجم تيهاً تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقي في كتابه
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلاً ... وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر:

لا تسألن إلى صديق حاجة ... فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشيء القليل فإنه ... ما صان عرضك لا يقال قليل
من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما في كفه ... ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر:

ليس جوداً أُعطيته بسؤال ... قد يهز السؤول غير جواد
إنما الجود ما أتاك ابتداء ... لم تذق فيه ذلة الترداد

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موت البلا ... فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعي:

قنعت بالقوت من زماني ... وصنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس أن يقولوا ... فضل فلان على فلان
من كنت من ماله غنياً ... فلا أُبالي إذا جفاني
ومن رآني بعين نقص ... رأيته بالتي رآني
ومن رآني بعين تم ... رأيته كامل المعاني

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «يا بني إذا نزل بك كلب الزمان، وقحط الدهر فعليك بذوي الأصول الثابتة والفروع النابتة من أهل الرحمة والإيثار والشفقة، فإنهم أقضى للحاجات وأمضى لدفع الملمات، وإياك وطلب الفضل واكتساب الطسايج والقراريط من ذوي الأكف اليابسة والوجوه العابسة، فإنهم إن أعطوا منوا، وإن منعوا كدوا ثم أنشأ يقول:

واسأل العرف إن سألت كريماً ... لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزاً ... وسؤال اللئيم يورث عارا
وإذا لم تجد من الذل بداً ... فالق بالذل إن لقيت كبارا
ليس إجلالك الكبير بعار ... إنما العار أن تجل الصغارا

* * *

ثم إن السؤال يباح لضرورة، لأن الشيء إما أن يكون مضطراً إليه أو محتاجاً إليه حاجة مهمة، أو حاجة خفيفة، أو مستغنياً عنه، فهذه أربعة أحوال:

أما المضطر إليه، فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً ومرضاً، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له حظ فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعاً. وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة، كمريض محتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكنه لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر

على المشي بمشقة، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى، ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال، وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى لا أُطيقه، ولكن يشق علي، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله.

وأما الحاجة الخفيفة: فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر به الخروق التي في ثيابه عن أعين الناس، كمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة.

فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال، بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام. وكذلك لو كان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى أو الذل أو إيذاء المسؤول فهو حرام، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيه شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

جاء في كتاب (المحجة البيضاء) تأليف الشيخ الجليل (ملا محسن الفيض):

«ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ:

أما نفس المال: فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه.

وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطبيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، أو الذكر والرياء والسمعة، إما على التجرد وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها، فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة، وإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض، فقد أهدى رجل إلى النبي ﷺ سمناً وأقطاً وكبشاً، فقبل السمن والأقط ورد الكبش. وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. وفعل هذا جماعة من الصحابة والتابعين. وجيء بصرّة إلى فتح الموصلي فيها

خمسون درهماً فقال: حدثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتاه رزق من غير مسألة ورده فإنما يرده على الله». ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرها.

الثاني: أن يكون للثواب المجرد، وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه أنه هل هو مستحق للزكاة، فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وإن كان يعطيه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن كذلك، فإن أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه الشهرة والرياء والسمعة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد، وكان بعضهم يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت. وعوتب بعضهم في رده ما كان يأتيه من صلة، فقال: إنما أرد صلتهم إشفاقاً ونصحاً لهم، لأنهم يذكرون ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم ويحبط أجرهم.

وأما غرضه في الأخذ، فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه، أو هو مستغنٍ عنه، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرها في المعطي، فالأفضل له الأخذ قال ﷺ: «ما المعطي من سعة، بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً». وقال ﷺ: «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف، فإنما هو رزق ساقه الله إليه فلا يرده». وقد قال بعض العلماء: من يخاف في الرد مع الحاجة، عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره، فأما إذا كان كل ما أتاه زائداً على حاجته، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه، إن كان طالباً طريق الآخرة، فإن ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان أو داع إليه (ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه). ثم له مقامان:

أحدهما: أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر، وهذا مقام الصديقين، وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني: أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصله إلى من هو أحوج منه فيقع كلاهما في السر أو كلاهما في العلانية.

ففي جامع السعادات تأليف (الفاضل النراقي):

«قال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى، عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يَرى ولا يُرى؟ فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا فحملتها إليه، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال: أربعة دراهم ثمن مئزرين ودرهم أُنفقه ثلاثاً، فلا حاجة بي إلى الباقي فرده، قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلي فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها في جوهر من معادن الأرض، يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق، لأن هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة».

والمقصود من هذا، أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة، لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه، فما زاد فهو حساب».

فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعذاب».

نوادر السائلين

جاء في كتاب (المحاسن والمساوىء) تأليف البيهقي ـ: «قال الجاحظ سمعت شيخاً من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة، فسأله الشيخ عن حاله، فقال: لعن الله الكدية ولعن أصحابها من صناعة، ما أخسّها وأقلها إنها ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال، وهل رأيت مكدياً أفلح. قال: فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه فقال: يا هذا، أقلل من الكلام فقد أكثرت، مثلك لا يفلح لأنك محروم ولم تستحكم بعد، وإن للكدية رجالاً فما لك ولهذا الكلام؟ ثم التفت فقال: اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطي قرنان وكل حائك صفعان، وكل ضراط كشخان، يتكلم

---

(١) سورة الكهف، الآية ٧.

سبعاً في ثمان، إذا لم يصب أحدهم يوماً شيئاً ثلب الصناعة ووقع فيها، أوما علمت أن الكدية صناعة شريفة وهي محببة لذيذة، صاحبها في نعيم لا ينفد، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب، حيث ما حل لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة، فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة، ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرني والأزاذ والرازقي والرمان المرمر ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان، ووقت اللوز والرطب والسختيان والبرزد بالجبل، يأكل طيبات الأرض، فهو رخي البال حسن الحال لا يغتم لأهل ولا مال ولا دار، ولا عقار، حيث ما حل فعلفه طبلي، أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجدها الأعظم وعلي فوطة قد ائتزرت بها وتعممت بحبل من ليف وبيدي عكازة من خشب الدفلى، وقد اجتمع إلي عالم من الناس كأني الحجاج بن يوسف على منبره، وأنا أقول: يا قوم رجل من أهل الشام، ثم من بلد يقال له المصيصة من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله، من أبناء الركاضة وحرسة الإسلام، غزوت مع والدي أربع عشرة غزوة سبعاً في البحر وسبعاً في البر، وغزوت مع الأرمني قولوا: رحم الله أبا الحسن، ومع عمر بن عبيد الله، قولوا رحم الله أبا حفص، وغزوت مع البطال بن الحسين والربرداق بن مدلول، وحمدان بن أبي قطيفة، وآخر من غزوت معه يازمان الخادم، ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك، ومن سمع باسمي فلقد سمع، ومن لم يسمع فأنا أُعرفه نفسي، أنا ابن الغزيل بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح، سد من أسداد الإسلام نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذراري وسبى النساء وأُخذ لنا ابنان وحملوا إلى بلاد الروم، فخرجت، هارباً على وجهي ومعي كتب من التجار فقطع علي وقد استجرت بالله ثم بكم، فإن رأيتم أن تردوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده، فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت علي الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم. فوثب إليه الشاب وقبل رأسه وقال: أنت والله معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيراً».

ومن نوادرهم: أنه أتى سائل داراً يسأل منها، فأشرفت عليه امرأة من الغرفة، فقال لها: يا أمة الله، لله أن تصدقي علي بشيء. قالت: أي شيء تريد؟ قال: درهماً، قالت: ليس. قال: فدانقاً. قالت: ليس. قال: ففلساً. قالت: ليس. قال: فكسوة. قالت: ليس. قال: فكفاً من دقيق. قالت: ليس. قال: فزيت حتى عد كل شيء يكون

في البيوت، وهي تقول: ليس. فقال لها: يا زانية فما يجلسك؟ مري تصدقي معي.

قال الأصمعي: وقفت على سائل بالمربد وهو يقول:

قد رهنت القصاع من شهوة الخبز.

فقلت له: أتممه، فقال: أتممه أنت. فقلت:

فمن لي بمن يفك القصاعا.

فقال: أضمم إليه بيتاً. فقلت:

ما رهنت القصاع يا قوم حتى خفت والله أن أموت ضياعا

فقال: أنت والله أحوج إلى المسألة وأحق بها مني.

ولأبي فرعون الأعرابي السائل:

وصبية مثل صغار الذر سود الوجوه كسواد القدر
كلهم ملتزق بصدري حتى إذا لاح عمود الفجر
ولاحت الشمس خرجت أسري أسبقهم إلى أصول الجدر
ألا فتى يحمل عني إصري هذا جميع قصتي وأمري
فاسمع مقالي وتوقَّ شري فأنت أنت بغيتي وذخري
كنيت نفسي كنية في شعري أنا أبو الفقر وأم الصقر

قال الأصمعي رأيت سائلاً وقد تعلق بأستار الكعبة من بني تميم وهو يقول:

أيا رب رب الناس والمن والهدى أما لي في هذا الأنام قسيم
أما تستحي مني وقد قمت عارياً أُناجيك يا ربي وأنت كريم
أترزق أبناء العلوج وقد عصوا وتترك قرماً من قروم تميم

قال: ورأيت رجلاً آخر من الأعراب، وقد تعلق بأستار الكعبة وهو يقول:

يا رب إني سائل كما ترى مشتمل شميلتي كما ترى
وشيختي جالسة فيما ترى والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى

قال: وأتى سائل من الأعراب إلى بني عبد العزيز بن مروان، فقال: أتت علينا سنون ولم تبقِ زرعاً حصيداً، ولا مالاً تليداً إلا اجتاحته بزوبرة واصلة، وأنتم أئمة أملي وقصد ثقتي. فلم يعطوه شيئاً، فقال:

بنـــو عبـــد العـــزيـــز إذا أرادوا سمـــاحـــاً لـــم يلـــق بهـــم السمـــاح
لهـــم مـــن كـــل مكـــرمـــة حجـــاب فقـــد تـــركـــوا المكـــارم واستـــراحـــوا

قال: ومر سائل منهم برجل يكنى أبا الغمر ضخم عريض، وكان بواباً لبعض الملوك. فقال له: أعن المسكين الضعيف الفقير المحتاج. فقال: ما ألحف جائعكم وأكثر سائلكم أراحنا الله منكم. فقال السائل: اسكت فوالله لو فرق قوت جسمك في عشرة أجسام منا لكفانا طعامك ليوم شهراً، وإنك لنبيه الضرطة، لو ذرّي بها بيدر لكفته الريح، عظيم السلحة لو ضربت لبناً لكفت سوراً.

قيل: ودخل رجل منهم على هشام بن عبد الملك بن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين أتتنا سنون ثلاث: فأما الأولى: فأذابت الشحم، وأما الثانية: فأنحضت اللحم، وأما الثالثة: فهاضت العظم، وعندك أموال فإن كانت لله جل وعزّ فبثها في عباد الله، وإن كانت لهم ففيم تحبسها عنهم، وإن كانت لك فتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين.

وقال: ودخل أزهر السمان على المنصور فشكا إليه الحاجة وسوء الحال. فأمر له بألف درهم وقال: يا أزهر لا تأتنا في حاجة أبداً. قال: أفعل يا أمير المؤمنين. فلما كان بعد قليل عاد فقال له: يا أزهر ما حاجتك؟ قال: جئت لأدعو لأمير المؤمنين. قال: بل أتيتنا لمثل ما أتيت له في المرة الأولى. فأمر له بألف درهم. وقال: يا أزهر لا تأتنا ثالثة، فلا حاجة لنا في دعائك. قال: نعم. ثم لم يلبث أن عاد، فقال: يا أزهر ما جاء بك؟ قال: دعاء كنت سمعته منك أُحب أن آخذه منك. فقال: لا ترده، فإنه غير مستجاب، وقد دعوت به الله جل وعز أن يريحني من خلقتك فلم يفعل.

وممن سأل أيضاً ربيعة بن ربيعة، ذكروا أنه دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا أمير المؤمنين زوجني بعض بناتك. فقال: قد شغلناهن بأكفائهن قال: فولني شرطة البصرة. قال: قد وليتها من كفانا. قال: فهب لي قطيفة قال: أما هذا فنعم.

منهم أبو دلامة:

دخل على المنصور فقال: يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد. قال: اعطوه. قال: كلب بلا صقر؟ قال: اعطوه صقراً. قال: كلب وصقر بلا بازبان. قال: اعطوه غلاماً بازباناً. قال: فلا بد لهم من دار. قال: اعطوه داراً. قال: فمن أي شيء

يعيشون؟ قال: قد أقطعتك أربعمائة جريب منها مائتا جريب عامر ومائتان غامر. قال: وما الغامر؟ قال: الخراب. قال: فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدهناء غامرة. قال: فقد جعلتها كلها عامرة فهل بقي لك شيء. قال: نعم تدعني أُقبل يدك. قال: ليس إلى ذلك سبيل. فقال: ما منعتني شيئاً أهون على عيالي من هذا.

قال: وبعث المنصور إلى زياد بن عبد الله مالاً، وأمره أن يفرقه في القواعد والأيتام والعميان، فدخل إليه أبو حمزة الرقي، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، قد بلغني الكبر فاكتبني في القاعدين. قال: يغفر الله لك إنما القواعد النساء اللواتي قعدن عن الأزواج. قال: فاكتبني في العميان فإن الله جل ذكره يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1] وأنا أشهد أن قلبي أعمى، واكتب ولدي في الأيتام، فإن من كنت أباه فهو يتيم. قال: اكتبوه في العميان واكتبوا ولده في الأيتام.

قرأت في منشورات (حمدي عبيد): سأل أعرابي فقال: «رحم الله امرأ لم تمجج أذناه كلامي، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة، والحال مصعبة، والحياء زاجر يمنع كلامكم، والعدم عاذر يدعو إلى إخباركم، والدعاء أحد الصديقين، فرحم الله امرأً أمر بمير ودعا بخير. فقال رجل من القوم: ممن الرجل؟ فقال: اللهم غفراً ممن لا تضرك جهالته، ولا تنفعك معرفته، ذل الاكتساب يمنع من عز الانتساب».

قدم على زياد نفر من الأعراب فقام خطيبهم فقال: أصلح الله الأمير، نحن وإن كانت نزعت بنا أنفسنا إليك، وأنضينا ركائبنا نحوك التماساً لفضل عطائك، عالمون بأنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، وإنما أنت أيها الأمير خازن ونحن رائدون، فإن أذن لك فأعطيت حمدنا الله وشكرناك، وإن لم يؤذن لك فمنعت حمدنا الله وعذرناك، ثم جلس فقال زياد لجلسائه: تالله ما رأيت كلاماً أبلغ وأوجز ولا أنفع عاجلة منه، ثم أمر لهم بما يصلحهم.

وقال نصيب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين كبرت سني ورق عظمي، وبليت ببنيات نفضت عليهم من لوني فكسدن علي، فرق له عمر ووصله.

لزم بعض الحكماء باب بعض ملوك العجم دهراً فلم يصل إليه، فتلطف للحاجب في إيصال رقعة ففعل، وكان فيها أربعة أسطر:

السطر الأول: الأمل والضرورة أقدماني عليك.

---

(١) سورة الحج، الآية ٤٦.

السطر الثاني: والعدم لا يكون معه صبر على المطالبة.

السطر الثالث: الانصراف بلا فائدة شماتة للأعداء.

السطر الرابع: فإما نعم مثمرة، وإما لا مريحة.

فلما قرأها وقع في كل سطر زه فأعطي ستة عشر ألف مثقال فضة.

قال أبو سماك لرجل: لم أصن وجهي عن الطلب إليك، فصن وجهك عن ردي، وضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك.

وقال المنصور لرجل: ما مالك؟ قال: ما يكف وجهي ويعجز عن بر الصديق. فقال: لقد تلطفت للسؤال ووصله.

وقال أيضاً لرجل أحمد منه أمراً: سل حاجتك. فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين. قال: سل فليس يمكنك في كل وقت. فقال: ولم يا أمير المؤمنين فوالله لا أستقصر عمرك، ولا أرهب بخلك، ولا أغتنم مالك، وإن سؤالك لزين، وإن عطاءك لشرف، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ولا شين، فأمر له حتى ملىء فوه دراً.

جاء في سفينة البحار تأليف (الشيخ عباس القمي) أن المسعودي ذكر في مروج الذهب: «أن سائلاً وقف على عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقال: تصدق بما رزقك الله، فإني نبئت أن عبيد الله بن العباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه، فقال: وأين أنا من عبيد الله ؟ قال له: أين أنت في الحسب أو في كثرة المال؟ قال: فيهما جميعاً. قال: إن الحسب في الرجل مروءته وحسن فعله، فإذا فعلت ذلك كنت حسيباً. فأعطاه ألفي درهم واعتذر إليه. فقال له السائل: إن لم تكن عبيد الله فأنت خير منه، وإن كنت هو، فأنت اليوم خير منك أمس. فأعطاه ألفاً أيضاً. فقال: لئن كنت عبيد الله، إنك لأسمح أهل دهرك وما إخالك إلا من رهط فيهم محمد رسول الله ﷺ فأسألك بالله أنت هو؟ قال: نعم. قال: والله ما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي، وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون إلا في نبي أو عترة نبي».

يحدثنا المجلسي (أعلى الله مقامه) في التاسع من (بحار أنواره) نقلاً عن جابر بن عبد الله الأنصاري (ره): «قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ ورد علينا أعرابي أشعث الحال، عليه أثواب رثة، والفقر بين عينيه، فلما دخل وسلم قال شعراً:

أتيتك والعذراء تبكي برنة ... وقد ذهلت أم الصبي عن الطفل

وأخت وبنتان وأم كبيرة ... وقد كدت من فقري أُخالط في عقلي

وقــد مسنــي فقــر وذل وفــاقــة ... وليــس لنــا شــيء يمــر ولا يحلــي
ومــا المنتهــى إلا إليــك معــربــاً ... وأيــن يفــر الخلــق إلا إلــى الــرسـل

قال: فلما سمع النبي ﷺ ذلك بكى بكاءً شديداً، ثم قال لأصحابه: معاشر المسلمين إن الله تعالى ساق إليكم جزاء، والجزاء من الله غرف في الجنة تضاهي غرف إبراهيم الخليل عليه السلام، فمن كان منكم يواسي هذا الفقير. فقال: فلم يجبه أحد، وكان في ناحية المسجد علي بن أبي طالب عليه السلام يصلي ركعات التطوع كانت له دائماً، فأومأ إلى الأعرابي بيده، فدنا منه فرفع إليه الخاتم من يده وهو في صلاته، فأخذه الأعرابي وانصرف وهو يقول بعد الصلاة على الرسول:

أنــت مــولــى يــرجــى بــه مــن الله ... فــي الــدنيــا إقــامــة الــديــن
خمســـة فـــي الـــورى كلهـــم ... وأنـــت فـــي الـــورى ميـــاميـــن

ثم إن النبي ﷺ أتاه جبرائيل ونادى: السلام عليك يا محمد، ربك يقرئك السلام ويقول لك اقرأ: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1] فعند ذلك قام النبي ﷺ قائماً على قدميه، وقال: معاشر المسلمين، أيكم اليوم عمل خيراً حتى جعله الله ولي كل من آمن، قالوا: يا رسول الله، ما فينا من عمل خيراً سوى ابن عمك علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه تصدق على الأعرابي بخاتمه وهو يصلي. قال النبي ﷺ: وجبت الغرف لابن عمي علي بن أبي طالب عليه السلام فقرأ عليهم الآية قال: فتصدق الناس في ذلك اليوم على ذلك الأعرابي، فولى وهو يقول:

أنـــا مـــولـــى لخمســـة ... أُنـــزلـــت فيهـــم الســـور
أهـــل طـــه وهـــل أتـــى ... فـــاقـــرأوا يعـــرف الخبـــر
والطـــواسيـــن بعـــدهـــا ... والحـــواميـــم والـــزمـــر
أنـــا مـــولـــى لهـــؤلاء ... وعـــدو لمـــن كفـــر

وأنشأ حسان بن ثابت يقول:

علـي أميـر المـؤمنيـن أخـو الهـدى ... وأفضـل ذي نعـل ومـن كـان حـافيـا
وأول مـن أدّى الـزكـاة بكفـه ... وأول مـن صلـى ومـن صـام طـاويـا
فلمـا أتـاه سـائـل مـد كفـه ... إليـه ولـم يبخـل ولـم يـك جـافيـا

---

(١) سور المائدة، الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.

فدس إليه خاتماً وهو راكع وما زال أوّاهاً إلى الخير داعيا
فبشر جبريل النبي محمداً بذاك وجاء الوحي في ذاك ضاحيا

وقال أيضاً:

فديت علياً إمام الورى سراج البرية مأوى التقى
وصيّ الرسول وزوج البتول إمام البرية شمس الضحى
تصدق خاتمه راكعاً فأحسن بفعل إمام الهدى
ففضله الله رب العباد وأنزل في شأنه هل أتى

هذا نص ما رواه المجلسي.

وأما أبو إسحاق الثعلبي:

أخرج في تفسيره بإسناده عن أبي ذر الغفاري قال: «أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي (رضي الله عنه) في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[(١)]، فأنزلت عليه قرآناً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[(٢)] اللهم وإني محمد نبيك وصفيك، اللهم واشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيرا من أهلي علياً اشدد به ظهري، قال أبو ذر (رضي الله عنه): فما استتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عزّ وجلّ وقال: يا محمد اقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٣)] الآية.

قال الأميني في (كتاب الغدير): أخرج هذه الاثارة ونزول الآية فيها جمع كثير من أئمة التفسير والحديث: منهم الطبري في تفسيره، والرازي في تفسيره، والخازن في تفسيره، وأبو البركات في تفسيره، والنيسابوري في تفسيره، وابن الصباغ المالكي في

---

(١) سورة طه، الآيات ٢٥ ـ ٣٢.
(٢) سورة القصص، الآية ٣٥.
(٣) سورة المائدة، الآية ٥٥.

الفصول المهمة، وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤال، وسبط ابن الجوزي في التذكرة، والكنجي الشافعي في الكفاية، والخوارزمي في مناقبه، والحمويني في فرائده، والقاضي عضد الإيجي في المواقف، ومحب الدين الطبري في الرياض وفي الذخائر، وابن كثير الشامي في تفسيره، وفي البداية والنهاية، والحافظ السيوطي في جمع الجوامع كما في الكنز، وابن حجر في الصواعق، والشبلنجي في نور الأبصار، والآلوسي في روح المعاني.

روى ابن رشيق في (العمدة): «أن سائلاً جاء إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: يا أمير المؤمنين، إن لي حاجة والحياء يمنعني أن أذكرها. فقال عليه السلام: خطها في الأرض. فكتب: إني فقير. فقال عليه السلام: يا قنبر اكسه حلتي. فأخذها الرجل وأنشأ يقول:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال عليه السلام لقنبر: زده مائة دينار. فقال قنبر: يا سيدي لو فرقتها في المسلمين لأصلحت من شأنهم. فقال عليه السلام: مه يا قنبر، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وحدث المجلسي في التاسع من البحار: «أن أعرابياً جاء إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين إني مأخوذ بثلاث علل: علة النفس، وعلة الفقر، وعلة الجهل، فأجاب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: يا أخا العرب، علة النفس تعرض على الطبيب، وعلة الجهل تعرض على العالم، وعلة الفقر تعرض على الكريم، فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين أنت الكريم، وأنت العالم، وأنت الطبيب. فأمر أمير المؤمنين بأن يعطى له من بيت المال ثلاثة آلاف درهم، وقال: تنفق ألفاً بعلة النفس، وألفاً بعلة الجهل، وألفاً بعلة الفقر».

وفيه أيضاً: «أن أمير المؤمنين عليه السلام دخل مكة في بعض حوائجه، فوجد أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة، وهو يقول: يا صاحب البيت، البيت بيتك والضيف ضيفك، ولكل ضيف من ضيفه قرى، فاجعل قراي منك الليلة المغفرة. فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: أما تسمعون كلام الأعرابي؟ قالوا: نعم. فقال: الله أكرم من أن يرد ضيفه. فلما كانت الليلة الثانية وجده متعلقاً بذلك الركن وهو يقول: يا عزيزاً

في عزك فلا أعز منك في عزك، أعزني بعز عزك في عز لا يعلم أحد كيف هو، أتوجه إليك وأتوسل إليك بحق محمد وآل محمد عليك، أعطني ما لا يعطيني غيرك، واصرف عني ما لا يصرفه أحد غيرك. فقال أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه: هذا والله الإسلام الأكبر بالسريانية، أخبرني به حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله: سأله الجنة فأعطاه، وسأله صرف النار وقد صرفها عنه، فلما كان الليلة الثالثة وجده وهو متعلق بذلك الركن، وهو يقول: يا من لا يحويه مكان، ولا يخلو منه مكان، بلا كيفية كان، ارزق الأعرابي أربعة آلاف درهم. قال: فتقدم إليه أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أعرابي سألت ربك القرى فقراك، وسألته الجنة فأعطاك، وسألته أن يصرف عنك النار وقد صرفها عنك، وفي هذه الليلة تسأله أربعة آلاف درهم. قال الأعرابي: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. قال الأعرابي: أنت والله بغيتي وبك أنزلت حاجتي. قال: سل يا أعرابي: قال: أُريد ألف درهم للصداق، وألف درهم أقضي بها ديني، وألف درهم أشتري بها داراً، وألف درهم أتعيش منها. قال: أنصفت يا أعرابي، فإذا خرجت من مكة فاسأل عن داري بمدينة الرسول. فأقام الأعرابي بمكة أسبوعاً، وخرج في طلب أمير المؤمنين إلى مدينة الرسول، ونادى من يدلني على دار أمير المؤمنين علي؟ فقال الحسين بن علي من بين الصبيان: أنا أدلك على دار أمير المؤمنين وأنا ابنه الحسين بن علي. قال: امش إلى أمير المؤمنين وقل له: إن الأعرابي صاحب الضمان بمكة على الباب. قال فدخل الحسين بن علي عليه السلام فقال: يا أبة أعرابي بالباب يزعم أنه صاحب الضمان بمكة، فقال: يا فاطمة عندك شيء يأكله الأعرابي. قالت: اللهم لا. قال: فخرج أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: ادعوا لي أبا عبد الله سلمان الفارسي، قال: فدخل إليه سلمان. فقال: يا أبا عبد الله اعرض الحديقة التي غرسها رسول الله على التجار. فدخل سلمان السوق وعرض الحديقة فباعها باثني عشر ألف درهم وأحضر المال وأحضر الأعرابي، فأعطاه أربعة آلاف درهم وأربعين درهم نفقة، ووقع الخبر إلى سؤّال المدينة فاجتمعوا، فجلس علي عليه السلام والدراهم مصبوبة بين يديه حتى اجتمع إليه أصحابه، فقبض قبضة قبضة وجعل يعطي رجلاً رجلاً حتى لم يبق معه درهم واحد. . .».

وجاء سائل إلى الحسن بن علي عليه السلام فجلس بين يديه، وجعل يكتب على الأرض والحسن عليه السلام ينظر إليه فكتب:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم	يكفيك منظر حالتي عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنته	ألا يباع وقد وجدتك مشتري

فدعا الإمام خازنه وقال له: ما معك من المال؟ فقال: يا مولاي فضل معي اثنا عشر ألف درهم. قال: فادفعها إلى الرجل وإني لمستحي منه. قال: يا مولاي وأي شيء أُنفق؟ قال عليه السلام: أعطه إياه وأحسن الظن بالله تعالى. فلما أن دفعها إليه دعا به الحسن وقال: يا هذا اقبل العذر فإنا ما أنصفناك، ولكن على قدر الميسرة، ثم أنشأ يقول:

عاجلتنا فأتاك وابل برنا ... طلاً ولو أمهلتنا لم نقصر

فخذ القليل وكن كأنك لم تبع ... ما صنته وكأننا لم نشتر

روى ابن عساكر في التاريخ الكبير، أن سائلاً خرج يتخطى أزقة المدينة حتى أتى باب الحسين عليه السلام فقرع الباب وأنشأ يقول:

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرَّك من خلف بابك الحلقه

أنت ذو الجود وأنت معدنه ... أبوك قد كان قاتل الفسقه

وكان الحسين عليه السلام واقفاً يصلي، فخفف من صلاته وخرج إلى الأعرابي فرأى عليه أثر ضر وفاقة، ونادى بقنبر فأجابه لبيك يا بن رسول الله، قال: ما تبقى معك من نفقتنا؟ قال: مائتا درهم أمرتني بتفرقتها على أهل بيتك. قال: هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم، فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابي وأنشأ يقول:

خذها فإني إليك معتذر ... واعلم بأني عليك ذو شفقه

لو كان في سيرنا عصاً تمد إذاً ... كانت سمانا عليك مندفقه

لكن ريب المنون ذو نكد ... والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابي وولى وهو يقول:

مطهرون نقيات جيوبهم ... تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

وأنتم أنتم الأعلون عندكم ... علم الكتاب وما جاءت به السور

من لم يكن علوياً حين تنسبه ... فما له في جميع الناس مفتخر

وفي المجلد العاشر من البحار: «أن أعرابياً جاء إلى الحسين عليه السلام يسأله فقال: يا بن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها، فقلت في نفسي: أسأل أكرم الناس، وما رأيت أكرم من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال الحسين عليه السلام: يا أخا العرب أسألك عن ثلاث مسائل، فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال، وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي المال، وإن أجبت عن الكل أعطيتك الكل. فقال

الأعرابي: يا بن رسول الله مثلك يسأل عن مثلي، وأنت من أهل العلم والشرف. فقال الحسين عليه السلام: بلى سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المعروف بقدر المعرفة. فقال الأعرابي: سل عما بدا لك، فإن أجبت، وإلا تعلمت منك ولا قوة إلا بالله، فقال الحسين عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ فقال الأعرابي: الإيمان بالله. فقال: فما النجاة من الهلكة؟ فقال الأعرابي: الثقة بالله. فقال الحسين: فما يزين الرجل؟ فقال الأعرابي: علم معه حلم فقال: فإن أخطأ ذلك؟ قال: مال معه مروءة. قال: فإن أخطأ ذلك؟ فقال: فقر معه صبر. فقال الحسين: فإن أخطأ ذلك؟ فقال الأعرابي: فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه فإنه أهل لذلك، فضحك الحسين عليه السلام ورمى إليه بصرّة فيها ألف دينار، وأعطاه خاتمه وفيه فص قيمته مائتا درهم، وقال: يا أعرابي أعط الذهب إلى غرمائك واصرف الخاتم في نفقتك. فأخذها الأعرابي وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته».

ذكر السيد علي جلال الحسيني المصري في (كتابه الحسين) ما نصه: «إن الحسين عليه السلام كان جالساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد وفاة أخيه الحسن عليه السلام، وكان عبد الله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أُخرى، فجاء أعرابي على ناقة فعقلها بباب المسجد، ودخل فوقف على عتبة بن أبي سفيان فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال له الأعرابي: إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فرفع رأسه إلى غلامه وقال: ادفع إليه مائة درهم. فقال الأعرابي: ما أُريد إلا الدية تماماً. ثم تركه وأتى عبد الله بن الزبير، وقال له مثل ما قال لعتبة. فقال عبد الله لغلامه: ادفع إليه مائتي درهم. فقال الأعرابي: ما أُريد إلا الدية تماماً. ثم تركه وأتى الحسين عليه السلام، فسلم عليه وقال: يا بن رسول الله، إني قتلت ابن عم لي، وقد طولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فقال له: يا أعرابي نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة. فقال: سل ما تريد. فقال له الحسين عليه السلام: يا أعرابي ما النجاة من الهلكة؟ قال: التوكل على الله عزَّ وجلّ. فقال: وما الهمة؟ قال: الثقة بالله. ثم سأله الحسين غير ذلك، وأجاب الأعرابي. فأمر له الحسين عليه السلام بعشرة آلاف درهم، وقال له: هذه لقضاء ديونك، وعشرة آلاف درهم أُخرى، وقال: هذه تلم بها شعثك، وتحسن بها حالك، وتنفق منها على عيالك.

فأنشأ الأعرابي يقول:

طربت وما هاج لي معبق ولا لي مقام ولا معشق

ولكن طربت لآل الرسول فلذ لي الشعر والمنطق
هم الأكرمون هم الأنجبون نجوم السماء بهم تشرق
سبقت الأنام إلى المكرمات وأنت الجواد فلا تلحق
أبوك الذي ساد بالمكرمات فقصر عن سبقه السبق
به فتح الله باب الرشاد وباب الفساد بكم مغلق»

ودخل الأشجع السلمي على الإمام الصادق عليه السلام فوجده عليلاً، فجلس وسأله عن حاله فقال له الصادق عليه السلام: تعد عن العلة واذكر ما جئت له. فقال:

ألبسك الله منه عافية في نومك المعتري وفي أرقك
يخرج من جسمك السقام كما أخرج ذل السؤال من عنقك

فقال عليه السلام لغلامه: يا غلام إيش معك؟ قال: أربع مائة. قال: اعطها للأشجع.

وجاء في الوسائل في باب الأمر بالمعروف، أنه دخل على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام بعض الفقراء يسأله العطاء، فأراد عليه السلام اختياره ليكرمه على مقدار معرفته فقال له: لو جعل لك التمني في الدنيا ما كنت تتمنى؟ قال: كنت أتمنى أن أُرزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني. فاستحسن عليه السلام جوابه وأمر بأن يعطى ألف دينار.

إنا لا نكبر أهل البيت عليهم السلام فيما يصدر منهم من الهبات والجوائز، لذوي الفاقة والحاجة، مع أن في الأجواد من يعطي مثلها، وإنما المباهاة بتلكم الصلات من حيث بلوغ الغاية المتوخاة في النائل المتدفق منهم.

فإن الأئمة عليهم السلام متجهون إلى نواحٍ شتى في نوالهم، فلا يضعونها إلا في مواضعها المرغوب فيها، وكثيراً ما سبب عطاؤهم هداية ضال، أو إرشاد جاهل أو صلة رحم مقطوعة أو عرفان حقيقة مجهولة.

هكذا كان أهل البيت في سيبهم المتواصل، يعرفون الملأ طريق رشدهم ويوجهونهم إلى ما فيه سعادتهم، وما يريده المولى سبحانه من مقابلة القطيعة بالصلة، والجفوة بالموافاة، والصد بالوصال، والتنازل إلى اليد السفلى بقصد أبواب البائسين، بما يحتاجونه من المؤن، مع شرفهم الوضاح ومكانتهم العظيمة، وإكبار الناس لهم.

صفات السائلين وأفعالهم:

منهم المكي: وهو الذي يأتيك وعليه سروال واسع دبيقي أو نرسي، وفيه تكة أرمنية قد شدها إلى عنقه، فيأتي المسجد، فيقول: أنا من مدينة مصر ابن فلان التاجر، وجهني أبي إلى مرو في تجارة، ومعي متاع بعشرة آلاف درهم، فقطع علي الطريق وتركت على هذه الحال، ولست أُحسن صناعة ولا معي بضاعة وأنا ابن نعمة، وقد بقيت.

ومنهم السحري، الذي يبكر إلى المساجد من قبل أن يؤذن المؤذن.

والشجوي، الذي كان يؤثر في يده اليمنى ورجليه، حتى يرى الناس أنه كان مقيداً مغلولاً، ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهمك أنه من الخلدية، وقد حبس في المطبق خمسين سنة.

ومنهم الذرارحي، الذي يأخذ الذراريح فيشدها في موضع من جسده من أول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتنفط، فيخرج بالغداة عريان وقد تنفط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر، ويصب على ظهره قليل رماد فيوهم الناس أنه محترق.

ومنهم الحاجور: وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرئة، فيدخل الحلقوم في دبره، ويشرح الرئة على فخذه تشريحاً رقيقاً ويذر عليه دم الأخوين.

ومنهم الخاقاني، الذي يحتال في وجهه، حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك ويسوده بالصبر والمداد، ويوهمك أنه ورم وزكم للمغالطة.

ومنهم السكوت، الذي يوهمك أنه لا يحسن أن يتكلم.

ومنهم الكان، وهو الذي يواضع القاص من أول الليل على أن يعطيه النصف أو الثلث، فيتركه حتى إذا فرغ من الأخذ لنفسه اندفع هو فتكلم.

ومنهم المفلفل، الرفيقان يترافقان فإذا دخلا مدينة قصدا أنبل مسجد فيها فيقوم أحدهم في أول الصف، فإذا سلم الإمام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف: يا فلان، قل لهم. فيقول الآخر: قل لهم أنت أنا إيش. فيقول: قل ويحك ولا تستح، فلا يزالون كذلك وقد علقا قلوب الناس ينتظرون ما يكون منهما، فإذا علما أنهما علقا القلوب تكلما بحوائجهما، وقالا: نحن شريكان، وكان معنا أحمال بر كنا حملناها من فسطاط مصر نريد العراق، فقطع علينا وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن

أن نسأل، وليست هذه صناعتنا، فيوهمان الناس أنهما قد ماتا من الحياء.

ومنهم زكيم الحبشة، الذي يأتيك وعليه دراعة صوف مضربة مشقوقة من خلف وقدام، وعليه خف ثغري بلا سراويل، يتشبه بالغزاة.

ومنهم زكيم المرحومة المكافيف يجتمعون خمسة وستة وأقل وأكثر، وقائدهم يبصر أدنى شيء، عينه مثل عين الخفاش يقال له الأسطيل، فهو يدعو وهم يؤمّنون.

ومنهم الكاغاني الذي يتجنن أو يتصارع، ويزيد حتى لا يشك أحد في جنونه، وأنه لا دواء له لشدة ما ينزل به.

ومنهم القرسي وهو الذي يعصب ساقيه أو ذراعيه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورم واحتقن فيه الدم، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين، وقطر عليه من سمن البقر وأطبق عليه خرقة، ثم كشف بعضه فلا يشك من رآه أنه آكلة نعوذ بالله منها.

ومنهم المشعب الذي يحتال للصبي حين تولد، بأن يزمنه أو يعميه، ليسأل به الناس، وربما جاءت أمه أو يجيء أبوه فيتولى ذلك، فإما أن يكسبا به أو يكرياه، فإن كان عندهما ثقة وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.

ومنهم الفيلور: وهو الذي يحتال لخصيتيه حتى يريك أنه آدر، وربما أراك أن بها شرطاً أو جرحاً، وربما أراك ذلك في دبره، وتفعل المرأة ذلك بفرجها.

ومنهم الكاخان الغلام المكدي إذا واجر وعليه مسحة من جمال وعمل العملين جميعاً.

والعوام الذي يسأل بين المغرب والعشاء ويطرب في صوته.

ومنهم الاسطيل: وهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه أعمى، وإن شاء أراك أنه ممن نزل في عينه الماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر.

ومنه المزيدي: وهو الذي يدور ومعه دريهمات يقول هذه دريهمات قد جمعت لي في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها رحمكم الله.

ومنهم المستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة في ثياب صالحة، يريك أنه يستحي من المسألة، ويخاف أن يراه معرفة، فيعرض لك اعتراضاً ويكلمك خفياً.

ومنهم المطين وهو الذي يطين نفسه من قرنه إلى قدمه، ويأخذ البلاذر يريك أنه يأكل البلاذر.




حَقُّ مَنْ سَرّكَ

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

«وَحَقُّ مَنْ سَرّكَ للهِ تَعَالَى أَنْ تَحْمَدَ الله عَزَّ وَجَلّ أولاً، ثُمَّ تَشْكُرَهُ عَلى ذَلِكَ بِقَدْرِهِ فِي مَوضِعِ الجَزاءِ، وَكَافَأْتَهُ عَلَى فَضْلِ الإِبْتِدَاءِ، وَأَرْصَدْتَ لَهُ المُكَافَأَةَ إِنْ تَعَمَّدَهَا لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَعَمَّدَهَا حَمدْتَ اللهَ أَوّلاً ثُمَّ شَكَرتَهُ، وَعَلِمتَ أَنَّهُ مِنّةٌ تَوَحَّدَكَ بِهَا، وَأَحْبَبْتَ هَذَا إِذَا كَانَ سَبباً مِنْ أَسْبَابِ نِعَمِ الله عَلَيْكَ، وَتَرْجُو بَعدَ ذَلِكَ خَيراً، فَإِنَّ أَسبابَ النِعَمِ بَرَكَةٌ حَيثُمَا كَانَتْ».






إن بواعث الأعمال، وأساس الأفعال الإنسانية، قد تكون غريزة وقد تكون عاطفة، وهذه لا نعدها في الأخلاق الإنسانية، فالخلق عمل صادر عن إرادة وتفكير، وغرض وتصور.

الغرض لا بد أن يكون حسنه لذاته، وجماله لذاته، والذاتي لا يعلل ونفعه للفرد نفسه، كالصدق والشجاعة، وقد يتعدى الفرد وقد يكون متمحضاً نفعه للمجتمع، كالعدل والأمانة والوفاء.

ونقدر أن نجمل الإشارة إلى الخلق: بأنه طريق السعادة للفرد الإنساني أو المجتمع الإنساني، وأن الإشارة قد توضح المعنى أكثر من التحديد المنطقي. لأن الحدود والرسوم قد توقع المعنى في عسر، والناظر في ضيق فيضيع الغرض المقصود أمام صناعة لفظية.

في الأمة الإسلامية طرأت تغيرات على مفاهيم الأخلاق، فعلى عهد الرسول وآله وصحابته، كان الخلق يدل على مفهوم يعين على الحياة الفاضلة. وهو طريق السعادة الإنسانية، ويدل على معنى إيجابي ذي صدى بعيد في تكوين الحياة العاملة الطاهرة.

ولما جاء دور الانحطاط وشاع التصوف، وذهب الأمر من العرب إلى قوم آخرين: كالترك، والتتر ضاع المفهوم الإيجابي وحلت النواحي السلبية، فبعدت الأخلاق عن الحياة الاجتماعية، وأصبحت الأخلاق أداة من أدوات الانحلال والانكماش والانعزالية. وأصبحت أمهات الفضائل: الزهد والتوكل والتسليم والرضا والقناعة، وهذه هي التي ذكرها السبزواري في منظومته، وكانت هذه أخلاق المتصوفة، الذين أقصى همهم في الحياة، الفناء. حتى السعادة التي يطلبها هؤلاء الناس لم تعد سعادة توجد على الأرض، أو في دار الدنيا، بل انحصر وجودها في أنظارهم في العالم الأُخروي، وأصبح إصلاح الحياة ورقي الحياة والرفاهية في الحياة شيئاً ممقوتاً، وعملاً مبعداً من الله وعمران الدنيا من عمل أهل الدنيا، الذين ليس لهم

في الآخرة من خلاق، ولا في مرضاة الله من نصيب؛ فكان لنا مؤلفات في الأخلاق: كالإحياء، وجامع السعادات، ومن حذا حذوهما، كتب تعلم الناس كيف يموتون، لا كيف يعيشون، وجديرة بأن ينظر فيها من بلغ الستين لا أن تكون هدى للشباب الحائر، ومشجعاً للنشء الخائف، ولا موجهاً للرجل المتطلع الطامح.

إن كتب الأخلاق عند اليونان، وكتب الأخلاق في أوروبا، تعلم الناس كيف يعيشون في مجتمع فيه منافع وشهوات، وفيه رذائل وجرائم وترشد الشباب إلى أقرب طرق السعادة، وتوجههم إلى الاحتفاظ بنزاهتهم وطهارتهم في أجواء فيها قذارة وفيها رجاسة، تعلمهم لتكون روابطهم بالمجتمع أوثق وبأوطانهم أشد، وتعلمهم الاحتفاظ بشخصياتهم، فلا تذوب ولا تنحل، ولا يطغى عليها جانب عاصف من جوانب الحياة، ولا يتساقطون إذا مارت الأرض تحت أقدامهم.

إن المأثور عن أهل البيت عليهم السلام ثروة عظيمة تعلم الناس كيف يكونون سعداء، وكيف يكونون فضلاء، وكيف يتصلون بمجتمعاتهم اتصالاً لا يخشى عليه أن ترثّ حباله أو تقطع أوصاله أو يعفي عليه الزمن.

إن التعاليم الأخلاقية الإسلامية، التي انتهت إلينا من الرسول وآله لا تحول بيننا وبين العلم، الذي هو أساس حضارتنا، ولا تمنعنا الثروة التي هي مظهر الحضارة، ولا تصدنا عن اللذائذ والمتعات والطيبات التي هي جزء من حياتنا، ولا تباعد بيننا وبين السعادة التي هي غاية كل مفكر وهدف كل عاقل، ومثالية كل طامح، بل التعاليم تأخذ بأيدينا في مفترق هذه الطرق، وتقينا التيارات المتضاربة العنيفة، وتلفتنا إلى المزالق التي يكمن فيها الخطر.

إن تقدم الإنسان مادياً يبعث على الدهشة، وعرف من ألوان الرفاهية والنعيم ما يشبع فهمه، ويروي غرائزه. ومع هذا التقدم المادي فالفلاسفة وأقطاب السياسة والمصلحون لا يزالون يعلنون أن حقوق الإنسان مقدسة، يجب المحافظة عليها. والسياسة مهما سمت ديمقراطيتها وتقدمت مبادئها في المحافظة على الأفراد والشعوب؛ فلا تعدو أن تحقق العدل في توزيع الحقوق، والأموال، وتهيئة وسائل السعادة للأمم، وإفساح المجال للحرية بأنواعها المختلفة، لتظهر العقول مقدرتها، والرجال عبقريتها في مختلف الميادين، ولاستيفاء المظلوم حقه في التقاضي.

فالسياسة تتجه نحو المنفعة، ولا تمس روحية الإنسان وتهذيب طبعه. والأخلاق

هي تتولى ذلك، وأثر أعمال الفلاسفة أصبح واضحاً ملموساً، فالإنسانية بدأت تتقدم في التحلي بالفضيلة، تقدماً نحسّ أثره ونسمع صداه، والأمل يزداد يوماً فيوماً في تقدم الإنسان نفسياً وتهذيبه روحياً، وإن كان التقدم بطيء الخطى فاتر السير.

وآل محمد(صلوات الله عليهم) كانوا يبثون تعاليم ترشدنا إلى السعادة التي هي حلم كل حالم، وأمل كل عامل، بل أكثر من هذا نستطيع أن نستفيد من الأخلاق التي علمها الرسول وآله أن المتحلي بها، والذي يصوغ نفسه على قالبها ويكيف شخصيته بشكلها، يصل إلى مرتبة فوق السعادة بأن تكون نفسه في قواها الخيرة، وملكاتها النيرة، ومواهبها السمحة، وجبلتها الصافية شبيهة بنفوس الأنبياء وروحانيتهم.

إن الأخلاق التي تحيا عليها المجتمعات، وتأمر بها الأديان، وترشد إليها الفلسفة: هي الفضائل التي تعين على تهذيب النفس وتزيد الإنسان علاقة بالمجتمع، وقياماً بالحقوق والواجبات، وكلما كان حظ الإنسان أكثر من الفضائل كانت الإنسانية فيه أظهر، وكلما قل نصيب الإنسان من حيازة الفضائل والتحلي بها كان حظه من الوحشية أغزر.

قال الإمام الصادق قال النبي ﷺ: «ألا أُخبركم بأشبهكم بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أحسنكم خلقاً، وألينكم كنفاً، وأبركم بقرابته، وأشدكم حباً لإخوانه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم للغيظ، وأحسنكم عفواً، وأشدكم من نفسه إنصافاً في الرضا والغضب».

وقال ﷺ: «خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله».

وسئل: «من أحب الناس لله؟ قال: أنفع الناس للناس».

وقال: «الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت الله سروراً».

وقال ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله عزَّ وجلّ إدخال السرور على المؤمنين».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إن فيما ناجى الله عزَّ وجلّ به عبده موسى عليه السلام قال: إن لي عباداً أُبيحهم جنتي وأُحكمهم فيها، قال: يا رب ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من أدخل على مؤمن سروراً».

وعن أبان بن تغلب قال: سألت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن حق المؤمن على المؤمن فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حق المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدثتكم لكفرتم، إن المؤمن إذا خرج من قبره، خرج معه مثال من قبره، يقول له: ابشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشرك الله بخير، قال: ثم يمضي معه يبشره بمثل ما قال، وإذا مر بهول قال: ليس هذا لك، وإذا مر بخير قال: هذا لك، فلا يزال معه يؤمنه مما يخاف، ويبشره بما يحب، حتى يقف معه بين يدي الله عزَّ وجلّ، فإذا أمر به إلى الجنة قال له المثال: ابشر فإن الله عزَّ وجلّ قد أمر بك إلى الجنة، قال: فيقول من أنت رحمك الله تبشرني من حين خرجت من قبري، وآنستني في طريقي وخبرتني عن ربي؟ قال: فيقول أنا السرور الذي كنت تدخله على إخوانك في الدنيا، خلقت منه لأبشرك وأونس وحشتك».

وعنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «أوحى الله عزَّ وجلّ إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأُبيحه جنتي، قال: فقال داود: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: يدخل على عبدي المؤمن سروراً ولو بتمرة. قال: فقال داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: حق لمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك».

وقال أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ (لكميل بن زياد النخعي): «يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلباً سروراً، إلا وخلق الله من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت به نائبة، جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل».

وحديث إدخال السرور على المؤمن متوفر، وهو في طليعة علم الأخلاق ولعله من أشرفها وأفضل خصال الخير وأعمال البر، كما يظهر لنا من الحديث «إنه ما عبد الله بشيء أحب إليه من إدخال السرور على المؤمن».

ومن هنا نرى الإمام السجاد (سلام الله عليه)، أفرد لهذه الظاهرة عنواناً مستقلاً بذاته، فرسم خطوطها، واستعرض مفاهيمها بعبارة نيرة وأسطر عبقة، وأوضح لنا الحق الذي يجب له من الشكر والتكريم بقوله: «وحق من سرك الله به أن تحمد الله أولاً، ثم تشكره على ذلك بقدره في موضع الجزاء...».

وحينما نقرأ هذا النص، يتجلى لنا بوضوح أن من يدخل المسرة على أخيه

المؤمن، لا بد أن يكون ذاك بإذن الله تعالى ومشيئته، فالله سبحانه إذن أولى بالشكر والحمد والثناء، فاللازم أن يشكر أولاً، لأنه المسبب لهذا السرور ثم الشكر للشخص الذي صار واسطة للسرور، فيشكر شكراً يليق به لا زيادة فيه ولا نقصان، والقيام بمكافأته ومبادلته الجميل بالجميل والإحسان بالإحسان.

والأشخاص الذين يدخلون السرور في نفوس الآخرين على نوعين: فإما أن يكون ذلك صادراً عنهم بإرادتهم واختيار منهم، فهؤلاء بطبيعة الحال يستحقون من الشكر الشيء الكثير، وإن لم يكن ما عملوه صادراً عن إرادة واختيار، وإنما جاء من طريق العفو وبصورة تلقائية دون قصد وتوخٍ، فإن من اللازم أن تحمد الله أولاً، ثم العلم أن ذلك السرور منّة منه تعالى اختصك بها ونعمة جزيلة توحدك بها.

ولأن تعرف لذاك الشخص حقه، إذ كان السبب لتلك النعمة ووساطة من وسائط الخير، لذلك من الحق الدعاء له بالخير ومنحة التوفيق.




حَقُّ مَنْ سَاءَكَ

قَولُهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ مَنْ سَاءَكَ، أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ، فَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّ العَفْوَ يَضُرُّهُ انْتَصَرْتَ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾[2] . **هذا في العَمْدِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَمْدٌ لَمْ تَظْلِمْهُ بِتَعَمُّدِ الانْتِصَارِ مِنْهُ، فتكونَ قَدْ كَافَأْتَهُ فِي تَعَمُّدٍ عَلَى خَطَأٍ، وَرَفِقْتَ بِهِ وَرَدَدْتَهُ بِأَلطَفِ مَا تَقْدِرُ عَلَيهِ» .**

---

(١) سورة الشورى، الآية ٤١.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٦.




صرخة حق في وجه الشر.

دعوة وداعة ومحبة في ليل الحقد والضغينة.

نور وضاح في دياجير الظلمة.

في وسط إطلالة البشر على الدنيا بمتاعبها وآلامها، عند الفجر، فجر العالم الإنساني، وقف مؤذن ينادي للقداسة ويدعو للتطهير، ويبحث عن الحقيقة ويبحث عن الخلاص. فوجد الحقيقة وأدرك مشكلة الألم وعرف سر الحياة، واندغم الخلق النبيل باللذة الدائمة.

فكانت نفس بلا ازدواجيات، ومناقضات داخلية بلا عراك، وخلاف بين الأهواء والغرائز؛ بين الميول والعقل، كان ذلك في هنيهة خلود بشري، انبجس في نسيج الفناء والوهم.

ذلك هو الإمام زين العابدين عليه السلام الذي يملأ القلب بتعاليمه وداعة ونعمة، وينعم النفس محبة وطهراً، ويشرق على الذات فيضاً نبيلاً في الروحية والتجاوز الخلقي أو التسامي.

هذه القمة أو الجنة الأرضية التي يصل إليها الممارس، هي بالفعل حالة السمو والتسامي التي قال عنها إنها من العلوم اللدينة، أو العلوم التي لا تشرح وتفسر، وإنما تفهم وتحس بالذوق والحال، وقديماً قال أحد المتصوفة في وصف هذه الحالة:

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه

والحقيقة أن ما قاله هذا ما يزال صحيحاً حتى اليوم.

فالإمام (وعلى ذكره السلام) في طريقه مواجهة الحياة، وطريقه في التعبد والوصول إلى المطلق والاتصال بالذات العليا، نفهمها ونتذوقها أكثر من قدرتنا على تعليلها وتحليلها، إذ إنها شيء يمس ذات الإنسان الداخلية، بل ما هو أسمى وأكثر الأمور داخلية في الإنسان.

ومهمة الإمام في هذا الحقل تربية الضمير وتنقية المجتمع من الشوائب، من الشر وجرثومة الفساد. ولم يعن إلا القضاء على مرض الأنانية الكامن في النفوس.

هذه من القواعد الفردية والاجتماعية، التي نشر الإمام أريجها على جميع الناس.

لقد شاهد الحياة بعين حكمته مشحونة بالآلام والكوارث، ورأى ما نناله بها من راحة لا يعدو رفع الألم، فخفف من أوزار النفس وأفسح لها مستقبل الأمل لتستطيع اجتياز صراط الحياة بسهولة وأمان. وأعلن أن الأمل رحمة للأفراد في معاشهم، ورصيد للشعوب التي كبت في ميدان الحياة، يجدد نشاطها ويطلق ألسنتها ويخلع عليها ثوب ولادة جديدة.

أرأيته وهو يقول: «وحق من أساءك أن تعفو عنه» فإنه أولى بك لما فيه له من القمع وحسن الأدب «فمن يتقدم بالعفو فهو في المقام الرفيع، وغيره يتقدم بالإساءة فهو في المكان الدون». ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾[1] لا رد الإساءة بالإساءة، فإن العفو لا يستوي أثره ـ كما لا تستوي قيمته مع الإساءة والصبر والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر.

يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ومن الجماح إلى اللين ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

وتصدق هذه الظاهرة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء، على كلمة طيبة ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام! ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً. وخلع حياءه نهائياً، وأفلت زمامه وأخذته العزة بالإثم.

بيد أن الصفح والسماح في حاجة إلى قلب كبير يعطف ويسمح، وهو قادر على الإساءة والرد. ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. والقدرة هذه ضرورية لتؤتي السماحة أثرها. حتى لا يصور العفو في نفس المسيء ضعفاً، فيندك ويتلاشى أثره.

وقد يكون العفو ضاراً بالمسيء في بعض الحالات:

١ ـ إذا كان المسيء يتصور العفو صادراً بسبب العجز.

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤.

٢ ـ إذا كان العفو مشجعاً له على العود إلى الإساءة.

٣ ـ إذا كان المسيء يتصور حين يعفى عنه، أنه لم يقم بإساءة، ولم يصدر منه من المكروه ما يكون العفو معه إحساناً ولطفاً.

في هذه المواضع لا يكون العفو جميلاً، وعلى العكس يكون مضراً، فإذا كان العفو حينئذ لا يؤدي إلا إلى الضرر، وجب الانتصار والقصاص ورد الاعتداء بمثله، بموجب قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وبموجب قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[2]. وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[3].

هذا كله في صورة العمد، أما إذا كانت الإساءة صادرة على وجه الخطأ، فالأمر يختلف تماماً عن الصورة الأولى، فهنا لا ينبغي الرد بالمثل، لأن المفروض أنه لا اعتداء حتى يكون قصاص، فلا يحسن أن يوجه الرد إليه، فيعتبر ظلماً وتحدياً، ولأجل ذلك عبر الإمام عليه السلام بهذا التعبير: «فإن لم يكن عمد لم تظلمه...» لأنك إذا انتصرت وانتقمت منه تكون قد كافأته عامداً على عمل قام به خاطئاً. فالواجب هو الرفق واللطف والرد بألطف وسيلة تقدر عليها.

العفو عن المسيء جماع مكارم الأخلاق:

وحسبك في هذا الباب ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزؤوا به وأخرجوه من دياره وأصحابه، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد عن أن عفا وصفح، وقال: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وعن أنس قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٤.
(٢) سورة الشورى، الآية ٤١.
(٣) سورة النحل، الآية ١٢٦.

من مال أبيك. فسكت النبي ﷺ، ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟. قال: لا. قال: لم؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة! فضحك ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

وظفر علي عليه السلام بأهل البصرة، فلما دخلها واجتمع عليه أهلها، خطبهم وقال: يا أهل البصرة يا جند المرأة وأتباع البهيمة، رغى فرجفتم، وعقر فانهزمتم، أحلامكم رقاق، وعبيدكم شقاق، وأنتم فسقة مرّاق، . . . يا أهل البصرة نكثتم بيعتي وتظاهرتم على عداوتي، فما تروني صانعاً بكم وما تظنون بي؟ قالوا: نظن خيراً، ونعلم أنك ظفرت وقدرت، فإن عاقبت فقد استحققنا عقوبة المجرمين، وإن عفوت فالعفو أحب إلى رب العاليمن. فأطرق عليه السلام برأسه إلى الأرض، ثم رفع رأسه وقال: اذهبوا وإياكم والفتنة، فإنكم أول من شق عصا الأمة ونكث البيعة، فأخلصوا إلى الله التوبة.

خرج الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، إلى المسجد فسبه رجل، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم عليه السلام وقال لهم: كفوا أيديكم عنه. ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا، أنا أكثر مما تقول وما لا تعرفه مني أكثر مما عرفته. فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك. فخجل الرجل واستحيا فخلع عليه زين العابدين قميصه، وأمر له بألف درهم فمضى الرجل وهو يقول: أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله ﷺ.

ذكر ابن خلكان في ترجمة مجد الملك ابن شمس الخلافة، أحد وزراء الخلفاء في مصر المتوفى في حدود الستمائة، أن هذا الوزير ذكر في كتاب له ألفه في محاسن المحاضرة وآداب المسامرة. فقال: إن عصام بن المصطلق، وكان شامياً أموياً، قال: دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي (سلام الله عليهما)، ومعه غلمانه وحاشيته، فأعجبني سمته ورواؤه، وحسنه وبهاؤه، وأثار الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض، فجئت إليه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ فقال: نعم فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليّ نظر عاطف رؤوف برقة ورحمة، ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[1] ثم قال لي: خفض عليك، أستغفر الله لي ولك،

(١) سورة الأعراف، الآيات ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

إنك لو استعنتنا لأعناك، ولو استرفدتنا لرفدناك ولو استرشدتنا لأرشدناك. قال عصام: فندمت على ما قلت وتوسم مني الندم على ما فرط مني. فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] ثم قال: أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم. فقال عليه السلام: (شنشنة أعرفها من أخزم) حيانا الله وإياك، إن تبسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله؟ قال عصام: فضاقت عليّ الأرض بما رحبت ووددت لو أنها ساخت بي، ثم انسللت من بين يديه لواذاً، وما على وجه الأرض أحب إليّ منه ومن أبيه».

وفي أعلام الورى، تأليف (الطبرسي)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي أن رجلاً من ولد آل الخطاب كان بالمدينة، يؤذي أبا الحسن موسى الكاظم عليه السلام، إذا رآه ويشتم علياً عليه السلام، فأراد بعض موالي الإمام الوقيعة فيه، فنهاه الإمام أبو الحسن عليه السلام أشد النهي. ثم سأل عليه السلام عن العمري؟ فقيل له: إن له زرعاً بناحية من نواحي المدينة، فركب عليه السلام إليه فوجده في زرعه، فدخل المزرعة وهو راكب على حماره، فصاح به الخطابي لا تطأ زرعنا، فوطئه أبو الحسن بالحمار، ولم يلتفت إذ لم يجد طريقاً يسلكه غير ذلك حتى إذا وصل إليه نزل وباسطه في القول، وسأله عما غرمه في زرعه، فقال: غرمت مائة دينار ثم سأل عما يرجو أن يصيب منه، قال: مائتي دينار، فدفع إليه أبو الحسن ثلاثمائة دينار لما غرمه ولما يرجوه، وبشره بسلامة زرعه وإنتاجه ما يرجوه، ففرح العمري بهذا الخلق الكريم الممتزج بالحلم والسخاء والبشارة بنتاج عمله، فصاح: الله أعلم حيث يجعل رسالته. وقبل رأسه ويده، وسأله الصفح عما فرط من القول فيه. فتبسم أبو الحسن عليه السلام وانصرف إلى أصحابه يقول: أيما أحسن ما أردتم أو ما صنعته؟ إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم. وهدى الله الرجل وصار من مواليه.

من أنبل ضروب العفو مقابلة الإساءة بالإحسان:

لا غرو أن كريم الأخلاق لا يكون حقوداً، ولا حسوداً، ولا باغياً، ولا ساهياً، ولا لاهياً، ولا فاجراً، ولا فخوراً ولا كاذباً ولا ملولاً، ولا يقطع ألفة، ولا يؤذي إخوانه ولا يضيع الحفاظ ولا يجفو في الوداد، يعطي من لا يرجو ويؤمن من يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة، وهو من يلين إذا استعطف. واللئيم يقسو إذا

(١) سورة يوسف، الآية ٩٢.

أُلطف، والكريم يجل الكرام ولا يهين اللئام ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر، يؤثر إخوانه على نفسه، ويبذل لهم ما ملك، وإذا أعطى أخاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء، قال المقنع الكندي:

فإذا الذي بيني وبين عشيرتي ... وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا قدحوا لي نار حرب بذنبهم ... قدحت لهم في كل مكرمة زندا
وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وأُعطيهم مالي إذا كنت واجداً ... وإن قل مالي لم أُكلفهم رفدا

قال الشعبي: «إن كرام الناس أسرعهم مودة وأبطأهم عداوة، مثل الكوب من الفضة يبطىء الانكسار ويسرع الانجبار. وإن لئام الناس أبطأهم مودة، وأسرعهم عداوة: مثل الكوب من الفخار يسرع الانكسار ويبطىء الانجبار».

ومن رائع ما أُثر في العفو عند القدرة، ما روي عن المأمون أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدي عليه، وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد، وخلعوا المأمون وكان إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق، فلما دخل بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه مستنقباً مع نسوة، فحبس ثم أُحضر حتى وقف بين يدي المأمون، فقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال له المأمون: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن ولي الأمر يحكم في القصاص والعفو، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة، ومن تناول الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه، وهجمت به الأيام على التلف، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال:

ذنبي إليك عظيم ... وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم القدرة تذهب بالحفيظة، والندم توبة وبينهما عفو الله، وهو أعظم مما يحاول وأكثر مما يؤمل،

ولقد حبب إليّ العفو حتى خفت ألا أوجر عليه. لا تثريب عليك. ورد أمواله جميعها إليه. فقال فيه مخاطباً:

رددت مالي ولم تمنن عليّ به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم ... إني لباللؤم أولى منك بالكرم

ومن ذلك ما روي من أن الرشيد بن المهدي، خرج عليه خارجي رام زوال ملكه، وإفساد دولته، فجهز له جيشاً وأنهض الناس والجند للخروج لقتاله، فلما توجه الجيش إليه وظفروا به أحضروه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الرشيد قال له: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: اصنع بي ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، وهو أقدر عليك منك علي، فأطرق الرشيد ملياً، ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلما خرج قال بعض الحاضرين: يا أمير المؤمنين، تقتل رجالك، وتفني أموالك، وتظفر بهذا الذي خرج عليك، وأفسد في بلادك، وتطلقه بكلمة واحدة!! تأمل يا أمير المؤمنين هذا الأمر فإنه يجرىء عليك أهل الفساد. فأمر الرشيد برده، فلما عاد ومثل بين يديه علم أنه قد سعي به، وأشير على الخليفة بقتله، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تطع فيّ مشيراً يمنعك عفواً تدخر به عند الله يداً، ويبعثك على الانتقام الذي ليس من مكارم الأخلاق، واقتد بالله تعالى، فإنه لو أطاع فيك مشيراً ما استخلفت طرفة عين، وأحسن كما أحسن الله إليك. فأمر بإطلاقه وقال: لا تعاودوني فيه.

مثل رائع من أمثلة مقابلة الإساءة بالإحسان:

حكي أن المأمون أشرف يوماً على قصره، فرأى رجلاً يكتب بفحمة على حائط قصره، فقال لبعض خدمه: اذهب إلى ذلك الرجل، فانظر ما كتب، وأتني به. فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه، وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب بيتين أولهما:

يا قصر جمّع فيك الشؤم واللوم ... متى يعشعش في أركانك البوم

ثم إن الخادم قال له: أجب أمير المؤمنين. فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه. فقال الخادم: لا بد من ذلك، ثم ذهب به، فلما مثل بين يدي المأمون، وأعلم بما كتب، قال له المأمون: ويلك! ما حملك على هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلل والطعام والشراب، والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي، ويعجز عنه فهمي، وإني قد مررت عليه الآن وأنا في غاية الجوع والفاقة، فوقفت مفكراً في

أمري، وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عالٍ، وأنا جائع ولا فائدة لي فيه، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه، أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء ... نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه ... يرجي سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون: يا غلام أعطه ألف درهم. ثم قال: هي لك في كل سنة، ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً بدولته.

وأنشدوا في معنى ذلك:

إذا كنت في أمر فكن فيه محسناً ... فعما قليل أنت ماضٍ وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة ... وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

صفح وأريحية:

مما حكي، أنه كان بين غسان بن عباد، وبين علي بن عيسى عداوة عظيمة، وكان الأخير ضامناً أعمال الخراج والضياع ببلده، فبقيت عليه بقية مقدارها أربعون ألف دينار، فألح عليه المأمون بطلبها وأمهله ثلاثة أيام، فإن أحضر المال وإلا يضرب بالسياط حتى يؤديه أو يتلف. فانصرف علي من دار المأمون آيساً من نفسه، وهو لا يدري وجهاً يتجه إليه، فدله كاتبه على غسان بن عباد فقال له: على ما بيني وبينه من العداوة؟ فقال: نعم. فإن الرجل اريحي كريم. فلما دخل على غسان تلقاه بالجميل، وقال له: إن دخولك إلى داري له حرمة توجب بلوغ ما رجوته مني مع ما بيننا من العداوة، فاذكر حاجتك. فقص عليه قصته، فقال: أرجو أن يكفيكه الله تعالى، ولم يزد على ذلك شيئاً، فنهض علي وخرج آيساً نادماً على قصده، غير أنه لم يصل إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه المال وسلمه إليه، فأخذه وأسرع إلى دار المأمون، فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل على الخليفة وقال: يا أمير المؤمنين إن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة، وقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارفه الناس، وقد توعدته بما أطار عقله، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخفف عنه بعض ما عليه فهي صنيعة ومنّة. ولم يزل يتلطف به إلى أن حط عنه النصف، فقال غسان: على أن يشرفه أمير المؤمنين بخلعة تقوي نفسه ويعرف بها مكان الرضا عنه. فأجابه المأمون إلى ذلك، وخرج علي بالخلعة، ولما وصل إلى داره أرسل إلى غسان عشرين ألف دينار

وشكره على جميع فعله معه، فرفض غسان قبول المبلغ، وقال لكاتبه: إني لم أشفع له عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها. فعلم عيسى فضل غسان عليه، ولم يزل يخدمه إلى آخر العمر.

كرم وعفو:

يحكى عن معن بن زائدة أنه أتي بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف، فقال له بعضهم: أصلح الله الأمير، نحن أسراك، وبنا جوع وعطش، فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل. فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا، ومعن ينظر إليهم، فلما فرغوا قال الرجل: أصلح الله الأمير، كنا أسراك ونحن الآن أضيافك، فانظر ما تصنع بأضيافك. قال: قد عفوت عنكم. فقال الرجل: أيها الأمير. ما ندري أي يوم أشرف: يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا؟ فأمر لهم بمال وكسوة.

المروءة النادرة:

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس، اختفت رجال من بني أمية، منهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك: وكان رجلاً عالماً أديباً كاملاً وهو في سن الشبيبة، فأخذوا له أماناً من السفاح. فقال له يوماً: حدثني عما مر بك في اختفائك. قال: كنت مختفياً بالحيرة في منزل شارع على الصحراء، فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت أعلاماً سوداً قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة، فتخيلت أنها تريدني. فخرجت من الدار متنكراً، حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفي عنده، فبقيت في حيرة، فإذا أنا بباب كبير رحبته واسعة، فدخلت فيها فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه، فقال: من أنت، وما حاجتك؟ فقلت: رجل خائف على نفسه، وقد استجار بمنزلك، فأدخلني منزله، ثم صيرني في حجرة تلي حرمه، وكنت عنده في ذلك على ما أُحبه من مطعم ومشرب وملبس، لا يسألني عن شيء من حالي، إلا أنه يركب في كل يوم ركبة، فقلت له يوماً: أراك تدمن الركوب ففيم ذلك؟ قال: إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً، وقد بلغني أنه مختف أطلبه لأدرك منه ثأري. فكثر والله تعجبي، وقلت: القدر ساقني إلى حتفي في منزل من يطلب دمي، وكرهت الحياة. فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرني، فعلمت أن الخبر صحيح، وأنا الذي قتلت أباه، فقلت له: يا هذا قد وجب علي حقك، ومن حقك أن أدلك على خصمك، وأُقرب إليك الخطوة. قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان، قاتل أبيك، فخذ بثأرك. فقال: إني أحسبك رجلاً قد أمضه الاختفاء فأحببت الموت.

فقلت: لا والله، ولكن أقول لك الحق: يوم كذا وكذا.

فلما علم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق ملياً، ثم قال: أما أنت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره، وأما أنا فغير مخفر ذمتي فاخرج عني، فلست آمن عليك من نفسك، وأعطاني ألف دينار، فلم آخذها منه، وانصرفت عنه، فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».

قال ابن أبي الحديد: أخذت أنا هذا المعنى فقلت في قطعة لي:

إن الأماني أكساب الجهول فلا ... تقنع بها واركب الأهوال والخطرا
واجعل من العقل جهلاً واطرح نظراً ... في الموبقات ولا تستشعر الحذرا
وإن قدرت على الأعداء منتصراً ... فاشكر بعفوك عن أعدائك الظفرا

قال معاذ بن جبل: لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن، قال: «ما زال جبرائيل عليه السلام يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود».

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم من كان له أجر على الله تعالى، فلا يقوم إلا من عفا». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل العبادة أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: أتى جبرائيل عليه السلام بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة. قلنا: ما هي يا رسول الله؟ قال: قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [1].

ودخل معن بن زائدة على معاوية، فقال له: يا معن كيف حبك لعلي أمير المؤمنين؟ فقال: أُحبه على وجوه كثيرة: على حلمه إذا غضب، وعلى صدقه إذا قال، وعلى وفائه إذا وعد، وعلى عفوه إذا قدر، وإن رضي لا يخرجه رضاه إلى الباطل، وإن غضب لا يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

فالواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة، إذ لا سبيل لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها، أشد من مقابلتها بمثلها.

شجر بين أبي مسلم وبين صاحب مرو كلام أربى فيه صاحب مرو عليه، وأغلظ له في القول، فاحتمله أبو مسلم وندم صاحب مرو، وقام بين يدي أبي مسلم معتذراً،

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

وكان قال له في جملة ما قال: يا لقيط، فقال أبو مسلم: مه لسان سبق، ووهم أخطأ والغضب شيطان، وأنا جرأتك علي باحتمالك قديماً، فإن كنت للذنب معتذراً فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعك. فقال صاحب مرو: أيها الأمير، إن عظم ذنبي يمنعني من الهدوء. فقال أبو مسلم: يا عجباً، أُقابلك بإحسان وأنت مسيء. ثم أُقابلك بإساءة وأنت محسن. فقال: الآن وثقت بعفوك.

وأذنب بعض كتاب المأمون ذنباً وتقدم إليه ليحتج لنفسه، فقال: يا هذا قف مكانك، فإنما هو عذر أو يمين فقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك فلا تزال تسيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتى يكون العفو هو الذي يصلحك. وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام. وكان يقال: ظفر الكريم عفو، وعفو اللئيم عقوبة. وكان يقال: رب ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ولا يجاوز به حد الارتفاع إلى الايقاع. وكان يقال: ما عفا عن الذنب من قرّع به. قال المأمون لإبراهيم بن المهدي لما ظفر به: إني قد شاورت في أمرك فأُشير علي بقتلك، إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت قتلك للازم حرمتك. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إن المشير أشار بما تقتضيه السياسة وتوجبه العادة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو، فإن قتلت فلك نظراء، وإن عفوت فلا نظير لك. قال: قد عفوت فاذهب آمناً.

ضل الأعشى في طريقه، فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة، فقال قائده وقد نظر إلى قباب الأدم: واسوء صباحاه يا أبا بصير هذه والله أبيات علقمة، فخرج فتيان الحي فقبضوا على الأعشى فأتوا به علقمة، فمثل بين يديه، فقال: الحمد لله الذي أظفرني بك من غير ذمة ولا عقد. قال الأعشى: أو تدري لم ذلك جعلت فداك؟ قال: نعم، لأنتقم اليوم منك بتقولك عليَّ الباطل مع إحساني إليك. قال: لا والله ولكن أظفرك الله بي ليبلو قدر حلمك فيّ. فأطرق علقمة فاندفع الأعشى فقال:

أعلقم قد صيرتني الأمور إليك ... وما كان بي منكص
كساكم علاثة أثوابه ... وورثكم حلمه الأحوص
فهب لي نفسي فدتك النفوس ... فلا زلت تنمى ولا تنقص

فقال: قد فعلت، أما والله لو قلت فيَّ بعض ما قلته في عامر بن عمر لأغنيتك طول حياتك، ولو قلت في عامر بعض ما قلته فيّ، ما أذاقك برد الحياة.

قال معاوية لخالد بن المعمر السدوسي: على ماذا أحببت علياً؟ قال: على




حقُّ أَهلِ المِلَّةِ

قــولُـهُ عليه السلام :

«وَحَقُّ أَهلِ مِلَّتِكَ إِضْمَارُ السَّلامَةِ وَالرَّحمَةِ لَهُم، وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهم وَتَأَلُّفُهُمْ وَاسْتِصْلاَحُهُمْ، وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ وَكَفُّ الأَذَى عَنْهُمْ، وَتُحبُّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، فَعُمَّهُمْ جَمِيعاً بِدَعْوَتِكَ وَانْصُرْهُمْ جَمِيعاً بِنُصْرَتِكَ وَأَنْزِلْهُمْ جَمِيعاً مَنَازِلَهُمْ، كَبِيرُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ وَصَغِيرُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَلَدِ، وَأَوْسَطُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الأَخِ. (فَمَنْ أَتَاكَ تَعاهَدتَهُ بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ)، وَصِلْ أَخاكَ بِمَا يَجِبُ للأخِ عَلَى أَخِيهِ».






إنها طريقة الإمام العجيبة التي تفرد وتميز بها.

الطريقة التي تحيي المشهد وتستحضره في التو واللحظة، وتقف القلوب إزاءها وقفة من يرى ويسمع ويعاني ما فيها.

الطريقة التي تدعو إلى الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية، إلى السياجات الجوية من الضمانات حول كرامة الإنسان وحريته وحرماته.

وضمان هذا كله بتلك الطريقة التي يثيرها الإمام عليه السلام في أرواح الناس بالتطلع إلى التعاون بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات، لكي يرتفع فيهم لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته، لواء الألفة والتكافل ونشر أجنحة الرفق والرحمة.

هذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام، لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تنزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام.

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله. لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية الجنس، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكم لآدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان». وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإنساني.

المجتمع الإنساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم... الطريق إلى الله... لأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة... راية الله...

أجل تلك هي جولة الإمام السجاد عليه السلام جولة عاطفية اجتماعية كافلة لإصلاح حال البشر، من غير أن يستأثر بها فرد دون فرد، أو تتلاءم مع روح شخص دون شخص، أو يضيق نطاقها عن الإحاطة إذا تكاثرت الأفراد، أو يقل تأثيرها ويضعف

سلطانها إذا تشعبت دائرة الآحاد.

جولة تعتبر المجتمع الإنساني وحدة موحدة لا تجزئة فيها. فيدعو الفكر المنير والقلب الصالح المستفيض إلى الإحسان والتعاون، يدعوه لدفع الأذى والمكروه عن أخيه الإنسان، والمسلم الصحيح من أمل الناس رفده وأمنوا بوادره، وعمهم بخيره ونصرهم بنصره.

هكذا يريد الإمام بقوله: «فعمهم جميعاً بدعوتك، وانصرهم جميعاً بنصرتك، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد، وصغيرهم بمنزلة الولد، وأوسطهم بمنزلة الأخ».

يريد أن تعتبر الكبير أباً لك فتحترمه وتكبره، وتقدم المعروف والخير بين يديه، وتعتبر الصغير ابناً لك فتعطف عليه وترأف به وترق له، وتعتبر المتوسط أخاً لك فتحبه وتميل إليه وتدفع ضره، وتشاركه في خسارته، وتكون له كما يكون لك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لها.

هذه مبادىء الإخاء والتعاون وتبادل المعروف والتكافل، وبها تتحقق وحدة الاجتماع التي هي مركز الوجود ونقطة السعادة المطلقة.

مضافاً إلى أنها المايز الأكبر بين الإنسان وبين سائر الكائنات الحية؛ والغرض الأسمى من تكوينه وتنظيمه في دور أعرق في عالم التعقل والإحساس، وأرقى في حلقات التطور وفلسفة النشء الطبيعي.

لذلك رغبنا أن نشرح في هذا الفصل كليات ودساتير نظام الاجتماع وما له من التأثير في أبناء النوع، وما استفدناه من تطور الحفلات الكبرى في عالم الطبيعة، ومما يؤيدها العلم الصادق والرؤية المصيبة. فقد وقفنا لكشف سر الاجتماع البشري، ومطابقته لفلسفة الدين الإسلامي ـ مباحثنا وفصول دروسنا عن تاريخ طبيعة الاجتماع وبنيان مدينة البشر، وما تقتضيه موقعيته العظمى في سلسلة حلقات التكوين، ومدار جريان الوجود الباهر والكون المنير.

وبما أن تطور العقل البشري اقتضى تلفت الخاطر إلى كشف أسرار الطبيعة، والجنوح إلى الحقائق الثابتة التي تقترن بشاهد الأخبار والتجربة العملية، ولما كان الإسلام هو الدين المشفوع بالبرهان في كل التطورات الكونية، إذ هو القانون العام الكافل لإدارة البشر في كل تقلباته، والمؤيد له في صراط رقيه ونشأة تطوراته، فقد

جمع بين دفة البرهان وسطوع البيان ومظاهر الطبيعة ودقائق الغيب والسريرة، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾(١). فلن يفقد الناظر فيه بغيته، ويجد كل طالب بلغته من هذا المخزن الزاخر.

فأردنا أن نبين مساعدة القوانين الإسلامية لما يقتضيه حكم الفطرة الخالصة عن شوائب الوهم والتمويه، ليكون عوناً للشبيبة المتنورة في الاهتداء إلى طريق الاستدلال وسبيل إقامة الحجة على صدق الدعوة النبوية الخاتمية، ليذعن المتفهم إلى أهمية هذا الناموس المقدس من نظرية التشريع والعناية بالمجتمع العام البشري.

وليتفهم أن مبادئه الاجتماعية، تقوم على أساس من تربية الذات الإنسانية حتى تصل إلى درجة الكمال، فتصبح حياتها تآلفاً بين العقل والقلب، بين العلم والدين، بين الذهن والبصيرة، وبين الفكر والعمل: وهي مرتبة الإنسان الكامل الذي تنتظره الإنسانية، والسبيل إلى تكامل الذات هي طاعة القانون الإلهي وضبط النفس، وأداء دور خليفة الله في الأرض، سواء في الحياة الفردية كان ذلك أم في نطاق الأسرة، أم في المجتمع العام.

ففي نطاق الحياة الفردية يوجب الإسلام على المسلم (رجلاً كان أو امرأة) التزام الخلق الرفيع، فيقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». ويوجب طلب العلم على المسلم والمسلمة، فيقول الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». هذا إلى جانب دعوة الإسلام إلى تنمية الشعور الذاتي وتربية روح الإيثار عند المسلم، فيقول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

أما في نطاق حياة الأسرة، فإن الإسلام يبني الأسرة ويقيم أركانها على أساس المودة والرحمة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾(٢) ويقول أيضاً: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(٣). وهذه الدرجة هي درجة الإدارة التي لا تستقيم بغيرها شركة، فأولى بذلك شركة الحياة التي تنتج للأمة

(١) سورة النحل، الآية ٨٩.
(٢) سورة الروم، الآية ٢١.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

أجيالها.

هذا إلى جانب إقرار الإسلام للمرأة حقوقاً كاملة في جميع مناحي الحياة ومنحها الأهلية الكاملة في التصرفات القانونية والمالية باعتبارها مستقلة الذمة، مع عدم تحميلها تكاليف الزوجية المالية باعتبارها مكلفة بإدارة البيت وتربية الأولاد، وزوجها هو المكلف شرعاً بالإنفاق عليها وعلى الأولاد.

أما في نطاق المجتمع العام، فإن الإسلام قد عد المجتمع كأعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ومن هذه القاعدة تتفرع المسائل العلمية لتأمين التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، بسد حاجات الفقراء والمحتاجين والمعوزين، وتخصيص المساعدات المالية لهم من بيت المال، وتأمين وسائل الحياة الضرورية لهم، وبهذا المعنى يقول ﷺ: «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ له منزلاً من بيت المال، أو ليست له زوجة فليتزوج من بيت المال، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً من بيت المال، أو ليس له دابة فليتخذ دابة من بيت المال». هذا إلى جنب دعوة الإسلام إلى التعاون في ميدان الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] والدعوة إلى الخير ومحاربة المنكر وعوامل الفساد في المجتمع، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾[2].

هذه هي الخطوط العامة للإسلام في ميدان العقيدة والرسالة، أوردناها بإيجاز في كتابنا هذا (الجزء الثاني من شرح رسالة الحقوق).

وبما أن مساس الإنسان بالاجتماع والاتحاد أقوى من جميع المبادىء الفاضلة، لأن عاطفة الاجتماع والألفة هي الغرض الأسمى من تكوينه وتنظيمه، رأينا من الخير أن نستوفي الموضوع ونعطيه حقه كما يجب لخطورته وحاجة المجتمع إليه.

١ ـ الإنسان والاجتماع:

كون النوع الإنساني نوعاً اجتماعياً، لا يحتاج في إثباته إلى كثير بحث، فكل فرد من هذا النوع مفطور على ذلك، ولم يزل الإنسان يعيش في حال الاجتماع على ما

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

يحكيه التاريخ والآثار المشهودة الحاكية لأقدم العهود التي كان هذا النوع يعيش فيها ويحكم على هذه الأرض. وقد أنبأ عنه القرآن أحسن إنباء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[1] الآية.

وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[4] إلى غير ذلك.

٢ ـ الإنسان ونموه في اجتماعه:

الاجتماع الإنساني كسائر الخواص الروحية الإنسانية وما يرتبط بها، لم يوجد حين وجد ـ تاماً كاملاً ـ لا يقبل النماء والزيادة، بل هو كسائر الأمور الروحية الإدراكية الإنسانية، لم يزل يتكامل الإنسان في كمالاته المادية والمعنوية، وعلى الحقيقة لم يكن من المتوقع أن يستثني هذه الخاصة من بين جميع الخواص الإنسانية، فتظهر أول ظهورها تامة كاملة أتم ما يكون وأكمله، بل هي كسائر الخواص الإنسانية التي لها ارتباط بقوتي العلم والإرادة تدريجية الكمال في الإنسان.

والذي يظهر من التأمل في حال هذا النوع، أن أول ما ظهر من اجتماع فيه، الاجتماع المنزلي بالازدواج، لكون عامله الطبيعي (وهو جهاز التناسل) أقوى عوامل الاجتماع لعدم تحققه إلا بأزيد من فرد واحد أصلاً، ثم ظهرت منه الخاصة التي يسمونها بالاستخدام، وهو توسيط الإنسان غيره في سبيل رفع حوائجه ببسط سلطته وتحميل إرادته عليه، ثم برز ذلك في صورة الرئاسة كرئيس المنزل ورئيس العشيرة، ورئيس القبيلة، ورئيس الأمة. وبالطبع كان المتقدم المتعين من بين العدة أولاً أقواهم وأشجعهم وأكثرهم مالاً وولداً، وهكذا حتى ينتهي إلى أعلمهم بفنون الحكومة

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٢.
(٣) سورة النساء، الآية ٢٥. وفي سورة آل عمران، الآية ١٩٥.
(٤) سورة الفرقان، الآية ٥٤.

والسياسة، وهذا هو السبب الابتدائي لظهور الوثنية وقيامها على ساقها حتى اليوم.

وخاصة الاجتماع بتمام أنواعها (المنزلي وغيره) وإن لم تفارق الإنسانية في هذه الأدوار ولو برهة، إلا أنها كانت غير مشعور بها للإنسان تفصيلاً، بل كانت تعيش وتنمو بتبع الخواص الأُخرى المعني بها للإنسان كالاستخدام والدفاع ونحو ذلك. والقرآن الكريم يخبر أن أول ما نبه الإنسان بالاجتماع تفصيلاً واعتنى بحفظه استقلالاً، نبهته به النبوة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1].

وقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[2].

حيث ينبىء أن الإنسان في أقدم عهوده كان أمة واحدة ساذجة لا اختلاف بينهم حتى ظهرت الاختلافات وبانت المشاجرات، فبعث الله الأنبياء وأنزل معهم الكتاب ليرفع به الاختلاف، ويردهم إلى وحدة الاجتماع محفوظة بالقوانين المشرعة.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[3] فأنبأ أن رفع الاختلاف من بين الناس وإيجاد الاتحاد في كلمتهم، إنما كان في صورة الدعوة إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح.

والآية كما ترى تحكي هذه الدعوة (دعوة الاجتماع والاتحاد) عن نوح عليه السلام وهو أقدم الأنبياء أولي الشريعة والكتاب، ثم عن إبراهيم ثم عن موسى ثم عن عيسى عليه السلام وقد كان في شريعة نوح وإبراهيم النزر اليسير من الأحكام، وأوسع هؤلاء الأربعة موسى وتتبعه شريعة عيسى على ما يخبر به القرآن، وهو ظاهر الأناجيل، وليس في شريعة موسى ـ على ما قيل إلا ستمائة حكم تقريباً. فلم تبدأ الدعوة إلى الاجتماع، دعوة مستقلة صريحة إلا من ناحية النبوة في قالب الدين كما يصرح به القرآن، والتاريخ يصدقه على ما سيجيء.

---

(١) سورة يونس، الآية ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٣) سورة الشورى، الآية ١٣.

٣ ـ الإسلام وعنايته بالاجتماع:

لا ريب أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسس بنيانه على الاجتماع صريحاً، ولم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شؤونه، فانظر إن أردت زيادة تبصر في ذلك، إلى سعة الأعمال الإنسانية التي تعجز عن إحصائها الفكرة، وإلى تشعبها إلى أجناسها وأنواعها وأصنافها، ثم انظر إلى إحصاء هذه الشريعة الإلّهية لها وإحاطتها بها وبسط أحكامها عليها ترى عجباً، ثم انظر إلى تقليبه ذلك كله في قالب الاجتماع ترى أنه أنفذ روح الاجتماع فيها غاية ما يمكن من الإنفاذ، ثم خذ في مقايسة ما وجدته بسائر الشرائع الحقة التي يعتني بها القرآن، وهي شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى حتى تعاين النسبة وتعرف المنزلة. وأما ما لا يعتني به القرآن الكريم من الشرائع، كأديان الوثنية والصابئة والمانوية والثنوية وغيرها، فالأمر فيها أظهر وأجلى.

وأما الأمم المتمدنة وغيرها، فالتاريخ لا يذكر من أمرها إلا أنها كانت تتبع ما ورثته من أقدم عهود الإنسانية من استتباع الاجتماع بالاستخدام، واجتماع الأفراد تحت جامع حكومة الاستبداد والسلطة الملوكية، فكان الاجتماع القومي والوطني والإقليمي يعيش تحت راية الملك والرئاسة، ويهتدي بهداية عوامل الوراثة والمكان وغيرهما من غير أن تعتني أمة من هذه الأُمم عناية مستقلة بأمره وتجعله مورداً للبحث والعمل.

حتى الأمم المعظمة التي كانت لها سيادة الدنيا، حينما شرقت شارقة الدين وأخذت في إشراقها وإنارتها: (أعني إمبراطورية الروم والفرس)، فإنها لم تكن إلا قيصرية وكسروية تجتمع أممها تحت لواء الملك والسلطنة ويتبعها الاجتماع في رشده ونموه ويمكث بمكثها. نعم يوجد فيما ورثوه أبحاث اجتماعية في مسفورات حكمائهم من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، إلا أنها كانت أوراقاً وصحائف لا ترد مورد العمل، ومثلاً ذهنية لا تنزل مرحلة العين والخارج، والتاريخ الموروث أعدل شاهد على صدق ما ذكرناه.

فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني، ودعي به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع بجعله موضوعاً مستقلاً خارجاً عن زاوية الإهمال وحكم التبعية، هو الذي نادى به صادع الإسلام ﷺ، فدعا الناس بما نزل عليه من آيات ربه إلى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٢] إلى أن قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٣] يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات المطلقة الداعية إلى أصل الاجتماع والاتحاد. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٦]، وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٧] وقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات الآمرة ببناء المجتمع الإسلامي على الاتفاق والاتحاد في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية، والدفاع عنه على ما سنوضحه بعض الإيضاح.

٤ ـ اعتبار الإسلام رابطة الفرد والمجتمع:

الصنع والإيجاد يجعل أولاً أجزاء ابتدائية لها آثار وخواص، ثم يركبها ويؤلف بينها على ما فيها من جهات البينونة، فيستفيد منها فوائد جديدة مضافة إلى ما للأجزاء من الفوائد المشهودة.

فالإنسان مثلاً له أجزاء وأبعاض وأعضاء، وقوى لها فوائد متفرقة مادية وروحية ربما ائتلفت فقويت وعظمت، كثقل كل واحد من الأجزاء، وثقل المجموع، والتمكن والانصراف من جهة إلى جهة وغير ذلك، وربما لم تأتلف وبقيت على حال التباين والتفرق كالسمع والبصر والذوق والإرادة والحركة، إلا أنها جميعاً من جهة الوحدة في التركيب تحت سيطرة الواحد الحادث الذي هو الإنسان، وعند ذلك يوجد من الفوائد ما لا يوجد عند كل واحد من أجزائه، وهي فوائد جمة من قبيل الفعل والانفعال

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية ١٠٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٥٩.
(٦) سورة الحجرات، الآية ١٠.
(٧) سورة الأنفال، الآية ٤٦.
(٨) سورة المائدة، الآية ٢.

والفوائد الروحية والمادية. ومن فوائده حصول كثرة عجيبة في تلك الفوائد في عين الوحدة، فإن المادة الإنسانية كالنطفة مثلاً، إذا استكملت نشأتها قدرت على إفراز شيء من المادة من نفسها، وتربيتها إنساناً تاماً آخر، يفعل نظائر ما كان يفعله أصله ومحتده من الأفعال المادية والروحية، فأفراد الإنسان على كثرتها إنسان وهو واحد، وأفعالها كثيرة عدداً واحدة نوعاً، وهي تجتمع وتأتلف بمنزلة الماء يقسم إلى آنية فهي مياه كثيرة ذات نوع واحد، وهي ذات خواص كثيرة نوعها واحد، وكلما جمعت المياه في مكان واحد قويت الخاصة وعظم الأثر.

وقد اعتبر الإسلام في تربية أفراد هذا النوع، وهدايتها إلى سعادتها الحقيقية هذا المعنى الحقيقي فيها، ولا مناص من اعتباره قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[1] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[2] وقال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[3].

وهذه الرابعة الحقيقية بين الشخص والمجتمع، لا محالة تؤدي إلى كينونة أُخرى في المجتمع، حسب ما تمده الأشخاص من وجودهم وقواهم وخواصهم وآثارهم، فيتكون في المجتمع سنخ ما للفرد من الوجود وخواص الوجود وهو ظاهر مشهود، ولذلك اعتبر القرآن للأمة وجوداً وأجلاً وكتاباً وشعوراً وفهماً وعملاً وطاعة ومعصية، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[4] وقال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾[5]. وقال: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[6]. وقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾[7] وقال: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[8] وقال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾[9] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٥٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٩٥، وفي سورة النساء، الآية ٢٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٣٤.

(٥) سورة الجاثية، الآية ٣٨. وفي سورة الجاثية، الآية ٢٨.

(٦) سورة الأنعام، الآية ١٠٨.

(٧) سورة المائدة، الآية ٦٦.

(٨) سورة آل عمران، الآية ١١٣.

(٩) سورة غافر، الآية ٥.

بِٱلْقِسْطِ﴾[١].

ومن هنا ما نرى أن القرآن يعتني بتواريخ الأمم كاعتنائه بقصص الأشخاص بل أكثر، حينما لم يتداول في التواريخ إلا ضبط أحوال المشاهير من الملوك والعظماء، ولم يشتغل المؤرخون بتواريخ الأمم والمجتمعات إلا بعد نزول القرآن، فاشتغل بها بعض الاشتغال آحاد منهم كالمسعودي وابن خلدون حتى ظهر التحول الأخير في التاريخ النقلي بتبديل الأشخاص أمماً، وأول من سنه على ما يقال: (أغوست كنت الفرنسي المتوفى سنة ١٨٥٧ ميلادية).

وبالجملة، لازم ذلك على ما مرت الإشارة إليه تكون قوى وخواص اجتماعية قوية تقهر القوى والخواص الفردية عند التعارض والتضاد على أن الحس والتجربة يشهدان بذلك في القوى والخواص الفاعلة والمنفعلة معاً، فهمة الجماعة وإرادتها في أمر، كما في موارد الغوغاءات وفي الهجمات الاجتماعية، لا تقوم لها إرادة معارضة ولا مضادة من واحد من أشخاصها وأجزائها، فلا مفر للجزء من أن يتبع كله ويجري على ما يجري عليه، حتى إنه يسلب الشعور والفكر من أفراده وأجزائه، وكذا الخوف العام والدهشة العامة، كما في موارد الانهزام وانسلاب الأمن والزلزلة والقحط والوباء، أو ما هو دونها كالرسومات المتعارفة والأزياء القومية ونحوهما، تضطر الفرد على الاتباع وتسلب عنه قوة الإدراك والفكر.

وهذا هو الملاك في اهتمام الإسلام بشأن الاجتماع، ذلك الاهتمام الذي لا نجد ولن نجد ما يماثله في واحد من الأديان الأُخرى، ولا في سنن الملل المتمدنة، (ولعلك لا تكاد تصدق ذلك)، فإن تربية الأخلاق والغرائز في الفرد (وهو الأصل في وجود المجتمع)، لا تكاد تنجح مع كينونة الأخلاق والغرائز المعارضة والمضادة القوية القاهرة في المجتمع إلا يسيراً لا قدر له عند القياس والتقدير. فوضع أهم أحكامه وشرائعه، كالحج والصلاة والجهاد والإنفاق، وبالجملة التقوى الديني على أساس الاجتماع، وحافظ على ذلك مضافاً إلى قوى الحكومة الإسلامية الحافظة لشعائر الدين العامة وصورها، ومضافاً إلى فريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، العامة لجميع الأمة يجعل غرض المجتمع الإسلامي ـ وكل مجتمع لا يستغني عن غرض مشترك ـ هي السعادة الحقيقية والقرب والمنزلة عند الله، وهذا رقيب باطني

---

(١) سورة يونس، الآية ٤٧.

لا يخفى عليه ما في سريرة الإنسان وسره ـ فضلاً عما في ظاهره ـ وإن خفي على طائفة الدعاة وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الذي ذكرنا أن الإسلام تفوق سنة اهتمامه بشأن الاجتماع سائر السنن والطرائق.

٥ ـ بماذا يتكون ويعيش الاجتماع الإسلامي؟

لا ريب أن الاجتماع ـ أي اجتماع كان ـ إنما يتحقق ويحصل بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة، وهو الروح الواحدة السارية في جميع أطرافه التي تتحد بها نوع اتحاد، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة (غير الدينية)، إنما هي غاية الحياة الدنيوية للإنسان، لكن على نحو الاشتراك بين الأفراد لا على نحو الانفراد، وهي التمتع من مزايا الحياة المادية على نحو الاجتماع.

والفرق بين التمتع الاجتماعي والانفرادي من حيث الخاصية، أن الإنسان لو استطاع أن يعيش وحده كان مطلق العنان في كل واحد من تمتعاته حيث لا معارض له ولا رقيب إلا ما قيد به بعض جهاته بعضاً، فإنه لا يقدر أن يستنشق كل الهواء، فإن الرئة لا تسعه وإن اشتهاه، ولا يسعه أن يأكل من المواد الغذائية إلا إلى حد، فإن جهاز الهاضمة لا يتحمله، فهذا حاله بقياس بعض قواه وأعضائه إلى بعض، وأما بالنسبة إلى إنسان آخر مثله، فإذا كان لا شريك له في ما يستفيد منه من المادة على الفرض، فلا سبب هناك يقتضي تضييق ميدان عمله، ولا تحديد فعل من أفعاله وعمل من أعماله.

وهذا بخلاف الإنسان الواقع في ظرف الاجتماع وساحته، فإنه لو كان مطلق العنان في إرادته وأعماله لأدى ذلك إلى التمانع والتزاحم الذي فيه فساد العيش وهلاك النوع.

وهذا هو السبب الوحيد الذي يدعو إلى حكومة القانون الجاري في المجتمع، غير أن المجتمعات الهمجية لا تتنبه لوضعها عن فكر وروية، وإنما تكون الآداب والسنن فيها المشاجرات والمنازعات المتوفرة بين أفرادها، فيضطر الجميع إلى رعاية أمور تحفظ مجتمعهم بعض الحفظ: ولما لم تكن مبنية على أساس مستحكم، كانت في معرض النقض والإبطال تتغير سريعاً وتنقرض، ولكن المجتمعات المتمدنة تبنيه على أساس قويم بحسب درجاتهم في المدنية والحضارة فيرفعون به التضاد والتمانع الواقع بين الارادات وأعمال المجتمع بتعديلها بوضع حدود وقيود لها، ثم ركز القدرة والقوة في مركز عليه ضمان إجراء ما ينطق به القانون. ومن هنا يظهر:

أولاً: إن القانون حقيقة هو ما تعدل به إرادات الناس وأعمالهم برفع التزاحم والتمانع من بينهما بتحديدها.

وثانياً: إن أفراد المجتمع الذي يحكم فيه القانون، أحرار فيما وراءه، كما هو مقتضى تجهز الإنسان بالشعور والإرادة بعد التعديل، ولذا كانت القوانين الحاضرة لا تتعرض لأمر المعارف الإلهية والأخلاق، وصار هذان المهمان يتصوران بصورة يصورهما بها القانون فيتصالحان ويتوافقان معه على ما هو حكم التبعية فيعودان عاجلاً أو آجلاً رسوماً ظاهرية فاقدة للصفاء المعنوي، ولذلك السبب أيضاً ما نشاهده من لعب السياسة بالدين، فيوماً تقضي عليه وتدحضه، ويوماً تميل إليه فتبالغ في إعلاء كلمته، ويوماً تطوي عنه كشحاً فتخليه وشأنه.

وثالثاً: إن هذه الطريقة لا تخلو عن نقص، فإن القانون وإن حمل ضمان إجرائه على القدرة التي ركزها في فرد أو أفراد، لكن لا ضمان على ضمان إجرائه بالآخرة، بمعنى أن منبع القدرة والسلطان لو مال عن الحق وحول سلطة النوع على النوع إلى سلطة شخصه على النوع وانقلبت الدائرة على القانون، لم يكن هناك ما يقهر هذا القاهر فيحوله إلى مجراه العدل، وعلى هذا القول شواهد كثيرة مما شاهدناه في زماننا هذا، وهو زمان الثقافة والمدنية، فضلاً عما لا يحصى من الشواهد التاريخية، وأضف إلى هذا النقص نقصاً آخر وهو خفاء نقض القانون على القوة المجرية أحياناً، أو خروجه عن حومة قدرته، (ولنرجع إلى أول الكلام):

وبالجملة: الاجتماعات المدنية توحدها الغاية الواحدة التي هي التمتع من مزايا الحياة الدنيا، وهي السعادة عندهم. لكن الإسلام لما كان يرى أن الحياة الإنسانية أوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية بل في مدار حياته الأُخروية التي هي الحياة، ويرى أن هذه الحياة لا تنفع فيها إلا المعارف الإلهية التي تنحل بجملتها إلى التوحيد ويرى أن هذه المعارف لا تنحفظ إلا بمكارم الأخلاق وطهارة النفس من كل رذيلة، ويرى أن هذه الأخلاق لا تتم ولا تكمل إلا بحياة اجتماعية صالحة معتمدة على عبادة الله سبحانه والخضوع لما تقتضيه ربوبيته، ومعاملة الناس على أساس العدل الاجتماعي، أخذ (أعني الإسلام) الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها دين التوحيد، ثم وضع القانون الذي وضعه على أساس التوحيد، ولم يكتف فيه على تعديل الإرادات والأفعال فقط، بل تممه بالعبادات، وأضاف إليها المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة، ثم جعل ضمان إجرائها في عهدة الحكومة الإسلامية أولاً ثم في عهدة المجتمع ثانياً،

وذلك بالتربية الصالحة علماً وعملاً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن أهم ما يشاهد في هذا الدين ارتباط جميع أجزائه ارتباطاً يؤدي إلى الوحدة التامة بينها، بمعنى: أن روح التوحيد سارية في الأخلاق الكريمة التي يندب إليها هذا الدين، وروح الأخلاق منتشرة في الأعمال التي يكلف بها أفراد المجتمع، فالجميع من أجزاء الدين الإسلامي ترجع بالتحليل إلى التوحيد، والتوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق والأعمال، فلو نزل لكان هي ولو صعدت لكانت هو: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1].

فإن قلت: ما أورد من النقض على القوانين المدنية فيما إذا عصت القوة المجرية عن إجرائها، أو فيما يخفى عليها من الخلاف مثلاً، وارد بعينه على الإسلام، وأوضح دليل عليه ما نشاهده من ضعف الدين وزوال سيطرته على المجتمع الإسلامي، وليس إلا لفقدان من يحمل نواميسه على الناس يوماً:

قلت: حقيقة القوانين العامة سواء كانت إلهية أو بشرية ليست إلا صوراً ذهنية في أذهان الناس، وعلوماً تحفظها الصدور، وإنما ترد مورد العمل وتقع موقع الحس بالإرادات الإنسانية التي تتعلق بها، فمن الواضح أن لو عصت الإرادات لم توجد في الخارج ما تنطبق عليه القوانين. وإنما الشأن فيما يحفظ به تعلق هذه الارادات بالوقوع حتى تقوم القوانين على ساقها، والقوانين المدنية لا تهتم بأزيد من تعليق الأفعال بالإرادات (أعني إرادة الأكثرية)، ثم لم يهتموا بما تحفظ به هذه الإرادة، فمهما كانت الإرادة حية شاعرة فاعلة جرى بها القانون، وإذا ماتت من جهة انحطاط يعرض لنفوس الناس وهرم يطرأ على بنية المجتمع، أو كانت حية، لكنها فقدت صفة الشعور والإدراك لانغمار المجتمع في الملاهي وتوسعه في الإتراف والتمتع، أو كانت حية شاعرة، لكنها فقدت التأثير لظهور قوة مستبدة فائقة غالبة تقهر إرادة الأكثرية، وكذا في الحوادث التي لا سبيل للقوة المجربة على الوقوف عليها كالجنايات السرية، أو لا سبيل لها إلى بسط سيطرتها عليها كالحوادث الخارجة عن منطقة نفوذها، ففي جميع هذه الموارد لا تنال الأمة أمنيتها من جريان القانون وانحفاظ المجتمع عن التفاسد والتلاشي، وعمدة الانشعابات الواقعة في الأمم الأوروبية بعد الحرب العالمية الكبرى الأولى، والثانية من أحسن الأمثلة في هذا الباب.

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٠.

وليس ذلك (أعني انتقاض القوانين وتفاسد المجتمع وتلاشيه)، إلا لأن المجتمع لم يهتم بالسبب الحافظ لإرادات الأمة على قوتها وسيطرتها، وهي الأخلاق العالية، إذ لا تستمد الإرادة في بقائها واستدامة حياتها إلا من الخلق المناسب لها، كما بيّن ذلك في علم النفس، فلولا استقرار السنة القائمة في المجتمع واعتماد القانون الجاري فيه على أساس قويم من الأخلاق العالية، كانت كشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. واعتبر في ذلك ظهور الشيوعية، فليست إلا من مواليد الديمقراطية أنتجها إتراف طبقة من طبقات المجتمع وحرمان آخرين، فكان بعداً شاسعاً بين نقطتي القساوة وفقد النصفة، والسخط وتراكم الغيظ والحنق، وكذا في الحرب العالمية التي وقعت مرة بعد مرة وهي تهدد الإنسانية ثالثة، وقد أفسدت الأرض وأهلكت الحرث والنسل ولا عامل لها إلا غريزة الاستكبار والشره والطمع. هذا.

ولكن الإسلام بنى سنته الجارية وقوانينه الموضوعة على أساس الأخلاق، وبالغ في تربية الناس عليها لكون القوانين الجارية في الأعمال في ضمانها وعلى عهدتها، فهي مع الإنسان في سره وعلانيته وخلوته وجلوته، تؤدي وظيفتها وتعمل عملها أحسن مما يؤديه شرطي مراقب، أو أي قوة تبذل عنايتها في حفظ النظم.

نعم تعتني المعارف العمومية في هذه الممالك، بتربية الناس على الأخلاق المحمودة، وتبذل جهدها في حض الناس وترغيبهم إليها لكن لا ينفعهم ذلك شيئاً.

أما أولاً: فلأن المنشأ الوحيد لرذائل الأخلاق ليس إلا الإسراف والإفراط في التمتع المادي والحرمان البالغ فيه، وقد أعطت القوانين للناس الحرية التامة فيه، فأمتعت بعضاً وحرمت آخرين، فهل الدعوة إلى فضائل الأخلاق والترغيب عليها إلا دعوة إلى المتناقضين أو طلباً للجمع بين الضدين؟ على أن هؤلاء (كما عرفت) يتفكرون تفكراً اجتماعياً، ولا تزال مجتمعاتهم تبالغ في اضطهاد المجتمعات الضعيفة ودحض حقوقهم، والتمتع بما في أيديهم، واسترقاق نفوسهم، والتوسع في التحكم عليهم ما قدروا، والدعوة إلى الصلاح والتقوى مع هذه الخصيصة، ليست إلا دعوة متناقضة لا تزال عقيمة.

وأما ثانياً: فلأن الأخلاق الفاضلة أيضاً تحتاج في ثباتها واستقرارها إلى ضامن يضمن حفظها وكلاءتها وليس إلا التوحيد، أعني القول بأن للعالم إلهاً واحداً ذا سماء حسن، خلق الخلق لغاية تكميلهم وسعادتهم، وهو يحب الخير والصلاح، ويبغض

الشر والفساد، وسيجمع الجميع لفصل القضاء وتوفية الجزاء، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ومن الواضح أنه لولا الاعتقاد بالمعاد، لم يكن هناك سبب أصيل رادع عن اتباع الهوى والكف عن حظوظ النفس الطبيعية، فإنما الطبيعة الإنسانية تريد وتشتهي مشتهيات نفسها لا ما ينتفع به غيرها كطبيعة الفرد الآخر، إلا إذا رجع بنحو إلى مشتهى نفسها (أحسن التأمل فيه). ففيما كان للإنسان مثلاً تمتع في إماتة حق من حقوق الغير ولا رادع يردعه ولا مجازي يجازيه، ولا لائم معاتب يلومه ويعاتبه، فأي مانع يمنعه من اقتراف الخطيئة وارتكاب المظلمة وإن عظمت ما عظمت؟ وأما ما يتوهم ـ وكثيراً ما يخطىء فيه الباحث ـ من الروادع المختلفة، كالتعلق بالوطن وحب النوع والثناء الجميل ونحو ذلك، فإنما هي عواطف قلبية ونزوعات باطنية لا سبب حافظاً عليها إلا التعليم والتربية من غير استنادها إلى السبب الموجب، فهي إذن أوصاف اتفاقية وأمور عادية لا مانع معها يمنع من زوالها، فلماذا يجب على الإنسان أن يفدي بنفسه غيره ليتمتع بالعيش بعده وهو يرى أن الموت فناء وبطلان؟ والثناء الجميل إنما هو في لسان آخرين ولا لذة يلتذ به الفادي بعد بطلان ذاته.

وبالجملة، لا يرتاب المتفكر البصير في أن الإنسان لا يقدم على حرمان لا يرجع إليه فيه جزاء ولا يعود إليه منه نفع، والذي يعده ويمنيه في هذه الموارد ببقاء الذكر الحسن والثناء الجميل الخالد والفخر الباقي ببقاء الدهر، فإنما هو غرور يغتر به وخدعة ينخدع بها بهيجان إحساساته وعواطفه، فيخيل إليه أنه بعد موته وبطلان ذاته حاله كحاله قبل موته، فيشعر بذكره الجميل فيلتذ به، وليس ذلك إلا من غلط الوهم كالسكران يتسخر بهيجان إحساساته فيعفو ويبذل من نفسه وعرضه وماله أو كل كرامة له ما لا يقدم عليه لو صحا وعقل، وهو سكران لا يعقل، ويعد ذلك فتوة وهو سفه وجنون.

فهذه العثرات وأمثالها مما لا حصن للإنسان يتحصن فيه منها غير التوحيد الذي ذكرناه، ولذلك وضع الإسلام الأخلاق الكريمة التي جعلها جزءاً من طريقته الجارية على أساس التوحيد الذي من شؤونه القول بالمعاد، ولازمه أن يلتزم الإنسان بالإحسان ويجتنب الإساءة أينما كان ومتى كان، سواء علم به أو لم يعلم، وسواء حمده حامد أو لم يحمد، وسواء كان معه من يحمله عليه أو يردعه عنه أو لم يكن، فإن معه الله العليم الحفيظ القائم على كل نفس بما كسبت ووراءه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[١] وفيه تجزى كل نفس بما كسبت.

٦ ـ الإسلام اجتماعي بجميع شؤونه:

وصفة الاجتماع مرعية مأخوذة في الإسلام في جميع ما يمكن أن يؤدى بصفة الاجتماع من أنواع النواميس والأحكام بحسب ما يليق بكل منها من نوع الاجتماع، وبحسب ما يمكن فيه من الأمر والحث الموصل إلى الغرض، فينبغي للباحث أن يعتبر الجهتين معاً في بحثه:

فالجهة الأولى من الاختلاف ما نرى أن الشارع شرع الاجتماع مستقيماً في الجهاد إلى حد يكفي لنجاح الدفاع وهذا نوع، وشرع وجوب الصوم والحج مثلاً للمستطيع الغير المعذور، ولازمه اجتماع الناس للصيام والحج، وتمم ذلك بالعيدين: الفطر والأضحى، والصلاة المشروعة فيهما، وشرع وجوب الصلوات اليومية عينياً لكل مكلف من غير أن يوجب فيها جماعة، وتدارك ذلك بوجوب الجماعة في صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة، وصلاة جماعة واحدة في كل أربعة فراسخ وهذا نوع آخر.

والجهة الثانية، ما نرى أن الشارع شرع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطة كما عرفت، وألزم على الاجتماع في أمور أخرى واجبة لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً، كصلاة الفريضة مع الجماعة، فإنها مسنونة مستحبة غير أن السنة جرت على أدائها جماعة وعلى الناس أن يقيموا السنة، وقد قال رسول الله ﷺ في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة: «ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم، فتوقد عليهم نار فتحرق بيوتهم». وهذا هو السبيل في جميع ما سنه رسول الله ﷺ فيجب حفظ سنته على المسلمين بأي وسيلة أمكنت لهم وبأي قيمة حصلت.

وهذه أمور سبيل البحث فيها الاستنباط الفقهي من الكتاب والسنة، والمتصدي لبيانها الفقه الإسلامي.

وأهم ما يجب ههنا هو عطف عنان البحث إلى جهة أخرى: وهي اجتماعية الإسلام في معارفه الأساسية بعد الوقوف على أنه يراعي الاجتماع في جميع ما يدعو الناس إليه من قوانين الأعمال (العبادية والمعاملية والسياسية)، ومن الأخلاق الكريمة

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

ومن المعارف الأصلية. نرى الإسلام يدعو الناس إلى دين الفطرة، بدعوى أنه الحق الصريح الذي لا مرية فيه، والآيات القرآنية الناطقة بذلك كثيرة مستغنية عن الإيراد، وهذا أول التآلف والتآنس مع مختلف الأفهام، فإن الأفهام على اختلافها وتعلقها بقيود الأخلاق والغرائز لا تختلف في أن (الحق يجب اتباعه). ثم نراه يعذر من لم تقم عليه البينة ولم تتضح له المحجة وإن قرعت سمعه الحجة، قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[2]. انظر إلى إطلاق الآية ومكان قوله: **﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾**، وهذا يعطي الحرية التامة لكل مفكر يرى نفسه صالحة للتفكر، مستعدة للبحث والتنقيب أن يتفكر فيما يتعلق بمعارف الدين ويتعمق في تفهمها والنظر فيها. على أن الآيات القرآنية مشحونة بالحث والترغيب في التفكر والتعقل والتذكر. ومن المعلوم أن اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثرة في اختلاف الأفهام من حيث تصورها وتصديقها ونيلها وقضائها، وهذا يؤدي إلى الاختلاف في الأصول التي بني على أساسها المجتمع الإسلامي كما تقدم. إلا أن الاختلاف بين إنسانين في الفهم على ما يقضي به فن معرفة النفس وفن الأخلاق وفن الاجتماع يرجع إلى أحد أمور: إما إلى اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات الباطنية من الملكات الفاضلة والردية، فإن لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الإنسانية من حيث الاستعدادت المختلفة التي تودعها في الذهن، فما إدراك الإنسان للنصف وقضاؤه الذهني: كإدراك الشموس المتعسف، ولا نيل المعتدل الوقور للمعارف، كنيل العجول والمتعصب وصاحب الهوى والهمجي الذي يتبع كل ناعق، والغوي الذي لا يدري أين يريد ولا أنى يراد به؟ والتربية الدينية تكفي مؤونة هذا الاختلاف، فإنها موضوعة على نحو يلائم الأصول الدينية من المعارف والعلوم، وتستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول وهي مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٢.
(٢) سورة النساء، الآيتان ٩٨ ـ ٩٩.
(٣) سورة الأحقاف، الآية ٣٠.

مُسْتَقِيمٍ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢]، وانطباق الآيات على مورد الكلام ظاهر. وأما أن يرجع إلى اختلاف الأفعال، فإن الفعل المخالف للحق: كالمعاصي وأقسام التهوسات الإنسانية، ومن هذا القبيل أقسام الإغواء والوساوس تلقن الإنسان ـ خاصة العامي الساذج ـ الأفكار الفاسدة وتعد ذهنه لدبيب الشبهات وتسرب الآراء الباطلة فيه، وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلف عن اتباع الحق! وقد كفى مؤونة هذا أيضاً الإسلام، حيث أمر المجتمع بإقامة الدعوة الدينية دائماً أولاً، وكلف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً، وأمر بهجر أرباب الزيغ والشبهات ثالثاً. قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[٣] فالدعوة إلى الخير تستثبت الاعتقاد الحق وتقرها في القلوب بالتلقين والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقة في النفوس، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[٤] الآيات.

ينهى الله تعالى عن المشاركة في الحديث الذي فيه خوض في شيء من المعارف الإلهية والحقائق الدينية بشبهة أو اعتراض أو استهزاء، ولو بنحو الاستلزام أو التلويح. ويذكر أن ذلك من فقدان الإنسان أمر الجد في معارفه وأخذه بالهزل واللعب واللهو، وأن منشأه الاغترار بالحياة الدنيا، وأن علاجه التربية الصالحة والتذكير بمقامه تعالى. وإما أن يكون الاختلاف من جهة العوامل الخارجية كبعد الدار وعدم بلوغ المعارف الدينية، إلا يسيرة أو محرفة أو قصور فهم الإنسان عن تعقل الحقائق الدينية تعقلاً صحيحاً، كالجزبرة والبلادة المستندتين إلى خصوصية المزاج، وعلاجه تعميم التبليغ

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.
(٤) سورة الأنعام، الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

والإرفاق في الدعوة والتربية، وهذان من خصائص السلوك التبليغي في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[١] ومن المعلوم أن البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه في القلوب وأنحاء تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقين والمستمعين فلا يبذل أحد إلاّ مقدار ما يعيه منه، وقد قال رسول الله ﷺ على ما رواه الفريقان: «إنا معاشر الأنبياء، نكلم الناس على قدر عقولهم». وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢] فهذه جمل ما يتقى به وقوع الاختلاف في العقائد أو يعالج به إذا وقع.

وقد قرر الإسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك يقيه عن دبيب الاختلاف المؤدي إلى الفساد والانحلال، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣] فبين أن اجتماعهم على اتباع الصراط المستقيم وتحذرهم عن اتباع سائر السبل يحفظهم عن التفرق، ويحفظ لهم الاتحاد والاتفاق، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[٤]. وقد مر أن المراد بحبل الله هو القرآن المبين لحقائق معارف الدين، أو هو الرسول ﷺ على ما يظهر من قوله تعالى قبله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥].

تدل الآيات على لزوم أن يجتمعوا على معارف الدين ويرابطوا أفكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم فيستريحوا في كل حادث فكري أو شبهة ملقاة إلى الآيات المتلوة عليهم والتدبر فيها لحسم مادة الاختلاف وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ

---

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان ١٠٢ ـ ١٠٣.
(٥) سورة آل عمران، الآيتان ١٠٠ ـ ١٠١.
(٦) سورة النساء، الآية ٨٢.

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[١] وقال: ﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢]، فأفاد أن التدبر في القرآن أو الرجوع إلى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين. وتدل على أن الارجاع إلى الرسول وهو الحامل لثقل الدين يرفع من بينهم الاختلاف، ويبين لهم الحق الذي يجب عليهم أن يتبعوه، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣] وقريب منه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[٤] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[٥].

فهذه صورة التفكر الاجتماعي في الإسلام. ومنه يظهر أن هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفظ على معارفه الخاصة الإلهية، كذلك يسمح للناس بالحرية التامة في الفكر، ويرجع محصله إلى أن من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله بالتدبر في بحث اجتماعي، فإن لم يداو داءه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه حتى تنحل شبهته، أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[٦].

والحرية في العقيدة والفكر على النحو الذي بيناه غير الدعوة إلى هذا النظر، وإشاعته بين الناس قبل العرض، فإنه مفضٍ إلى الاختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم.

هذا أحسن ما يمكن أن يدبر به أمر المجتمع في فتح باب الارتقاء الفكري على وجهه مع حياته الشخصية، وأما تحميل الاعتقاد على النفوس والختم على القلوب

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٣.
(٢) سورة النحل، الآية ٤٣.
(٣) سورة النحل، الآية ٤٤.
(٤) سورة النساء، الآية ٨٣.
(٥) سورة النساء، الآية ٥٩.
(٦) سورة الزمر، الآية ١٨.

وإماتة غريزة الفكرة في الإنسان عنوة وقهراً، والتوسل في ذلك بالسوط أو السيف أو التنكيل والهجرة وترك المخالطة، فحاشا ساحة الحق والدين القويم أن يرضى به أو يشرع ما يؤيده، وإنما هو خصيصة نصرانية وقد امتلأ تاريخ الكنيسة من أعمالها وتحكماتها في هذا الباب ـ وخاصة فيما بين القرن الخامس وبين القرن السادس عشر الميلاديين ـ بما لا يوجد نظائره في أشنع ما عملته أيدي الجبابرة والطواغيت وأقساه. ولكن من الأسف، أنّا معاشر المسلمين سلبنا هذه النعمة وما لزمها (الاجتماع الفكري وحرية العقيدة)، كما سلبنا كثيراً من النعم العظام التي كان الله سبحانه أنعم علينا بها لما فرطنا في جنب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فحكمت فينا سيرة الكنيسة، واستتبع ذلك أن تفرقت القلوب وظهر الفتور، وتشتتت المذاهب والمسالك، يغفر الله لنا ويوفقنا لمرضاته ويهدينا إلى صراطه المستقيم.

٧ ـ الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخرة:

والعاقبة للتقوى، فإن النوع الإنساني بالفطرة المودعة فيه يطلب سعادته الحقيقية، وهو استواؤه على عرش حياته الروحية والجسمية معاً، حياة اجتماعية بإعطاء نفسه حظه من السلوك الدنيوي والأخروي، وقد عرفت أن هذا هو الإسلام ودين التوحيد.

وأما الانحرافات الواقعة في سير الإنسانية نحو غايته وفي ارتقائه إلى أوج كماله، فإنما هو من جهة الخطأ في التطبيق لا من جهة بطلان حكم الفطرة، والغاية التي يعقبها الصنع والايجاد، لا بد أن تقع يوماً معجلاً أو على مهل، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾[2]. يريد أنهم لا يعلمون ذلك علماً تفصيلياً وإن علمته فطرتهم إجمالاً، إلى أن قال: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾[3] إلى أن قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٣) سورة الروم، الآية ٣٤.

(٤) سورة الروم، الآية ٤١.

ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[٣]. فهذه وأمثالها آيات تخبرنا أن الإسلام سيظهر ظهوره التام فيحكم على الدنيا قاطبة.

ولا تصغ إلى قول من يقول: إن الإسلام وإن ظهر ظهوراً ما، وكانت أيامه حلقة من سلسلة التاريخ فأثرت أثرها العام في الحلقات التالية، واعتمدت عليها المدنية الحاضرة، شاعرة بها أو غير شاعرة، لكن ظهوره التام أعني حكومة ما في فرضية الدين بجميع مؤداها وصورها وغاياتها، مما لا يقبله طبع النوع الإنساني ولن يقبله أبداً، ولم يقع عليه بهذه الصفة تجربة حتى يوثق بصحة وقوعه خارجاً وحكومته على النوع تامة، وذلك أنك عرفت أن الإسلام بالمعنى الذي نبحث فيه غاية النوع الإنساني وكماله الذي هو بغريزته متوجه إليه، شعر به تفصيلاً أو لم يشعر، والتجارب القطعية الحاصلة في أنواع المكونات، يدل على أنها متوجهة إلى غايات مناسبة لوجوداتها، يسوقها إليها نظام الخلقة، والإنسان غير مستثنى من هذه الكلية. على أن شيئاً من السنن والطرائق الدائرة في الدنيا الجارية بين المجتمعات الإنسانية، لم تك في حدوثه وبقائه وحكومته على ما سبق تجربة قاطعة، فهذه شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ظهرت حينما ظهرت، ثم جرت بين الناس، وكذا ما أتى به برهما وبوذا وماني وغيرهم، وتلك سنن المدنية المادية كالديمقراطية والكمونيسم وغيرهما، كل ذلك جرى في المجتمعات الإنسانية المختلفة بجرياناتها المختلفة من غير سبق تجربة. وإنما تحتاج السنن الاجتماعية في ظهورها ورسوخها في المجتمع إلى عزائم قاطعة وهمم عالية من نفوس قوية لا يأخذها في سبيل البلوغ إلى مآربها عي ولا نصب، ولا تذعن بأن الدهر قد لا يسمح بالمراد والمسعى قد يخيب. ولا فرق في ذلك بين الغايات والمآرب الرحمانية والشيطانية.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.
(٣) سورة طه، الآية ١٣٢.




حَقُّ أَهلِ الذّمَّةِ

قولُهُ عليه السلام :

«وَأَمَّا حَقُّ أَهلِ الذِّمَّةِ: أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا قَبِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْهُمْ، وَلاَ تَظْلِمَهُم مَا وَفُوا للهِ عزَّ وجلَّ بِعَهْدِهِ، وَكَفَى بِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُم مِنْ ذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ، وَتَكِلَهُمْ إِليهِمْ فِيمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَتَحْكُمَ فِيهِمْ بِمَا حَكَمَ اللهُ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا جَرَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنْ مُعَامَلَةٍ، وَلْيَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ظُلمِهِمْ مِنْ رِعَايَةِ ذِمَّةِ اللهِ وَالوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَعَهْدِ رَسُولِهِ حَائِلٌ، فَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ مُعاهِداً كُنْتُ خَصْمَه» فَاتَّقِ الله، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ».






يتهيب الكاتب حينما يغمس يراعه ليخط به موضوعاً دقيقاً له جوانب من عظمة الإمام السجاد عليه السلام ومداه الكريم. فتراه أشبه بإنسان له بعض الخبرة في فن السباحة أُلقي في بحر خضم غزير.

ترى ماذا يستطيع أن يعمل لكي يصل إلى مرفأ السلامة، وفنار الأمان، وساحل الاستقرار؟؟

إنه يتطلع يمنة ويسرة رافعاً نظره إلى السماء عله يجد في أديمها نجماً يهتدي بنوره، أو ينظر إلى الأفق عساه يشاهد سفيناً قادماً يأخذ بيده، ويبحث عن لوح سابح في الأمواج لكي يستقر عليه.

وهكذا تراني أُشبه ذلك الإنسان، يوم رحت أبحث عن موضوع أصوغه لدراسة هذه الرسالة الشريفة (رسالة الحقوق)، فرأيت الجواهر فيها أشتاتاً متنوعة واللآلىء متباعدة متناثرة، لا يجمعها سلك، ولا يضمها مستودع. هي أشبه بزهرات جميلة عبقة، قد زرعت هنا وهناك ونبتت في قمم ووديان، وتلال وسهول!! ولكي تؤلف منها باقة تسر القلوب والأعين، وتريح النفوس والأفكار، فعليك إذن بضم متفرقاتها وجمع شتاتها.

وهكذا رجعت إلى ما عندي من ذخيرة وزاد، ومن قوة وهمة لكي أجمع باقة من سهولها وجبالها، كي أُقدمها إلى طالبها ومبتغيها. وها هي مبسوطة في فصولها المتقدمة، وفي هذا الفصل الذي يستعرض فيه حق أهل الذمة، ووجود الحرية الدينية. بقوله: «وأما حق أهل الذمة. . .».

***

الذمة لغة (العهد)، ويعبر عنها بالأمان والضمان، ويسمى محل التزام الذمة بها، في قولهم ثبت في ذمتي كذا: أي على نفسي. فالذمة في قول الفقهاء يراد بها نفس المكلف.

وقال بعضهم: الذمة شرعاً وصف يصير به الإنسان أهلاً لما له وما عليه. وهذا

الوصف غير العقل، فإن العقل لمجرد فهم الخطاب، والعقل لا يستغني عن الذمة، وإلا لم يثبت الوجوب له وعليه. فالذمة بمنزلة السبب لكون الإنسان أهلاً للوجوب له وعليه. وأما العقل فبمنزلة الشرط. فتأتي الذمة بمعنى الأمان والعهد، يقال: فلان دخل في ذمة فلان: أي في أمانه وعهده. وبمعنى الأمانة والوفاء يقال: له في ذمتي كذا: أي علي له وفاء ذلك الشيء. وعليه قولهم: أُبرىء ذمتي من كذا: أي لا تكلفني وفاءه فأكون خالي العهد به.

وأهل الذمة عند الأمم القديمة: (كاليونان والرومان)، هم السفلة من أهل البلاد الذين يدخلون في ولاء الأشراف والبطارقة فيستظلون بكنفهم ويكونون تحت رعايتهم وحمايتهم.

وأما عند الرومانيين، فلا يخفى ذلك على من تصفح التاريخ، فإن كل عائلة قادرة كان لها عيال كثيرة من أهل الذمة تزيد قوتها بزيادتهم وتتوفر مداخيلها بأعمالهم، وكان على المولى أن يحمي الذمي ويعتني بإسعافه عند اللزوم، وكانوا يخصصون لهم منازل يسكنونها وأرضاً يشغلونها، ويدافعون عنهم في الشريعة وينوبون عنهم في فتح الدعاوى، لأن الشريعة لم تكن تجيز للذميين الدخول فيها، وكذلك كان الحال في أثينا من جهة الذميين الأجانب، لكن كان يمكنهم دخول المحكمة بوساطة أحد أهل البلد.

وأما سيادة المولى على الذمي فكانت عظيمة في رومية، فكان يمكنه أن يقاصه كما يريد، ويرث من يموت بلا عقب ويجبر من خرج عن طاعته بالرجوع إليها، وكان على الذميين معاونة الموالي في كل حال ومشاركتهم في وفاء الغرامة أو الدين أو الأمهار، وأن يفدوهم من مالهم إذا أُسروا.

وبقي الذميون مدة طويلة لا يدخلون في اللجن السياسية، ولا يتعاطون أمور الأحكام، ثم مع توالي الزمان حصلوا حقوقاً في الانتخابات وصارت لهم يد في أمور المملكة، لكن ذلك كان مقصوراً على من كانوا من الأمة. وأما الأجانب من أسرى وملتجئين ونحوهم، فكانوا يحسبون كالعبيد. ثم إن هذا الذل حملوه زماناً طويلاً تلاشى مع تقدم الأمم في سبل التمدن، ولا سيما بعد إلغاء الشريعة التي تمنعهم عن تقديم دعاويهم بأنفسهم (راجع دائرة المعارف البستانية).

وأهل الذمة عند المسلمين: المعاهدون من النصارى واليهود ممن يقيمون بدار الإسلام.

والمطلع على ما قرره الإسلام في الذميين من الرعاية وحسن المعاملة والمساواة بالمسلمين في القضاء يدهش، ويعد ذلك من المعجزات التي خص بها أهل الإسلام دون سواهم، فإن القرن السابع من الميلاد المسيحي وما بعده، إلى عهد الثورة الفرنسوية في القرن الثامن عشر، كانت كلها قروناً خيمت فيها الجهالة على أهلها. وكانت الأحقاد الدينية تغلي مراجلها في قلوب الأمم كافة حتى بين أبناء الدين الواحد في مذاهبه المختلفة. فظهور المسلمين في عصور نشوتهم بخمرة النصر مع ما شهر عنهم من الحب الكبير لدينهم بهذه المعاملة الحسنة حيال مخالفيهم في الدين يعد ولا شك، من العجائب التي لا يكفي لهذا التعجب.

أفليس من العجب أن ترى الإمام (زين العابدين) (وعلى ذكره السلام) في هذه الفقرة اللامعة، يستعرض ما رسمه الإسلام في حقهم، فينبعث قائلاً: «وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل»، فإنه بلغنا أنه قال: «من ظلم معاهداً كنت خصمه». فإنه ليس لمسلم أن يعتدي عليهم، ولا أن يسكت عن أذى يمسهم، وأن يدفع عنهم ما يدفع عن نفسه، ويحميهم ويحفظ عليهم أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وغير ذلك من مشاراتهم ومبايعتهم ومبادلتهم بالسلع والأثاث. فالإسلام حين يضع هذه الأحكام التي تخص أهل الذمة، يرجو أن تكون القوة أكبر وأكثر وأوسع، مما لو كان المسلمون بانعزال عن غير المسلمين من الناس. ثم لعل بعض أهل الذمة أن يتصلوا بالإسلام والمسلمين فيتعرفوا على مبدئهم ودينهم فيسلموا، فتضاف للمسلمين في كل يوم قوة جديدة تنمو بازدياد، فإذا هي القوة العالمية الوحيدة في الأرض.

وينهى الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ظلم الذمي كما ينهى عن ظلم المسلم، وليس هيناً من الأمر ما يدع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى أن يقول: «من ظلم معاهداً كنت خصمه» فالعهد الذي يبرم بين المسلمين وغير المسلمين ليس له انفصام ولا نقض إلا إذا نقض المعاهدون من غير المسلمين عهدهم، فحينذاك يخرجون عن ذمة الإسلام فيجب قتالهم وحربهم، ويحل للمسلمين مالهم ونفوسهم.

إن الإسلام لا يكنّ لغير المسلمين أية عداوة أو بغضاء، بل يدعو إلى التعايش السلمي والتعاون معهم في الحياة. يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ

أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[(١)].

ويقول أيضاً: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥﴾[(٢)].

وإذا قام غير المسلمين في بلد واحد مع المسلمين، فإن أهم شيء هو ضمان حرية العقيدة وإتاحة الفرصة لغير المسلمين، ليعبدوا الله في معابدهم الخاصة بهم ويقيموا شعائر دينهم، وضمان المساواة التامة بينهم وبين أبناء وطنهم من المسلمين في الحقوق والالتزامات العامة. والمسلمون يباح لهم تزوج المسيحيات أو اليهوديات، وتتمتع تلك النساء بالحقوق والواجبات التي تتمتع بها النساء المسلمات نفسها، ولهن مطلق الحرية في البقاء على دينهن وإقامة مراسيمه وشعائره.

إن الله يأمر الولد المسلم بأن يعامل أبويه بالحسنى، حتى لو كانا مشركين وحاولا جهدهما تضليله، إذ يقول: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٥﴾[(٣)].

والإسلام يعارض ـ بشدة ـ الالتجاء إلى القوة في بث دعوته أو إرغام الناس على اعتناقه، ويدعو غير المسلمين للدخول فيه، بشرح فوائده ومزاياه، منها سهولة تفهم عقيدته والتزاماته اليسيرة في الشعائر الدينية والمعاملات. ومبادئه الخلقية وما تنطوي عليه من روح التسامح وحرية البحث والتفهم العميق للوجود، وحقيقة عدم التمييز فيه بين الناس إلا بالتقوى والأعمال الصالحة. وهو يشير إلى أن ليس في الإسلام لأحد سلطة على الآخر في معتقداته، فليس لأحد حق الإتيان بدين جديد. وليس يستوجب العبادة أحد سوى الله عزَّ وجلّ.

والإسلام يبني سياسته في العلاقات بين المسلمين والآخرين من ذوي العقائد المختلفة، على أسس المعارف والألفة والتعاون والعمل في سبيل المصلحة العامة،

---

(١) سورة الكافرون.

(٢) سورة الشورى، الآية ١٥.

(٣) سورة لقمان، الآية ١٤.

وينظر إلى غير المسلمين الذين يعيشون مع جماعته بتعاون وسلام، نظرته إلى المسلمين أنفسهم، كل منهم على دينه، يدعو له بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن بلا إكراه أو ضغط على أحد، وبلا مساس بحقوق الآخرين، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(١). ولا يتطلب من غير المسلمين سوى الكف عن بغضاء المسلمين وإثارة الفتنة بينهم ومعارضتهم في طريق الحياة الإسلامية. وفي العلاقات بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية، يقف الإسلام موقف من يدعو العالم إلى الخير. ويبيح إبرام المعاهدات، والتعاون مع الدول غير الإسلامية في أوقات السلم، ما دامت تلك المعاهدات لا تعارض المبادىء الأساسية للإسلام: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢).

الإسلام لا يتحول عن علاقاته الودية مع البلدان غير الإسلامية، ما لم يكن ضحية عدوان أثيم، وما لم توضع في طريقه عقبات أو تجر محاولات لإغواء المسلمين وتضليلهم، وعندما يتعرض الإسلام لمثل هذه المحن يحل للمؤمنين صد العدوان، واستعادة الأمن والنظام وإيجاد وضع عادل يفكر الناس فيه ويعملون بحرية تامة، بل يجعل ذلك واجباً عليهم. ويحرم على المسلمين شن حرب عدوانية بواعثها روح القسوة أو الرغبة في استغلال ثروات الناس ومصادرهم أو إثارة الآلام أو تشريد شعب من بيوتهم وأوطانهم. أما إذا قامت حرب شرعية، فالإسلام يحرم استخدام الوسائل التي تؤدي إلى التخريب والتدمير أو الإبادة والإفناء، كما لا يحلل قتل المدنيين من الناس ممن لا ضلع لهم في العداوة كالنساء والأطفال والشيوخ والعجزة. ولا يبيح المشاركة في القتال ما لم يعرف الأسباب بجلاء ووضوح، وما لم يتلق العدو إنذاراً. ولا يجيز إساءة معاملة أسرى الحرب أو تعذيبهم أو قتلهم. ووضع حدٍّ للحرب الشرعية لا يستلزم أن تعتنق قوات العدو الإسلام، بل يكفي أن توقف عدوانها الأثيم وتوقع معاهدة تحفظ حقوق الناس وتحميهم من الظلم والطغيان والفتنة والتمرد.

هذه المعاملات لم تطف بمخيلة فلاسفة أوروبا إلا بعد أكثر من ألف سنة، ولما طافت بفكرهم ودونوها في كتبهم عدوها من أكبر الأصول العمرانية، وأدل دليل على

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.
(٢) سورة الممتحنة، الآيتان ٨ ـ ٩.

رقي العواطف الإنسانية، وغفلوا عن أنها في كتاب المسلمين، وقد عملوا بها قبل ألف سنة. تلك الأصول القرآنية التي أكسبت المسلمين هذه الروح العالية من التسامح مع أهل الذمة وغيرهم، أكسبتهم أدباً لا يدانيه أدب من أي فلسفة كانت، واهتدي بها إلى أكبر نواميس العمران والسعادة الاجتماعية.

أسباب منع المسلمة من الزواج بمن يخالفها في دينها:

سأل أحد الباحثين (الأميركان) أحد علماء المسلمين قائلاً: إذا كان الإسلام يشتمل على غاية التسامح، فلماذا منع المسلمة من التزوج بغير المسلم؟ فكان جوابه: إن الحياة الزوجية شركة وتعاون ومساواة بين الزوجين في جميع الحقوق العامة، وهي شركة لا تنتظم إلا إذا بنيت على المحبة الخالصة واحترام كل من الشريكين للآخر احتراماً يتناول جميع أموره، ومن أهم الأمور التي يحرص عليها الإنسان الجانب الديني فيه، وعندما أباح الإسلام للرجل المسلم أن يتزوج امرأة مسيحية أو يهودية، جعل لها كافة الحقوق الزوجية التي للمرأة المسلمة ما عدا أمراً واحداً: وهو التوارث فلا ترثه ولا يرثها. وحتى في هذا الحق، كان الإسلام منصفاً كعادته، لأنه سوّى في منع الميراث بالنسبة لكل منهما، بخلاف ما يقرره تشريع اليهود، فيما إذا تزوج رجل يهودي امرأة غير يهودية ثم ماتت فإنه يرثها، وإذا مات قبلها لا ترثه. كما دعا الإسلام الزوج المسلم إلى احترام الزوجة غير المسلمة واحترام دينها، وتركها تؤدي شعائرها في كنيستها أو بيعتها، وهذا ليس بغريب على الإسلام لأن من يؤمن به، يؤمن بصدق عيسى عليه السلام ورسالته، كما يؤمن بصدق موسى عليه السلام ورسالته، وهنا لا نجد ضرراً على الحياة الزوجية...

أما إذا تزوجت المسلمة بالمسيحي أو اليهودي، فإن الحياة الزوجية ـ التي لا تقوم إلا على الاحترام المتبادل كما ذكرنا ـ لا تستقيم، لأنها تتزوج من رجل يعاديها، لأنه يكذب رسولها ولا يؤمن به، وليس عنده من التسامح في العقيدة مثل ما عند المسلم، وهو ينظر إليها على أنها تؤمن بدين لا أساس له من الصحة، ولا شك أن هذا يؤدي إلى احتقارها ومنعها من الاستمرار في اعتناقها لدينها أو قيامها بشعائرها، وكيف تنتظم الحياة الزوجية مع هذا العداء والاحتقار...؟».

دحض بعض المعتقدات التي تؤدي للتعصب

وبعد أن وضع الإسلام الأسس التي يسير عليها المسلمون نحو مخالفيهم في دينهم، بدأ يدحض بعض الظنون والأوهام التي رانت على عقول أهل الأديان الأخرى، ونشأ عنها التعصب الجنسي المقيت حتى ادّعوا أنهم أبناء الله وشعبه المختار، وأن الجنة خاصة بهم دون غيرهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[2]. ويعلن القرآن أن الإنسانية جمعاء تشترك في التكريم من غير اختصاص بلون أو جنس أو أمة. قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[3] فليس ثمة شعب الله المختار في الإسلام، بل الإنسانية كلها الخليقة المختارة في هذه الأرض بمقتضى الإرادة الإلهية.

صور من التسامح الفعلي

إن الإسلام حافل بالدعوة إلى التسامح منذ بزغ فجره، لكن الدعوات ليست كل شيء، فكثيراً ما سمعنا دعوات لم تتحقق، لأن التطبيق العملي شيء والبيان النظري شيء آخر، أو لأن الدعاة مخادعون يبتغون التمويه والتضليل لأغراض يخفونها.

وما زال العالم يذكر مبادىء (ولسون) الأربعة عشر بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ويعلم أنه لم يتحقق منها شيء. وما زال العالم يسخر من وعود إنكلترا وأمريكا في الحرب العالمية الثانية، لأنها وعود كاذبة ذهبت مع الريح.

أما الإسلام فقد قام على التسامح قولاً وعملاً.

وإليك صوراً من تسامحه العملي:

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ١١١ ـ ١١٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

اشترطت قريش على النبي ﷺ في صلح الحديبية شروطاً قاسية، منها: أن من جاء من محمد إلى قريش لا ترده إلى محمد، ومن جاء إلى محمد بغير إذن وليه رده محمد. وقبل النبي شرطهم الجائر، لحكمة رآها، وتبرم بعض الصحابة بالشرط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد فارّاً من أذى قومه، وألح على الرسول في أن يضمه إليه. لكن الرسول سلمه لقريش وفاء بعهده، فقال أبو جندل: إنهم سيعذبونني. فقال له النبي ﷺ: اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم. ثم وفد على النبي بالمدينة أبو بصير بن عتبة بن أسيد فرده وقال له مثل ما قال لأبي جندل.

وإن سماحة الرسول وسماحة الإسلام لتتجلى حتى في الموقف المهتاج الذي تطمئن فيه النفوس إلى الانتقام، وأنت تعلم أن الأمم كانت تعامل أسراها معاملة العدو البغيض، فتقتلهم أو تبيعهم وتسخرهم في أشق الأعمال.

أما الرسول ﷺ فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة، ذلك بأن وزع الأسارى السبعين على أصحابه، وأمرهم أن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم في طعامهم. ثم استشار أصحابه في شأنهم، فأُشير عليه بقتلهم، وأُشير عليه بفدائهم، فوافق على الفداء، وجعل فداء الذين يكتبون أن يعلّم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة، وأُشير عليه أن يمثل بسهيل بن عمرو ـ أحد المحرضين على محاربة المسلمين ـ بأن ينزع ثنيتيه السفليين فلا يستطيع الخطابة، فرفض النبي عليه السلام وقال: «أُمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً»، وكذلك أطلق أسرى بني المصطلق.

ولما فتح مكة قال لقريش: ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم».
ومنع المسلمين في غزوة خيبر ـ بلد اليهود الذين نكثوا بعهدهم مع المسلمين وحرضوا العرب على غزوهم وانضموا إليهم ـ من أن يدخلوا بيتاً من بيوت اليهود إلا بإذنه، ومن أن يضربوا نساء اليهود أو يعتدوا على ثمراتهم.

وكان ﷺ يعامل أهل الكتاب بكل أنواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد، وتشغل مكاناً مشتركاً، فقد كان يغشى مجالسهم ويواسيهم في مصائبهم، ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم، وكان يقترض منهم نقوداً

ويرهنهم متاعاً. كان يفعل ذلك لا عجزاً من أصحابه عن إقراضه، فكان منهم المثرون وهم المستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم، بل كان يفعل ذلك تعليماً وإرشاداً للأمة وتثبيتاً عملياً لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم. وقد سار المسلمون على سيرة نبيهم فعاشروا غيرهم من أهل الملل والنحل الأُخرى بصفاء ووئام، فكان المسيحي واليهودي بجوار المسلم فيتزاورون ويتهادون لا يفصلهم إلا المسجد والكنيسة والبيعة. فقد روي أن غلاماً لابن عباس ذبح شاة، فقال له ابن عباس: إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي. ثم كررها حتى قال له الغلام: كم تقول هذا، فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار، حتى خشينا أنه سيورثه. فابن عباس بنص هذا الخبر كان مجاوراً ليهودي، وكان يهتم بالإهداء إليه، كما يهتم بسواه، مراعاة لحرمة الجوار، ومعنى هذا، أن الاسلام لا يفرق في مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأي مخالف آخر، فالكل في نظره سواء.

وحدث المجلسي في المجلد (التاسع من البحار) عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عليه السلام: «إن علياً عليه السلام صاحب رجلاً ذمياً، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ قال: أُريد الكوفة، فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه علي، فقال له الذمي: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال: بلى. فقال الذمي: فقد تركت الطريق. فقال: قد علمت. فقال له: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له علي: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيهة إذا فارقه. وكذلك أمرنا نبينا. فقال له: هكذا؟ قال: نعم. فقال له الذمي: لا جرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أُشهدك أني على دينك، فرجع الذمي مع علي وقد أسلم».

فإذا ما سايرنا الفتوح الإسلامية بعد ذلك وجدنا الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين، وتنضم إليهم أحياناً، لتنجو من عسف الفرس والروم، ولتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية.

ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أملت، وسرعان ما دان أكثرها بالإسلام عن رغبة واختيار، وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلاً للإسلام، وأهلها دعاته وحملة لوائه.

أ ـ فقد كتب المسيحيون في الشام إلى أبي عبيدة ـ وهو معسكر في فحل ـ يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى

لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا. (فتوح الشام للأزدي البصري ص ٩٧).

وجاء في (الأخبار النصرانية) شهادة تؤيد مدى التسامح الإسلامي، وهي شهادة (عيشويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ ـ ٦٥٧ هـ إذ كتب يقول: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا».

ويقول (سير. ت د. أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله ص ٥١: «ومن هذه الأمثلة التي قدمناها عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح».

ويقول أيضاً قبل ذلك في ص ٤٨: «ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم...».

وهذه شهادة أُخرى على تسامح الإسلام من الأستاذ (متز) إذ يقول: «إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى، أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأُخرى غير الإسلام، وليست كذلك الثانية، وأن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة، وكأنها لا تكون جزءاً من المملكة معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا في القرون الوسطى، كان اليهودي أو النصراني حراً أن يدين بدينه، ولكنه إن أسلم ثم ارتد عوقب بالقتل». (عن كتاب متز (نهضة الإسلام) ترجمة خدابخش عن الألمانية).

وهذه شهادة أخيرة على تسامح الإسلام من عالم كبير، وهو الأستاذ (شكري

فرادحي) فقد نشر كتاباً بالفرنسية سماه (إيجاد وممارسة القانون الدولي الخاص في بلاد الإسلام) تكلم فيه عن حالة الأجانب في بلاد المسلمين، متتبعاً في بحثه أدوار التأريخ، فأفاض، يفصل الأطوار التي دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ثم على عهد الدولة التركية، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب في بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح، لا يوجد ما يقابله في معاملة الدول الغربية، ثم لما تقرر نظام الامتيازات في بلاد المسلمين بإلحاح الدول الغربية، وهو النظام الذي جعلوه مشابهاً لنظام الأقليات العنصرية في العهد الراهن ظهر جلياً أمر لم يكن منتظراً، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه من حالتهم على عهد الدولة الإسلامية، فاتضح أن عاطفة التسامح الإسلامي كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التي يتمتعون بها الآن.

هذه شهادة بعض العلماء في التسامح الإسلامي، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في الأمم قديماً وحديثاً.

فالتسامح الإسلامي الديني الذي شرعه الإسلام، يعتبر من أقوى الأدلة على أنه وحي إلهي لا عمل إنساني، وإلا فأنى للأمم في عهد اعتزازها بقومياتها وأديانها أن تتغلب على أهواء نفوسها، فتقوم على نظام من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قروناً طويلة، وبعد أن بلغت العلوم شأواً لم يكن يتخيله الأقدمون في أيامهم الأولى.

ب ـ وكانت في الشمال قبائل عربية دانت بالمسيحية (زمناً طويلاً)، فلما بدأ الإسلام يصطرع مع الروم سارع بعضها إلى اعتناقه، والانضمام إلى المسلمين مثل بني غسان.

ج ـ وكذلك صنعت بعض القبائل العربية التي كانت موالية للفرس، فقد وفد على قائد المسلمين بعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ كثير من العرب المسيحيين المقيمين على ضفاف الفرات، وأسلموا كما أسلم إخوان لهم من قبل.

وفي موقعة الجسر سنة ١٣ هـ، كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة، وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسي، وإذا بزعيم مسيحي من قبيلة طيىء ينضم إلى المثنى القائد المسلم، ويساعده في النجاة والارتداد المنظم.

ثم لما استرد المسلمون قواهم، وهجموا تدفقت عليهم من كل فج جموع من

العرب، منها قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل النفوذ البيزنطي وهكذا تتكرر الأمثال. (انتشار الإسلام، ٤٧ ـ ٤٩).

د ـ وكذلك رحب القبط بالفتح الإسلامي، ولقوا من عمرو أعظم التسامح، لأنه أنقذهم من الاضطهاد الديني، ومن عسف الروم وتنكيلهم بمخالفيهم في المذاهب، فقد قست في التنكيل بهم قسوة لم ينسها أعقابهم حتى اليوم، فقد كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم، وقتل منهم نحو مائتي ألف في مدينة الاسكندرية بأمر من الإمبراطور (جستنيان).

والتاريخ يذكر أن اضطهاد (جستنيان) وخلفاؤه لقبط مصر، حمل كثيراً منهم على الالتجاء إلى الصحراء للاحتماء بها، كما تبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى فراراً من التنكيل، واضطر عدد كبير إلى إخفاء عقيدتهم الحقيقية.

فليس عجيباً أن يرحبوا بعمرو بن العاص، وليس عجيباً أن يحقق لهم الحرية الدينية، ولم يحدث في عهده ولا من بعده ضغط على أحدهم ليرتد عن دينه، بل إن بعضهم أسلم قبل أن يتم الفتح». (انتشار الإسلام) تأليف أرنولد ص ٩٢.

وما زال التاريخ يقص علينا أن عمراً كتب بيده عهداً لهم ـ بعد استيلائه على حصن (بابليون) ـ بحماية كنيستهم، ولعن أي مسلم يخرجهم منها. وكتب أماناً للبطريق بنيامين، ورده إلى كرسيه، بعد أن تغيب عنه ثلاثة عشر عاماً، وأمر باستقباله بالحفاوة عندما سار إلى الاسكندرية. ولما لقي عمراً بها خطب أمامه وشكره، واقترح عليه عدة أمور تحفظ الكنيسة، فتقبلها عمرو وخوله السلطة التامة على القبط، وعلى شؤون الكنيسة.

هـ ـ ولما فتح المسلمون بلاد الفرس لم يلقوا من الشعب مقاومة عنيفة، لأن حكامه كانوا قد استبدوا به وأعنتوه، ولأنهم كانوا يناصرون ديانة (زرادشت) التي صارت الدين الرسمي للدولة، وقد كانت من قبل بغيضة إلى الأهليين ومنذ صارت الزرادشتية دين الدولة علا مكان كهنتها، واستغلوا نفوذهم في اضطهاد الفرق الدينية الأخرى وكانت كثيرة. على أن المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم لم يسلموا من هذا الاضطهاد.

ثم إن الشعب كان ينوء بالضرائب الباهظة، والنظام الطبقي الجائر، والحكم الفردي الفاسد.

لهذا لم يكد يتم للمسلمين النصر حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بهم حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إعفائهم من الخدمة ثانياً، وأملاً في تمتعهم بالحرية الدينية ثالثاً، (انتشار الإسلام) ص ١٧٩، (أرنولد).

ولم يخب أمل الفرس في عدالة المسلمين وسماحتهم، لأنهم عاملوا بالتسامح من بقي من الفرس على دينه، وكفلوا لهم حريتهم في عبادتهم ومعابدهم. يدل على ذلك أن أحد قواد الخليفة المعتصم أمر بجلد إمام ومؤذن، لأنهما اشتركا في هدم معبد من معابد المجوس، لتستخدم أحجاره في بناء مسجد مكانه.

ويدل على ذلك أيضاً، أن معابد النار في القرن العاشر الميلادي ـ بعد الفتح بثلاثة قرون ـ كانت تملأ العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وأذربيجان، حتى إنه لم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار. (مروج الذهب) ولا شك أن بقاء معابد النار بهذه الكثرة، بعد الفتح الإسلامي دليل على أن المسلمين لم يجبروا أحداً على دينهم، ودليل على أن الذين أسلموا من الفرس إنما أسلموا عن رغبة صادقة وحرية في الاختيار، بعد أن وازنوا بين دينهم القديم وبين الإسلام.

و ـ ثم فتح المسلمون إسبانيا، فأنجدوا سكانها من العسف والمذلة، لأن القوط كانوا هم حكامها وسادتها، فإنهم لما دخلوا فاتحين طردوا منها الوندال والروم، واستقلوا بها منذ سنة ٤٨٤ م، وبقيت في قبضتهم أكثر من مائتي عام. وكان حكمهم فاسداً بغيضاً إلى الشعب، لأنهم ـ على الرغم من تنصرهم ـ ترفعوا عن السكان الأصليين، وعاشوا وحدهم في أبراج من العاج، فكانوا هم الطبقة العليا، واستأثروا بالضياع الواسعة، وحرموا المصاهرة إلى الأهلين.

أما الشعب فكان طائفتين: الطائفة الأولى: هم أرقاء المزارع والعبيد، وكان هؤلاء ملكاً لسادتهم، لا يحميهم قانون ولا عرف من التعذيب أو القتل، وكان أرقاء الأرض ملزمين بالإقامة فيها وزرعها، فإذا انتقلت من مالك إلى مالك انتقلت إليه ملكية أرقائها، ولم يكن من حقهم أن يتزوجوا إلا برضا السادة.

أما الطائفة الثانية: فهي الطبقة المتوسطة، وقوامها الأحرار من سكان المدن، وقد لاقى هؤلاء من التضييق والإرهاق مثل ما لاقى العبيد، لأن أثقال الضرائب التي كان يتطلبها السادة للإنفاق على شهواتهم وترفهم، كانت على عواتقهم. ثم إن رجال الدين خيبوا الآمال المعلقة عليهم في نصرة الضعفاء، لأنهم استغلوا تنصر القوط وانضمامهم إلى الكنيسة، واستبدوا بشؤون الحكم وبشؤون الدين، وتنافسوا في إحراز

الثروات، وامتلاك الضياع الواسعة، وأعفوها من الضرائب، كما أعفى الأشراف ضياعهم، ولم يكونوا أرحم بأرقاء أرضهم من السادة الأشراف.

وحينما أحسوا بقوتهم هيمنوا على سياسة الدولة، وعلا نفوذهم على نفوذ الأشراف. ثم دفعهم التعصب إلى اضطهاد اليهود، وإجبارهم على التنصر، وخيرهم الملوك بين اثنتين: أن يتنصروا أو ينفوا وتصادر أملاكهم، فاضطر كثير منهم إلى التنصر رياء لا عقيدة. وقد ظهر أثر هذا الرياء في تآمرهم مع يهود بلاد العرب، وعزمهم على الثورة قبل الفتح الإسلامي بسبع عشرة سنة، فلما عرفت الدولة مؤامرتهم سنة ٦٩٤ م سلبتهم أملاكهم وضمتها إلى الملك، وقضت بأن يمتلكهم ويهبهم عبيداً لمن شاء، وأن يربي أبناءهم على النصرانية، وألا تتزوج يهودية إلا بنصراني. لهذا رحب اليهود وسكان البلاد، بالعرب الفاتحين لأنهم سيخلصونهم مما حل بهم.

وأيضاً، لم يكن اختلاف الدين في نظر الإسلام، مانعاً للذميين من أن يوظفوا في الدولة.

فقد اصطنع عمر بن الخطاب بعض أسارى قيسارية كتّاباً له، ووظفهم في الدولة. (فتوح البلدان للبلاذري).

وإذا كان قد رفض أن يوظف مسيحياً من أهل الحيرة (كما في عيون الأخبار)، لابن قتيبة ج٢ ـ ٤٣، فإن ذلك لم يكن لاختلاف الدين، وإنما كان لأنه لم يطمئن إليه كما اطمأن إلى غيره، ولا تثريب عليه في هذا الرفض، لأنه كان يرفض تولية المسلم إذا توجس منه ظلماً للناس أو خيانة للمال، كما صنع ذلك مع أبي هريرة فعزله عن ولاية البحرين وعلاه بالدرة.

كذلك اتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانياً. (عيون الأخبار لابن قتيبة).

ثم توسع معاوية في إلحاق النصارى بخدمته، وحاكاه آخرون من البيت الأموي، فكان لمعاوية طبيب نصراني هو ابن أثال، وقد كافأه معاوية بوضع الخراج عنه، وولاه خراج حمص. (تاريخ الطبري ٦ ـ ١٢٨).

وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل شاعر البلاط، ومثل يوحنا الدمشقي مستشار عبد الملك بن مروان. ثم اختار عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس مؤدباً لأخيه عبد العزيز (انتشار الإسلام، أرنولد).

ولما عين عبد العزيز والياً على مصر رافقه أستاذه، وجمع من مصر ثروة عظيمة جداً. (انتشار الإسلام أرنولد).

وقد ظل كتّاب الدواوين حتى زمن عبد الملك بن مروان من غير المسلمين، فكان كاتب الخراج في الشام سورياً، وفي إيران فارسياً، وفي مصر قبطياً، وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة في مصر من النصارى. (خطط المقريزي ج١ ص ٩٨).

ثم استمر هذا التسامح يتمشى مع العصور، فإن (جورجيس بن جبريل) رئيس أطباء جند يسابور عالج الخليفة المنصور، وعرض عليه الخليفة أن يسلم، فرد عليه بقوله: أنا على دين آبائي أموت، وحيث يكون آبائي أُحب أن أكون إما في الجنة وإما في جهنم. (طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة)، (وانتشار الإسلام)، فلم ينكر المنصور عليه، ولم يبعده عن مكانته. وكان في خدمة المعتصم أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عنده، أحدهما يسمى سلمويه والآخر يدعى إبراهيم، وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تنفذ إلا بعد توقيعه عليها. أما إبراهيم فكان حافظاً لخاتم الخليفة، وأميناً على خزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر أن يوكل الإشراف على هذه الأموال لرجل من المسلمين. وقد ذكر السير توماس (أرنولد)، أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين في الدويلات الإسلامية، وأسماء الأطباء المسيحيين المقربين إلى الخلفاء، ثم قال: إن المسيحيين أحرزوا ثروات، وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الإسلام الأولى، بفضل ما كفل الإسلام لهم من حرية الحياة والملك والعقيدة، حتى لقد كان منهم من أرباب النفوذ في قصور الخلفاء. (انتشار الإسلام).

لكن بعض الموظفين من أهل الكتاب استغلوا تقريب الخلفاء لهم، واستغلوا وظائفهم استغلالاً أحنق عليهم بعض المسلمين، فلم يكن اختلاف الدين هو الباعث على الحنق، لأن هذا الاستغلال لو كان من مسلم لأحنق المسلمين وحسبنا شهادة (الكونت هنري دي كاستري) في قوله: وكان بغض المسلمين لهؤلاء نتيجة في الغالب لجورهم في الأحكام، لا لمخالفتهم في الدين. (الإسلام خواطر وسوانح)، لم يفرق الإسلام بين المسلم والذمي في المعاملات العامة. لأن الجميع سواسية أمام القانون، لا تفضيل ولا محاباة، حتى وإن كان أحد الخصمين مسلماً رفيع المكانة، والآخر يهودياً أو مسيحياً.

فقد شكا يهودي علي بن أبي طالب للخليفة عمر، فقال عمر لعلي عليه السلام : قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك. ففعل علي عليه السلام وعلى وجهه علامة التأثير فلما فصل عمر في القضية قال لعلي عليه السلام : أكرهت يا علي أن تساوي خصمك؟ قال: لا، لكني تألمت لأنك ناديتني بكنيتي، فلم تسوِّ بيننا ـ ومعلوم أن الكنية للتعظيم ـ فخشيت أن يظن اليهودي أن العدل ضاع بين المسلمين.

فهل سجل التاريخ أو عرف الناس سماحة في العدالة، ودقة في المساواة، إلى هذا الحد؟

وتنازع الأمير العباسي إبراهيم بن المهدي، هو وبختيشوع الطبيب بين يدي القاضي أحمد بن أبي دؤاد، فزرى إبراهيم على بختيشوع وأغلظ له، فأحفظ ذلك القاضي، فقال: يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم، فلا ترفع عليه صوتك، ولا تشر إليه بيدك، وليكن قصدك أمماً، وطريقك نهجاً، وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً. ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم... فقال الأمير إبراهيم: أمرت بسداد وحضضت على رشاد، ولست بعائد إلى ما يثلم مروءتي عندك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك يمحو زلتي ولم يتلف مال أفاد موعظة.

أية عظمة هذه؟ القاضي يسوي بين الأمير المسلم ابن الخليفة المهدي، وعم الخليفة المأمون، وبين طبيب نصراني من موظفي الدولة، والأمير، سرعان ما يستجيب لنصح القاضي، ويندم على ما فرط منه من الغلظة والتعالي، ثم يتنازل عن العقار الذي كانا يتنازعان عليه، لا لأنه حق للطبيب، بل ليعالج بمنحه للطبيب زلته معه.

شبهة وردها:

ربما يجد الباحث بعض التضييق في فترات متقطعة من التاريخ، فيحسب أن هذا التضييق على الذميين منبعث عن تعصب أو عن بغضاء، لكن إذا دقق النظر لا يلبث أن يجده عارضاً طارئاً لأسباب اقتضته.

أ ـ فإذا كان خالد بن الوليد، قد اشترط على أهل الذمة ألا يلبسوا زي الحرب، واشترط أبو عبيدة بن الجراح على أهل الشام ألا يلبسوا السلاح، في يوم عيدهم، فلقد كانت الحكمة في هذا، أن يتجنب الذميون المظاهر التي قد تثير الشحناء والبغضاء؛ ولا تتفق مع المسالمة.

ب ـ وإذا كان خالد قد اشترط على أهل الحيرة ألا يتشبهوا في زيهم بالمسلمين، فإن هذا الشرط لم يكن عن ترفع المسلمين عليهم، أو زرايتهم بهم لأن أهل الذمة كانوا أحراراً في اختيار ملابس أُخرى غير ملابس المسلمين، وإن كانت أغلى وأنفس، وإنما كان الغرض أن يكون لكل طائفة طابعها المميز، وخصوصاً في أول العهد بالإسلام، واختلاط المسلمين بغيرهم، حتى يكون في هذا التمايز أمان من الفتنة والاضطراب وزلزلة الأمن.

ج ـ وقد أقصي الذميون عن الوظائف العامة في عهد المنصور والمتوكل والمقتدر وقليل ممن بعدهم، لكن هذا الإقصاء لم يكن عن تعصب ديني: ذلك بأن تجدد هذه المراسيم دليل قاطع على أنها لم تنفذ دائماً، وإلا فلماذا تجدد؟ «ثم إن الباعث على إقصائهم كان ناشئاً عن السخط على سلوكهم الخشن في وظائفهم. وربما كان سورة من التعصب تنافي روح الإسلام ومعاملة الخلفاء الأولين، على أن هذه الأعمال التعسفية قد زالت في أسرع وقت» (انتشار الإسلام).

موازنات وشهادات

أما وقد تجلت سماحة الإسلام والمسلمين في معاملة مخالفيهم في العقيدة فإنا نريد أن نزيدها جلاء، وأن نزيد النفوس بها إعجاباً، إذ نوازن بين هذه السماحة التي كانت من طبائع الإسلام، وبين القسوة التي استمرأها غيره.

ـ ١ ـ

لم تجر اليهودية على سماحة في معاملة خصومها. فقد جاء في العهد القديم: «حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها إلى الصلح، فإن أجابتك وفتحت لك فكل من فيها مسخر لك ومستعبد. وإن لم تسالمك وحاربتك فحاصرها، فإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فهو غنيمة لك. وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هذه الأمم التي هنا. وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما، بل أهلكها إهلاكاً». (سفر التثنية). «ولقد قتل بنو لاوي ثلاثة آلاف رجل من شعب إسرائيل جزاء لهم على عبادة العجل» (سفر الخروج). «وأرسل موسى اثني عشر ألف رجل لمحاربة أهل مدين فحاربوهم، وانتصروا عليهم، وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوك، وسبوا نساءهم وأولادهم. ولما رجعوا غضب عليهم موسى، لأنهم

استبقوا النساء والأطفال. ثم أمر بقتل كل طفل ذكر، وكل امرأة ثيب، وأبقى الأبكار، وكان عددهن ٣٢ ألفاً(سفر العدد). «وكان داود يقاتل أعداءه، ولا يبقي ذكراً ولا أنثى ولا طفلاً» (صمويل الأول). وكان أحياناً يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل، «وأخرج الشعب الذي فيها ـ قرية فلسطين ـ ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد، وأمرّهم في آتون الآجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمرون» (صمويل الثاني).

ـ ٢ ـ

لما اعتنق بعض المصريين النصرانية، نكلت بهم الدولة الرومانية الوثنية وطاردهم الوثنيون من الشعب، حتى لقد سالت دماؤهم بشوارع الاسكندرية سنة ٢٠٢ م. وفي سنة ٣٠٤ نكل الأمبراطور (دقلديانوس) بالقبط، فنفى بعضهم من مصر، ورمى بعضهم للوحوش الضارية في حلقة الألعاب على مشهد من النظارة الوثنيين، وما زال القبط يذكرون هذا العصر ويسمونه عصر الشهداء ويتخذونه مبدأ لتقويمهم الخاص، ويبدؤونه بحكم دقلدس سنة ٢٨٤ م.

على أن هذا الاضطهاد لم تنفرد به الدولة، فقد ذبحت سيدة كريمة مثقفة تمكنت من نفسها الأفلاطونية الحديثة، وأخذت تذيعها في الناس، وتعارض العقائد المسيحية، ذبحها في أحد شوارع الاسكندرية، على مرأى ومسمع من الناس، مسيحي منحه التاريخ لقب قديس، ويرجح المؤرخون أن الذي أوعز إليه بقتلها بطريق الاسكندر (كيرولص) (الذي عين سنة ٤١٢ م)، وكان معروفاً بالقسوة والغلو في اضطهاد مخالفي المسيحية، ولا سيما اليهود الذين كانت معابدهم تهاجم بالقوة المسلحة، وكانت أموالهم وديارهم عرضة دائماً للسلب والنهب. (الإسلام ظهوره وانتشاره).

وكان المفروض أن يستريح القبط من هذا الإعنات الوحشي، إذا ما صارت المسيحية دين الدولة الرسمي، لكنهم اصطلوا في العهد المسيحي للدولة بمثل ما كانوا يصطلون به في عهدها الوثني. ذلك بأن كنيسة بيزنطة كانت صاحبة مذهب سمي بالمذهب الملكي، وهو قائم على أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية، وكانت كنيسة الإسكندرية تدعو إلى مذهب آخر أساسه أن للمسيح طبيعة واحدة. وجهدت الدولة البيزنطية في أن تفرض مذهبها الملكي، وأصر القبط على مذهبهم، فنكلت بهم الدولة تنكيلاً، كأنما حق على القبط أن ينصب عليهم طغيان الدولة وهي وثنية لاختلاف الدين، وأن ينصب عليهم طغيانها وهي مسيحية لاختلاف المذهب في الدين الواحد.

بعض ما احتملوا في العهد المسيحي للدولة من عذاب أليم. فقد أمر الامبراطور فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) بعزل المصريين من الحكومة، وإجبارهم على طاعة الكنيسة الرسمية في القسطنطينية. ولم يكونوا في عهد خلفه هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) أسعد حالاً، ولا أهدأ بالاً، لأن النزاع بينهم وبين الأمبراطورية كان على أشده، وتبادل الفريقان تهمة الكفر والخيانة، وكانت أيسر تهمة لمخالفي مذهب الأمبراطور، أنهم وثنيون خونة.

فلم يكن عجباً أن رحب القبط بالمسلمين الفاتحين، ولا غرابة في قول المؤرخ المسيحي (ميخائيل السوري): إن الله المنتقم الجبار، أتى بأبناء إسماعيل من الصحراء لينقذوا الأمم من عسف الروم ومن عسف الرومان.

ـ ٣ ـ

ولقد لقي سكان الأمبراطورية البيزنطية مثل ما لقي سكان مصر من عسف الامبراطور (جستنيان) الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) فقد كان شديد القسوة في معاملة من يدينون بمذهب الكنيسة الملكانية. ويمكن تلخيص آرائه عن الحكومة في هذه العبارة الموجزة: حكومة واحدة، وقانون واحد، وكنيسة واحدة. وعلى الرغم من أن مخالفي مذهبي الكنيسة الرسمية كانوا يؤدون ما يؤديه المواطنون من ضرائب وواجبات، فقد حرم عليهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها أتباع الكنيسة الرسمية، وحرم عليهم الاشتغال بالمهن الحرة، بل أمر بهدم كنائسهم وحظر عليهم الاجتماعات العامة، وأمر بألا تقبل شهادتهم القانونية على الأرثوذكس، وبأن تصير وصاياهم باطلة، وبألا يرثوا ولو كان الميراث بوصية اختيارية (الامبراطورية البيزنطية)، واستحال النظام الكنسي إلى عسف ثقيل ظالم على رجال الكنيسة العامة، حتى لقد انفجرت ثورة سنة ٥٣٢ م على الدولة وعلى الكنيسة معاً، ولم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألفاً. وبسبب هذا العسف وضع جماعة المتذمرين احتجاجاً قوياً في ناديهم على اضطهاد الامبراطور، ونادوا قائلين: لقد فقد العدل من الدنيا ولن يعود. أما نحن فستنهود، بل سوف نعود إلى الوثنية الإغريقية. (انتشار الإسلام).

ـ ٤ ـ

كذلك نكلت الدولة الرومانية باليهود، فهدمت هيكل سليمان وطردتهم من بيت المقدس، وطاردتهم في البلاد الخاضعة لها، وأجبرتهم على عبادة الامبراطور قبل أن تعتنق الدولة المسيحية، ثم أكرهتهم على المسيحية بعد ذلك. وحسبنا أن نذكر ما حل بهم قبيل الفتح الإسلامي لمصر، فقد طردهم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠م) من

وظائف الدولة بالإسكندرية، وأمر بتعميدهم كرهاً، وبأن يقتل من يرفض التعميد. ثم جاء من بعده الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م)، وكان اليهود قد أسهموا في نصره عليه والحرب دائرة بينهما، وترقبوا أن يكافئهم بتركهم أحراراً في دينهم، فإذا هو أنكى وأقسى على اليهود من سلفه، فقد نكث بعهده الذي أعطاهم، وقتل منهم خلقاً كثيرا جداً بمصر والشام حتى لم يبق منهم إلا من نجاه الفرار أو الاختفاء.

ـ ٥ ـ

لما فتح المسلمون الأندلس أعفوا من الجزية غير القادرين عليها، ووكلوا جمعها إلى موظفين من النصارى. وسلك المسلمون مسلكاً نبيلاً في تصريف الشؤون هناك. واستمتع بالحرية النصارى واليهود.

أ ـ أما النصارى، فقد ظلوا أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية، وبنوا عدة أديار جديدة، ولم تكن المناصب المسيحية سبباً في حرمان بعض المسيحيين من أن يتولى المناصب العالية في قصور الملوك أو في الجيش، لذلك اندمج المسيحيون بالمسلمين، وتسمى كثير منهم بأسماء عربية، وحاكوا المسلمين في كثير من عاداتهم وأعمالهم، فاختتن كثير منهم، وتعلموا اللغة العربية، ودرسوا العلوم الإسلامية. ولما هاجر بعض المسيحيين إلى فرنسا، ليعيشوا في ظلال حكم مسيحي لم يصيروا أحسن حالاً من إخوانهم النصارى بالأندلس.

وإن الفرق في الحرية الدينية ليتضح من الموازنة بين الحرية والسماحة في ظلال الحكم الإسلامي، وبين العسف والاضطهاد قبله، فقد فتح المسلمون الأندلس في الوقت الذي كان فيه المذهب الكاثوليكي قد انتصر على المذهب الآريوسي، وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قراراً يقضي على كل الملوك، بأن يقسموا أنهم لا يسمحون بانتشار مذهب آخر غير الكاثوليكي، وأن يقاوموا بالقوة من يخرج عليه، ثم صدر قانون آخر يحرم على كل شخص أن يشك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وبذلك عظم نفوذ رجال الدين في شؤون السياسة والملك والدين.

وليس أدل على تسامح الإسلام والمسلمين من أنهم احتملوا بصدر رحب تحرش المسيحيين بالإسلام، وطعنهم في النبي ﷺ، ذلك أن القسس والرهبان ـ حينما كان عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين، ولا يشكون من حكم العرب ـ هيجوا بعض المسيحيين على المسلمين والإسلام، فاندفعوا إلى الطعن فيه وفي نبيّه جهراً، وفي المحاكم على مسمع من القضاة، وتخيل بعض المتهوسين أن

قتلهم أو تعذيبهم على هذا زلفى إلى الله، واستمر الهوس من سنة ٥٨١ إلى ٨٥٩ م.

وكان القضاة المسلمون يحكمون عليهم آناً، ويصمون آذانهم حتى لا يسمعوهم فيحكموا عليهم أحياناً، وكان المسلمون مشفقين على هؤلاء المجانين الذين لا يقابلون الحسنى بمثلها، ولا يرعون حرمة الإسلام، كما يرعى المسلمون حرمة المسيحية. (الإسلام، الكونت هنري دي كاستري).

ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الإسلام حتى بلغ نهر اللوار في فرنسا، ويتساءلون عن مصير أوروبا لو لم يقف شارل مارقل في وجه المسلمين في سهل بواتييه. والحق أن السؤال معكوس، إذ الأولى أن يتساءلوا: ماذا كان مصير أوروبا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين لدينهم؟ ذلك أن هزيمة المسلمين في بواتييه ليست سبباً فعالاً في تعويق الإسلام عن الانتشار، ولم تكن هزيمة واحدة في الحرب، لتنتج هذه النتيجة الكبرى، فالعادة أن الحرب سجال وكثيراً ما جبرت الهزيمة بنصر مؤزر، وإنما السبب الأول في ذلك «هو تطرف المسلمين في المحاسنة، لأنها سهلت العصيان للعصاة، ومهدت لبعض الأسر المستقلة في المغرب الخروج على الجامعة في بلاد الأندلس وبلاد المغرب، وانتهى الأمر ـ مع المحاسنة ـ إلى انحلال عناصر المملكة العربية. ومن المرجح أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين، كما عامل المسيحيون الأمم السكسكونية و (الواندية) لأخلدت إلى الإسلام واستقرت عليه لأنها كانت ـ مع تمتعها بحرية دينها المسيحي ـ كثيرة الانشقاق والأحزاب» (الإسلام. الكونت هنري دي كاستري).

ب ـ وأما اليهود فقد كانوا قبل الفتح الإسلامي يرزحون تحت عسف القوط، وظلوا على ذلك زمناً طويلاً، إلى أن دخل المسلمون الأندلس، فخلصوهم من هذا الاضطهاد، وسمحوا لهم بحرية التجارة التي كانت محظورة عليهم من قبل، وأباحوا لهم أن يمتلكوا، بعد أن كانت الملكية محرمة عليهم، ولهذا نهضوا واشتهر منهم كثير بالعلم والأدب بعد أن استنشقوا نسيم الحرية. ولما اضطهدت أوروبا اليهود لجؤوا إلى المسلمين بالأندلس في قرطبة، على أنه لما دخل الملك (كارلوس) سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين. ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً، إلا أعملوا سيوفهم في يهودها ومسلميها.

وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأً في الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى اليوم فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم، لا إلى ما بين الاثنين

من وحدة في الأصل والجنس واللغة والدين، كما ادعاه (أفيديكور شايكين). (الإسلام خواطر وسوانح).

ج ـ وكان بالأندلس طبقة العبيد ورقيق الأرض، وقد رحبوا بالعرب الفاتحين ليخلصوهم من قيود سادتهم القوط؛ ثم اعتنق كثير منهم الإسلام، واستمتعوا في ظلال الحكم الإسلامي بحقوق مدنية كانت محظورة عليهم، فصاروا يزرعون الأرض لحسابهم، ويؤدون عنها خراجاً للدولة. ولم يحدث أن أرغمت الدولة أحداً على أن يسلم.

ـ ٦ ـ

منذ أن صار النساطرة رعية للمسلمين نهضوا بدينهم، ونشطوا في نشره، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الهند والصين، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي، وفي العصر نفسه رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا. ولما كانت الطوائف المسيحية الأُخرى، قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي، فليس المسلمون هم المسؤولين عن هذا الاخفاق، إذ كانت الحكومة الإسلامية تعامل الطوائف كلها على حد سواء، وكانت تحمي بعضهم من اضطهاد بعض. (انتشار الإسلام).

ـ ٧ ـ

في مستهل العصر الحديث حاقت بجماعات الهيجونوت في فرنسا، كوارث من إخوانهم الكاثوليك، وفي زمن هنري الثامن انفصلت الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما، واقترن هذا الانفصال بأشد أنواع القسوة والنضال والاضطهاد لفرض المذهب الجديد، حق لقد ذاقت إنكلترا النار والمشنقة من جراء التطاحن الديني المذهبي. (أهل الذمة في الإسلام، تريتون).

وفي سنة ١٦٢٠، هاجر من انكلترا إلى أميركا جماعة من البيوريتان الانجليز فراراً من الاضطهاد الديني، وأقاموا هنالك جمهورية حرة، أول أساس في دستورها حرية العقيدة، ثم لحق بهم أشباه لهم. وكانت هذه الطائفة ـ البيوريتان ـ طائفة متطرفة من البروتستانت، وكانت ثائرة على نظام الحكم في إنكلترا وثائرة على الكنيسة، وتعتقد أن المسيحية دين ودولة، والمثل الأعلى للبشرية هو إقامة ثيواقراطية (حكومة الله)، وهي حكومة ليس فيها كهنوت، ولا ملوك، ولا قانون إلا ما جاء بالتوراة والإنجيل، (دراسات في الأدب الأميركي).

يهمنا من هؤلاء المهاجرين الفارين بعقيدتهم، أنهم بعد أن اصطلوا بنار العسف والاضطهاد الديني، أسسوا دستور جمهوريتهم الصغيرة على حرية العقيدة الدينية، وأباحوا لكل عضو أن ينتقد ما لا يروقه، لكنهم لم يلبثوا أن نسوا ما عقدوا العزم عليه، فجعلوا مذهبهم الدين الأوحد. وحاربوا مخالفيهم من أتباع المذاهب الأُخرى، أو ممن ليس لهم مذهب معين يلتزمونه.

بل لقد بلغ من عنتهم أنهم في سنة ١٦٩٢ م أعدموا أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة من مخالفيهم في الدين، وسجنوا مئات منهم بتهمة السحر.

ـ ٨ ـ

كان اعتناق دين يخالف الكنيسة الأرثوذكسية محرماً في القانون الروسي، إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥ م.

ومن النتائج التي أنتجها هذا المرسوم، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام من سكان القوفاز، من طوائف الأنجاز الذين قضوا زمناً طويلاً يدينون بالمسيحية اسماً، وقد بلغ من ضخامة عددهم أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد خشوهم أشد الخشية، فألفوا جماعات لتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي. (انتشار الإسلام أرنولد).

ـ ٩ ـ

شهد البطريق (عيشويابه) الذي تولى منصبه سنة ٦٤٧ ـ ٦٥٧ هـ، بأن «العرب الذي مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، يمدحون ملتنا، ويوقرون قديسنا وقسيسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وديننا». (أهل الذمة في الاسلام، تريتون).

ـ ١٠ ـ

وذكر القس ميشون في كتابه (سياحة دينية في الشرق): أنه من المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وحسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم. (محمد رسول الله).

ـ ١١ ـ

قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية: لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً، ولكن لما استولى عليها المسيحيون قتلوا المسلمين

ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقاً. وقال (الجرميشون): مما يؤسف له أن المسلمين هم الذين كانوا يبدؤون المسيحيين بالمسالمة وحسن المعاملة، مع أن المسالمة هي منبع الخير بين الأمم بعضها وبعض. (الإسلام الكونت هنري كاستري).

ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ، أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مسايرة ولطف مجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذ ذاك، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت مماراة ضعف عند الأوروبيين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها. (الإسلام خواطر وسوانح).

-١٢-

قال (السير توماس أرنولد):

لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق، أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على التسامح. (الدعوة إلى الإسلام توماس أرنولد).

-١٣-

قال (الكونت هنري دي كاستري):

وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمساً، بين مسيحيي الشرق على الإطلاق، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحي، بل بقيت روما نفسها حرة في المراسلات مع الأساقفة، الذين كانوا يرعون الأمة الحالية. وفي سنة ١٠٥٣ م كتب (البابا ليون) التاسع إلى مسيحيي إفريقيا يوصيهم باعتبار أسقف قرطاجنة مطراناً عاماً بينهم.

وكان الوئام مستحكماً بين المسلمين والمسيحيين، حتى إن (غريغوريوس) السابع، كتب إلى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام المسلمين، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٠٧٣ م. على أن الإسلام لم يكن له عمال يختصون بالدعوة إليه وتعاليم مبادئه كما في الديانة المسيحية، فقد شاهدنا الملك (شارلمان) يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان، ليباشروا فتح الضمائر والقلوب، بعد

أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الأمم، حرباً تجعل الولدان شيباً. لكنا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينياً ولا رسلاً وأحباراً وراء الجيوش، ولا رهبنة بعد الفتح، فلم يكره أحداً على الإسلام بالسيف ولا باللسان، نعم قد اعتنق الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم، لكنهم قلة بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح، وكان ذلك من أسهل الأمور، لبساطة الدين، وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين، ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الأندلس، حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها، أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمان.

ثم ينقل عن (دوزي) قوله:

لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير، وكم من أندلسي بقي على دينه، ولكن أعجبته طلاوة التمدن العربي، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين.

وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها، لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود لجؤوا إلى خلفاء الأندلس في قرطبة، لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة، أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين. ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ في الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين لا إلى ما بين الاثنين من الجامعة في الأصل والجنس واللغة والدين، كما ادعى (أفيديكور شايكين)، (الإسلام الكونت هنري دي كاستري).

ويقرر في موضع آخر، أن حكام المسلمين احترموا مدينة بنارس، لأنها مقدسة عند الهنود البراهمة. ويرى أن اتهام الإسلام بأنه انتشر بالقوة خطأ، والصواب أن يقال: «إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم، كانا من أسباب سقوط المملكة العربية» (المرجع السابق).

- ١٤ -

وإذن فقد تبين لنا أن سماحة الإسلام وتسامح المسلمين من العوامل القوية الفعالة في انتصارهم السريع، وفتحهم الخاطف، إذ لم يجدوا مقاومة عنيفة من الشعوب.

وهذه إحدى العلل التي غفل عنها نابليون حينما علل لانتشار الإسلام، وذهب إلى أن وراء هذا التعليل سراً لا يعلمه، في قوله: إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب، فلا بد أن يكون من وراء انتشار الإسلام سر لا نعلمه، وأسباب مجهولة مكّنته من الانتصار السريع على المسيحية، وربما كانت العلة المجهولة، أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى، قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة طويلة، تكونت في أثنائها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماسة غلابة، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل. (مذكرات سانت هيلين عن محمد رسول الله).

سماحة الإسلام في الجزية

لم يكن بد من صراع دموي ينشب بين الدولة الإسلامية الناشئة وخصومها من المقيمين في الجزيرة العربية، ومن المقيمين حولها، لأسباب لا يعنينا تفصيلها في هذا المقام، وحسبنا أن نجملها في أنها كانت في عهد النبي ﷺ مواقف دفاعية لحماية العقيدة، أو لحماية الذين دانوا بها، ثم صارت فيما بعد كذلك، أو حركة سياسية اقتضاها الملك الناشىء الوثاب.

وقد اتسم الفتح الإسلامي بالعدل والسماحة، إذ فتح المسلمون أقطاراً عدة في المشرق والمغرب، ولم يعرف في تاريخهم الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى، أو أنهم أجبروا أحداً على الإسلام. وقصارى ما كانوا يعملون حينما يتم لهم الفتح أن يخيروا سكان البلد المفتوح بين أمرين: إما الإسلام، وإما البقاء على دينهم على أن يدفعوا الجزية للدولة، فالجزية إذاً نتيجة من نتائج الحرب وأثر من آثارها، وليست دافعاً إلى الحرب ولا هدفاً من أهدافها.

قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

صَٰغِرُونَ﴾[١]. ومعنى هذا، أن المسلمين مأمورون بقتال أعدائهم إذا حدث منهم ما يوجب قتالهم، كأن يعتدوا على ديار المسلمين، أو على أشخاصهم أو أموالهم، أو يدبروا المؤامرات لتهديد سلامتهم وتعويق دعوتهم وفتنتهم عن دينهم، والمسلمون مكلفون أن يقاتلوا هؤلاء الأعداء حتى يأمنوا شرهم، ولا سبيل إلى هذا إلا بالغلب وفرض الجزية.

وفي الآية الكريمة تقييد لهذه الجزية، بأن تكون عن مقدرة من الدافعين بحيث لا يظلمون ولا يرهقون، وبأن يكون الغرض منها الاقرار بالخضوع.

إن المتدبر في المقاصد العامة الإسلامية، لا يشك في أن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم وانهماكهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من أقوياء الأمم. وإنما غرض الدين في ذلك أن يظهر دين الحق وسنة العدل وكلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق، فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى، فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتى لا ينجر إلى أن تجذب هذه إلى جانب، وتلك إلى جانب، فيتشوش أمر النظام الإنساني، إلا أن لا يرتضي واحد أو جماعة التربية الاسلامية لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحرارا فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم الخاصة على شرط أن يكونوا على شيء من دين التوحيد، وهو اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر على غيره.

ما الجزية؟

الجزية: هي عطية مالية مأخوذة منهم، مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم، ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها، حقة أو باطلة.

والمراد بالصغار في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٢] هو الخضوع للسنة الإسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الإسلامي، فلا يكافئوا

(١) سورة التوبة، الآية ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٩.

المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بث ما تهواه أنفسهم، وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنساني، مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان.

وهذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين، أو أولياء الحكومة الدينية، فإن هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الإسلامي.

ممن تؤخذ؟

تؤخذ من كل كافر، سواء أكان كتابياً أم غير كتابي، عربياً أم غير عربي. وهذا هو الأوفق، لأن الجزية إن لم تقبل من غير الكتابي والمجوسي، أدى رفضها إلى إجباره على الإسلام، لكن الإسلام لا إجبار فيه. قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[1].

وسبب آخر أن المجوس ـ على أن لهم شبهة كتاب ـ يعبدون النار، فهم في الواقع كفار، وقبولها من سائر الكفار مثل قبولها من المجوس. والتاريخ يحدثنا بأن الرسول والخلفاء بعده، لم يفرقوا بين العرب والعجم في الجزية، فقد أخذوها من نصارى العرب، وأخذوها من مجوس هجر ـ وهم عرب ـ وأخذوها من يهود اليمن.

أما السبب في أن الإسلام لم يقبل الجزية من العرب المشركين، كما قبلها من أهل الكتاب، فيرجع إلى أن أهل الكتاب كانت عقائدهم أدنى إلى الحق والصواب من عقائد المشركين، ففي كتبهم المنزلة ما يكفل صلاحهم إن اهتدوا به، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[3]. أما العرب فكانوا وثنيين، والإسلام لا يقر الوثنية، لأنها لا يرتجى منها خير، ثم إن مشركي العرب تمادوا في عدائهم للمسلمين، ولم يرعوا في عدائهم رحماً ولا مروءة، على أنهم قبائل متنازعة متناحرة، والإسلام يريد أن ينشىء منهم أمة قوية متماسكة، فلو أنه قبل منهم الجزية لعاشوا على نظامهم القبلي، فلا وحدة لهم و لا قوة. ولا نستطيع أن نتناسى أنهم أشد

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٦.

الناس اختلاطاً بالمسلمين ومعرفة بأحوالهم، فهم أقدرهم على مباغتة المسلمين وتمهيد السبيل لحربهم والمظاهرة عليهم، فالسيف أجدى في معاملتهم، وإذاً فالحكمة تقضي بمحاربتهم حتى يسلموا، وهم المقصودون بالناس في قوله ﷺ: «وُأمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا قبلوا مني ذلك عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الله، وحسابهم على الله». فالمراد بالناس هنا مشركو العرب، لأن غيرهم من أهل الكتاب والمشركين يقاتلون حتى يؤدوا الجزية أو يسلموا.

بقي شيء آخر، أن الجزية كانت قد فرضت في السنة الثامنة للهجرة بعد غزوة تبوك، وفي هذا الوقت كان النبي قد فتح مكة، وكان عرب الجزيرة قد أسلموا ولم يبق فيهم مشرك يعلن إشراكه حتى تؤخذ منه الجزية.

ولم يأخذ النبي ﷺ الجزية من يهود خيبر، لأنه كان قد صالحهم على أن يقرهم في أرضهم ليزرعوها مناصفة قبل غزوة تبوك بثلاث سنين. ولم تكن الجزية قد نزلت بعد، فمعاهدة صلحهم وإقرارهم في أرضهم كانت سابقة على فرض الجزية.

فيم تنفق؟

هذه الجزية التي يجمعها الحاكم، ويشفع إليها الخراج والعشور ـ كما نبين ـ أين يذهب بها؟ وكيف يتصرف فيها؟

أيحتكرها لنفسه؟

أيختص بها ذوي قرباه؟

أيقصر النفع بها على المسلمين وحدهم؟

لا، إنما ينفق الخراج في المصالح العامة للدولة، ويدخل في هذا إصلاح حال المسلمين، وأرزاق الموظفين والولاة والقضاة وأهل الفتوى من العلماء ورجال الجيش، وتعبيد الطرق وعمارة المساجد والرباطات والقناطر والجسور وإصلاح الأنهار.. وما إليها. ومن هنا نعلم، أن المرافق العامة ينتفع بها المسلمون وغيرهم، على أن أهل الذمة كانوا ينتفعون أيضاً بهذا المال انتفاعاً لا يدخل في نطاق المرافق العامة. فقد كتب والي العراق إلى عمر بن عبد العزيز، يخبره أنه قد اجتمعت عنده أموال عظيمة، فأمره أن يوسع بها على المسلمين وذراريهم، فكتب إليه أنه قد فعل وما

تزال الأموال كثيرة، فأمره أن يزوج أبكار النساء أبكار الرجال. فكتب إليه أنه قد فعل، وبقي مال فكتب إليه أن يقوي أهل الذمة على العمارة، ويجعله سلفاً عليهم.

مظاهر العدالة والسماحة في فرض الجزية وجبايتها:

كثيراً ما ردد المغرضون والمتحذلقون، أن الجزية إذلال وقهر، وعدوان على الملك والمال. ونسي هؤلاء أو تناسوا، أن الإسلام راعى في فرض الجزية وفي جمعها، ما يتفق مع سموه من عدالة ورحمة وسماحة.

- ١ -

فقد كانت الجزية يسيرة صغيرة لا إرهاق فيها، وأي إرهاق في أن يدفع الفرد الغني في كل عام ٤٨ درهماً والمتوسط ٣٤ درهماً، والفقير ١٢ درهماً. وهذا هو القدر الذي استقر عليه التشريع بعد اتساع الفتوح. أما قبل ذلك في عهد النبي ﷺ، فإن الجزية لم تكن محددة المقدار، بل كان تقديرها متروكاً لهما حسب مقدرة المهزومين وحالهم والتراضي معهم. فالنبي أخذ الجزية من يهود بنجران وبالبحرين وبغيرهما، وأخذها من نصارى أيلة ثلاثمائة دينار في كل سنة، وأن يضيفوا من يمر بهم من المسلمين ثلاثاً، وألا يغشوا مسلماً. وأخذها كذلك من نصارى اليمن ديناراً من كل بالغ، وصالح نصارى نجران على ألفي حلة في صفر وألفين في رجب، ومع كل حلة أوقية من الفضة، وأن عليهم ثلاثين درعاً، وثلاثين قرشاً، وثلاثين بعيراً، إن كان باليمن حرب، وأمنهم على بيعهم وقسسهم ودينهم ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا، وفرض على كل بالغ بالبحرين من الذميين ديناراً.

وكانت الجزية في أي بلد مفتوح ديناراً واحداً عن كل بالغ كاسب، كما كان الحال في الشام إلا في قليل من البلدان، إذ كان يزاد على الدينار جريب حنطة. فلما اتسعت الفتوح في عهد عمر حدد قيمتها، ثم تغيرت القيمة فقدرت حسب مقدرة الدافعين، فكانت في السنة على الغني ٤٨ درهماً، وعلى متوسط الحال ٣٤ درهماً، وعلى الفقير الكاسب ١٢ درهماً ـ أي إن الغني كان يدفع في العام دينارين اثنين.

وفي مصر، فرض عمرو بن العاص دينارين في كل سنة، على كل رجل من أهل الذمة، واستثنى من ذلك الشيوخ والنساء والصبيان.

هل أسلم القبط فراراً من الجزية؟

وفي هذا المقام، لا بد من تفنيد ما زعمه بعض المؤرخين، أن قبط مصر دخل كثير منهم في الإسلام فراراً من قسوة الجزية، وهذا زعم مبعثه تعصبهم على الإسلام من ناحية، واستكبارهم أن يعترفوا بأن المسلمين الفاتحين لم يرغموا أحداً على اعتناق دينهم من ناحية ثانية، فراحوا يدّعون أن المسلمين كانوا يخافون من تناقص ما يجبون من جزية، ويخشون أن تضيق خزانة الأموال الحكومية عن أعطيات الجند والعمال، فأرهقوا القبط بما فرضوا عليهم من مال.

وفي تعليلهم مغالطة تجافي الحق والواقع، لأن الضريبة التي فرضها المسلمون على القبط كانت دينارين في السنة عن كل رجل قادر، وكان يعفى منها العاجزون والشيوخ والنساء والصبيان. وهذا قدر ضئيل بالقياس إلى ما احتمل القبط من إعنات الرومان وجشعهم.

أما إسلام كثير من القبط فلا ننكره، وإنما نرده إلى معرفتهم بسوء الحالة الدينية، وإلى اضطهاد الرومان لهم، يقول المؤرخ القبطي (يوحنا النخيوي): إن المسيحيين الملكيين أسرعوا إلى الدخول في الإسلام، لأنهم كرهوا أن يدينوا في أحكام ونظم زواجهم وطلاقهم للكنيسة التي تعاديهم ويعادونها.

ويشبه الطائفة الملكية أناس في حكمها كالطائفة النسطورية والآرية ومن يقول بالمشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة، كما يقول القبط، ولا بالطبيعتين على النحو الذي يدين به الملكيون[1] فالذين أسلموا من قبط مصر بعد الفتح إنما أسلموا طوعاً، غير مكروهين على ترك مذهب أو نحلة. وهم على رواية يوحنا النخيوي طائفة الملكيين الخلقيدونيين، ومن يشابهها من الطوائف التي لا تقول بالطبيعة الواحدة، ويضاف إليهم أناس من الذين فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم أنه آية إلهية، وبرهان من السماء على صحة الدين الإسلامي وسلامة الدعوة، ويضاف إليهم كثير ممن هان عليهم دينهم في محنة الشقاق ومحنة الأخلاق، فلم يبالوا على أي دين أصبحوا بعد الشك والريبة، ثم فضلوا الدين الذي يعتنقه ولاة الأمر وحكام البلاد.

---

(١) والأصل في هذا، أن السادة الحاكمين كانوا يقبلون الخلط بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الإلهية على صورة من الصور. والرعايا الساخطون على السيطرة الأجنبية كانوا ينفرون من قبول الخلط بين الطبيعة الإنسانسة والإلّهية، ويرفضون جواز الصفة الإلّهية على الآدميين. وكان القبط أشد الأمم إنكاراً للقول بالطبيعتين.

- ٢ -

ولقد أعفى الإسلام من الجزية غير القادرين على دفعها، وهم طوائف عدة:

(١) المساكين والأرقاء، لأنهم لا يملكون شيئاً.

(٢) الشيوخ والنساء وذوو العاهات كالمقعدين والعمي، لأنهم عاجزون عن العمل والاكتساب.

(٣) الصبيان والمجانين لأنهم غير مكلفين.

(٤) الرهبان، لأنهم منقطعون للعبادة. وإذاً فالذين يؤدون الجزية، هم الرجال الأحرار العقلاء القادرون على العمل والكسب. وهؤلاء هم في الحقيقة القادرون على الحرب والجندية، ولو أنهم كانوا من المسلمين لوجب عليهم الجهاد، دفاعاً عن العقيدة، أو صيانة للأرواح والأموال، أو حماية للدولة من العدوان.

- ٣ -

وليس أدل على عدالة الجزية من أنها في مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين، لأنها ركن من أركان الإسلام. فالمسلم يؤدي الزكاة عن نقوده بنسبة معينة، وعن الغلات الأربع بنسبة أُخرى بينتها كتب القانون الإسلامي. أما الذمي، فلا زكاة عليه في نقده، ولا في ماشيته ولا في متاجره.

وكانت الحكومة تجبي الزكاة من المسلمين، كما تجبي الحكومات الضرائب هذه الأيام، فالتاريخ يحدثنا أن الرسول كان له عمال لجباية الزكاة، وكان من بعده عمال.

وقد عثر على أوراق بردية بمصر، تثبت أن ولاتها كانوا يجبون الزكاة من المسلمين، ويسلمون لهم صكوكاً تثبت أنهم أدوا ما عليهم من زكاة، وبعض هذه الصكوك يرجع إلى سنة ١٤٨ هـ. وهذه الزكاة محدودة المصارف بنص القرآن الكريم: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾[1]، وطبيعي أن تنفق الزكاة على المسلمين، وعلى المنافع العامة كإعداد الجيش، والانفاق على الغزاة والمحاربين الذين يدفعون عن الدولة ما يدبر لها من كيد. وهذا معنى أن الزكاة التي تجبى من المسلمين وحدهم، تنفق في بعض شؤون الدولة العامة نفعاً للمسلمين والذميين، وتنفق على طوائف خاصة من المسلمين ومن الذميين. ومعناه أيضاً أن المسلمين ساهموا وحدهم بأموالهم، فيما

(١) سورة التوبة، الآية ٦٠.

لم يقتصر نفعه عليهم. وليس هذا من العدل في شيء.

إنما العدل أن يساهم أهل الذمة ـ وهم أعضاء في الدولة ـ بشيء من مالهم إذ إنهم لا يزكون عن ماشيتهم من إبل وبقر وغنم، ولا عن نقودهم.

فكيف يساهمون؟

يجب عليهم أن يقدموا من مالهم مقداراً معيناً، لقاء ما يقدم المسلمون. ويجب عليهم أن يقدموا بعض مالهم، لقاء إعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن. ويجب عليهم أن يساهموا في نفقات الدولة، نظير المنافع الكثيرة التي تكفلها لهم.

نعم لأن الدولة تحميهم وتصون أموالهم، وتؤمنهم من الغزو في البلاد الإسلامية التي يقيمون فيها، وهي ترعى مصالحهم العامة بعمالها وولاتها. وتعفيهم من الجندية والدفاع إذا نشبت الحرب. ثم هي تجمع الخراج فتنفق منه على المرافق العامة لتحصين الحدود وبناء القناطر وشق الترع، وعلى مرتبات القضاء والعلماء والجنود والعمال، فمن العدل أن يتحمل المسلمون والذميون هذه النفقات.

وبحسب المسلمين أنهم ينفردون بالزكاة، وهي ليست ثابتة القدر كالجزية، وإنما تقدر بحسب ما تؤدى عليه، وتتزايد صعوداً بحسب المال، وبحسبهم أنهم ينفردون أيضاً، بدفع الصدقة على وجه الندب والتطوع والثواب.

فمن العدل أن يتحمل الذميون نصيبهم في نفقات الدولة، وهذا النصيب هو الجزية، وإذاً فالجزية من غير المسلم بمثابة الزكاة من المسلم، ليستوي الفريقان في الواجب العام تساويهما في الانتفاع بمرافق الدولة.

وليس أدل على أن الجزية في مقابل خدمات عامة، كالدفاع عن الوطن وحماية الأرواح والأموال، من أن الذمي إذا أسلم سقطت عنه الجزية، وكلف الخدمة العسكرية. لهذا أخذ أبو عبيدة بن الجراح الجزية من المدن التي فتحها بالشام؛ فلما علم أن الروم تزحف لحربه رد الجزية إلى أصحابها، لأنه سيشغل بحرب الروم، ولا يستطيع أن يكفل الحماية للمدن التي أخذ منها الجزية. (فتوح البلدان للبلاذري).

وكان عمله هذا مثار إعجاب السكان وتقديرهم لسماحته التي لم يروا من قبل مثلها، فأعانوا المسلمين على الروم وآزروهم. وكذلك فعل خالد بن الوليد إذ عاهد (صلوبا بن نسطونا) وقومه على الجزية والمنعة، فما دام يحميهم فله الجزية وإلا فلا. (الطبري).

وجاء هذا المعنى نفسه في المعاهدة التي أبرمها خالد مع بعض المدن المجاورة للحيرة. وجاء في الشرط الذي اشترطه أهل الحيرة على المسلمين، وهو أن يدفعوا الجزية ما حماهم المسلمون من بغي الفرس وغيرهم. (الطبري).

وكذلك كان لأهل جرحان وأذربيجان وبعض جهات من فارس، أن يساعدوا المسلمين في الحرب بدلاً من الجزية، أما الذين لا يشتركون في الحرب فعليهم الجزية.

من الأدلة على أنها في مقابل الحماية والمنفعة أن قبيلة الجراجمة ـ وهي مسيحية تقيم بجوار أنطاكية ـ سالمت المسلمين، وتعهدت أن تعينهم في الحرب على أن تعفى من الجزية وتنال نصيبها من الغنائم. (فتوح البلدان للبلاذري).

وفي سنة ٢٢ هـ أبرم المسلمون مثل هذا الحلف مع إحدى البلاد المقيمة على حدود فارس من الشمال. فأعفوها من الجزية على أن تقاتل معهم في مغازيهم. (الطبري).

ـ ٤ ـ

ومن مظاهر الرحمة والسماحة، أن الإسلام أسقط الجزية عن الذمي إذا مات قبل أن يؤديها، فلا تستوفى من تركته كما يستوفى الدين، وأسقطها عنه إذا أسلم، كذلك أسقط الإسلام الجزية عن الذمي إذا افتقر، فقد مر عمر برجل يسأل في الطريق، فقال له: ما الذي ألجأك إلى هذا؟ فقال: الجزية والسن والحاجة، قال عمر: من أي قوم أنت؟ قال: من اليهود فأخذه عمر إلى منزله وأعطاه وأسقط عنه الجزية، وكتب إلى عامله: انظر هذا وضرباءه فليس من العدل أن نأكل شبيبته، ثم نخذله عند الهرم.

ـ ٥ ـ

ولا يستطيع باحث أن ينكر سماحة المسلمين ورحمتهم في جمع الجزية، فتاريخهم الصادق يشهد أنهم كانوا يحسنون معاملة الدافعين، وينظرونهم إلى ميسرة ولا يرهقونهم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ظلم معاهداً، أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه يوم القيامة».

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستعجله في إرسال الخراج، ويلومه على التباطؤ في وقت يعلم فيه حاجة المسلمين بالحجاز إلى الزاد والمال، فرد

عليه عمرو بأن أهل مصر استنظروه حتى تنضج غلاتهم، ولو أعجلهم لاضطروا إلى بيع ما لا يستغنون عنه، فقبل عمر هذا العذر وأقره. وقد جرى الخلفاء على أن لا يعذب أحد من أهل الذمة في طلب الجزية، ولا يقام في الشمس، ولا يؤذى في بدنه بشيء، بل يرفق به ويحبس حتى يؤدي ما عليه. وقد استعمل أمير المؤمنين علي عليه السلام، رجلاً من ثقيف على بزرج سابور (بينها وبين بغداد عشرة فراسخ)، فقال له: لا تضربن سوطاً في جباية درهم، ولا تبيعن لهم رزقاً، ولا كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم. قال الثقفي: يا أمير المؤمنين، إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك. قال الإمام علي عليه السلام: وإن رجعت كما ذهبت، ويحك، إنا أُمرنا أن نأخذ منهم العفو (يعني الفضل).

شهود عدل:

لم يبق شك في أن الإسلام عامل أهل الذمة بالحسنى، وأظلهم بسماحته ورحمته، بعد أن أحرقتهم مظالم الأمم السابقة.

وإنا لنجد إقراراً بهذا من الغربيين المنصفين، وهم في إقرارهم بفضل الإسلام ورحمته لم يتأثروا بعاطفة، أو يجاروا هوى.

١ ـ قال العلامة مونتسكيو في كتابه (أصول الشرائع):

إن الجزية التي فرضها الإسلام كانت من أسباب سهولة الفتح، لأن الشعوب التي كانت تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي فرضها جشع الأباطرة، آثرت أن ترضى بأداء جزية خفيفة يمكن تسديدها بسهولة وتسلمها بسهولة، ووجدت نفسها سعيدة بأن تدين لأمة متبربرة ـ يقصد المسلمين ـ تعاملها على هذه الصورة، خيراً لها من أن تدين لحكومة فاسدة مستبدة، لا يشعر الناس في حكمها إلا بويلات من العبودية.

٢ ـ قال الكونت هنري دي كاستري:

لقد كان استبداد الرومان من أسباب انتشار الإسلام، وخضوع الناس لسلطانه في آسيا وإفريقيا، لأن الحكم كان قد انحدر إلى العسف والجور، فلما جاء الإسلام ترامى الناس إليه، هرباً من الضرائب الفادحة واغتصاب الأموال. (الإسلام خواطر وسوانح).

لقد تم الفراغ ـ والحمد لله وله المنة ـ من تأليف هذا الكتاب وتبييضه في السنة السادسة والثمانين بعد الثلاثمائة والألف هجرية في النجف الأشرف بلد علي عليه السلام ومهجر العلم على يد مؤلفه الراجي عفو ربه حسن السيد علي القبانجي النجفي

الفهرس

الموضوع | الصفحة




اعتمدنا في نقل أصل هذه الرسالة على رئيس المحدثين الشيخ الصدوق في كتابه من لا يحضره الفقيه، وهو من علماء القرن الرابع الهجري.

وعلى الشيخ الفقيه المحدث رضي الدين الطبرسي من علماء القرن الخامس الهجري في كتابه مكارم الأخلاق..





السيد
حسن القبانجي
٢
مؤسسة
الأعلمي